٢٣١-٢

الميزان في تفسير القرآن

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

قدس سره

التاسع

منشورات

جماعة المدرسين في الحوزة العلمية

في قم المقدسة

شبكة الفكر
alfeker.net

الميزان

في

تفسير القرآن

١٨

الميزان

في

تفسير القرآن

كتاب علمي فني ، فلسفي ، أدبي ،
تاريخي ، روائي ، اجتماعي ، حديث
يفسر القرآن بالقرآن

تاليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

قدس سره

المجلد الثامن عشر

منشورات

جماعة المدرسين في الحوزة العلمية

في قم المقدسة

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف
قدس سره

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة الشورى مكية وهي ثلاث وخمسون آية)

بِسمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ . حم ـ ١. عسق ـ ٢. كَذٰلِكَ يُوحى إِلَيكَ وَإِلَى الَّذينَ مِنْ قَبلِكَ اللهُ الْعَزيزُ الْحَكيمُ ـ ٣. لَهُ ما فِى السَّمٰوٰاتِ وَما فِى الْأَرضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظيمُ ـ ٤. تَكادُ السَّمٰوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوقِهِنَّ وَالْمَلٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَستَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ ـ ٥. وَالَّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللهُ حَفيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنتَ عَلَيهِمْ بِوَكيلٍ ـ ٦.

﴿ بيان ﴾

تتكلم السورة حول الوحي الذي هو نوع تكليم من الله سبحانه لأنبيائه ورسله كما يدل عليه ما في مفتتحها من قوله: « كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله » الآية، وما في مختتمها من قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا الخ » الآيات ، ورجوع الكلام إليه مرة بعد اخرى في قوله : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً » الآية ، وقوله :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » الآية ، وقوله : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » الآية وما يتكرر في السورة من حديث الرزق على ما سيجيء .

فالوحي هو الموضوع الذي يجرى عليه الكلام في السورة وما فيها من التعرض لآيات التوحيد وصفات المؤمنين والكفار وما يستقبل كلا من الفريقين في معـــادهم ورجوعهم إلى الله سبحانه مقصود بالقصد الثاني وكلام جره كلام .

والسورة مكية وقد استثنى قوله : « والذين استجابوا لربهم » إلى تمام ثلاث آيات ، وقوله : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » إلى تمام أربع آيات وسيجيء الكلام فيها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « حم عسق » من الحروف المقطعة الواقعة في أوائل عـــدة من السور القرآنية ، وذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد في غيره من الكتب السماوية .

وقد اختلف المفسرون من القدماء والمتأخرين في تفسيرها وقد نقل عنهم الطبرسي في مجمع البيان أحد عشر قولاً في معناها :

أحدها : أنها من المتشابهات التي استأثر الله سبحانه بعلمها لا يعلم تأويلها إلا هو .

الثاني : أن كلا منها اسم للسورة التي وقعت في مفتتحها .

الثالث : أنها أسماء القرآن أي لمجموعه .

الرابع : أن المراد بها الدلالة على أسماء الله تعالى فقوله : « ألم » معناه أنا الله أعلم ، وقوله : « المر » معناه أنا الله أعلم وأرى ، وقوله : « المص » معناه أنا الله أعلم وأفصل ، وقوله : « كهيعص » الكاف من الكافي ، والهاء من الهادي ، والياء من الحكيم ، والعين من العليم ، والصاد من الصادق ، وهو مروي عن ابن عباس ، والحروف المأخوذة من الأسماء مختلفة في أخذهــا فمنها ما هو مأخوذ من أول الاسم كالكاف من الكافي ، ومنها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم ، ومنها ما هو مأخوذ من آخر الكلمة كالميم من أعلم .

الخامس: أنها أسماء لله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم تقول: الر ¯ وحم ¯ ون ¯ يكون الرحمن وكذلك سائرها إلا أنا لا نقدر على تأليفها وهو مروى عن سعيد بن جبير .

السادس : أنها أقسام أقسم الله بها فكأنه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن كلامه

وهي شريفة لكونها مباني كتبه المنزلة ، وأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، واصول لغات الامم على اختلافها .

السابع : أنها إشارات إلى آلائه تعالى وبلائه ومدة الأقوام وأعمارهم وآجالهم .

الثامن : أن المراد بها الإشارة إلى بقاء هذه الامة على ما يدل عليه حساب الجمل .

التاسع : أن المراد بها حروف المعجم وقد استغنى بذكرما ذكرمنها عن ذكرالباقي كما يقال : اب ويراد به جميع الحروف .

العاشر : أنها تسكيت للكفار لأن المشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن وأن يلغوا فيه كما حكاه القرآن عنهم بقوله : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » الآية ، فربما صفروا وربما صفقوا وربما غلطوا فيه ليغلطوا النبي ﷺ في تلاوته ، فأنزل الله تعالى هـذه الحروف فكانوا إذا سمعوها استغربوها واستمعوا إليها وتفكروا فيها واشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن في مسامعهم .

الحادي عشر : أنها من قبيل تعداد حروف التهجي والمراد بها أن هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في خطبكم وكلامكم فإذا لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من عند الله تعالى ، وإنما كررت الحروف في مواضع استظهاراً في الحجة ، وهو مروي عن قطرب واختاره أبو مسلم الإصبهاني وإليه يميل جمع من المتأخرين .

فهذه أحد عشر قولاً وفيما نقل عنهم ما يمكن أن يجعل قولاً آخر كما نقل عن ابن عباس في « الم » أن الألف اشارة إلى الله واللام إلى جبريل والميم إلى محمد ﷺ ، وما عن بعضهم أن الحروف المقطعة في أوائل السور المفتتحة بها إشارة إلى الغرض المبين فيها كأن يقال : إن « ن » إشارة إلى ما تشتمل عليه السورة من النصر الموعود للنبي ﷺ ، و « ق » إشارة إلى القرآن أو القهر الإلهي المذكور في السورة ، وما عن بعضهم أن هذه الحروف للإيقاظ .

والحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا تطمئن إليه النفس :

أما القول الأول فقد تقدم في بحث المحكم والمتشابه في أوائل الجزء الثالث من الكتاب

أنه أحد الأقوال في معنى المتشابه ، وعرفت أن الإحكام والتشابه من صفات الآيات التي لها دلالة لفظية على مداليلها ، وأن التأويل ليس من قبيل المداليل اللفظية بل التأويلات حقائق واقعية تنبعث من مضامين البيانات القرآنية أعم من محكماتها ومتشابهاتها ، وعلى هذا فلا هذه الحروف المقطعة متشابهات ولا معانيها المراد بها تأويلات لها .

وأما الأقوال العشرة الاخر فإنما هي تصويرات لا تتعدى حد الاحتمال ولا دليل يدل على شيء منها .

نعم في بعض الروايات المنسوبة إلى النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام بعض التأييد للقول الرابع والسابع والثامن والعاشر وسيأتي نقلها والكلام في مفادها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى .

والذى لا ينبغي أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت في سور شتى وهي تسع وعشرون سورة افتتح بعضها بحرف واحد وهي ص و ق و ن ، وبعضها بحرفين وهي سور طه وطس ويس وحم . وبعضها بثلاثة أحرف كما في سورتي « الم » و « الر » وطسم وبعضها بأربعة أحرف كما في سورتي « المص » و « المر » وبعضها بخمسة أحرف كما في سورتي « كهيعص » و « حمعسق » .

وتختلف هذه الحروف أيضاً من حيث إن بعضها لم يقع إلا في موضع واحد مثل «ن» وبعضها واقعة في مفتتح عدة من السور مثل « الم » و « الر » و « طس » و « حم » .

ثم إنك إن تدبرت بعض التدبر في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات والراآت والطواسين والحواميم ، وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين وتناسب السياقات ما ليس بينها وبين غيرها من السور .

ويؤكد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ كما في مفتتح الحواميم من قوله : « تنزيل الكتاب من الله » أو ما هو في معناه ، وما في مفتتح الراآت من قوله : « تلك آيات الكتاب » أو ما هو في معناه ، ونظير ذلك واقع في مفتتح الطواسين ، وما في مفتتح الميمات من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه .

ويمكن أن يحدس من ذلك أن بين هذ الحروف المقطعة وبين مضامين السور المفتتحة

بها ارتباطاً خاصاً ، ويؤيد ذلك ما نجـد أن سورة الأعراف المصدرة بالمص في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين الميمات وص ، و كذا سورة الرعد المصدرة بالمر في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين الميمات والرا آت .

ويستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه وبين رسوله ﷺ خفية عنا لا سبيل لأفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها وبين المضامين المودعة في السور ارتباطاً خاصاً .

ولعل المتدبر لو تدبر في مشتركات هـذه الحروف وقايس مضامين السور التي وقعت فيها بعضها إلى بعض تبين له الأمر أزيد من ذلك .

ولعل هذا معنى ما روته أهل السنة عن علي عليه‌السلام – على ما في المجمع – أن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي .

قوله تعالى : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم – إلى قوله – العلي العظيم » مقتضى كون غرض السورة بيـــان الوحي بتعريف حقيقته والإشارة إلى غايته وآثاره أن تكون الإشاره بقوله : « كذلك » إلى شخص الوحي بإلقاء هذه السورة إلى النبي ﷺ فيكون تعريفاً لمطلق الوحي بتشبيه بفرد مشار إليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا في تعريف الإنسان مثلاً هو كزيد .

وعليه يكون قوله : « إليك وإلى الذين من قبلك » في معنى إليكم جميعاً ، وإنما عبر بما عبرللدلالة على أن الوحي سنة إلهية جارية غير مبتدعة ، والمعنى أن الوحي الذي نوحيه إليكم معشر الأنبياء – نبياً بعد نبي سنة جارية – هو كهذا الذي تجده وتشاهده في تلقي هذه السورة .

وقد أخذ جمهور المفسرين قوله : « كذلك » إشارة إلى الوحي لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليـــه من المفاد فيكون في الحقيقة إشارة إلى المعارف التي تشتمل عليها السورة وتتضمنها واستنتجوا من ذلك أن مضمون السورة ممـا أوحاه الله تعالى إلى جميع الأنبياء فهو من الوحي المشترك فيه ، وقد عرفت أنه لا يوافق غرض السورة ويأباه سياق آياتها .

وقوله : « العزيز الحكيم له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم » خمسة من أسمائه الحسنى ، وقوله : « له ما في السماوات وما في الأرض » في معنى المالك ، وهو واقع موقع التعليل لأصل الوحي ولكونه سنة إلهية جارية فالذي يعطيه الوحي شرع إلهي فيه هداية الناس إلى سعادة حياتهم في الدنيا والآخرة وليس المانع أن يمنعه تعالى عن ذلك لأنه عزيز غير مغلوب فيما يريد ، ولا هو تعالى يهمل أمر هداية عباده لأنه حكيم متقن في أفعاله ومن إتقان الفعل أن يساق إلى غايته .

ومن حقه تعالى أن يتصرف فيهم وفي امورهم كيف يشاء ، لأنه مالكهم وله أن يعبدهم ويستعبدهم بالأمر والنهي لأنه علي عظيم فلكل من الأسماء الخمسة حظه من التعليل، وينتج بمجموعها أنه وليهم من كل جهة لا ولي غيره .

قوله تعالى : « تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن » الخ التفطر التشقق من الفطر بمعنى الشق .

الذي يهدي إليه السياق والكلام مسرود لبيان حقيقة الوحي وغايته وآثاره أن يكون المراد من تفطر السماوات من فوقهن تفطرها بسبب الوحي النازل من عند الله العلي العظيم المار بهن سماء سماء حتى ينزل على الأرض فإن مبدأ الوحي هو الله سبحانه والسماوات طرائق إلى الأرض قال تعالى : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » المؤمنون : ١٧ .

والوجه في تقييد « يتفطرن » بقوله : « من فوقهن » ظاهر فإن الوحي ينزل عليهن من فوقهن من عند من له العلو المطلق والعظمة المطلقة فلو تفطرن كان ذلك من فوقهن .

على ما فيه من إعظام أمر الوحي وإعلائه فإنه كلام العلي العظيم فلكونه كلام ذي العظمة المطلقة تكاد السماوات يتفطرن بنزوله ولكونه كلاماً نازلاً من عند ذي العلو المطلق يتفطرن من فوقهن لو تفطرن .

فالآية في إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله ومروره على السماوات نظيرة قوله : « حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » سبأ : ٢٣ في إعظامه من حيث تلقي ملائكة السماوات إياه ، ونظيرة قوله : « لو أنزلنا هذا القرآن

على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » الحشر : ٢١ في إعظامه على فرض نزوله على جبل ونظيرة قوله : « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » المزمل : ٥ في استثقاله واستصعاب حمله . هذا ما يعطيه السياق .

وقد حمل القوم الآية على أحد معنيين آخرين :

أحدهما : أن المراد تفطرهن من عظمة الله وجلاله جل جلاله كما يؤيده توصيفه تعالى قبله بالعلي العظيم .

وثانيهما : أن المراد تفطرهما من شرك المشركين من أهل الأرض وقولهم : « اتخذ الرحمن ولداً » فقد قال تعالى فيه : « تكاد السماوات يتفطرن منه » مريم : ٩٠ فأدى ذلك إلى التكلف في توجيه تقييد التفطر بقوله : « من فوقهن » وخاصة على المعنى الثاني ، وكذا في توجيه اتصال قوله : « والملائكة يستغفرون لمن في الأرض » الخ بما قبله كما لا يخفى على من راجع كتبهم .

وقوله : « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض » أي ينزهونه تعالى عما لا يليق بساحة قدسه ويثنون عليه بجميل فعله ، ومما لا يليق بساحة قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحي وهو منه فعل جميل ، ويسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض ، وحصول المغفرة إنما هو بحصول سببها وهو سلوك سبيل العبودية بالاهتداء بهداية الله سبحانه فسؤالهم المغفرة لهم مرجعه إلى سؤال أن يشرع لهم ديناً يغفر لمن تدين به منهم فالمعنى والملائكة يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن في الأرض من طريق الوحي ديناً يدينون به فيغفر لهم بذلك .

ويشهد على هذا المعنى وقوع الجملة في سياق بيان صفة الوحي وكذا تعلق الاستغفار بمن في الأرض إذ لا معنى لطلب المغفرة منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال : « اتخذ الله ولداً » وقد حكى الله تعالى عنهم : « ويستغفرون للذين آمنوا » الآية المؤمن : ٧ فالمتعين حمل سؤال المغفرة على سؤال سببها وهو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به .

وقوله : « ألا ان الله هو الغفور الرحيم » أي أن الله سبحانه لا تصافه بصفتي المغفرة والرحمة وتسميه باسمي الغفور الرحيم يليق بساحة قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون

به المغفرة والرحمة من عنـــده وهو أن يشرع لهم ديناً يهتدون به إلى سعادتهم من طريق الوحي والتكليم .

قيل : وفي قوله : « ألا ان الله » الخ إشارة الى قبول استغفار الملائكة وأنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة .

قوله تعالى : « والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » لما استفيد من الآيات السابقة أن الله تعالى هو الولي لعباده لا ولي غيره وهو يتولى أمر من في الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه على ما يقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا ، ولازم ذلك أن لا يتخذ عبـاده أولياء من دونه ، أشار في هذه الآية إلى حال من اتخذ من دونه أولياء باتخاذهم شركاء له في الربوبية والالوهية فذكر أنه ليس بغافل عما يعملون وأن أعمالهم محفوظة عليهم سيؤاخذون بها ، وليس على النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا البلاغ من غير أن يكون وكيلاً عليهم مسؤولاً عن أعمالهم .

فقوله : « الله حفيظ عليهم » أي يحفظ عليهم شركهم وما يتفرع عليه من الأعمال السيئة .

وقوله : « وما أنت عليهم بوكيل » أي مفوضـاً إليك أعمالهم حتى تصلحها لهم بهدايتهم إلى الحق ، والكلام لا يخلو من نوع من التسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق والبخاري في تاريخه وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رباب قال : مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتلو فاتحـة سورة البقرة « ألم ذلك الكتاب » فأتاه أخوه حيي ابن أخطب في رجال من اليهود فقال : تعلمون ؟ والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه « ألم ذلك الكتاب » فقالوا : أنت سمعته ؟ قال : نعم .

فمشى اولئك النفر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : يا محمد ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك « ألم ذلك الكتاب » ؟ قال : بلى . قالوا : قد جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال : نعم . قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بيّن لنبي لهم ما مـــدة ملكه ؟ وما أجل امته غيرك .

فقال حي بن أخطب وأقبل على من كان معه : الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل امته إحدى وسبعون سنة .

ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : المص قال : هذا أثقل وأطول الألف واحدة ، واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه مائة وإحدى وستون سنة هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : الر . قال : هذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه إحدي وثلاثون ومائتا سنة فهل مع هذا غيره ؟ قال : نعم قال : ماذا ؟ ، قال المر قال : فهذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان .

ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أُعطيت أم كثيراً ؟ ثم قاموا فقال أبو ياسر لأخيه حي ومن معه من الأحبار : ما يدريكم ؟ لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وستون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون فقالوا : لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم : « هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأُخر متشابهات » .

أقول : وروى قريباً منه عن ابن المنذر عن ابن جريح ، وروى مثله أيضاً القمي في تفسيره عن أبيه عن ابن رئاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام ، وليس في الرواية ما يدل على إمضاء النبي صلى الله عليه وآله لدعواهم ولا كانت لهم على ما ادعوه حجة ، وقد تقدم أن الآيات المتشابهة غير الحروف المقطعة في فواتح السور .

وفي المعاني بإسناده عن جويرية عن سفيان الثوري قال : قلت لجعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام : يا ابن رسول الله ما معنى قول الله عز وجل : الم والمص والر والمر وكهيعص وطه وطس وطسم ويس وص وحم وحمعسق وق ون ؟

قال عليه السلام أما الم في أول البقرة فمعناه أنا الله الملك ، وأما الم في أول آل عمران فمعناه أنا الله المجيد ، والمص فمعناه أنا الله المقتدر الصادق ، والر فمعناه أنا الله الرؤف ، والمر فمعناه أنا الله المحيي المميت الرازق ، وكهيعص معناه أنا الكافي الهادي الولي العالم

الصادق الوعد ، فأما طه فاسم من أسماء النبي ﷺ ومعناه يا طالب الحق الهادي إليه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد به .

وأما طس فمعناه أنا الطالب السميع ، وأما طسم فمعناه أنا الطالب السميع المبدى المعيد ، وأما يس فاسم من أسماء النبي ﷺ ومعناه يا أيها السامع للوحي والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم .

وأما ص فعين تنبع من تحت العرش وهي التي توضأ منها النبي ﷺ لما عرج به ويدخلها جبرئيل كل يوم دخلة فيغتمس فيها ثم يخرج منها فينفض أجنحته فليس من قطرة تقطر من أجنحته إلا خلق الله تبارك وتعالى منها ملكاً يسبح الله ويقدسه ويكبره ويحمده إلى يوم القيامة .

وأما حم فمعناه الحميد المجيد ، وأما حمعسق فمعناه الحليم المثيب العالم السميع القادر القوي ، وأما ق فهو الجبل المحيط بالأرض وخضرة السماء منه وبه يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها ، وأما ن فهو نهر في الجنة قال الله عز وجل اجمد فجمد فصار مداداً ثم قال عز وجل للقلم : اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فالمدد مداد من نور والقلم قلم من نور واللوح لوح من نور .

قال سفيان: فقلت له : يا بن رسول الله بين لي أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان وعلمني مما علمك الله فقال : يا بن سعيد لولا أنك أهل للجواب ما أجبتك فنون ملك يؤدي إلى القلم وهو ملك، والقلم يؤدي إلى اللوح وهو ملك، واللوح يؤدي إلى إسرافيل، وإسرافيل يؤدي إلى ميكائيل ، وميكائيل يؤدي إلى جبرئيل ، وجبرئيل يؤدي إلى الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم . قال : ثم قال لي : قم يا سفيان فلا آمن عليك .

أقول : ظاهر ما في الرواية من تفسير غالب الحروف المقطعة بأسماء الله الحسنى أنها حروف مأخوذة من الأسماء إما من أولها كالميم من الملك والمجيد والمقتدر ، وأما من بين حروفها كاللام من الله والياء من الولي فتكون الحروف المقطعة إشارات على سبيل الرمز إلى أسماء الله تعالى ، وقد روي هذا المعنى من طرق أهل السنة عن ابن عباس والربيع بن أنس وغيرهما لكن لا يخفى عليك أن الرمز في الكلام إنما يصار إليه في الإفصاح عن الامور التي لا يريد المتكلم أن يطلع عليه غير المخاطب بالخطاب فيرمز إليه

بنا لا يتعداه ومخاطبه ولا يقف عليه غيرهما وهذه الأسماء الحسنى قد أوردت وبينت في مواضع كثيرة من كلامه تعالى تصريحاً وتلويحاً وإجمالاً وتفصيلاً ولا يبقى مع ذلك فائدة في الإشارة إلى كل منها بحرف مأخوذ منه رمزاً إليه .

فالوجه ـ على تقدير صحة الرواية ـ أن يحمل على كون هذه الأحرف دالة على هذه المعاني دلالة غير وضعية فتكون رموزاً إليها مستورة عنا مجهولة لنا دالة على مراتب من هذه المعاني هي أدق وأرقى وأرفع من أفهامنا ، ويؤيد ذلك بعض التأييد تفسيره الحرف الواحد كالميم في المواضع المختلفة بمعان مختلفة ، وكذا ما ورد أنها من حروف اسم الله الأعظم .

وقوله : « وأما ق فهو الجبل المحيط بالأرض وخضرة السماء منه » الخ وروى قريباً منه القمي في تفسيره ، وهو مروي بعدة من طرق أهل السنة عن ابن عباس وغيره ، ولفظ بعضها جبل من زمرد محيط بالدنيا على كنفا[1] السماء ، وفي بعضها أنه جبل محيط بالبحر المحيط بالأرض والسماء الدنيا مترفرفة عليها وأن هناك سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سماوات .

وفي بعض ما عن ابن عباس : خلق الله جبلاً يقال له : ق محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية .

والروايات بظاهرها أشبه بالإسرائيليات ، ولولا قوله : « وبه يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها » لأمكن حمل قوله : « وأما ق فهو الجبل المحيط بالدنيا وخضرة السماء منه » على إرادة الهواء المحيط بالأرض بضرب من التأويل .

وأما قوله : إن طه ويس من أسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمعنى الذي فسره به فينبغي أن يحمل أيضاً على ما قدمناه به ويفسر الروايات الكثيرة الواردة من طرق العامة والخاصة في أن طه ويس من أسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وأما قوله في ن أنه نهر صيره الله مداداً كتب به القلم بأمره على اللوح ما كان وما يكون

---

(١) الكنف بفتحتين الجانب وكنفا السماء جانباه .

إلى يوم القيامة ، وأن المداد والقلم واللوح من النور ثم قوله : إن المداد ملك والقلم ملك واللوح ملك فهو نعم الشاهد على أن ما ورد في كلامه تعالى من العرش والكرسي واللوح والقلم ونظائر ذلك وفسر به في كلام النبي ﷺ وأئمة أهل البيت (ع) من باب التمثيل أريد به تقريب معارف حقيقية هي أعلى وأرفع من سطح الأفهام العامة بتنزيلها منزلة المحسوس .

وفي المعاني أيضاً بإسناده عن أبي بصير عن ابي عبد الله عليه السلام قال « الم » هو حرف من حروف اسم الله الأعظم المقطع في القرآن الذي يؤلفه النبي ﷺ والإمام فإذا دعا به اجيب . الحديث .

أقول : كون هـذه الحروف المقطعة من حروف اسم الله الأعظم المقطع في القرآن مروي بعدة من طرق أهل السنة عن ابن عباس وغيره ، وقد تبين في البحث عن الأسماء الحسنى في سورة الأعراف أن الاسم الأعظم الذي له أثره الخاص به ليس من قبيل الألفاظ ، وأن ما ورد مما ظاهره أنه اسم مؤلف من حروف ملفوظة مصروف عن ظاهره بنوع من الصرف المناسب له .

وفيه بإسناده عن محمد بن زياد ومحمد بن سيار عن العسكري (ع) أنه قال : كذبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا : سحر مبين تقوله فقـال الله : « الم ذلك الكتاب » أي يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك هو الحروف المقطعة التي منها الف لام ميم وهو بلغتكم وحروف هجاءكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم . الحديث .

أقول : والحديث من تفسير العسكري وهو ضعيف .

وفي تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في قوله تعالى : « يتفطرن من فوقهن » أي يتصدعن .

وعن جوامع الجامع في قوله تعالى: « ويستغفرون لمن في الأرض » قال الصادق (ع) : لمن في الأرض من المؤمنين .

أقول : وروي ما في معناه في المجمع عنه (ع) ورواه القمي مضمرا .

وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها
وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ ـ ٧ ـ .
وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ
وَالظّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاٰ نَصِيرٍ ـ ٨ . أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ
فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتى وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ـ ٩ . وَمَا اخْتَلَفْتُمْ
فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ ـ ١٠ . فاطِرُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً
وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ـ ١١ . لَهُ مَقالِيدُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ـ ١٢ .

﴿ بيـــان ﴾

فصل ثان من الآيات يعرف فيه الوحي من حيث الغاية المترتبة عليه كما عرفه في الفصل السابق بالإشارة إليه نفسه .

فبين في هذا الفصل أن الغرض من الوحي إنذار الناس وخاصة الإنذار المتعلق بيوم الجمع الذي يتفرق فيه الناس فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير إذ لولا الإنذار بيوم الجمع الذي فيه الحساب والجزاء لم تنجح دعوة دينية ولم ينفع تبليغ .

ثم بين أن تفرقهم فريقين هو الذي شاءه الله سبحانه فعقبه بتشريع الدين وإنذار

الناس يوم الجمع من طريق الوحي لأنه وليهم الذي يحييهم بعد موتهم الحاكم بينهم فيما اختلفوا فيه .

ثم ساق الكلام فانتقل إلى توحيد الربوبية وأنه تعالى هو الرب لا رب غيره لاختصاصه بصفات الربوبية من غير شريك يشاركه في شيء منها .

قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر ام القرى ومن حولها » الإشارة إلى الوحي المفهوم من سابق السياق، وام القرى هي مكة المشرفة والمراد بإنذار ام القرى إنذار أهلها ، والمراد بمن حولها سائر أهل الجزيرة ممن هو خارج مكة كما يؤيده توصيف القرآن بالعربية .

وذلك أن الدعوة النبوية كانت ذات مراتب في توسعها فابتدأت الدعوة العلنية بدعوة العشيرة الأقربين كما قال : « وأنذر عشيرتك الأقربين » الشعراء ، ٢١٤ ثم توسعت فتعلقت بالعرب عامة كما قال : « قرآناً عربياً لقوم يعلمون » حم السجدة : ٣ ثم بجميع الناس كما قال : « وأنزل إلى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ » .

ومن الدليل على ما ذكرناه من الأمر بالتوسع تدريجاً قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر - - إلى أن قال - إن هو إلا ذكر للعالمين » ص : ٨٧ فإن الخطاب على ما يعطيه سياق السورة لكفار قريش يقول سبحانه إنه ذكر للعالمين لا يختص ببعض دون بعض ، فإذا كان للجميع فلا معنى لأن يسأل بعضهم - كالنبي ﷺ - بعضاً عليه أجراً .

على أن تعلق الدعوة بأهل الكتاب وخاصة باليهود والنصارى من ضروريات القرآن ، وكذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي من ضروريات التاريخ .

وقيل المراد بقوله : « من حولها » سائر الناس من أهل قرى الأرض كلها ويؤيده التعبير عن مكة بام القرى .

والآية - كما ترى - تعرف الوحي بغايته التي هي إنذار الناس من طريق الإلقاء الإلهي وهو النبوة فالوحي إلقاء إلهي لغرض النبوة والإنذار .

قوله تعالى : « وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير » عطف

على « تنذر » السابق وهو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل : لتنذر الناس وتخوفهم من الله وخاصة من سخطه يوم الجمع .

وقوله : « يوم الجمع » مفعول ثان لقوله : « تنذر » وليس بظرف له وهو ظاهر ، ويوم الجمع هو يوم القيامة قال تعالى : « ذلك يوم مجموع له الناس ـ إلى أن قال ـ « فمنهم شقي وسعيد » هود : ١٠٥ .

وقوله : « فريق في الجنة وفريق في السعير » في مقام التعليل ودفع الدخل كأنه قيل : لما ذا ينذرهم يوم الجمع ؟ فقيل : « فريق في الجنة وفريق في السعير » أي إنهم يتفرقون فريقين : سعيد مثاب وشقي معذب فلينذروا حتى يتحرزوا سبيل الشقاء والهبوط في مهبط الهلكة .

قوله تعالى : « ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة » إلى آخر الآية لما كانت الآية مسوقة لبيان لزوم الإنذار والنبوة من جهة تفرق الناس فريقين يوم القيامة كان الأسبق إلى الذهن من جعلهم امة واحدة مطلق رفع التفرق والتميز من بينهم بتسويتهم جميعاً على صفة واحدة من غير فرق وميز ، ولم تقع عند ذلك حاجة إلى النبوة والإنذار .

وقوله : « ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير » استدراك يبين فيه أن سنته تعالى جرت على التفريق ولم يشأ جعلهم امة واخدة يدل على ذلك قوله : « يدخل من يشاء » الدال على الاستمرار ، ولم يقل : ولكن أدخل ونحوه .

وقد قوبل في الآية قوله : « من يشاء » بقوله : « والظالمون » فالمراد بمن يشاء غير الظالمين وقد فسر الظالمين يوم القيامة بقوله : « فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون » الأعراف : ٤٥ فهم المعاندون المنكرون للمعاد .

وقوبل أيضاً بين الإدخال في الرحمة وبين نفى الولي والنصير فالمدخلون في رحمته هم الذين وليهم الله ، والذين مالهم من ولي ولا نصيرهم الذين لا يدخلهم الله في رحمته ، وأيضاً الرحمة هي الجنة وانتفاء الولاية والنصرة يلازم السعير .

فمحصل معنى الآية : أن الله سبحانه إنما قدر النبوة والإنذار المتفرع على الوحي لمكان

ما سيعتريهم يوم القيامة من التفرق فريقين ، ليتحرزوا من الدخول في فريق السعير .

ولو أراد الله لجعلهم امة واحدة فاستوت حالهم ولم يتفرقوا يوم القيامة فريقين فلم يكن عند ذلك ما تقتضي النبوة والإنذار فلم يكن وحي لكنه تعالى لم يرد ذلك بل جرت سنته على أن يتولى أمر قوم منهم وهم غير الظالمين فيدخلهم الجنة وفي رحمته ، ولا يتولى أمر آخرين وهم الظالمون فيكونوا الاولى لهم ولا نصير ويصيروا إلى السعير لا مخلص لهم من النار .

فقد تحصل مما تقدم أن المراد بجعلهم امة واحدة هو التسوية بينهم بإدخال الجميع في الجنة وإدخال الجميع في السعير أي إنه تعالى ليس بملزم بإدخال السعداء في الجنة والأشقياء في النار فلو لم يشأ لم يفعل لكنه شاء أن يفرق بين الفريقين وجرت سنته على ذلك ووعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد ومع ذلك فقدرته المطلقة باقية على حالها لم تنسلب ولم تتغير فقوله : « وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه » إلى تمام الآيتين في معنى قوله في سورة هود : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس » إلى تمام سبع آيات فراجع وتدبر .

وقيل : المراد بجعلهم امة واحـــدة جعلهم مؤمنين جميعاً داخلين في الجنة ، قال في الكشاف : والمعنى ولو شاء ربك مشيئة قـدرة لقسرهم جميعاً على الايمان ولكنه شاء مشيئة حكمة فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشـــاء ألا ترى الى وضعهم في مقابلة الظالمين ، ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه .

واستدل على ما اختاره من المعنى بقوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » الم السجدة : ١٣ وقوله : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً » يونس : ٩٩ والدليل على أن المعنى هو الالجـاء إلى الايمان قوله : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

وفيه أن الآيات ـ كما عرفت مسوقة لتعريف الوحي من حيث غايته وأن تفرق في الناس يوم الجمع : فريقين سبب يستدعي وجود النبوة والانذار من طريق الوحي ، وقوله : « ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة » مسوق لبيان أنه تعالى ليس بمجبر على ذلك

ولا ملزم به بل له أن لا يفعل ، وهذا المعنى يتم بمجرد أن لا يجعلهم متفرقين فريقين بل امة واحدة كيفما كانوا ، وأما كونهم فرقة واحـــدة مؤمنة بالخصوص فلا مقتضى له هناك .

وأما ما استدل به من الآيتين فسياقهما غير سياق الآية المبحوث عنها ، والمراد بهما غير الايمان القسري الذي ذكره وقد تقدم البحث عنهما في الكتاب .

وقيل : أن الأنسب للسياق هو اتحادهم في الكفربأن يراد جعلهم امة واحدة كافرة كما في قوله : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين » البقرة : ٢١٣ فالمعنى : ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولاً ينذرهم فيبقوا على ما هم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء في رحمته أي شأنه ذلك فيرسل إلى الكل من ينذرهم فيتــأثر به من تأثر فيوفقهم الله للإيمان والطاعات في الدنيا ويدخلهم في رحمته في الآخرة ، ولا يتأثر به الآخرون وهم الظالمون فيعيشون في الدنيا كافرين ويصيرون في الآخرة إلى السعير من غير ولي ولا نصير .

وفيه أولاً : أن المراد من كون الناس امــة واحدة في الآية المقيس عليها ليس هو اتفاقهم على الكفر بل عدم اختلافهم في الامور الراجعة إلى المعاش كما تقدم في تفسير الآية ، ولو سلم ذلك أدى إلى التنافي البين بين المقيسة والمقيس عليها لدلالة المقيسة على التفرق وعدم الاتحاد دلالة المقيس عليها على ثبوت الاتحاد وعدم التفرق .

ولو اجيب عنه بأن المقيس عليها تدل على كون الناس امة واحدة بحسب الطبع دون الفعلية فلا تنافي بين الآيتين ، رد بمنافاته لما دل من الآيات على كون الانسان مؤمناً بحسب الفطرة الأصلية كقوله تعــالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ .

وثانياً : ان فيه إخراجاً لقوله : « ولكن يدخل من يشاء في رحمته » عن المقابلة مع قوله : « والظالمون » الخ من غير دليل ، ثم تكلف تقدير ما يفيـــد معناه ليحفظ به ما يقيده الكلام من المقابلة .

قوله تعالى : « أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي ـ إلى قوله ـ فحكمه إلى

الله ، « أم » تفيد الإنكار كما ذكره الزمخشري . لما أفاد في الآية السابقة أن الله سبحانه يتولى أمر المؤمنين خاصة فيدخلهم في رحمته وأن الظالمين هم الكافرون المعاندون لا ولي لهم تعرض في هذه الآية لاتخاذهم أولياء يدينون لهم ويعبدونهم من دونه وكان يجب أن يتخذوا الله وليـاً يدينون له ويعبدونه فأنكر عليهم ذلك واحتج على وجوب اتخاذه ولياً بالحجة بعد الحجة وذلك قوله : « فالله هو الولي » الخ .

فقوله : « فالله هو الولي » تعليل للانكار السابق لاتخاذهم من دونه أولياء فيكون حجة لوجوب إتخاذه ولياً ، والجملة ـ فالله هو الولي ـ تفيد حصر الولاية في الله وقد تبينت الحجة على أصل ولايته وانحصارها فيه من قوله في الآيات السابقة : « العزيز الحكيم له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم » كما أشرنا إليه في تفسير الآيات .

والمعنى : أنه تعالى ولي ينحصر فيه الولاية فمن الواجب على من يتخذ ولياً أن يتخذه وليا ولا يتعداه إلى غيره إذ لا ولي غيره .

وقوله : « وهو يحيي الموتى » حجة ثانية على وجوب اتخاذه تعالى وحـده ولياً ، ومحصله أن عمدة الغرض في اتخـاذ الولي والتدين له بعبوديته التخلص من عذاب السعير والفوز بالجنـة يوم القيامة والمثيب والمعاقب يوم القيامة هو الله الذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الذي يجب أن يتخذ ولياً دون أوليائهم الذين هم أموات غير أحياء ولا يشعرون أيان يبعثون .

وقوله : « وهو على كل شيء قدير » حجة ثالثة على وجوب اتخاذه تعالى ولياً دون غيره ، ومحصله أن من الواجب في باب الولاية أن يكون للولي قدرة على ما يتولاه من شؤن من يتولاه واموره ، والله سبحانه على كل شيء قدير ولا قدرة لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليـه أقدره فهو الولي لا ولي غيره تعالى وتقدس .

وقوله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » حجة رابعة على كونه تعالى ولياً لا ولي غيره ، وحكم الحاكم بين المختلفين هو إحكامه وتثبيته الحق المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالإثبات والنفي ، والاختلاف ربمـا كان في عقيدة كالاختلاف في أن

الإله واحد أو كثير ، وربما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في امور المعيشة وشؤون الحياة فهو أعني الحكم يساوق القضاء مصداقاً وإن اختلفا مفهوماً .

ثم الحكم والقضاء إنما يتم إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك والولاية وإن كان بتمليك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا إلى ثالث فاتخذاه حكماً ليحكم بينهما ويتسلما ما يحكم به فقد ملكاه الحكم بما يرى وأعطياه من نفسهما القبول والتسليم فهو وليهما في ذلك .

والله سبحانه هو المالك لكل شيء لا مالك سواه لكون كل شيء بوجوده وآثار وجوده قائماً به تعالى فله الحكم والقضاء بالحق قال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » القصص : ٨٨، وقال « إن الله يحكم ما يريد » المائدة : ٢ وقال : « الحق من ربك » آل عمران : ٦٠ .

وحكمه تعالى إما تكويني وهو تحقيقه وتثبيته المسببات قبال الأسباب المجتمعة عليها المتنازعة فيها بتقديم ما نسميه سبباً تاماً على غيره قال تعالى حاكياً عن يعقوب (ع) : « إن الحكم إلا لله عليه توكلت » يوسف : ٦٧ وإما تشريعي كالتكاليف الموضوعة في الدين الإلهي الراجعة إلى الاعتقاد والعمل قال تعالى : « إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم » يوسف : ٤٠ .

وهناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعد من كل من القسمين السابقين بوجه وهو حكمه تعالى يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه وهو إعلانه وإظهاره الحق يوم القيامة لأهل الجمع يشاهدونه مشاهدة عيان وإيقان فيسعد به وبآثاره من كان مع الحق ويشقى بالاستكبار عليه وتبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالى : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » البقرة : ١١٣ .

ثم إن اختلاف الناس في عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعي لا يرفعه إلا الأحكام والقوانين التشريعية ولولا الاختلاف لم يوجد قانون كما يشير إليه قوله تعالى : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه » البقرة : ٢١٣،

وقد تبين أن الحكم التشريعي لله سبحانه فهو الولي في ذلك فيجب أن يتخذ وحده ولياً فيعبد ويدان بما أنزله من الدين .

وهذا معنى قوله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » ومحصل الحجة أن الولي الذي يعبد ويدان له يجب أن يكون رافعاً لاختلافات من يتولونه مصلحاً لما فسد من شؤن مجتمعهم سائقاً لهم إلى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين ، والحكم في ذلك إلى الله سبحانه ، فهو الولي الذي يجب أن يتخذ ولياً لا غير .

وللقوم في تفسير الآية أعني قوله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » تفاسير أخر فقيل : هو حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من امور الدين ، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ذكره صاحب الكشاف .

وقيل معناه ما اختلفتم فيه وتنازعتم في شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى : « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول » .

وقيل : المعنى ما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى محكم كتاب الله وظاهر سنة رسول الله ﷺ .

وقيل : المعنى وما اختلفتم فيه من العلوم مما لا يتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا : الله أعلم كمعرفة الروح قال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » . والآية على جميع هذه الأقوال من كلام النبي ﷺ إما بنحو الحكاية وإما بتقدير « قل » في أولها .

وأنت بالتدبر في سياق الآيات ثم الرجوع إلى ما تقدم لا ترتاب في سقوط هذه الأقوال .

قوله تعالى : « ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه انيب » كلام محكي للنبي ﷺ ،

والإشارة بذلكم إلى من أُقيمت الحجج في الآيتين على وجوب اتّخاذه وليـــاً وهو الله سبحانه ، ولازم ولايته ربوبيته .

لما أُقيمت الحجج على أنه تعالى هو الولي لا ولي غيره أمر ﷺ بإعلام أنه الله وأنه اتخذه وليـــاً بالاعتراف له بالربوبية التي هي ملك التدبير ثم عقب ذلك بالتصريح بما للاتخاذ المذكور من الآثار وهو قوله : « عليه توكلت وإليه أنيب » .

وذلك أن ولاية الربوبية تتعلق بنظـام التكوين بتدبير الامور وتنظيم الأسباب والمسببات بحيث يتعين بها للمخلوق المدبر كالإنسان مثلاً ما قدر له من الوجود والبقاء، وتتعلق بنظام التشريع وهو تدبير أعمال الإنسان بجعل قوانين وأحكام يراعيها الإنسان بتطبيق أعماله عليها في مسير حياته لتنتهي به إلى كمال سعادته .

ولازم اتخاذه تعالى رباً ولياً من جهة التكوين إرجاع أمر التدبير إليه بالإنقطاع عن الأسباب الظاهرية والركون إليه من حيث إنه سبب غير مغلوب ينتهي إليه كل سبب وهذا هو التوكل ، ومن جهة التشريـع الرجوع إلى حكمه في كل واقعة يستقبله الإنسان في مسير حياته وهذا هو الإنابة فقوله : « عليـــه توكلت وإليه أُنيب » أي أرجع في جميع اموري ، تصريح بإرجاع الأمر إليه تكويناً وتشريعاً .

قوله تعالى : « فاطر السماوات والأرض » إلى آخر الآية لما صرح بأنه تعالى هو ربه لقيام الحجج على أنه هو الولي وحـده عقب ذلك بإقامة الحجة في هذه الآية والتي بعدها على ربوبيته تعالى وحده .

ومحصل الحجة : أنه تعالى موجد الأشياء وفاطرها بالإخراج من كتم العدم إلى الوجود وقد جعلكم أزواجاً فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجاً فكثرها بذلك لتنتفعوا بها ، وهذا خلق وتدبير ، وهو سميع لما يساله خلقه من الحوائج فيقضي لكل ما يستحقه من الحاجة ، بصير لما يعمله خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا وهو الذي يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض التي ادخر فيها مالها من خواص وجودها وآثاره مما يتألف منها بظهورها النظام المشهود وهو الذي يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم ويضيق عن علم منه بذلك . وهذا كله من التدبير فهو الرب المدبر للامور .

فقوله : « فاطر السماوات والأرض » أي موجدها من كتم العدم على سبيل الإبداع .

وقوله : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً » وذلك بخلق الذكر والانثى للذين يتم بتزاوجها أمر التوالد والتناسل وتكثر الأفراد « ومن الأنعام أزواجاً » أي وجعل من الأنعام أزواجاً « يذرؤكم فيه » أي يكثركم في هذا الجعل، والخطاب في « يذرؤكم » للإنسان والأنعام بتغليب جانب العقلاء على غيرهم كما ذكره الزمخشري .

وقوله : « ليس كمثله شيء » أي ليس مثله شيء ، فالكاف زائـــدة للتأكيد وله نظائر كثيرة في كلام العرب .

وقوله : « وهو السميع البصير » أي السميع لما يرفع إليه من مسائل خلقه البصير لأعمال خلقه قال تعالى : « يسأله من في السماوات والأرض » الرحمن : ٢٩ ، وقال : « وآتاكم من كل ما سألتموه » إبراهيم : ٣٤ ، وقال : « والله بمـــا تعملون بصير » الحديد : ٤ .

قوله تعالى : « له مقاليد السماوات والأرض » إلى آخر الآية المقاليد المفاتيح وفي إثبات المقاليد للسماوات والأرض دلالة على أنها خزائن لما يظهر في الكون من الحوادث والآثار الوجودية .

وقوله: «يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» بسط الرزق توسعته وقدره تضييقه والرزق كل ما يمد به البقاء ويرتفع به حاجة من حوائج الوجود في استمراره .

وتذييل الكلام بقوله : « إنه بكل شيء عليم » للإشارة إلى أن الرزق واختلافه في موارده بالبسط والقدر ليس على سبيل المجازفة جهلاً بل عن علم منـــه تعالى بكل شيء فرزق كل مرزوق على علم منه بما يستدعيه المرزوق بحسب حاله والرزق بحسب حاله وما يحف بهما من الأوضاع والأحوال الخارجية ، وهـــذا هو الحكمة فهو يبسط ويقدر بالحكمة .

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ - ١٣ - . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ - ١٤ - . فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ - ١٥ - . وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ - ١٦ - .

﴿ بيــان ﴾

فصل ثالث من الآيات يعرف الوحي الإلهي بأثره الذي هو مفاده وما احتوى عليه من المضمون وهو الدين الإلهي الواحد الذي يجب على الناس أن يتخذوه سنة في الحياة وطريقة مسلوكة إلى سعادتهم .

وقد بين فيها بحسب مناسبة المقام أن الشريعة المحمدية أجمع الشرائع المنزلة وأن الاختلافات الواقعة في دين الله على وحدته ليست من ناحية الوحي السماوي وإنما هي من بغي الناس بعد علمهم ، وفي الآيات فوائد أخر أشير إليها في خلالها .

قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » يقال : شرع الطريق شرعاً أي سواه طريقاً واضحاً بيناً . قال الراغب : الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل مقترناً بوعظ من قولهم : أرض واصية متصلة النبات ويقال : أوصاه ووصاه انتهى. وفي معناه إشعار بالأهمية فما كل أمر يوصى به وإنما يختار لذلك ما يهتم به الموصي ويعتني بشأنه .

فقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » أي بين وأوضح لكم من الدين وهو سنة الحياة ما قدم وعهد إلى نوح مهتماً بـه ، واللائح من السياق أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وامته ، وأن المراد مما وصى به نوحا شريعة نوح (ع) .

وقوله : « والذي أوحينا إليك » ظاهر المقابلة بينـه وبين نوح (ع) أن المراد بما أوحى إليه ما اختصت به شريعته من المعارف والأحكام ، وإنما عبر عن ذلك بالإيحاء دون التوصية لأن التوصية كما تقدم إنمـا تتعلق من الامور بما يهتم به ويعتني بشأنه خاصة وهو أهم العقائد والأعمال ، وشريعته ﷺ جامعة لكل ما جل ودق محتوية على الأهم وغيره بخلاف شرائع غيره فقد كانت محدودة بما هو الأهم المناسب لحال اممهم والموافق لمبلغ استعدادهم .

والالتفات في قوله : « والذي أوحينا » من الغيبة إلى التكلم مع الغير للدلالة على العظمة فإن العظماء يتكلمون عنهم وعن خدمهم وأتباعهم .

وقوله : « وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » عطف على قوله : « وما وصى به » والمراد به ما شرع لكل واحد منهم (ع) .

والترتيب الذي بينهم (ع) في الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى (ع) ، وإنمـا قدم ذكر النبي ﷺ للتشريف والتفضيل كما في قوله تعالى : « وإذ أخـذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى

ابن مريم » الأحزاب : ٧ وإنما قدم نوحا وبدء به للدلالة على قـدم هذه الشريعة وطول عهدها .

ويستفاد من الآية امور :

أحدها : أن السياق بما أنه يفيد الامتنان وخاصة بالنظر إلى ذيل الآية والآية التالية يعطي أن الشريعة المحمدية جامعة للشرائع الماضية ولا ينافيـه قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » المائدة : ٤٨ لأن كون الشريعة شريعة خاصة لا ينافي جامعيتها .

الثاني : أن الشرائع الإلهية المنتسبة إلى الوحي إنما هي شريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام إذ لو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحق الجامعية المذكورة .

ولازم ذلك أولاً : أن لا شريعة قبل نوح (ع) بمعنى القوانين الحاكمة في المجتمع الإنساني الرافعة للاختلافات الاجتماعية وقد تقدم نبذة من الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين » الآية البقرة : ٢١٣ .

وثانياً : أن الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثة إبراهيم وبعدها على شريعة إبراهيم إلى بعثة موسى وهكذا .

الثالث : أن الأنبياء أصحاب الشرائع واولي العزم هم هؤلاء الخمسة المذكورون في الآية إذ لو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء سادة الأنبياء ويدل على تقدمهم أيضاً قوله : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم » الأحزاب : ٧ .

وقوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا » أن تفسيرية ، وإقامة الدين حفظه بالاتباع والعمل واللام في الدين للعهد أي أقيموا هذا الدين المشروع لكم ، وعدم التفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه وعدم الاختلاف فيه .

لما كان شرع الدين لهم في معنى أمرهم جميعاً باتباعه والعمل بـه من غير اختلاف فسره بالأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيـه فكان محصله أن عليهم جميعاً إقامة الدين

جميعاً وعدم التفرق والتشتت فيه بإقامة بعض وترك بعض ، وإقامته الإيمان بجميع ما أنزل الله والعمل بما يجب عليه العمل به .

فجميع الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته وعدم التفرق فيه فأما الأحكام السماوية المشترك فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامة فيها ظاهر وأما الأحكام المشرعة في بعض هذه الشرائع المنسوخة في الشريعة اللاحقة فحقيقة الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص بطائفة من الناس في زمن خاص ومعنى نسخه تبين انتهاء أمده لا ظهور بطلانه قال تعالى : « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » الأحزاب : ٤ فالحكم المنسوخ حق دائماً غير أنه خاص بطائفة خاصة في زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به ويعملوا به ويجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل وهذا معنى إقامته وعدم التفرق فيه .

فتبين أن الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه في قوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان .

وبذلك يظهر فساد قول جمع إن الأمر بالإقامة وعدم التفرق إنما يشمل الأحكام المشتركة بين الشرائع دون المختصة فهي أحكام متفاوتة مختلفة باختلاف الامم من حيث أحوالها ومصالحها .

وذلك أنه لا موجب لتقييد إطلاق قوله : « أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ولو كان كما يقولون كان الأمر بالإقامة مختصاً باصول الدين الثلاثة : التوحيد والنبوة والمعاد ، وأما غيرها من الأحكام الفرعية فلا يكاد يوجد هناك حكم واحد مشترك فيه في جميع خصوصياته بين جميع الشرائع وهذا مما يأباه قطعاً سياق قوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به » الخ ، ومثل قوله : « وإن هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا » المؤمنون : ٥٣ ، وقوله : « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » آل عمران : ١٩ .

وقوله : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » المراد بقوله : « ما تدعوهم إليه »

دين التوحيد الذي كان يدعو إليه النبي ﷺ لا أصل التوحيد فحسب على ما تشهد به الآية التالية ، والمراد بكبره على المشركين تحرجهم من قبوله .

وقوله : « الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » الاجتباء هو الجمع والاجتلاب ، ومقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير « إليه » الثاني والثالث راجعاً إلى ما يرجع إليه الأول والمعنى الله يجمع ويجتاب إلى دين التوحيد ـ وهو ما تدعوهم إليه ـ من يشاء من عباده ويهدي إليه من يرجع إليه فيكون بمجموع قوله : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء » في معنى قوله : هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم » الحج : ٧٨ .

وقيل : الضميران لله تعالى ، ولا بأس به لكن ما تقدم هو الأنسب ، وعلى أي حال قوله : « الله يجتبي إليه » إلى آخر الآية موضوع موضع الاستغناء عن إيمان المشركين المستكبرين للايمان نظير قوله تعالى : « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » حم السجدة : ٣٨ .

وقيل : المراد بما تدعوهم إليه ما تدعوهم إلى الإيمان به وهو الرسالة أي إن رسالتك كبرت عليهم ، وقوله : « الله يجتبي » الخ في معنى قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » الأنعام : ١٢٤ وهو خلاف الظاهر .

قوله تعالى : « وما تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » إلى آخر الآية ضمير « تفرقوا » للناس المفهوم من السياق ، والبغي الظلم أو الحسد ، وتقييده بقوله : « بينهم » للدلالة على تداوله ، والمعنى وما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم وتركهم الاتفاق إلا حال كون تفرقهم آخذاً ـ أو ناشئاً ـ من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلماً أو حسداً تداولوه بينهم .

وهذا هو الاختلاف في الدين المؤدي إلى الانشعابات والتحزبات الذي ينسبه الله سبحانه في مواضع من كلامه إلى البغي ، وأما الاختلاف المؤدي إلى نزول الشريعة وهو الاختلاف في شؤن الحياة والتفرق في امور المعاش فهو أمر عائد إلى اختلاف طبائع الناس في مقاصدهم وهو الذريعة إلى نزول الوحي وتشريع الشرع لرفعه كما يشير

إليه قوله : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين » البقرة : ٢١٣ كما تقدم في تفسير الآية .

وقوله : « ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم » المراد بالكلمة مثل قوله : حين إهباط آدم (ع) إلى الأرض : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » البقرة : ٣٦ .

والمعنى: ولولا أن الله قضى فيهم الاستقرار والتمتع في الأرض إلى أجل سماه وعينه لقضى بينهم إثر تفرقهم في دينه وإنحرافهم عن سبيله فأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم .

وقول القائل : إن الله قد قضى وأهلك كما يقصه في قصص نوح وهود وصالح عليهم السلام وقد قال تعالى : « ولكل امة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط » يونس : ٤٧ .

مدفوع بأن ما قصه تعالى من القضاء والإهلاك إنما هو في امم الأنبياء في زمانهم من المكذبين بين الرادين عليهم وما نحن فيه من قوله : « ولولا كلمة سبقت من ربك » الآية في اممهم بعدهم وهو واضح من السياق .

وقوله : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » ضمير « من بعدهم » لاولئك الذين تفرقوا من بعد علم بغياً بينهم وهم الأسلاف ، والذين اورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآية أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقة كانوا على علم من الحق وإنما أبدعوا ما أبدعوا ، بغياً بينهم ، وأخلافهم الذين أُورثوا الكتاب من بعدهم في شك مريب – موقع في الريب – منه .

وما أوردناه في معنى الآية هو الذي يعطيه السياق ، ولهم في تفسيرها أقاويل كثيرة لا جدوى في إسقاطها فليرجع في الوقوف عليها إلى كتبهم .

قوله تعالى : « فلذلك فادع واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم » إلى آخر الآية . تفريع على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء واممهم ثم انقسام اممهم إلى أسلاف اختلفوا في الدين عن علم بغياً ، وإلى أخلاف شاكين مرتابين فيما اورثوه من

الكتاب أي فلأجل أنه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع ولأجل ما ذكر من تفرّق بعضهم بغياً وارتياب آخرين فاستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم .

واللام في قوله : « فلذلك » للتعليل ، وقيل : اللام بمعنى إلى أي إلى ما شرع لكم من الدين فادع واستقم كما أمرت ، والاستقامة – كما ذكره الراغب – لزوم المنهاج المستقيم ، وقوله : « ولا تتبع أهواءهم » كالمفسر له .

وقوله : « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب » تسوية بين الكتب السماوية من حيث تصديقها والإيمان بها وهي الكتب المنزلة من عند الله المشتملة على الشرائع .

وقوله : « وأمرت لأعدل بينكم » قيل : اللام زائدة للتأكيد نظير قوله : « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » الأنعام : ٧١ ، والمعنى : وأمرت أن أعدل بينكم أي اسوّي بينكم فلا اقدّم قوياً على ضعيف ولا غنياً على فقير ولا كبيراً على صغير ، ولا افضّل أبيض على أسود ولا عربياً على عجمي ولا هاشمياً أو قرشياً على غيره فالدعوة متوجهة إلى الجميع ، والناس قبال الشرع الإلهي سواء .

فقوله : « آمنت بما أنزل الله من كتاب » تسوية بين الكتب المنزلة من حيث الإيمان بها ، وقوله : « وأمرت لأعدل بينكم » تسوية بين الناس من حيث الدعوة وتوجه ما جاء به من الشرع .

وقيل : اللام في « لأعدل بينكم » للتعليل ، والمعنى : وأمرت بما أمرت لأجل أن أعدل بينكم ، وكذا قيل : المراد بالعدل العدل في الحكم ، وقيل : العدل في القضاء بينكم ، وقيل غير ذلك ؛ وهذه معان بعيدة لا يساعد عليها السياق .

وقوله : « الله ربنا وربكم » الخ ، في مقام التعليل لما ذكر من التسوية بين الكتب والشرائع في الإيمان بها وبين الناس في دعوتهم وشمول الأحكام لهم ، ولذا جيء في الكلام بالفصل من غير عطف .

فقوله : « الله ربنا وربكم » يشير إلى أن رب الكل هو الله الواحد تعالى فليس لهم أرباب كثيرون حتى يلحق كلٌ بربه ويتفاضلوا بالأرباب ويقتصر كلٌ منهم بالإيمان بشريعة ربه بل الله هو رب الجميع وهم جميعاً عباده المملوكون له المدبرون بأمره والشرائع المنزلة على الأنبياء من عنده فلا موجب للإيمان ببعضها دون بعض كما يؤمن

اليهود بشريعة موسى دون من بعده وكذا النصارى بشريعة عيسى دون محمد ﷺ بل الواجب الإيمان بكل كتاب نازل من عنده لأنها جميعاً من عنده .

وقوله : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » يشير إلى أن الأعمال وإن اختلفت من حيث كونها حسنة أو سيئة ومن حيث الجزاء ثواباً أو عقاباً إلا أنها لا تتعدى عاملها فلكل امرء ما عمل فلا ينتفع أحد بعمل آخر ولا يتضرر بعمل غيره فليس له أن يقدم امرء للانتفاع بعمله أو يؤخر امرء للتضرر بعمله نعم في الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكن ذلك إلى الله فيما يحاسب به عباده لا إلى الناس – النبي فمن دونه – الذين هم جميعاً عباد مملوكون لا يملك منهم نفس من نفس شيئاً ، وهذا هو الذي ذكره تعالى في محاورة نوح عليه السلام قومه : « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون » الشعراء : ١١٣ ، وكذا قوله يخاطب النبي ﷺ : « ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء » الأنعام : ٥٢ .

وقوله : « لا حجة بيننا وبينكم » لعل المراد أنه لا حجة تدل على تقدم بعض على بعض تكون فيما بيننا يقيمها بعض على بعض يثبت بها تقدمه عليه .

ويمكن أن يكون نفي الحجة كناية عن نفي لازمها وهو الخصومة أي لا خصومة بيننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد ونحن في أننا جميعاً عباده واحد ولكل نفس ما عملت فلا حجة في البين أي لا خصومة حتى تتخذ لها حجة .

ومن هنا يظهر أن لا وجه لقول بعضهم في تفسير الجملة : أي لا احتجاج ولا خصومة لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة والعناد انتهى . إذ الكلام مسوق لبيان ما أمر به النبي ﷺ في نفسه وفي أمته من سنة التسوية لا لإثبات شيء من أصول المعارف حتى تحمل الحجة على ما حملها عليه .

وقوله : « الله يجمع بيننا » المراد بضمير التكلم فيه مجموع المتكلم والمخاطب في الجمل السابقة ، والمراد بالجمع جمعه تعالى إياهم يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قيل .

وغير بعيد أن يراد بالجمع جمعه تعالى بينهم في الربوبية فهو رب الجميع والجميع عباده فيكون قوله : « الله يجمع بيننا » تأكيداً لقوله السابق : « الله ربنا وربكم »

وتوطئة وتمهيداً لقوله : « واليه المصير » ويكون مفاد الجملتين أن الله هو مبدؤنا لأنه ربنا جميعاً واليه منتهانا لأنه اليه المصير فلا موجد لما بيننا إلا هو عز اسمه .

وكان مقتضى الظاهر في التعليل أن يقال : « الله ربي وربكم لي عملي ولكم أعمالكم لا حجة بيني وبينكم على محاذاة قوله: « آمنت » « وأمرت لأعدل » لكن عدل عن المتكلم وحده إلى المتكلم مع الغير لدلالة قوله السابق : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » الخ، وقوله : « الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب » أن هناك قوماً يؤمنون بما آمن به النبي ﷺ ويلبون دعوته ويتبعون شريعته .

فالمراد بالمتكلم مع الغير في « ربنا » و « لنا أعمالنا » و « بيننا » هو ﷺ والمؤمنون به ، وبالمخاطبين في قوله : « وربكم » و « أعمالكم » و « بينكم » سائر الناس من أهل الكتاب والمشركين، والآية على وزان قوله تعالى: « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » آل عمران : ٦٤ .

قوله تعالى : « والذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » الحجة هي القول الذي يقصد به إثبات شيء أو إبطاله من الحج بمعنى القصد ، والدحض البطلان والزوال .

والمعنى : – على ما قيل – والذين يحاجون في الله أي يحتجون على نفي ربوبيته أو على إبطال دينه من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه لظهور الحجة ووضوح المِحَجة حجتهم باطلة زائلة عند ربهم وعليهم غضب منه تعالى ولهم عذاب شديد .

والظاهر أن المراد بالإستجابة له ما هو حق الإستجابة وهو التلقي بالقبول عن علم لا يداخله شك تضطر اليه الفطرة الإنسانية السليمة فإن الدين بما فيه من المعارف فطري تصدقه وتستجيب له الفطرة الحية قال تعالى : « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله » الأنعام : ٣٦ ، وقال : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ ، وقال : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها » الروم : ٣٠ .

ومحصل الآية : على هذا أن الذين يحاجون فيه تعالى أو في دينه بعد استجابة

الفطرة السليمة له أو بعد استجابة الناس بفطرتهم السليمة له حجتهم باطلة زائلة عند ربهم وعليهم غضب منه ولهم عذاب شديد لا يقادر قدره .

ويؤيد هذا الوجه بعض التأييد سياق الآيات السابقة حيث تذكر أن الله شرع ديناً ووصى به أنبياءه واجتبى اليه من شاء من عباده فالمحاجة في أن لله ديناً يستعبد به عباده داحضة ومن الممكن حينئذ أن يكون قوله: « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » في مقام التعليل وحجة مدحضة لحجتهم فتدبر فيه .

وقيل : ضمير « له » للرسول ﷺ والمستجيب أهل الكتاب ، واستجابتهم له اعترافهم بورود أوصافه ونعوته في كتبهم والمراد أن محاجتهم في الله بعد اعترافهم له بما اعترفوا حجتهم باطلة عند ربهم .

وقيل : الضمير له ﷺ والمستجيب هو الله تعالى حيث استجاب دعاءه على صناديد قريش فقتلهم يوم بدر ،ودعاءه على أهل مكة فابتلاهم بالقحط والسنة ،ودعاءه على المستضعفين حتى خلصهم الله من يد قريش إلى غير ذلك من معجزاته ، والمعنيان بعيدان من السياق .

(بحث روائي)

في روح المعاني في قوله تعالى : « والذين يحاجون في الله » الآية عن ابن عباس ومجاهد : نزلت في طائفة من بني إسرائيل همّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم فقالوا : كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم وفي رواية بدل « فديننا » الخ فنحن أولى بالله منكم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجاً فاخرجوا من بين أظهرنا فعلام تقيمون بين أظهرنا فنزلت : « والذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيب له » الآية .

أقول : مضمون الآية لا ينطبق على الرواية إذ لا محاجة في القصة ، وكذا الخبر السابق لا يفي بتوجيه قوله : « من بعد ما استجيب له » .

* * *

أَللهُ الَّذِي أَنزَلَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ
السَّاعَةَ قَرِيبٌ ـ ١٧ . يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ
آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي
السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ـ ١٨ . أَللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ
يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ـ ١٩ . مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلآخِرَةِ نَزِدْ
لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي
ٱلآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ ـ ٢٠ . أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ـ ٢١ . تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ
بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا
يَشَاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ـ ٢٢ . ذٰلِكَ الَّذِي
يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً
إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ـ ٢٣ . أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً
فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ ٱلْبَاطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ـ ٢٤ . وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ

عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ـــ ٢٥ . وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ـــ ٢٦ .

(بيان)

فصل رابع من الآيات يعرّف الوحي الإلهي بأن الدين النازل به كتاب مكتوب على الناس وميزان يوزن به أعمالهم فيجزون بذلك يوم القيامة ، والجزاء الحسن من الرزق ثم يستطرد الكلام في ما يستقبلهم يوم القيامة من الثواب والعقاب ، وفيها آية المودّة في القربى وما يلحق بذلك .

قوله تعالى : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » الخ ، كان مفتتح الفصول السابقة في سياق الفعل إخباراً عن الوحي وغرضه وآثاره « كذلك يوحي إليك » « وكذلك أوحينا إليك » ، « شرع لكم من الدين » وقد غيّر السياق في مفتتح هذا الفصل فجيء بالجملة الاسمية المتضمنة لتوصيفه تعالى بإنزال الكتاب والميزان « الله الذي أنزل الكتاب » الخ ، ولازمه تعريف الوحي بنزول الكتاب والميزان به .

ولعل الوجه فيه ما تقدم في الآية السابقة من ذكر المحاجّة في الله « والذين يحاجّون في الله » فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحاجين فيه بأنه الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ، ولازمه تعريف الوحي بأثره كما عرفت .

وكيف كان فالمراد بالكتاب هو الوحي المشتمل على الشريعة والدين الحاكم في المجتمع البشري ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » الآية البقرة : ٢١٣ أن هذا المعنى هو المراد بالكتاب في الكتاب ، وكون إنزاله بالحق نزوله مصاحباً للحق لا يخالطه اختلاف شيطاني ولا نفساني .

والميزان ما يوزن ويقدّر به الأشياء ، والمراد به بقرينة ذيل الآية والآيات التالية هو الدين المشتمل عليه الكتاب حيث يوزن به العقائد والأعمال فتحاسب عليه ويجزى بحسبه الجزاء يوم القيامة فالميزان هو الدين باصوله وفروعه ، ويؤيده قوله تعالى :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان » الحديد : ٢٥ ، على ما هو ظاهر قوله : « معهم » .

وقيل : المراد به العدل وسمّي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الناس والعدل كذلك وأيّد بسبق ذكر العدل في قوله : « وأمرت لأعدل بينكم » . وفيه أنه لا شاهد يشهد عليه من اللفظ ، وقد تقدم أن المراد بالعدل في « لأعدل » هو التسوية بين الناس في التبليغ وفي جريان الحكم دون عدل الحاكم والقاضي .

وقيل : المراد به الميزان المعروف المقدّر للأثقال . وهو كما ترى .

وقيل : المراد به النبي ﷺ ويمكن إرجاعه إلى ما قدمناه من الوجه لأن النبي مصداق كامل ومثل أعلى للدين باصوله وفروعه ولكل فرد من امّته من الزنة الدينية قدر ما يشابهه ويماثله لكن لا يلائم هذا الوجه ما تقدم نقله آنفاً من آية سورة الحديد كثير ملاءمة .

وقوله : « وما يدريك لعلّ الساعة قريب » لما كان الميزان المشعر بالحساب والجزاء يومي إلى البعث والقيامة انتقل إلى الكلام فيه وإنذارهم بما سيستقبلهم فيه من الأهوال والتبشير بما أعدّ فيه للصالحين .

والإدراء الإعلام ، والمراد بالساعة – على ما قيل – إتيانها ولذا جيء بالخبر مذكراً ، والمعنى : ما الذي يعلمك لعل إتيان الساعة قريب والخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل من له أن يسمع ويعمّ الإنذار والتخويف .

قوله تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها » الخ المراد استعجالهم استعجال سخرية واستهزاء وقد تكرر في القرآن نقل قولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

والإشفاق نوع من الخوف ، قال الراغب : الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه ، قال تعالى : « وهم من الساعة مشفقون » فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدي بفي فمعنى العناية فيه أظهر ، قال تعالى : « إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين » ، « مشفقون منها » انتهى .

وقوله : « ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد » المماراة الإصرار على الجدال ، والمراد إلحاحهم على إنكارها بالجدال ، وإنما كانوا في ضلال بعيد لأنهم أخطؤا

طريق الحياة التي إصابتها أهم ما يتصور للانسان فتوهموها حياة مقطوعة فانية انكبُّوا فيها على شهوات الدنيا وإنما هي حياة خالدة باقية يجب عليهم أن يتزوّدوا من دنياهم لاخراهم لكنهم ضلوا عن سبيل الرشد فوقعوا في سبيل الغيّ .

قوله تعالى : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز » في معنى اللطف شيء من الرفق وسهولة الفعل وشيء من الدقة في ما يقع عليه الفعل فإذا تمّ الرفق والدقة وكان الفاعل يفعل برفق وسهولة ويقع فعله على الامور الدقيقة كان لطيفاً كالهواء النافذ في منافذ الأجسام برفق وسهولة المماس لدقائق أجزائها الباطنة . وإذا ألقيت الخصوصيات المادية عن هذا المعنى صح أن يتصف به الله سبحانه فإنه تعالى ينال دقائق الامور بإحاطته وعلمه ويفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف .

وقد رتب الرزق في الآية على كونه تعالى لطيفاً بعباده قوياً عزيزاً دلالة على أنه تعالى بلطفه لا يغيب عنه أحد ممن يشاء أن يرزق ولا يعصيه وبقوته عليه لا يعجز عنه وبعزته لا يمنعه مانع عنه .

والمراد بالرزق ما يعمّ موهبة الدين الذي يتلبس بها من يشاء من عباده على ما يشهد به الآية التالية ، ولذا ألحق القول فيه بقوله : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » .

قوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه » الخ ، الحرث الزرع والمراد به نتيجة الأعمال التي يؤتاها الإنسان في الآخرة على سبيل الاستعارة كأن الأعمال الصالحة بذور وما تنتجه في الآخرة حرث .

والمراد بالزيادة له في حرثه تكثير ثوابه ومضاعفته ، قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ ، وقال : « والله يضاعف لمن يشاء » البقرة : ٢٦١ .

وقوله : « ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » أي ومن كان يريد النتائج الدنيوية بأن يعمل للدنيا ويريد نتيجة ما عمله فيها دون الآخرة نؤته من الدنيا وما له في الآخرة نصيب ، وفي التعبير بإرادة الحرث إشارة إلى اشتراط العمل لما يريده من الدنيا والآخرة كما قال تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » النجم : ٣٩ .

وقد ابهم مـا يعطيه من الدنيا إذ قال : « نؤته منها » إشارة إلى أن الأمر إلى المشية الإلهية فربما بسطت الرزق وربما قدرت كما قال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » أسرى : ١٨ .

والالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير في قوله « نزد له » و « نؤته منها » للدلالة على العظمة التي يشعر بها قوله : « وهو القوي العزيز » .

والمحصل من معنى الآيتين : أن الله سبحانه لطيف بعباده جميعاً ذو قوة مطلقة وعزّة مطلقة يرزق عباده على حسب مشيته وقد شاء في من أراد الآخرة وعمل لها أن يرزقه منها ويزيد فيه ، وفيمن أراد الدنيا وعمل لها فحسب أن يؤتيه منها وما له في الآخرة من نصيب .

ويظهر من ذلك أن الآية الاولى عامة تشمل الفريقين، والمراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا والآخرة ، وكذا الرزق وأن الآية الثانية في مقام تفصيل ما في قوله : « يرزق من يشاء » من الإجمال .

قوله تعالى : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » إلى آخر الآية لمـا بين أن الله سبحانه هو الذي أنزل الكتاب بالحق وشرع لهم الدين الذي هو ميزان أعمالهم وأنه بلطفه وقوته وعزته يرزق من أراد الآخرة وعمل لها ما أراده منها ويزيد، وأن من أراد الدنيا ونسي الآخرة لا نصيب له فيها سجّل على من كفر بالآخرة عدم النصيب فيها بإنكار أن لا دين غير ما شرعه الله يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخرة فيها إذ لا شريك لله حتى يشرع ديناً غير ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا لله ولا يرزق في الآخرة رزقاً حسناً إلا من آمن بها وعمل لها .

فقوله : « أم لهم شركاء » الخ ، في مقام الإنكار ، وقوله : « ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم » إشارة إلى الكلمة التي سبقت منه تعالى أنهم يعيشون في الأرض إلى أجل مسمّى ، وفيه إكبار لجرمهم ومعصيتهم .

وقوله : « وإن الظالمين لهم عذاب أليم » وعيد لهم على ظلمهم ، وإشارة إلى أنهم لا يفوتونه تعالى فإن لم يقض بينهم ولم يعذبهم في الدنيا فلهم في الآخرة عذاب أليم .

قوله تعالى : « ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم » الخ ، الخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل مَن مِن شأنه أن يرى ، والمراد بالظالمين التاركون لدين الله الذي شرعه لعباده المعرضون عن الساعة ، والمعنى: يرى الراؤن هؤلاء الظالمين يوم القيامة خائفين مما كسبوا من السيئات وهو واقع بهم لا مناص لهم عنه .

والآية من الآيات الظاهرة في تجسم الأعمال ، وقيل : في الكلام مضاف محذوف والتقدير مشفقين من وبال ما كسبوا ، ولا حاجة اليه .

وقوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات » في المجمع : إن الروضة الأرض الخضرة بحسن النبات ، والجنة الأرض التي تحفها الشجر فروضات الجنات الحدائق المشجرة المخضرة متونها .

وقوله : « لهم فيها ما يشاؤن عند ربهم » أي إن نظام الأسباب مطوي فيها بل السبب الوحيد هو إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده ما يشاؤن ذلك هو الفضل الكبير .

وقوله : « ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات » تبشير للمؤمنين الصالحين ، وإضافة العباد تشريفية .

قوله تعالى : قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » الذي نفي سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرسالة والدعوة الدينية ، وقد حكى الله ذلك عن عدة ممن قبله ﷺ من الرسل كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب فيما حكي مما يخاطب كل منهم امته : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين » الشعراء وغيرها .

وقد حكى عن النبي ﷺ ذلك إذ قال : « وما تسألهم عليه من أجر » يوسف: ١٠٤ ، وقد أمره ﷺ أن يخاطب الناس بذلك بتعبيرات مختلفة حيث قال : « قل ما أسألكم عليه من أجر » ص ٨٦ ، وقال: «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله » سبأ : ٤٧ ، وقال: « قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين» الأنعام : ٩٠ ، فأشار إلى وجه النفي وهو أنه ذكرى للعالمين لا يختص ببعض دون بعض حتى يتخذ عليه الأجر .

وقال : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا »

الفرقان : ٥٧ ، ومعناه على ما مر في تفسير الآية : إلا أن يشاء أحد منكم أن يتخذ إلى ربه سبيلاً أي يستجيب دعوتي باختياره فهو أجري أي لا شيء هناك وراء الدعوة أي لا أجر .

وقال تعالى في هذه السورة : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى » فجعل أجر رسالته المودة في القربى ، ومن المتيقن من مضامين سائر الآيات التي في هذا المعنى أن هذه المودة أمر يرجع إلى استجابة الدعوة إما استجابة كلها وإما استجابة بعضها الذي يهتم به وظاهر الاستثناء على أي حال أنه متصل بدعوى كون المودة من الأجر ولا حاجة إلى ما تمحّله بعضهم بتقريب الانقطاع فيه .

وأما معنى المودة في القربى فقد اختلف فيه تفاسيرهم :

فقيل – ونسب إلى الجمهور – أن الخطاب لقريش والأجر المسؤل هو مودّتهم للنبي ﷺ لقرابته منهم وذلك لأنهم كانوا يكذبونه ويبغضونه لتعرّضه لآلهتهم على ما في بعض الأخبار فامِر ﷺ أن يسألهم: إن لم يؤمنوا به فليودُّوه لمكان قرابته منهم ولا يبغضوه ولا يؤذوه فالقربى مصدر بمعنى القرابة ، وفي للسببية .

وفيه أن معنى الأجر إنما يتم إذا قوبل به عمل يمتلكه معطي الأجر فيعطي العامل ما يعادل ما امتلكه من مال ونحوه فسؤال الأجر من قريش وهم كانوا مكذبين له كافرين بدعوته إنما كان يصح على تقدير إيمانهم به ﷺ لأنهم على تقدير تكذيبه والكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيئاً حتى يقابلوه بالأجر ، وعلى تقدير الإيمان به – والنبوة أحد الاصول الثلاثة في الدين – لا يتصور بغض حتى تجعل المودة أجراً للرسالة ويسأل .

وبالجملة لا تحقق لمعنى الأجر على تقدير كفر المسؤلين ولا تحقق لمعنى البغض على تقدير إيمانهم حتى يسألوا المودة .

وهذا الإشكال وارد حتى على تقدير أخذ الاستثناء منقطعاً فإن سؤال الأجر منهم على أي حال إنما يتصور على تقدير إيمانهم والاستدراك على الانقطاع إنما هو عن الجملة بجميع قيودها فأجد التأمل فيه .

وقيل : المراد بالمودة في القربى ما تقدم والخطاب للأنصار فقد قيل : إنهم

أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآية فردّه ، وقد كان له منهم قرابة من جهة سلمى بنت زيد النجارية ومن جهة أخوال أمه آمنة على ما قيل .

وفيه أن أمر الأنصار في حبهم للنبي ﷺ أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب وهم الذين سألوه أن يهاجر اليهم ، وبوّؤا له الدار ، وفدوه بالأنفس والأموال والبنين وبذلوا كل جهدهم في نصرته وحتى في الإحسان على من هاجر إليهم من المؤمنين به ، وقد مدحهم الله تعالى بمثل قوله : « والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » الحشر : ٩ ، وهـذا مبلغ حبهم للمهاجرين إليهم لأجل النبي ﷺ فما هو الظنُّ في حبهم له ؟

وإذا كان هذا مبلغ حبهم فما معنى أن يؤمر النبي ﷺ أن يتوسل إلى مودّتهم بقرابته منهم هذه القرابة البعيدة ؟

على أن العرب ما كانت تعتني بالقرابة من جهة النساء ذاك الإعتناء وفيهم القائل:

بنونا بنو أبنائنـا وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

والقائل :

وإنما امهات الناس أوعية مستودعات وللأنساب آباء

وإنما هو الإسلام أدخل النساء في القرابة وساوى بين أولاد البنين وأولاد البنات وقد تقدم الكلام في ذلك .

وقيل : الخطاب لقريش والمودّة في القربى هي المودّة بسبب القرابة غـير أن المراد بها مودة النبي ﷺ لا مودة قريش كما في الوجه الأول ، والاستثناء منقطع ، ومحصل المعنى : أني لا أسألكم أجراً على ما أدعوكم اليه من الهدى الذي ينتهي بكم إلى روضات الجنات والخلود فيها ولا أطلب منكم جزاء لكن حبي لكم بسبب قرابتكم مني دفعني إلى أن أهديكم اليه وأدلكم عليه .

وفيه أنه لا يلائم ما يجده الله سبحانه له ﷺ في طريق الدعوة والهداية فإنه تعالى يسجل عليه في مواضع كثيرة من كلامه أن الأمر في هداية الناس إلى الله وليس له من الأمر شيء وأن ليس له أن يحزن لكفرهم وردهم دعوته وإنما عليه البلاغ فلم يكن

له أن يندفع إلى هداية أحد لحب قرابة أو يعرض عن هداية آخرين لبغض أو كراهة ومع ذلك كله كيف يتصور أن يأمره الله بقوله : « قل لا أسألكم » الآية أن يخبر كفار قريش أنه إنما اندفع إلى دعوتهم وهدايتهم بسبب حبه لهم لقرابتهم منه لا لأجر يسألهم إياه عليه .

وقيل : المراد بالمودة في القربى مودة الأقرباء والخطاب لقريش أو لعامة الناس والمعنى : لا أسألكم على دعائي أجراً إلا أن تودوا أقرباءكم .

وفيه أن مودة الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب اليه في الإسلام قال تعالى : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » المجادلة :٢٢ ، وسياق هذه الآية لا يلائم كونها مخصصة أو مقيدة لعموم قوله : « إلا المودة في القربى » أو إطلاقه حتى تكون المودة للأقرباء المؤمنين هي أجر الرسالة على أن هذه المودة الخاصة لا تلائم خطاب قريش أو عامة الناس .

بل الذي يفيده سياق الآية أن الذي يندب اليه الإسلام هو الحب في الله من غير أن يكون للقرابة خصوصية في ذلك ، نعم هناك اهتمام شديد بأمر القرابة والرحم لكنه بعنوان صلة الرحم وإيتاء المال، على حبه ذوي القربى لا بعنوان مودة القربى فلا حب إلا لله عز اسمه .

ولا مساغ للقول بأن المودة في القربى في الآية كناية عن صلتهم والإحسان اليهم بإيتاء المال إذ ليس في الكلام ما يدفع كون المراد هو المعنى الحقيقي غير الملائم لما ندب اليه الإسلام من الحب في الله .

وقيل : معنى القربى هو التقرب إلى الله ، والمودة في القربى هي التودّد اليه تعالى بالطاعة والتقرب فالمعنى : لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودّدوا اليه تعالى بالتقرب اليه .

وفيه أن في قوله : « إلا المودة في القربى » على هذا المعنى إبهاماً لا يصلح به أن يخاطب به المشركون فإن حاق مدلوله التودد اليه – أو وده تعالى – بالتقرب اليه والمشركون لا ينكرون ذلك بل يرون ما هم عليه من عبادة الآلهة تودداً اليه بالتقرب

منه فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » الزمر : ٣ ، « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » يونس : ١٨ .

فسؤال التودد إلى الله بالتقرب اليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده، وجعل ذلك أجراً مطلوباً ممن يرى شركه نوع تودد إلى الله بالتقرب اليه ، وخطابهم بذلك على ما فيه من الإبهام – والمقام مقام تمحيضه ﷺ نفسه في دعوتهم إلى دين التوحيد لا يسألهم لنفسه شيئاً قط – مما لا يرتضيه الذوق السليم .

على أن المستعمل في الآية هو المودة دون التودد فالمراد بالمودة حبهم لله في التقرب اليه ولم يرد في كلامه تعالى إطلاق المودة على حب العباد لله سبحانه وإن ورد العكس كما في قوله : « إن ربي رحيم ودود » هود : ٩٠ ، وقوله : « وهو الغفور الودود » البروج : ١٤، ولعل ذلك لما في لفظ المودة من الإشعار بمراعاة حال المودود وتعاهده وتفقده ، حتى قال بعضهم – على ما حكاه الراغب – إن مودة الله لعباده مراعاته لهم .

والإشكال السابق على حاله ولو فسرت المودة في القربى بموادة الناس بعضهم بعضاً ومحابتهم في التقرب إلى الله بأن تكون القربات أسباباً للمودة والحب فيما بينهم فإن للمشركين ما يماثل ذلك فيما بينهم على ما يعتقدون .

وقيل : المراد بالمودة في القربى ، مودة قرابة النبي ﷺ وهم عترته من أهل بيته عليهم السلام وقد وردت به روايات من طرق أهل السنة وتكاثرت الأخبار من طرق الشيعة على تفسير الآية بمودتهم وموالاتهم ، ويؤيده الأخبار المتواترة من طرق الفريقين على وجوب موالاة أهل البيت عليهم السلام ومحبتهم .

ثم التأمل الكافي في الروايات المتواترة الواردة من طرق الفريقين عن النبي ﷺ المتضمنة لإرجاع الناس في فهم كتاب الله بما فيه من اصول معارف الدين وفروعها وبيان حقائقه إلى أهل البيت عليهم السلام كحديث الثقلين وحديث السفينة وغيرهما لا يدع ريباً في أن إيجاب مودتهم وجعلها أجراً للرسالة إنما كان ذريعة إلى إرجاع الناس إليهم فيما كان لهم من المرجعية العلمية .

فالمودة المفروضة على كونها أجراً للرسالة لم تكن أمراً وراء الدعوة الدينية

من حيث بقائها ودوامها ، فالآية في مؤدّاها لا تغـــاير مؤدّى سائر الآيات النافية لسؤال الأجر .

ويؤول معناها إلى أني لا أسألكم عليه أجراً إلا أن الله لما أوجب عليكم مودة عامة المؤمنين ومن جملتهم قرابتي فإني أحتسب مودّتكم لقرابتي وأعدّهـا أجراً لرسالتي ، قال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودّاً » مريم : ٩٦ وقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » التوبة : ٧١ .

وبذلك يظهر فساد ما اورد على هذا الوجه أنه لا يناسب شأن النبوة لما فيه من التهمة فإن أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه مـا يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم .

وأيضاً فيه منافاة لقوله تعالى : « وما تسألهم عليه من أجر » يوسف : ١٠٤ .

وجه الفساد أن إطلاق الأجر عليها وتسميتها به إنمـا هو بحسب الدعوى وأما بحسب الحقيقة فلا يزيد مدلول الآية على ما يدل عليه الآيات الاخر النافية لسؤال الأجر كما عرفت وما في ذلك من النفع عائد إليهم فلا مورد للتهمة .

على أن الآية على هـــذا مدنية خوطب بها المسلمون وليس لهم أن يتهموا نبيهم المصون بعصمة إلهية – بعـد الإيمان به وتصديق عصمته – فيما يأتيهم به من ربهم ولو جاز اتهامهم له في ذلك وكان ذلك غير مناسب لشأن النبوة لا يصلح لأن يخاطب به، لاطّرد مثل ذلك في خطابات كثيرة قرآنية كالآيات الدالة على فرض طاعته المطلقة والدالة على كون الأنفال والغنائم لله ولرسوله ، والدالة على خمس ذوي القربى ، وما ابيح له في أمر النساء وغير ذلك .

على أنه تعالى تعرض لهذه التهمة ودفعها في قوله الآتي : « أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشإ الله يختم على قلبك » الآية على ما سيأتي .

وهب أنّا صرفنا الآية عن هذا المعنى بحملها على غيره دفعاً لما ذكر من التهمة فما هو الدافع لها عن الأخبار التي لا تحصى كثرة الواردة من طرق الفريقين في إيجاب مودة أهل البيت عنه ﷺ ؟

وأما منافاة هذا الوجه لقوله تعالى : « وما تسألهم عليه من أجر » فقد اتضح

بطلانه ممـــا ذكرناه ، والآية بقياس مدلولها إلى الآيات النافية لسؤال الأجر نظيرة قوله تعـالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخـذ إلى ربه سبيلا » الفرقان : ٥٧ .

قال في الكشاف بعـــد اختياره هذا الوجه : فإن قلت : هلا قيل : إلا مودة القربى أو إلا المودة للقربى ، وما معنى قوله : إلا المودة في القربى ؟

قلت : جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقولك: لي في آل فلان مودة ، ولي فيهم هوى وحب شديد ، تريد احبهم وهم مكان حبي ومحله .

قال : وليست في بصلة للمودة كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى . إنمـــا هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك : المال في الكيس ، وتقديره : إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها . انتهى .

قوله تعالى : « ومن يقترف حسنة نزد له فيهـــا حسناً إن الله غفور شكور » الاقتراف الاكتساب ، والحسنة الفعلة التي يرتضيها الله سبحانه ويثيب عليها ، وحسن العمل ملاءمته لسعادة الإنسان والغاية التي يقصدها كما أن مساءته وقبحه خــلاف ذلك ، وزيادة حسنها إتمـام ما نقص من جهاتها وإكماله ومن ذلك الزيادة في ثوابها كما قال تعـالى : « ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون » العنكبوت : ٧ ، وقال : « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله » النور : ٣٨ .

والمعنى : ومن يكتسب حسنة نزد له في تلك الحسنة حسناً ــ برفع نقـــائصها وزيادة أجرها ــ إن الله غفور يمحو السيئات شكور يظهر محاسن العمل من عامله .

وقيل : المراد بالحسنة مودة قربى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويؤيده ما في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام أن قوله : « قل لا أسألكم عليه أجراً » إلى تمام أربع آيات نزلت في مودة قربى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولازم ذلك كون الآيات مدنية وأنها ذات سياق واحد وأن المراد بالحسنة من حيث انطباقها على المورد هي المودة ، وعلى هــذا فالإشارة بقوله : « أم يقولون افترى » الخ ، إلى بعض ما تفوّه به المنافقون تثاقلاً عن قبوله وفي المؤمنين سمّاعون لهم ، وبقوله : « وهو الذي يقبل التوبة » إلى آخر الآيتين إلى توبة الراجعين منهم وقبولها .

وفي قوله : « إن الله غفور شكور » التفات من التكلم إلى الغيبة والوجه فيه الإشارة إلى علة الإتصاف بالمغفرة والشكر فإن المعنى : إن الله غفور شكور لأنه الله عزّ اسمه .

قوله تعالى : « أم يقولون افترى على الله كذباً » إلى آخر الآية أم منقطعة ، والكلام مسوق للتوبيخ ولازمه إنكار كونه ﷺ مفترياً على الله كذباً .

وقوله : « فإن يشإ الله يختم على قلبك » معناه على ما يعطيه السياق أنك لست مفترياً على الله كذباً فإنه ليس لك من الأمر شيء حتى تشاء الفرية فتأتي بها وإنما هو وحي من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع والأمر إلى مشيّته تعالى فإن يشأ يختم على قلبك وسدّ باب الوحي إليك ، لكنه شاء أن يوحي إليك ويبيّن الحق ، وقد جرت سنّته أن يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته .

فقوله : « فإن يشإ الله يختم على قلبك » كناية عن إرجاع الأمر إلى مشيّة الله وتنزيه لساحة النبي ﷺ أن يأتي بشيء من عنده .

وهذا المعنى – كما ترى – أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقربى قرابة النبي ﷺ والتوبيخ متوجهاً إلى المنافقين ومرضى القلوب .

وقد ذكروا في معنى الجملة وجوهاً أخر :

منها : ما ذكره الزمخشري في الكشاف حيث فسّر قوله : « فإن يشإ الله يختم على قلبك » بقوله : فإن يشإ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يفتري على الله الكذب إلا من كان في مثل حالهم .

وهذا الاسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم ، ومثال هذا أن يخوّن بعض الامناء فيقول : لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب وإنما يريد استبعاد أن يخوّن مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم . انتهى .

ومنها ما قيل : إن المعنى لو حدّثت نفسك بأن تفتري على الله الكذب لطبع

الله على قلبك ولأنساك القرآن فكيف تقدر أن تفتري على الله ، وهذا كقوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » .

ومنها ما قيل : إن معناه فإن يشإ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم : إنه مفتر وساحر ، وهي وجوه لا تخلو من ضعف .

ومنها ما قيل : إن المعنى فإن يشإ الله يختم على قلبك كما ختم على قلوبهم وهو تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليشكر ربه على ما آتاه من النعمة .

ومنها ما قيل : إن المعنى فإن يشإ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم ويعاجلهم بالعذاب ، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب وعن الجمع إلى الأفراد ، والمراد : يختم على قلبك أيها القائل : إنه افترى على الله كذباً .

وقوله : « ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته » : الإتيان بالمضارع – يمحو ويحق – للدلالة على الاستمرار ، فمحو الباطل وإحقاق الحق بالكلمات سنّة جارية له تعالى والمراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحي الإلهي والتكليم الربوبي ويمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث إنها مفصحة عن الضمير الغيبي .

وقوله : « إنه عليم بذات الصدور » تعليل لقوله : « ويمح الله الباطل الخ » أي إنه يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته لأنه عليم بالقلوب وما انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم بإنزال الوحي وتوجيه الدعوة .

قيل : وفي الآية إشعار بوعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالنصر ولا يخلو من وجه .

قوله تعالى : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » يقال : قبل منه وقبل عنه قال في الكشاف : يقال : قبلت منه الشيء وقبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه ، ومعنى قبلته عنه عزلته وأبنته عنه . انتهى .

وفي قوله : « ويعلم ما تفعلون » تحضيض على التوبة وتحذير عن اقتراف السيئات والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد » فاعل «يستجيب» ضمير راجع اليه تعالى و«الذين آمنوا»

الخ » في موضع المفعول بنزع الخافض والتقدير ويستجيب للذين آمنوا – على ما قيل – وقيل : فاعل « يستجيب » هو « الذين » وهو بعيد من السياق .

والاستجابة إجابة الدعاء ولما كانت العبادة دعوة له تعالى عبّر عن قبولها بالاستجابة لهم ، والدليل على هذا المعنى قوله : « ويزيدهم من فضله » فإن ظاهره زيادة الثواب وكذا مقابلة استجابة المؤمنين بقوله : « والكافرون لهم عذاب شديد » .

وقيل: المراد أنه يستجيب لهم إذا دعوه وأعطاهم ما سألوه وزادهم على ما طلبوه وهو بعيد من السياق . على أن استجابة الدعاء لا يختص بالمؤمن .

(بحث روائي)

في المجمع روى زادان عن علي عليه السلام قال : فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن . ثم قرأ « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .

قال الطبرسي : وإلى هذا أشار الكميت في قوله :

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقي ومعرب

وفيه وصحّ عن الحسن بن علي عليهما السلام أنه خطب الناس فقال في خطبته : إنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » قال : هم الأئمة .

أقول: والأخبار في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جداً مروية عنهم .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : « إلا المودة في القربى » فقال سعيد بن جبير : هم قربى آل محمد فقال ابن عباس : عجلت إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة .

أقول : ورواه أيضاً عن ابن عباس بطرق أُخرى غير هذا الطريق ، وقد تقدم في بيان الآية أن هذا المعنى غير مستقيم ولا منطبق على سياق الآية ، ومن العجيب ما في بعض هذه الطرق أن الآية منسوخة بقوله تعالى : « قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله » .

وفيه أخرج أبو نعيم والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى أن تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم لي .

وفيه أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » قالوا : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم قال : علي وفاطمة وولداها .

أقول : ورواه الطبرسي في المجمع وفيها « ووُلدها » مكان « وولداها » .

وفيه أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين أسيراً فاقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي بن الحسين : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت آل حم ؟ قال : نعم قال : أما قرأت « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » ؟ قال : فإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس «ومن يقترف حسنة» قال: المودة لآل محمد.

أقول: وروى ما في معناه في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام.

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن محمد بن مسلم قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله عز وجل : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » يعني في أهل بيته .

قال : جاءت الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : إنا قد آوينا ونصرنا فخذ طائفة من أموالنا فاستعن بها على ما نابك فأنزل الله عز وجل « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي » أي في أهل بيته .

ثم قـال : ألا ترى أن الرجل يكون له صديق وفي نفس ذلك الرجل شيء على أهل بيته فلا يسلم صدره فأراد الله عز وجل أن لا يكون في نفس رسول الله ﷺ شيء على أمته ففرض الله عليهم المودة في القربى فإن أخذوا أخذوا مفروضاً ، وإن تركوا تركوا مفروضاً .

قال: فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول : عرضنا عليه أموالنا فقال: لا. قاتلوا عن أهل بيتي من بعدي ، وقال طائفة : ما قال هـذا رسول الله وجحدوه وقالوا كما حكى الله عز وجل : « أم يقولون افترى على الله كذباً » فقال عز وجل : « فإن يشإ الله يختم على قلبك » قـال : لو افتريت « ويمح الله الباطل » يعني يبطله « ويحق الحق بكلماته » يعني بالأئمة والقائم من آل محمد عليهم السلام « إنه عليم بذات الصدور » .

أقول: وروى قصة الأنصار السيوطي في الدر المنثور عن الطبراني وابن مردويه من طريق ابن جبير وضعّفه .

* * *

وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّـهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ـ ٢٧ . وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ـ ٢٨ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ـ ٢٩ . وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَـةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ـ ٣٠ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ـ ٣١ . وَمِنْ آيَاتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ ـ ٣٢ . إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ

فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ــ ٣٣.
أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ــ ٣٤. وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ
فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ــ ٣٥ . فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ
ٱلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ــ ٣٦ . وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا
غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ــ ٣٧ . وَالَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ــ ٣٨ . وَالَّذِينَ إِذَا
أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ــ ٣٩ . وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ
عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ــ ٤٠ . وَلَمَنِ
ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ــ ٤١ . إِنَّمَا السَّبِيلُ
عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ــ ٤٢ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
ٱلْأُمُورِ ــ ٤٣ . وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى
الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ــ ٤٤ .
وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ
وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ــ ٤٥ . وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ

أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ـ ٤٦ . إِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ـ ٤٧ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ـ ٤٨ . لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ـ ٤٩ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ـ ٥٠ .

(بيان)

صدر الآيات متصل بحديث الرزق المذكور في قوله : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء» وقد سبقه قوله: «له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» وقد تقدمت الإشارة إلى أن من الرزق نعمة الدين التي آتاها الله سبحانه عباده المؤمنين وبهذه العناية دخل الكلام فيه في الكلام على الوحي الذي سيقت لبيانه آيات السورة وانعطف عليه انعطافاً بعد انعطاف .

ثم يذكر بعض آيات التوحيد المتعلقة بالرزق كخلق السماوات والأرض وبثّ الدواب فيها والسفائن الجواري في البحر وإيتاء الأولاد الذكور والإناث أو إحداهما لمن يشاء وجعل من يشاء عقيماً .

ثم يذكر أن من الرزق ما آتاهموه في الدنيا وهو متاعها الفاني بفنائها ومنه ما يخصّ المؤمنين في الآخرة وهو خير وأبقى ، وينتقل الكلام من هنا إلى صفات المؤمنين

وحسن عاقبتهم وإلى وصف ما يلقاه الظالمون وهم غيرهم في عقباهم من أهوال القيامة وعذاب الآخرة .

ووراء ذلك في خلال الآيات من إجمال بعض الأحكام والإنذار والتخويف والدعوة إلى الحق وحقائق المعارف شيء كثير .

قوله تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزّل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير » القدر مقابل البسط معناه التضييق ومنه قوله السابق: « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » والقدر بفتح الدال وسكونها كميّة الشيء وهندسته ومنه قوله : « ولكن ينزّل بقدر ما يشاء » أو جعل الشيء على كميّة معينة ومنه قوله: « فقدرنا فنعم القادرون » المرسلات : ٢٣ .

والبغي الظلم ، وقوله : « بعباده » من وضع الظاهر موضع الضمير ، والنكتة فيه الإشارة إلى بيان كونه خبيراً بصيراً بهم وذلك أنهم عباده المخلوقون له القائمون به فلا يكونون محجوبين عنه مجهولين له ، وكذا قوله السابق : « لعباده » لا يخلو من إشارة إلى بيان إيتاء الرزق وذلك أنهم عباده ورزق العبد على مولاه .

ومعنى الآية : ولو وسّع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بإيتائه لظلموا في الأرض — لما أن من طبع سعة المال الأشر والبطر والاستكبار والطغيان كما قال تعالى: « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » العلق : ٧ — ولكن ينزّل ما يشاء من الرزق بقدر وكمية معينة إنه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقه كل عبد وما يصلحه من غنى أو فقر فيؤتيه ذلك .

ففي قوله : « ولكن ينزّل بقدر ما يشاء » بيان للسنّة الإلهية في إيتاء الرزق بالنظر إلى صلاح حال الناس أي إن لصلاح حالهم أثراً في تقدير أرزاقهم ، ولا ينافي ذلك ما نشاهد من طغيان بعض المثرين ونماء رزقهم على ذلك فإن هناك سنّة اخرى حاكمة على هذه السنة وهي سنة الابتلاء والامتحان، قال تعالى: « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » التغابن : ١٥ ، وسنّة اخرى هي سنة المكر والاستدراج ، قال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يشعرون وأملي لهم إن كيدي متين » الأعراف : ١٨٣ .

فسنة الإصلاح بتقدير الرزق سنة ابتدائية يصلح بها حال الإنسان إلا أن يمتحنه

الله كما قال : « وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم » آل عمران : ١٥٤ أو يغيّر النعمة ويكفر بها فيغيّر الله في حقه سنته فيعطيه ما يطغيه ، قال تعالى: « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ .

وكما أن إيتاء المال والبنين وسائر النعم الصورية من الرزق المقسوم كذلك المعارف الحقة والشرائع السماوية المنتهية إلى الوحي من حيث إنزالها ومن حيث الابتلاء بها والتلبّس بالعمل بها من الرزق المقسوم .

فلو نزلت المعارف والأحكام عن آخرها دفعة واحدة – على ما لها من الإحاطة والشمول لجميع شؤن الحياة الإنسانية – لشقّت على الناس ولم يؤمن بها إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه أنزلها على رسوله ﷺ تدريجاً وعلى مكث وهيّأ بذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض ، قال تعالى: « وقرآناً فرّقناه لتقرأه على الناس على مكث » أسرى : ١٠٦ .

وكذا المعارف العالية التي هي في بطون المعارف الساذجة الدينية لو لم يضرب عليها بالحجاب وبيّنت لعامة الناس على حد الظواهر المبينة لهم لم يتحملوها ودفعته أفهامهم إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه كلّمهم في ذلك نوع تكليم يستفيد منه كلّ على قدر فهمه وسعة صدره كما قال في مثل ضربه في ذلك : « أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها » الرعد : ١٧ .

وكذلك الأحكام والتكاليف الشرعية لو كلّف بجميعها جميع الناس لتحرّجوا منها ولم يتحمّلوها لكنه سبحانه قسّمها بينهم حسب تقسيم الابتلاءات المقتضية لتوجّه التكاليف المتنوّعة بينهم .

فالرزق بالمعارف والشرائع من أي جهة فرض كالرزق الصوري مفروز بين الناس مقدّر على حسب صلاح حالهم .

قوله تعالى : « وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليّ الحميد » القنوط اليأس ، والغيث المطر ، قال في مجمع البيان : الغيث ما كان نافعاً في وقته ، والمطر قد يكون نافعاً وقد يكون ضارّاً في وقته وغير وقته. انتهى. ونشر الرحمة تفريق النعمة بين الناس بإنبات النبات وإخراج الثمار التي يكون سببها المطر .

وفي الآية انتقال من حديث الرزق إلى آيات التوحيد التي لها تعلّق ما بالأرزاق، ويتلوها في هذا المعنى آيات ، وتذييل الآية بالاسمين: الوليّ الحميد وهما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه في فعله الجميل .

قوله تعالى : «ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بثّ فيهما من دابّة» الخ، البث التفريق ، ويقال : بثّ الريح التراب إذا أثاره ، والدابة كل ما يدبّ على الأرض فيعمّ الحيوانات جميعاً ، والمعنى ظاهر .

وظاهر الآية أن في السموات خلقاً من الدواب كالأرض ، وقول بعضهم : إن ما في السموات من دابة هي الملائكة يدفعه أن إطلاق الدواب على الملائكة غير معهود .

وقوله : « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» إشارة إلى حشر ما بثّ فيهما من دابة وقد عبّر بالجمع لمقابلته البث الذي هو التفريق ، ولا دلالة في قوله : « على جمعهم » حيث أتى بضمير أولي العقل على كون ما في السموات من الدواب أولي عقل كالإنسان لقوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » الأنعام : ٣٨ .

والقدير من أسمائه تعالى الحسنى وهو الذي أركزت فيه القدرة وثبتت ، قال الراغب : القدرة إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما ، وإذا وصف الله بها فهي نفي العجز عنه ، ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنى وإن أطلق عليه لفظاً بل حقه أن يقال : قادر على كذا ، ومتى قيل : هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد، ولهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصحّ أن يوصف بالعجز من وجه والله تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجه .

والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى قال: « إنه على ما يشاء قدير»، والمقتدر يقاربه نحو « عند مليك مقتدر » لكن قد يوصف به البشر، وإذا استعمل في الله فمعناه معنى القدير وإذا استعمل في البشر فمعناه المتكلف والمكتسب للقدرة ، انتهى .

وهو حسن غير أن في قوله : إن القدرة إذا وصف بها الله فهي نفي العجز عنه مساهلة ظاهرة فإن صفاته تعالى الذاتية كالحياة والعلم والقدرة لها معان إيجابية هي عين

الذات لا معان سلبية حتى تكون الحياة بمعنى انتفاء الموت والعلم بمعنى انتفاء الجهل والقدرة بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابئون ولازمه خلوّ الذات عن صفات الكمال.

فالحق أن معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء ، ولازم هذا المعنى الإيجابي انتفاء مطلق العجز عنه تعالى .

قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » المصيبة النائبة تصيب الإنسان كأنها تقصده ، والمراد بما كسبت أيديكم المعاصي والسيئات، وقوله : « ويعفو عن كثير » أي عن كثير مما كسبت أيديكم وهي السيئات.

والخطاب في الآية اجتماعي موجّه الى المجتمع غير منحلّ الى خطابات جزئية ولازمه كون المراد بالمصيبة التي تصيبهم المصائب العامة الشاملة كالقحط والغلاء والوباء والزلازل وغير ذلك .

فيكون المراد أن المصائب والنوائب التي تصيب مجتمعكم ويصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم والله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها .

فالآية في معنى قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » الروم : ٤١ ، وقوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا » الأعراف : ٩٦ ، وقوله : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ ، وغير ذلك من الآيات الدالة على أن بين أعمال الإنسان وبين النظام الكوني ارتباطاً خاصاً فلو جرى المجتمع الإنساني على ما يقتضيه الفطرة من الاعتقاد والعمل لنزلت عليه الخيرات وفتحت عليه البركات ولو أفسدوا أُفسد عليهم .

هذا ما تقتضيه هذه السنة الإلهية إلا أن ترد عليه سنة الابتلاء أو سنة الاستدراج والإملاء فينقلب الأمر ، قال تعالى : « ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا السرّاء والضراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » الأعراف : ٩٥ .

ويمكن أن يكون الخطاب في الآية عامّاً منحلاً الى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كل إنسان بمصيبة في نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه وما يتعلق به مستنداً الى معصية أتى بها وسيئة عملها ويعفو الله عن كثير منها .

وكيف كان فالخطاب في الآية لعامة الناس من المؤمن والكافر وهو الذي يفيده السياق وتؤيده الآية التالية هـذا أولاً ، والمراد بما كسبته الأيدي المعاصي والسيئات دون مطلق الأعمال ، وهذا ثانياً ، والمصائب التي تصيب إنما هي آثار الأعمال في الدنيا لما بين الأعمال وبينها من الارتباط والتداعي دون جزاء الأعمال وهذا ثالثاً .

وبما ذكر يندفع أولاً مـا استشكل على عموم الآية بالمصائب النازلة على الأنبياء عليهم السلام وهم معصومون لا معصية لهم ، المصائب النازلة على الأطفال والمجانين وهم غير مكلفين بتكليف فلا معصية لهم فيجب تخصيص الآية بمصائب الأنبياء ومصائب الأطفال والمجانين .

وجه الاندفاع أن إثبات المعصية لهم في قوله :« فبما كسبت أيديكم » دليل على أن الخطاب في الآية لمن يجوز عليه صدور المعصية فلا يشمل المعصومين وغير المكلفين من رأس فعدم شمول الآية لهم من باب التخصص دون التخصيص .

وثانياً ما قيل: إن مقتضى الآية مغفرة ذنوب المؤمنين جميعاً فإنها بين ما يجزون عليها بإصابة المصائب وما يعفى عنها .

وجه الاندفاع أن الآية مسوقة لبيان ارتباط المصائب بالمعاصي وكون المعاصي ذوات آثار دنيوية سيئة منها ما يصيب الإنسان ولا يخطىء ومنها ما يعفى عنـه فلا يصيب لأسباب صارفة وحكم مانعة كصلة الرحم والصدقة ودعاء المؤمن والتوبة وغير ذلك مما وردت به الأخبار ، وأما جزاء الأعمال فالآية غير ناظرة اليه كما تقدم .

على أن الخطاب في الآية يعم المؤمن والكافر كما تقدمت الإشارة اليه ، ولا معنى لتبعضها في الدلالة فتدل على المغفرة في المؤمن وعدمها في الكافر .

وبعد هذا كله فالوجه الأول هو الأوجه .

قوله تعالى : « وما أنتم بمعجزين في الأرض ومـا لكم من دون الله من ولي ولا نصير » ، معنى الآية ظاهر وهي باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون الله حتى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم وليس لكم من دونـه من ولي يتولى أمركم فيدفع عنكم المصائب ولا نصير ينصركم ويعينكم على دفعها .

قوله تعالى : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام» ، الجواري جمع جارية وهي

السفينة ، والأعلام جمع علم وهو العلامة ويسمى به الجبل وشبهت السفائن بالجبال لعظمها وارتفاعها والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » الخ ، ضمير « يشأ » لله تعالى ، وظل بمعنى صار ، و « رواكد » جمع راكدة وهي الثابتة في محلها والمعنى : إن يشأ الله يسكن الريح التي تجري بها الجواري فيصرن أي الجواري ثوابت على ظهر البحر .

وقوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور » أصل الصبر الحبس وأصل الشكر إظهار نعمة المنعم بقول أو فعل ، والمعنى : إنّ فيما ذكر من أمر الجواري من كونها جارية على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقلة للناس وأمتعتهم من ساحل إلى ساحل لآيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعنيه واشتغل بالتفكر في نعمه والتفكر في النعمة من الشكر .

وقيل : المراد بكل صبّار شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون في الضرّاء أو في السرّاء فإن كان في الضرّاء كان من الصابرين وإن كان في السرّاء كان من الشاكرين .

قوله تعالى : « أو يوبقهنّ بما كسبوا ويعف عن كثير » الإيباق الإهلاك ، وضمير التأنيث للجواري وضمير التذكير للناس ، ويوبقهن ويعف معطوفان على « يسكن » ، والمعنى: إن يشأ يهلك الجواري بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات ويعف عن كثير منها أي إن بعضها كاف في اقتضاء الإهلاك وإن عفى عن كثير منها .

وقيل : المراد بإهلاكها إهلاك أهلها إما مجازاً أو بتقدير مضاف ، و « يوبقهن » بالعطف على « يسكن » في معنى يرسل الرياح العاصفة فيوبقهم ، والمعنى : إن يشأ يسكن الريح الخ ، وإن يشأ يرسلها فيهلكهم بالإغراق وينج كثير منهم بالعفو ، والمحصّل : إن يشأ يسكن الريح أو يرسلها فيهلك ناساً بذنوبهم وينج ناساً بالعفو عنهم. ولا يخفى وجه التكلف فيه .

وقيل : إن « يعف » عطف على قوله: « يسكن الريح » إلى قوله : «بما كسبوا» ولذا عطف بالواو لا بأو ، والمعنى : إن يشأ يعاقبهم بالإسكان أو الإعصاف وإن يشأ يعف عن كثير . وهو في التكلف كسابقه .

قوله تعالى : « ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص » قيل : هو غاية معطوفة على اخرى محذوفة ، والتقدير نحو من قولنا : ليظهر بـــه قدرته ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من مفر ولا مخلص ، وهــذا كثير الورود في القرآن الكريم غير أن المعطوف فيما ورد فيه مقارن للام الغاية كقوله : « وليعلم الله الذين آمنوا » آل عمران : ١٤٠ .

وقوله : « وليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ .

وجوّز بعضهم أن يكون معطوفاً على جزاء الشرط بتقدير أن نحو إن جئتني أكرمك وأعطيك كذا وكذا بنصب أعطيك ، والمسألة نحوية خلافية فليرجع إلى ما ذكروه فيه .

قوله تعالى : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » الخ ، تفصيل لمـــا تقدم ذكره من الرزق وتقسيم له إلى ما عند النـــاس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن والكافر وما عند الله من رزق الآخرة المختص بالمؤمنين ، وفيه تخلص إلى ذكر صفات المؤمنين وذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامة .

فقوله : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » الخطاب للنـــاس على ما يفيده السياق دون المشركين خاصة ، والمراد بما أوتيتم من شيء جميع ما أعطيه الناس ورزقوه من النعيم ، وإضافة المتاع إلى الحياة للإشارة إلى انقطاعه وعدم ثباته ودوامه ، والمعنى: فكل شيء أعطيتموه مما عندكم متاع تتمتعون به في أيام قلائل .

وقوله : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » المراد بمـــا عنــــد الله ما ادّخره الله ثواباً ليثيب به المؤمنين ، واللام في « للذين آمنوا » للملك والظرف لغو ، وقيل اللام متعلق بقوله : « أبقى » والأول أظهر ، وكون ما عند الله خيراً لكونه خالصاً من الألم والكدر وكونه أبقى لكونه أدوم غير منقطع الآخر .

قوله تعالى: «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون» عطف على قوله : «الذين آمنوا» والآية وآيتان بعدها تعدّ صفات المؤمنين الحسنة وقول بعضهم أنه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق .

وكبائر الإثم المعاصي الكبيرة التي لها آثار سوء عظيمة وقد عدّ تعالى منها شرب

الخمر والميسر ، قال تعالى : « قل فيهما إثم كبيرٌ » البقرة : ٢١٩ ، والفواحش جمع فاحشة وهي المعصية الشنيعة النكراء وقد عدّ تعالى منها الزنا واللواط قال : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة » أسرى : ٣٢ ، وقال حاكياً عن لوط : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون » النمل : ٥٤ .

وقوله : « يجتنبون كبائر الإثم والفواحش » وهو في سورة مكية إشارة إلى إجمال ما سيفصّل من تشريع تحريم كبائر المعاصي والفواحش .

وفي قوله : « وإذا غضبوا هم يغفرون » إشارة إلى العفو عند الغضب وهو من أخصّ صفات المؤمنين ولذا عبّر عنه بما عبّر ولم يقل : ويغفرون إذا غضبوا ففي الكلام جهات من التأكيد وليس قصراً للمغفرة عند الغضب فيهم .

قوله تعالى : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة » الخ ، الاستجابة هي الإجابة واستجابتهم لربهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحة — على ما يفيده السياق — وذكر إقامة الصلاة بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه .

على أن الظاهر أن الآيات مكية ولم يشرّع يومئذ أمثال الزكاة والخمس والصوم والجهاد ، وفي قوله : « والذين استجابوا لربهم » من الإشارة إلى إجمال الأعمال الصالحة المشرّعة نظير ما تقدّم في قوله : « والذين يجتنبون » الخ ، ونظير الكلام جار في الآيات التالية .

وقوله : « وأمرهم شورى بينهم » قال الراغب : والتشاور والمشاورة والمشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم : شِرت العسل إذا أخذته من موضعه واستخرجته منه ، قال تعالى : « وشاورهم في الأمر » والشورى الأمر الذي يتشاور فيه ، قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » انتهى . فالمعنى : الأمر الذي يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه ، ويظهر من بعضهم أنه مصدر ، والمعنى : وشأنهم المشاورة بينهم .

وكيف كان ففيه إشارة إلى أنهم أهل الرشد وإصابة الواقع يُمعنون في استخراج صواب الرأي بمراجعة العقول فالآية قريبة المعنى من قول الله تعالى : « الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه » الزمر : ١٨ .

وقوله : « ومما رزقناهم ينفقون » إشارة إلى بذل المال لمرضات الله .

قوله تعالى : «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون» قال الراغب : الانتصار والاستنصار طلب النصرة . انتهى . فالمعنى : الذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصرة من الآخرين وإذا كانوا متفقين على الحق كنفس واحدة فكأن الظلم أصاب جميعهم فطلبوا المقاومة قباله وأعدّوا عليه النصرة .

وعن بعضهم أن الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم وتخاصم واستبق وتسابق والمعنى عليه ظاهر .

وكيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافي المغفرة عند الغضب المذكورة في جملة صفاتهم فإن المقاومة دون الظلم وسد بابه عن المجتمع لمن استطاعه والانتصار والتناصر لأجله من الواجبات الفطرية ، قال تعالى : « وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر » الأنفال: ٧٢، وقال: «فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله» الحجرات:٩.

قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » إلى آخر الآية بيان لما جعل للمنتصر في انتصاره وهو أن يقابل الباغي بما يماثل فعله وليس بظلم وبغي .

قيل : وسمي الثانية وهي ما يأتي بها المنتصر سيئة لأنها في مقابلة الاولى كما قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » البقرة : ١٩٤ ، وقال الزمخشري : كلتا الفعلتين : الاولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به ففيه رعاية لحقيقة معنى اللفظ وإشارة إلى أن مجازاة السيئة بمثلها إنما تحمد بشرط المماثلة من غير زيادة.

وقوله : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » وعد جميل على العفو والإصلاح ، والظاهر أن المراد بالإصلاح إصلاحه أمره فيما بينه وبين ربه ، وقيل : المراد إصلاحه ما بينه وبين ظالمه بالعفو والإغضاء .

وقوله : « إنه لا يحب الظالمين » قيل : فيه بيان أنه تعالى لم يرغّب المظلوم في العفو عن الظالم لميله إلى الظالم أو لحبه إياه ولكن ليعرض المظلوم بذلك لجزيل الثواب، ولحبه تعالى الإحسان والفضل .

وقيل : المراد أنه لا يحب الظالم في قصاص وغيره بتعدّيه عما هو له إلى ما ليس هو له .

والوجهان وإن كانا حسنين في نفسها لكن سياق الآية لا يساعد عليها وخاصة مع حيلولة قوله : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » بين التعليل والمعلل .

ويمكن أيضاً أن يكون قوله : « إنه لا يحب الظالمين » تعليلاً لأصل كون جزاء السيئة سيئة من غير نظر إلى المماثلة والمساواة .

قوله تعالى : « ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل – إلى قوله – من عزم الامور » ضمير « ظلمه » راجع إلى المظلوم. والإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله.

الآيات الثلاث تبيين ورفع لبس من قوله في الآية السابقة : « فمن عفى وأصلح فأجره على الله » فمن الجائز أن يتوهّم المظلوم أن في ذلك إلغاء لحق انتصاره فبيّن سبحانه بقوله أولاً : « ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل » أن لا سبيل على المظلومين ولا يجوّز لإبطال حقهم في الشرع الإلهي ، وإرجاع ضمير الإفراد الى الموصول أولاً باعتبار لفظه ، وضمير الجمع ثانياً باعتبار معناه .

وبين بقوله ثانياً : « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق » أن السبيل كله على الظالمين في الانتقام منهم للمظلومين، وأكد ذلك ذيلاً بقوله: « أولئك لهم عذاب أليم » .

وبين بقوله ثالثاً : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور » أن الدعوة إلى الصبر والعفو ليست إبطالاً لحق الانتصار وإنما هي إرشاد إلى فضيلة هي من أعظم الفضائل فإن في المغفرة الصبر الذي هو من عزم الامور ، وقد أكد الكلام بلام القسم أولاً وباللام في خبر إن ثانياً لإفادة العناية بمضمونه .

قوله تعالى : « ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده » الخ ، لما ذكر المؤمنين بأوصافهم وأنّ لهم عند الله رزقهم المدّخر لهم وفيه سعادة عقباهم التي هداهم الله اليها التفت إلى غيرهم وهم الظالمون الآيسون من تلك الهداية الموصلة إلى السعادة المحرومون من هذا الرزق الكريم فبين أن الله سبحانه أضلهم لكفرهم وتكذيبهم فلا ينتهون إلى ما عنده من الرزق ولا يسعدهم به وليس لهم من دونه من ولي حتى يتولى أمرهم

ويرزقهم ما حرّمهم الله من الرزق ، فهم صفر الأكف يتمنون عند مشاهدة العذاب الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً فيكونوا أمثال المؤمنين .

فقوله: «ومن يضلل الله » الخ، من قبيل وضع السبب وهو إضلال الله لهم وعدم ولي آخر يتولى أمرهم فيهديهم ويرزقهم موضع المسبب وهو الهداية والرزق .

وقوله : « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل » إشارة إلى تمنيهم الرجوع إلى الدنيا بعد اليأس عن السعادة ومشاهدة العذاب .

و «ترى» خطاب عام وجه إلى النبي ﷺ بما أنه راء ومعناه وترى ويرى كل من هوراء ، وفيه إشارة إلى أنهم يتمنون ذلك على رؤس الأشهاد ، والمرد هو الرد .

قوله تعالى : « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفيّ » ضمير « عليها » للنار للدلالة المقام عليها وخفي الطرف ضعيفه وإنما ينظر من طرف خفي . إلى المكاره المهولة من ابتلي بها فهو لا يريد أن ينصرف فيغفل عنها ولا يجترىء أن يمتلىء بها بصره كالمبصور ينظر إلى السيف ، والباقي ظاهر .

وقولـه : « وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » أي إن الخاسرين كل الخسران وبحقيقته هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها عن النجاة وأهليهم بعدم الانتفاع بهم يوم القيـــامة . وقيل أهلوهم أزواجهم من الحور وخدمهم في الجنة لو آمنوا ولا يخلو من وجه نظراً إلى آيات وراثة الجنة .

وهذا القول المنسوب الى المؤمنين إنما يقولونه يوم القيامة – والتعبير بلفظ الماضي لتحقق الوقوع –لا في الدنيا كما يظهر من بعضهم فليس لاستناده تعالى الى مقالة المؤمنين في الدنيا وجه في مثل المقام ، وليس القائلون به جميع المؤمنين كائنين من كانوا وإنما هم الكاملون منهم المأذون لهم في الكلام الناطقون بالصواب محضاً كأصحاب الأعراف وشهداء الأعمال قال تعالى : « يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه » هود : ١٠٥ . وقال: « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وقال صواباً » النبأ : ٣٨ .

فلا يصغى إلى ما قيل : إن القول المذكور إنمـــا نسب إلى المؤمنين للدلالة على ابتهاجهم بما رزقوا يومئذ من الكرامة ونجوا من الخسران وإلا فالقول قول كل من يتأتى منه القول من أهل الجمع كما أن الرؤية المذكورة قبله رؤية كل من تتأتى منه الرؤية .

وقوله: « ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » تسجيل عليهم بالعذاب وأنه دائم غير منقطع ، وجوّز أن يكون من تمام كلام المؤمنين .

قوله تعالى : « وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله » الخ، هذا التعبير أعني قوله : « وما كان لهم » الخ ، دون أن يقال : وما لهم من ولي كما قيل أولاً للدلالة على ظهور بطلان دعواهم ولاية أوليائهم في الدنيا وأن ذلك كان باطلاً من أول الأمر .

وقوله: «ومن يضلل الله فما له من سبيل» صالح لتعليل صدر الآية وهو كالنتيجة لجميع ما تقدم من الكلام في حال الظالمين في عقباهم ، ونوع انعطاف إلى ما سبق من حديث تشريع الشريعة والسبيل بالوحي .

فهو كناية عن أنه لا سبيل إلى السعادة إلا سبيل الله الذي شرعه لعباده من طريق الوحي والرسالة فمن أضلّه عن سبيله لكفره وتكذيبه بسبيله فلا سبيل له يهتدي به إلى سعادة العقبى والتخلص من العذاب والهلاك .

قوله تعالى : « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير » دعوة وإنذار بيوم القيامة المذكور في الآيات السابقة على ما يعطيه السياق ، وقول بعضهم : إن المراد باليوم يوم الموت غير وجيه .

وفي قوله : « لا مردّ له من الله » « لا » لنفي الجنس و « مرد » اسمه و « له » خبره و « من الله » حال من « مرد » ، والمعنى : يوم لا ردّ له من قبل الله أي إنه مقضي محتوم لا يردّه الله البتة فهو في معنى ما تكرر في كلامه تعالى من وصف يوم القيامة بأنه لا ريب فيه .

وقد ذكروا للجملة أعني قوله: «يوم لا مرد له من الله» وجوهاً أخر من الإعراب لا جدوى في نقلها .

وقوله: « ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير » الملجأ الملاذ الذي يلتجأ اليه والنكير – كما قيل – مصدر بمعنى الإنكار ، والمعنى : ما لكم من ملاذ تلتجئون اليه من الله وما لكم من إنكار لما صدر منكم لظهور الأمر من كل جهة .

قوله تعالى : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ » عدول من خطابهم إلى خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإعلام أن ما حمّله من الأمر إنما هو التبليغ

لا أزيد من ذلك فقد أرسل مبلّغاً لدين الله إن عليه إلا البلاغ ولم يرسل حفيظاً عليهم مسؤلاً عن إيمانهم وطاعتهم حتى يمنعهم عن الإعراض ويتعب نفسه لإقبالهم عليه .

قوله تعالى : « وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم فإن الإنسان كفور » الفرح بالرحمة كناية عن الاشتغال بالنعمة ونسيان المنعم ، والمراد بالسيئة المصيبة التي تسوء الإنسان إذا أصابته، وقوله : « فإن الإنسان كفور » من وضع الظاهر موضع الضمير ، والنكتة فيه تسجيل الذمّ واللوم عليه بذكره باسمه .

وفي الآية استشعار بإعراضهم وتوبيخهم بعنوان الإنسان المشتغل بالدنيا فإنه بطبعه حليف الغفلة إن ذكّر بنعمة يؤتاها صرفه الفرح بها عن ذكر الله ، وإن ذكّر بسيئة تصيبه بما قدّمت يداه شغله الكفران عن ذكر ربه فهو في غفلة عن ذكر ربه في نعمة كانت أو في نقمة فكاد أن لا تنجح فيه دعوة ولا تنفع فيه موعظة .

قوله تعالى : « لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء » إلى آخر الآيتين ، للآيتين نوع اتصال بما تقدم من حديث الرزق لما أن الأولاد المذكورين فيها من قبيل الرزق.

وقيل: إنهما متصلتان بالآية السابقة حيث ذكر فيها إذاقة الرحمة وإصابة السيئة وأن الإنسان يفرح بالرحمة ويكفر في السيئة فذكر تعالى في هاتين الآيتين أن ملك السماوات والأرض لله سبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يذوق رحمته أن يفرح بها ويشتغل به ولا لمن أصابته السيئة أن يكفر ويعترض بل له الخلق والأمر فعلى المرحوم أن يشكر وعلى المصاب أن يرجع اليه .

ويبعّده أنه تعالى لم ينسب السيئة في الآية السابقة إلى نفسه بل إلى تقديم أيديهم فلا يناسبه نسبة القسمين جميعاً في هذه الآية إلى مشيّته ودعوتهم إلى التسليم لها .

وكيف كان فقوله : « لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء » فيه قصر الملك والسلطنة فيه تعالى على جميع العالم وأن الخلق منوط بمشيّته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشية أو يضطره على الخلق .

وقوله : « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور » الإناث جمع أنثى والذكور والذكران جمعا ذكر ، وظاهر التقابل أن المراد هبة الإناث فقط لمن يشاء وهبة الذكور

فقط لمن يشاء ولذلك كرّرت المشية ، قيل : وجه تعريف الذكور أنهم المطلوبون لهم المعهودون في أذهانهم وخاصة العرب .

وقوله : «أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً» أي يجمع بينهم حال كونهم ذكراناً وإناثاً معاً فالتزويج في اللغة الجمع ، وقوله : « ويجعل من يشاء عقيماً » أي لا يلد ولا يولد له ، ولما كان هـــذا أيضاً قسماً برأسه قيّده بالمشية كالقسمين الأولين ، وأما قسم الجمع بين الذكران والإناث فإنه بالحقيقة جمع بين القسمين الأولين فاكتفى بما ذكر من المشية فيهما.

وقوله : « إنه عليم قدير » تعليل لما تقدم أي إنه عليم لا يزيد ما يزيد لجهل قدير لا ينقص ما ينقص عن عجز .

(بحث روائي)

في الدرّ المنثور أخرج الحاكم وصحّحه والبيهقي عن علي قال : إنمـا أُنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » وذلك أنهم قالوا : لو أن لنا ، فتمنوا الدنيا .

أقول : والآية على هذا مدنية لكن الرواية أشبه بالتطبيق منها بسبب النزول .

وفي تفسير القمي قوله : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » قـال الصادق عليه السلام : لو فعل لفعلوا ولكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض واستعبدهم بذلك ولو جعلهم أغنياء لبغوا « ولكن ينزّل بقدر ما يشاء » مما يعلم أنـه يصلحهم في دينهم ودنياهم « إنه بعباده خبير بصير » .

وفي المجمع روى أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرئيل عن الله جلّ ذكره : إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ، وذلك أنـّي أدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم .

وفي تفسير القمي حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي حمزة

عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إني سمعته يقول : إني أحدثكم بحديث ينبغي لكل مسلم أن يعيه . ثم أقبل علينا فقال : ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا إلا كان الله أحكم وأجود وأمجد من أن يعود في عقابه يوم القيامة .

ثم قال : وقد يبتلي الله عز وجل المؤمن بالبلية في بدنه أو ماله أو ولده أو أهله ثم تلا هذه الآية : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » وحثا بيده ثلاث مرات .

وفي الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أما إنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب وذلك قول الله عز وجل في كتابه : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » قال : ثم قال : وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به .

أقول : وروى هذا المعنى بطريق آخر عن مسمع عنه عليه السلام ، وروى مثله في الدر المنثور عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولفظه : لما نزلت هذه الآية « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر.

وفي الكافي أيضاً بإسناده عن علي بن رئاب قال : سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » أرأيت ما أصاب علياً وأهل بيته عليهم السلام من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون ؟

فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتوب إلى الله ويستغفر في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب إن الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها .

وفي المجمع روي عن علي عليه السلام أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : خير آية في كتاب الله هذه الآية . يا علي ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلا بذنب ، وما عفى الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه ، وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثني على عبده .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن علي عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وفحوى الرواية أن قوله تعالى : « وما أصابكم » الآية خاص بالمؤمنين والخطاب

لهم وان مفاده غفران ذنوبهم كافة فلا يعاقبون عليها في برزخ ولا قيامة لأن الآية تقصر الذنوب في مأخوذ به بإصابة المصيبة ومعفو عنه ومفاد الرواية نفي المؤاخذة بعد المؤاخذة ونفي المؤاخذة بعد العفو .

فيشكل الأمر أولاً : من جهة ما عرفت أن الآية في سياق يفيد عموم الخطاب للمؤمن والكافر .

وثانياً : من جهة معارضة الرواية لما ورد في أخبار متكاثرة لعلها تبلغ حد التواتر المعنوي من أن من المؤمنين من يعذب في قبره أو في الآخرة .

وثالثاً : من جهة مخالفة الرواية لظواهر ما دلت من الآيات على أن موطن جزاء الأعمال هي الدار الآخرة كقوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » النحل : ٦١ ، وغيره من الآيات الدالة على أن كل مظلمة ومعصية مأخوذ بهـا وأن موطن الأخذ هو ما بعد الموت وفي القيامة إلا ما غفرت بالتوبة أو تذهب بحسنة أو بشفاعة في الآخرة أو نحو ذلك .

على أن الآية أعني قوله : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » – كما تقدمت الإشارة اليه – غير ظاهرة في كون إصابة المصيبة جزاء للعمل ولا في كون العفو بمعنى إبطال الجزاء وإنمـا هو الأثر الدنيوي للسيئة يصيب مرة ويمحى أخرى .

فالحري أن تحمل الرواية – لو قبلت – على الأخذ بحسن الظن بالله سبحانه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : ما من رجل يشاور أحداً إلا هدي إلى الرشد .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل : « يهب لمن يشاء إناثاً » يعني ليس معهن ذكور « ويهب لمن يشاء الذكور » يعني ليس معهم أنثى « أو يزوجهم ذكرانا واناثاً » أي يهب لمن يشاء ذكرانا وإناثاً جميعاً يجمع له البنين والبنات أي يهبهم جميعاً لواحد .

وفي التهذيب بإسناده عن الحسين بن علوان عن زيد بن علي عن آبائه عن علي

عليه‌السلام قال : أتى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم رجل فقال : يا رسول الله إن أبي عمد إلى مملوك لي فأعتقه كهيئة المضرة لي فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : أنت ومالك من هبة الله لأبيك أنت سهم من كنانته « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً » جازت عتاقة أبيك يتناول والدك من مالك وبدنك وليس لك أن تتناول من ماله ولا من بدنه شيئاً إلا بإذنه .

أقول : وهذا المعنى مروي عن الرضا عليه‌السلام في جواب مسائل محمد بن سنان في العلل ومروي من طرق أهل السنة عن عائشة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

* * *

وَمٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاّٰ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مٰا يَشٰاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ــ ٥١ . وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتٰابُ وَلَا ٱلْإِيمٰانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ ــ ٥٢ . صِرٰاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي ٱلْأَرْضِ أَلاٰ إِلَى اللهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ــ ٥٣ .

(بيان)

تتضمن الآيات آخر ما يفيده سبحانه في تعريف الوحي في هذه السورة وهو تقسيمه إلى ثلاثة أقسام : وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ثم يذكر أنه يوحي اليه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ما يوحي ، على هذه الوتيرة وأن ما أوحي اليه منه تعالى لم يكن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يعلم ذلك من نفسه بل هو نور يهدي به الله من يشاء من عباده ويهدي به النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بإذنه .

قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » الخ ، قد تقدم البحث عن معنى كلامه تعالى في الجزء الثاني من الكتاب ، وإطلاق الكلام على كلامه تعالى والتكليم على فعله الخاص سواء كان إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً واقع في كلامه تعالى قال: « يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي » الأعراف : ١٤٤ ، وقال : « وكلّم الله موسى تكليما» النساء : ١٦٤ ، ومن مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء عليهم السلام منه تعالى بالوحي.

وعلى هذا لا موجب لعدّ الاستثناء في قوله : « إلا وحياً » منقطعاً بل الوحي والقسمان المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً فكلٌ واحد من الوحي وما كان من وراء حجاب وما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر .

فقوله : « وحياً » – والوحي الإشارة السريعة على ما ذكره الراغب – مفعول مطلق نوعي وكذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعي ، والمعنى : ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلا هذه الأنواع الثلاثة أن يوحى وحياً أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء .

ثم إن ظاهر الترديد في الآية بأو هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام وقد قيّد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب، والرسول الذي يوحي إلى النبي ولم يقيّد القسم الأول بشيء فظاهر المقابلة يفيد أن المراد به التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينه تعالى وبين النبي أصلاً، وأما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحي وكل منهما واسطة غير أن الفارق أن الواسطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبي بنفسه والحجاب واسطة ليس بموحٍ وإنما الوحي من ورائه .

فتحصّل أن القسم الثالث « أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » وحي بتوسُّط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه قال تعالى: « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ ، وقال : « قل من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله » البقرة : ٩٧ ، والموحي مع ذلك هو الله سبحانه كما قال : « بما أوحينا اليك هذا القرآن » يوسف : ٣ .

وأما قول بعضهم: إن المراد بالرسول في قوله: « أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » هو النبي يبلغ النـــاس الوحي فـلا يلائمه قوله : « يوحي » إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النبي .

وأن القسم الثاني « أو من وراء حجاب » وحي مع واسطة هو الحجاب غير أن الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث وإنما يبتدىء الوحي مما وراءه لمكان من ، وليس وراء بمعنى خلف وإنما هو الخارج عن الشيء المحيط به ، قال تعالى : « والله من ورائهم محيط » البروج : ٢٠ ، وهذا كتـكليم موسى عليه السلام في الطور ، قال تعالى : « فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » القصص : ٣٠ ، ومن هذا الباب ما أوحي إلى الأنبياء في مناماتهم .

وأن القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينه وبين ربــه من رسول أو أي حجاب مفروض .

ولما كان للوحي في جميع هــذه الأقسام نسبة اليه تعالى على اختلافها صحّ إسناد مطلق الوحي اليه بأي قسم من الأقسام تحقق وبهذه العناية أسند جميع الوحي اليه في كلامه كما قال: «إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده» النساء : ١٦٣. وقال : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم » النحل : ٤٣ .

هــــذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة ، وللمفسرين فيها أبحاث طويلة الذيل ومشاجرات أضربنا عن الاشتغال بها من أرادها فليراجع المفصّلات .

وقوله : « إنه عليّ حكيم » تعليل لمضمون الآية فهو تعالى لعلوه عن الخلق والنظام الحاكم فيهم يجلّ أن يكلمهم كما يكلم بعضهم بعضاً ، ولعلوه وحكمته يكلمهم بما اختار من الوحي وذلك أن هداية كل نوع إلى سعادته من شأنه تعالى كما قال: « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقـــال : « وعلى الله قصد السبيل » النحل : ٩، وسعادة الإنسان الذي يسلك سبيل سعادته بالشعور والعلم في إعلام سعادته والدلالة إلى سنّة الحيـــاة التي تنتهي اليها ولا يكفي في ذلك العقل الذي من شأنه الإخطاء والإصابة فاختار سبحانه لذلك طريق الوحي الذي لا يخطىء البتة ، وقــد فصّلنا القول في هذه الحجة في موارد من هذا الكتاب .

قوله تعالى: «وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» الخ ، ظاهر السياق كون «كذلك» إشارة إلى ما ذكر في الآية السابقة من الوحي بأقسامه الثلاث ، ويؤيده الروايات الكثيرة الدالة على أنه ﷺ كما كان يوحى اليه بتوسط جبريل وهو القسم الثالث كان يوحى اليه في المنام وهو من القسم الثاني ويوحى اليه من دون توسط واسطة وهو القسم الأول .

وقيل : الإشارة الى مطلق الوحي النازل على الأنبياء وهـذا متعين على تقدير كون المراد بالروح هو جبريل أو الروح الأمري كما سيأتي .

والمراد بإيحاء الروح – على ما قيل – إيحـاء القرآن وأيّد بقوله : «ولكن جعلناه نوراً» الخ ، ومن هنا قيل : إن المراد بالروح القرآن .

لكن يبقى عليه أولاً : أنه لا ريب أن الكلام مسوق لبيان أن ما عندك من المعارف والشرائع التي تتلبس بها وتدعو الناس اليها ليس ممـا أدركته بنفسك وأبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزّل اليك بوحينا ، وعلى هـذا فلو كان المراد بالروح الموحى القرآن كان من الواجب الاقتصار على الكتاب في قوله : «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» لأن المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائداً مستغنى عنه .

وثانياً : أن القرآن وإن أمكن أن يسمى روحاً باعتبار إحيائـه القلوب بهداه كما قال تعالى : «إذا دعاكم لمـا يحييكم» الأنفال : ٢٤ ، وقال : «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في النـاس» الأنعام : ١٢٢ ، لكن لا وجه لتقيده حينئذ بقوله : «من أمرنا» والظاهر من كلامه تعالى أن الروح من أمره خلق من العالم العلوي يصاحب الملائكة في نزولهم ، قـال تعالى : «تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر» القدر : ٤ ، وقال : «يوم يقوم الروح والملائكة صفاً» النبأ : ٣٨ ، وقال : «قل الروح من أمر ربي» أسرى : ٨٥ ، وقـال : «وأيّدناه بروح القدس» البقرة : ٨٧ ، وقد سمي جبريل الروح الأمين وروح القدس حيث قـال : «نزل به الروح الأمين» الشعراء : ١٩٣ ، وقـال : «قل نزّله روح القدس من ربك» النحل : ١٠٢ .

ويمكن أن يجاب عن الأول بأن مقتضى المقـام وإن كان هو الاقتصار على ذكر

الكتاب فقط لكن لما كان إيمانه ﷺ بتفاصيل ما في الكتاب من المعارف والشرائع من لوازم نزول الكتاب غير المنفكة عنه وآثاره الحسنة صح أن يذكر مع الكتاب فالمعنى: وكذلك أوحينا اليك كتاباً ما كنت تدري ما الكتاب ولا ما تجده في نفسك من أثره الحسن الجميل وهو إيمانك به .

وعن الثاني أن المعهود من كلامه في معنى الروح وإن كان ذلك لكن حمل الروح في الآية على ذلك المعنى وإرادة الروح الأمري أو جبريل منه يوجب أخذ « أوحينا » بمعنى أرسلنا إذ لا يقال : أوحينا الروح الأمري أو الملك فلا مفر من كون الإيحاء بمعنى الإرسال وهو كما ترى فأخذ الروح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال والجوابان لا يخلوان عن شيء .

وقيل : المراد بالروح جبريل فإن الله سماه في كتابه روحاً قال :« نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ وقال : « قل نزّله روح القدس من ربك » .

وقيل : المراد بالروح الروح الأمري الذي ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ان أنذروا » النحل : ٢ ، فالمراد بإيحائه اليه إنزاله عليه .

ويمكن أن يوجه التعبير عن الإنزال بالإيحاء بأن أمره تعالى على مـا يعرّفه في قوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن » يس : ٨٢ ، هو كلمته ، والروح من أمره كما قال : « قل الروح من أمر ربي » أسرى: ٨٥ ، فهو كلمته ، وهو يصدق ذلك قوله في عيسى بن مريم عليه السلام : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » النساء : ١٧١ ، وإنزال الكلمة تكليم فلا ضير في التعبير عن إنزال الروح بإيحائه ، والأنبياء مؤيدون بالروح في أعمالهم كما أنهم يوحى اليهم الشرائع به قال تعالى :« وأيدناه بروح القدس » وقد تقدمت الإشارة اليه في تفسير قوله تعالى: « وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » الأنبياء : ٧٣ .

ويمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الانزال والارسال بالقول بكون قوله : « روحاً » منصوباً بنزع الخافض ورجوع ضمير «جعلناه» إلى القرآن المعلوم من السياق او الكتاب والمعنى وكذلك أوحينا اليك القرآن بروح منا ما كنت تدري ما الكتاب

وما الايمان ولكن جعلنا القرآن او الكتاب نوراً الخ » هـذا وما أذكر أحداً من المفسرين قال به .

وقوله : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » قد تقدم أن الآية مسوقة لبيان ان ما عنده صلى الله عليه وآله وسلم الذي يدعو اليه إنما هو من عند الله سبحانه لا من قبله نفسه وإنما أوتي ما أوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية فإن ذلك هو الذي اوتي العلم به بعد النبوة والوحي ، وبعدم درايته بالايمان عدم تلبّسه بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقة والأعمال الصالحة وقد سمي العمل إيماناً في قوله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم البقرة : ١٤٣ .

فالمعنى : ما كان عندك قبل وحي الروح الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقادي والعملي بمضامينه وهذا لا ينافي كونه صلى الله عليه وآله وسلم مؤمناً بالله موحداً قبل البعثة صالحاً في عمله فإن الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً ونفي العلم والالتزام التفصيليين لا يلازم نفي العلم والالتزام الاجماليين بالايمان بالله والخضوع للحق .

وبذلك يندفع ما استدل بعضهم بالآية على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان غير متلبّس بالايمان قبل بعثته .

ويندفع أيضاً ما عن بعضهم أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يزل كاملاً في نفسه علماً وعملاً وهو ينافي ظاهر الآية أنه ما كان يدري ما الكتاب ولا الايمان .

ووجه الاندفاع ان من الضروري وجود فرق في حاله صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوة وبعدها والآية تشير الى هذا الفرق ، وان ما حصل له بعد النبوة لا صنع له فيه وإنما هو من الله من طريق الوحي .

وقوله : « ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا » ضمير « جعلناه » للروح والمراد بقوله : « من نشاء » على تقدير ان يراد بالروح القرآن هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن آمن به فإنهم جميعاً مهتدون بالقرآن .

وعلى تقدير أن يراد به الروح الأمري فالمراد بمن نشاء جميع الأنبياء ومن آمن بهم

من أممهم فإنــه يهدي بالوحي الذي نزل به ، الأنبياء والمؤمنين من أممهم ويسدد الأنبياء خاصة ويهديهم إلى الأعمال الصالحة ويشير عليهم بها .

وعلى هذا تكون الآية في مقام تصديق النبي ﷺ تصدقه في دعواه أن كتابه من عند الله بوحي منه ، وتصدقه في دعواه أنه مؤمن بما يدعو اليه فيكون في معنى قوله تعالى : « إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم » يس : ٥ .

وقوله : « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » إشارة إلى أن الذي يهـــدي اليه صراط مستقيم وأن الذي يهديه من الناس هو الذي يهديه الله سبحانه ، فهدايته ﷺ هداية الله .

قوله تعالى : « صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » الخ ، بيان للصراط المستقيم الذي يهدي اليه النبي ﷺ ، وتوصيفه تعــالى بقوله : « الذي له ما في السماوات وما في الأرض » للدلالة على الحجة على استقامة صراطه فإنه تعالى لما ملك كل شيء ملك الغاية التي تسير اليها الأشياء والسعادة التي تتوجه اليها ، فكانت الغــاية والسعادة هي التي عيّنها ، وكان الطريق اليها والسبيل الذي عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذي شرعه وبيّنه ، وليس يملك أحد شيئاً حتى ينصب له غاية ونهاية أو يشرع له اليها سبيلاً ، فالسعادة التي يدعو سبحانه اليهــا حق السعادة والطريق الذي يدعو اليه حق الطريق ومستقيم الصراط .

وقوله : « ألا إلى الله تصير الامور » تنبيه على لازم ملكه لما في السماوات وما في الأرض فإن لازمه رجوع امورهم اليه ولازمه كون السبيل الذي يسلكونه – وهو من جملة امورهم – راجعاً اليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالمضارع أعني قوله : « تصير » للاستمرار .

وفيه إشعار بلمّ الوحي والتكليم الإلهي ، إذ لما كان مصير الأشياء اليه تعالى كان لكل نوع اليه تعالى سبيل يسلكه وكان عليه تعالى أن يهديه اليه ويسوقه إلى غايته كما قال : « وعلى الله قصد السبيل » النحل : ٩ ، وهو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته وهو في الإنسان التكليم المسمى بالوحي والإرسال .

وقيل : المضارع للاستقبال والمراد مصيرها جميعاً اليه يوم القيامة ، وقد سيقت الجملة لوعد المهتدين إلى الصراط المستقيم ووعيد الضالين عنه ، وأول الوجهين أظهر .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحياناً يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وهو أشده عليّ ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول :

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

وفي التوحيد بإسناده عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل عليه الوحي ؟ قال : فقال : ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد ذاك إذا تجلى الله له. قال: ثم قال: تلك النبوة يا زرارة وأقبل يتخشع .

وفي العلل بإسناده عن ابن أبي عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان جبرئيل إذا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قعد بين يديه قعدة العبد ، وكان لا يدخل حتى يستأذنه .

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال بعض أصحابنا : أصلحك الله كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : قال جبرئيل ، وهذا جبرئيل يأمرني ثم يكون في حال اخرى يغمى عليه ، فقال أبو عبد الله عليه السلام : إنه إذا كان الوحي من الله اليه ليس بينهما جبرئيل أصابه ذلك لثقل الوحي من الله ، وإذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك فقال : قال لي جبرئيل وهذا جبرئيل .

وفي البصائر عن علي بن حسان عن ابن بكير عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام مَن الرسول ؟ مَن النبي ؟ مَن المحدّث ؟ فقال : الرسول الذي يأتيه جبرئيل فيكلمه

قبلاً فيراه كما يرى أحدكم صاحبه الذي يكلمه فهـذا الرسول ، والنبي الذي يؤتى في النوم نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ، ونحو ما كان يأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من السبات إذا أتاه جبرئيل في النوم فهكذا النبي ، ومنهم من يجمع له الرسالة والنبوة فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً نبياً يأتيه جبرئيل قبلاً فيكلمه ويراه ، ويأتيه في النوم ، وأما المحدّث فهو الذي يسمع كلام الملك فيحدثه من غير أن يراه ومن غير أن يأتيه في النوم .

أقول : وفي معناه روايات أخر .

وفي التوحيد بإسناده عن محمـد بن مسلم ومحمد بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن جبرئيل من قبل الله إلا بالتوفيق .

وفي تفسير العياشي عن زرارة قـال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك ممـا ينزغ به الشيطان ؟ قال : فقال : إن الله إذا اتخـذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير قـال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » قـال : خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخبره ويسدده ، وهو مع الأئمة من بعده .

أقول : وفي معناها عدة روايات وفي بعضها أنه من الملكوت ، قـال في روح المعاني : ونقل الطبرسي عن أبي جعفر وأبي عبد الله أن المراد من هـذا الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يصعد إلى السماء ، وهـذا القول في غاية الغرابة ولعله لا يصح عن هذين الإمامين . انتهى . والذي في مجمع البيان: عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالا : ولم يصعد الى السماء وإنـه لفينا . انتهى . واستغرابه فيما لا دليل له على نفيه غريب . على أنه يسلم تسديد هـذا الروح لبعض الامة غير النبي كما هو ظاهر لمن راجع قسم الاشارات من تفسيره .

وفي النهج : ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله وسلم من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل وابن عساكر عن علي قال : قيل للنبي صلى الله عليه وآله : هل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا . قالوا : فهل شربت خمراً قط ؟ قال : لا . وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر وما كنت أدري ما الكتاب وما الإيمان ، وبذلك نزل القرآن « ما كنت تدري ما الكتاب وما الإيمان » .

وفي الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث ، وقال في نبيه صلى الله عليه وآله : « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » يقول : تدعو .

وفي الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول : وقع مصحف في البحر فوجدوه وقد ذهب ما فيه إلا هذه الآية : « ألا إلى الله تصير الامور » .

(سورة الزخرف مكية ، وهي تسع وثمانون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . حٰمٓ ــ ١ . وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ــ ٢ .
إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ــ ٣ . وَإِنَّهُ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ
لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ــ ٤ . أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنتُمْ
قَوْماً مُسْرِفِينَ ــ ٥ . وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ــ ٦ .
وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ــ ٧ . فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ
مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ــ ٨ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ــ ٩ . ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ــ ١٠ .
وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ
تُخْرَجُونَ ــ ١١ . وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ
وَٱلْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ــ ١٢ . لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ
رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا
لَهُ مُقْرِنِينَ ــ ١٣ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ــ ١٤ .

(بيان)

السورة موضوعة للإنذار كما تشهد به فاتحتها وخاتمتها والمقاصد المتخللة بينهما إلا ما في قوله: «إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم» إلى تمام ست آيات استطرادية.

تذكر أن السنّة الإلهية إنزال الذكر وإرسال الأنبياء والرسل ولا يصده عن ذلك إسراف الناس في قولهم وفعلهم بل يرسل الأنبياء والرسل ويهلك المستهزئين بهم والمكذبين لهم ثم يسوقهم الى نار خالدة .

وقد ذكرت إرسال الأنبياء بالإجمال أولاً ثم سمّي منهم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام ، وذكرت من إسراف الكفار أشياء ومن عمدتها قولهم بأن لله سبحانه ولداً وأن الملائكة بنات الله ففيها عناية خاصة بنفي الولد عنه تعالى فكرّرت ذلك وردّته وأوعدتهم بالعذاب ، وفيها حقائق متفرقة اخرى .

والسورة مكية بشهادة مضامين آياتها إلا قوله : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا » الآية ، ولم يثبت كما سيأتي إن شاء الله .

قوله تعالى : « والكتاب المبين » ظاهره أنه قسم وجوابه قوله : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » إلى آخر الآيتين ، وكون القرآن مبيناً هو إبانته وإظهاره طريق الهدى كما قال تعالى : « ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » النحل : ٨٩ ، أو كونه ظاهراً في نفسه لا يرتاب فيه كما قال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » البقرة : ٢ .

قوله تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » الضمير للكتاب ، و « قرآناً عربياً » أي مقروءاً باللغة العربية و « لعلكم تعقلون » غاية الجعل وغرضه .

وجعل رجاء تعقله غاية للجعل المذكور يشهد بأن له مرحلة من الكينونة والوجود لا ينالها عقول الناس ، ومن شأن العقل أن ينال كل أمر فكري وإن بلغ من اللطافة والدقة ما بلغ فمفاد الآية أن الكتاب بحسب موطنه الذي له في نفسه أمر وراء الفكر أجنبي عن العقول البشرية وإنما جعله الله قرآناً عربياً وألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه ، والرجاء في كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلم كما تقدم غير مرة .

قوله تعالى : « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » تأكيد وتبيين لما تدل عليه الآية السابقة أن الكتاب في موطنه الأصلي وراء تعقل العقول .

والضمير للكتاب ، والمراد بام الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢٢ ، وتسميته بام الكتاب لكونه أصل الكتب السماوية يستنسخ منه غيره ، والتقييد بام الكتاب و « لدينا » للتوضيح لا للاحتراز ، والمعنى : أنه حال كونه في أم الكتاب لدينا ــ حالاً لازمة ــ لعلي حكيم ، وسيجيء في أواخر سورة الجاثية كلام في أم الكتاب إن شاء الله .

والمراد بكونه علياً على ما يعطيه مفاد الآية السابقة أنه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول ، وبكونه حكيماً أنه هناك محكم غير مفصّل ولا مجزّي إلى سور وآيات وجمل و كلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآناً عربياً كما استفدناه من قوله تعالى: « كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير » هود : ١ .

وهذان النعتان أعني كونه علياً حكيماً هما الموجبان لكونه وراء العقول البشرية فإن العقل في فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم والألفاظ أولاً وكان مؤلفاً من مقدمات تصديقية يترتب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنية ، وأما إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ وكان غير متجزّ إلى أجزاء وفصول فلا طريق للعقل إلى نيله.

فمحصّل معنى الآيتين: أن الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع وإحكام لا تناله العقول لذينك الوصفين وإنما أنزلناه بجعله مقروّاً عربياً رجاء أن يعقله الناس .

فإن قلت: ظاهر قوله : « لعلكم تعقلون » إمكان تعقل الناس هذا القرآن العربي النازل تعقلاً تاماً فهذا الذي نقرؤه ونعقله إما أن يكون مطابقاً لما في ام الكتاب كل المطابقة أو لا يكون ، والثاني باطل قطعاً كيف ؟ وهو تعالى يقول : « وإنه في ام الكتاب » و « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢٢ ، و « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون» الواقعة : ٧٨ ، فتعيّن الأول ومع مطابقته لام الكتاب كل المطابقة ما معنى كون القرآن العربي الذي عندنا معقولاً لنا وما في ام الكتاب عند الله غير معقول لنا ؟

قلت: يمكن أن تكون النسبة بين ما عندنا وما في ام الكتاب نسبة المثل والممثل فالمثل هو الممثل بعينه لكن الممثل له لا يفقه إلا المثل فافهم ذلك .

وبما مرّ يظهر ضعف الوجوه التي أوردوها في تفسير الوصفين كقول بعضهم: إن المراد بكونه علياً أنه عالٍ في بلاغته مبين لما يحتاج اليه الناس ، وقول بعضهم : معناه أنه يعلو كل كتاب بما اختصّ به من الإعجاز وهو ينسخ الكتب غيره ولا ينسخه كتاب، وقول بعضهم يعني أنه يعظمه الملائكة والمؤمنون .

وكقول بعضهم في معنى « حكيم » أنه مظهر للحكمة البالغة ، وقول بعضهم معناه أنه لا ينطق إلا بالحكمة ولا يقول إلا الحق والصواب، ففي توصيفه بالحكيم تجوّز لغرض المبالغة . وضعف هذه الوجوه ظاهر بالتدبر في مفاد الآية السابقة وظهور أن جعله قرآناً عربياً بالنزول عن ام الكتاب .

قوله تعالى : « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين » الاستفهام للإنكار، والفاء للتفريع على ما تقدم، وضرب الذكر عنهم صرفه عنهم .قال في المجمع: وأصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابة فأراد أن يصرفه عن جهة ضربه بعصا أو سوط ليعدل به إلى جهة اخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف والعدل . انتهى . والصفح بمعنى الإعراض فصفحاً مفعول له ، واحتمل أن يكون بمعنى الجانب « وأن كنتم » محذوف الجار والتقدير لأن كنتم وهو متعلق بقوله : « أفنضرب » .

والمعنى : أفنصرف عنكم الذكر ـ وهو الكتاب الذي جعلناه قرآناً لتعقلوه ـ للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أفنصرفه عنكم إلى جانب لكونكم مسرفين أي إنا لا نصرفه عنكم لذلك .

قوله تعالى : « وكم أرسلنا من نبيّ في الأولين وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤن » « كم » للتكثير ، والأولون هم الامم الدارجة و « ما يأتيهم » الخ ، حال والعامل فيها « أرسلنا » .

والآيتان وما يتلوهما في مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم ببيان أن كونكم قوماً مسرفين لا يمنعنا من إجراء سنّة الهداية من طريق الوحي فإنا كثيراً ما أرسلنا من نبي في الامم الماضين والحال أنه ما يأتيهم من نبي إلا استهزؤا به وانجرّ الأمر الى ان أهلكنا من اولئك من هو أشد بطشاً منكم .

فكما كانت عاقبة إسرافهم واستهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبة اسرافكم ففي الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبي ﷺ ووعيد لقومه .

قوله تعالى : « فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين » قال الراغب : البطش تناول الشيء بصولة . انتهى وفي الآية التفات في قوله : « منهم » من الخطاب الى الغيبة ، وكأن الوجه فيه العدول عن خطابهم الى خطاب النبي ﷺ لعدم اعتبارهم بهذه القصص والعبر وليكون تمهيداً لقوله بعد : « ومضى مثل الأولين » ويؤيده قوله بعد : « ولئن سألتهم » خطاباً للنبي ﷺ . ومعنى قوله : « ومضى مثل الأولين » ومضى في السور النازلة قبل هذه السورة من القرآن وصف الامم الأولين وأنه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » في الآية وما يتلوها الى تمام ست آيات احتجاج على ربوبيته تعالى وتوحده فيها مع إشارة ما الى المعاد وتبكيت لهم على اسرافهم مأخوذ من اعترافهم بأنه تعالى هو خالق الكل ثم الأخذ بجهات من الخلق هي بعينها تدبير لامور العباد كجعل الأرض لهم مهداً وجعله فيها سبلاً وانزال الأمطار فينتج أنه تعالى وحده مالك مدبر لامورهم فهو الرب لا رب غيره .

وبذلك تبين أن الآية تقدمة وتوطئة لما تتضمنه الآيات التالية من الحجة وقد تقدم فيهذا الكتاب مراراً أن الوثنية لا تنكر رجوع الصنع والايجاد اليه تعالى وحده وانما تدعي رجوع أمر التدبير الى غيره .

قوله تعالى : « الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون » اي جعل لكم الأرض بحيث تربّون فيها كما يربى الأطفال في المهد ، وجعل لكم في الأرض سبلاً وطرقاً تسلكونها وتهتدون بها الى مقاصدكم .

وقيل : معنى « لعلكم تهتدون » رجاء أن تهتدوا الى معرفة الله وتوحيده في العبادة والأول أظهر .

وفي الكلام التفات الى خطاب القوم بعد صرف الخطاب عنهم الى النبي ﷺ ولعل الوجه فيه إظهار العناية بهذا المعنى في الخلقة وهو أن التدبير بعينه من الخلق فاعترافهم بكون الخلق مختصاً بالله سبحانه وقولهم برجوع التدبير الى غيره من خلقه من التهافت في القول جهلاً فقرعهم بهذا الخطاب من غير واسطة .

قوله تعالى : « والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون » قيّد تنزيل الماء بقدر للاشارة الى أنه عن ارادة وتدبير لا كيف اتفق والانشار الاحياء ، والميت مخفف الميت بالتشديد ، وتوصيف البلدة به باعتبار أنها مكان لأن البلدة أيضاً انما تتصف بالموت والحياة باعتبار أنها مكان ، والالتفات عن الغيبة الى التكلم مع الغير في « أنشرنا » لاظهار العناية .

ولما استدل بتنزيل الماء بقدر واحياء البلدة الميتة على خلقه وتدبيره استنتج منه أمراً آخر لا يتم التوحيد الا به وهو المعاد الذي هو رجوع الكل اليه تعالى فقال : « كذلك تخرجون » أي كما أحيا البلدة الميتة كذلك تبعثون من قبوركم أحياء .

قيل: في التعبير عن اخراج النبات بالانشار الذي هو احياء الموتى وعن احيائهم بالاخراج تفخيم لشأن الانبات وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح منهاج القياس .

قوله تعالى : « والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » قيل : المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذكر وانثى وأبيض وأسود وغيرها ، وقيل : المراد الزوج من كل شيء فكل ما سوى الله كالفوق وتحت واليمين واليسار والذكر والانثى زوج .

وقوله: « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » أي تركبونه ، والركوب اذا نسب الى الحيوان كالفرس والابل تعدى بنفسه فيقال : ركبت الفرس واذا نسب الى مثل الفلك والسفينة تعدى بفي فيقال ركب فيه قال تعالى: «واذا ركبوا في الفلك» ففي قوله : « ما تركبون » أي تركبونه تغليب لجانب الأنعام .

قوله تعالى : « لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا – إلى قوله – لمنقلبون » الاستواء على الظهور الاستقرار عليها ، والضمير في « ظهوره » راجع الى لفظ الموصول في « ما تركبون » ، والضمير في قوله : « إذا استويتم عليه » للموصول أيضاً فكما يقال : استويت على ظهر الدابة يقال : استويت على الدابة .

والمراد بذكر نعمة الرب سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك والأنعام ذكر النعم التي ينتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المراكب كالانتقال من مكان الى

مكان وحمل الأثقال قال تعالى : « وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره » إبراهيم : ٣٢ ، وقال : « والأنعام خلقها – الى أن قال – وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » النحل : ٧ ، أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم اليه .

وقوله : « وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين » أي مطيقين والإقران الإطاقة .

وظاهر ذكر النعمة عند استعمالها والانتفاع بها شكر منعمها ولازم ذلك أن يكون ذكر النعمة غير قول : « سبحان الذي » الخ ، فإن هذا القول تسبيح وتنزيه له عما لا يليق بساحة كبريائه وهو الشريك في الربوبية والالوهية ، وذكر النعمة شكر – كما تقدم – والشكر غير التنزيه .

ويؤيد هذا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام في ما يقال عند الاستواء على المركوب فإن الروايات على اختلافها تتضمن التحميد وراء التسبيح يقول « سبحان الذي » الخ .

وروى في الكشاف عن الحسن بن علي عليهما السلام أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال: سبحان الذي سخّر لنا هذا فقال : أبهذا أمرتم ؟ فقال : وبم أمرنا ؟ قال: أن تذكروا نعمة ربكم .

وقوله : « وإنا الى ربنا لمنقلبون » أي صائرون شهادة بالمعاد .

* * *

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ـــ ١٥ .
أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِٱلْبَنِينَ ـــ ١٦ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ـــ ١٧ . أَوَمَنْ
يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ـــ ١٨ . وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ

الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ ـ ١٩ . وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ـ ٢٠ . أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ـ ٢١ . بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلٰى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلٰى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ـ ٢٢ . وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلٰى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلٰى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ـ ٢٣ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدٰى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ـ ٢٤ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ـ ٢٥ .

(بيان)

حكاية بعض أقوالهم التي دعاهم الى القول بها الإسراف والكفر بالنعم وهو قولهم بالولد وأن الملائكة بنات الله سبحانه ،واحتجاجهم على عبادتهم الملائكة ورده عليهم.

قوله تعالى : «وجعلوا له من عباده جزء إن الإنسان لكفور مبين» المراد بالجزء الولد فإن الولادة إنما هي الاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته.

وإنما عبّر عن الولد بالجزء للإشارة الى استحالة دعواهم ، فإن جزئية شيء من شيء كيفما تصورت لا تتم الا بتركب في ذلك الشيء والله سبحانه واحد من جميع الجهات.

وقد بان بما تقدم أن « من عباده » بيان لقوله : « جزء » ولا ضير في تقدمّ هذا النوع من البيان على المبين ولا في جمعية البيان وإفراد المبين .

قوله تعالى : « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين » أي أخلصكم للبنين

فلكم بنون وليس له إلا البنات وأنتم ترون أن البنت أخسّ من الابن فتثبتون له أخس الصنفين وتخصون أنفسكم بأشرفها ، وهذا مع كونه قولاً محالاً في نفسه إزراء وإهانة ظاهرة وكفران .

وتقييد اتخاذ البنات بكونه مما يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة – على ربوبيتهم والوهيتهم – مخلوقين لله ، والالتفات في الآية الى خطابهم لتأكيد الإلزام وتثبيت التوبيخ ، والتنكير والتعريف في « بنات » و « البنين » للتحقير والتفخيم .

قوله تعالى : « وإذا بشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » المثل هو المثل والشبه المجانس للشيء وضرب الشيء مثلاً أخذه مجانساً للشيء « وما ضرب للرحمان مثلاً » الانثى ، والكظيم المملوء كرباً وغيظاً .

والمعنى: وحالهم أنه إذا بشّر أحدهم بالانثى الذي جعلها شبهاً مجانساً للرحمان صار وجهه مسوداً من الغم وهو مملوء كرباً وغيظاً لعدم رضاهم بذلك وعدّه عاراً لهم لكنهم يرضونه له .

والالتفات في الآية الى الغيبة لحكاية شنيع سيرتهم وقبيح طريقتهم للغير حتى يتعجب منه .

قوله تعالى : « أو من ينشؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » أي أوجعلوا لله سبحانه من ينشؤ في الحلية أي يتربى في الزينة وهو في المخاصمة والمحاجة غير مبين لحجته لا يقدر على تقرير دعواه .

وإنما ذكر هذين النعتين لأن المرأة بالطبع أقوى عاطفة وشنقة وأضعف تعقلاً بالقياس إلى الرجل وهو بالعكس ومن أوضح مظاهر قوة عواطفها تعلقها الشديد بالحلية والزينة وضعفها في تقرير الحجة المبني على قوة التعقل .

قوله تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثاً الخ » ، هذا معنى قولهم : إن الملائكة بنات الله وقد كان يقول به طوائف من عرب الجاهلية وأما غيرهم من الوثنية فربما عدوا في آلهتهم إلهة هي ام إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع الملائكة إناثاً كما هو ظاهر المحكي في الآية الكريمة .

وإنما وصف الملائكة بقوله : « الذين هم عباد الرحمان » رداً لقولهم بانوثتهم لأن الإناث لا يطلق عليهن العباد ، ولا يلزم منه اتصافهم بالذكورة بالمعنى الذي يتصف به

الحيوان فإن الذكورة والانوثة اللتين في الحيوان من لوازم وجوده المادي المجهز للتناسل وتوليد المثل ، والملائكة في معزل من ذلك .

وقوله : « أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون » رد لدعواهم الانوثة في الملائكة بأن الطريق الى العلم بذلك الحس وهم لم يروهم حتى يعلموا بهـا فلم يكونوا حاضرين عند خلقهم حتى يشاهدوا منهم ذلك .

فقوله : « أشهدوا خلقهم الخ » استفهام إنكاري ووعيد على قولهم بغير علم أي لم يشهدوا خلقهم وستكتب في صحائف أعمالهم هذه الشهادة عليهم ويسألون عنـه يوم القيامة .

قوله تعالى : « وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » حجة عقلية داحضة محكية عنهم يمكن أن تقرر تارة لإثبات صحة عبادة الشركاء بأن يقال : لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ما عبدناهم ضرورة لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته لكنا نعبدهم فهو لم يشأ ذلك وعدم مشيته عدم عبادتهم إذن في عبادتهم فلا منع من قبله تعالى عن عبادة الشركاء والملائكة منهم ، وهذا المعنى هو المنساق الى الذهن من قوله في سورة الأنعام : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء » الأنعام : ١٤٨ ، على ما يعطيه السياق ما قبله وما بعده .

وتقرّر تارة لإبطال النبوة القـائلة أن الله يوجب عليكم كذا وكذا ويحرّم عليكم كذا كذا بأن يقال لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ولا نحلّ ولا نحرّم شيئاً لم نعبـد الشركاء ولم نضع من عندنا حكماً لاستحالة تخلّف مراده تعالى عن إرادته لكنّا نعبدهم ونحلّ ونحرّم أشياء فلم يشإ الله سبحانه منا شيئاً ، فقول إن الله يأمركم بكذا وينهاكم عن كذا وبالجملة إنه شاء كذا باطل .

وهـذا المعنى هو الظاهر المستفاد من قوله تعالى في سورة النحل : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء » النحل : ٣٥ ، بالنظر إلى السياق .

وقولهم في محكيّ الآية المبحوث عنها : « لو شاء الرحمان ما عبدناهم » على مـا يفيده سياق الآيات السابقة واللاحقة مسوق للاحتجاج على المعنى الأول وهو تصحيح

عبادتهم للملائكة فيكون في معنى آية سورة الأنعام وأخصّ منها .

وقوله : « ما لهم بذلك من علم » أي هو منهم قول مبني على الجهل فإنه مغالطة خلطوا فيها بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية وأخذ الاولى مكان الثانية ، فمقتضى الحجة أن لا إرادة تكوينية منه تعالى متعلقة بعدم عبادتهم الملائكة وانتفاء تعلّق هذا النوع من الإرادة بعدم عبادتهم لهم لا يستلزم انتفاء تعلق الإرادة التشريعية به .

فهو سبحانه لما لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالإرادة التكوينية كانوا مختارين غير مضطرّين على فعل أو ترك فأراد منهم بالإرادة التشريعية أن يوحّدوه ولا يعبدوا الشركاء ، والإرادة التشريعية لا يستحيل تخلف المراد عنها لكونها اعتبارية غير حقيقية ، وإنما تستعمل في الشرائع والقوانين والتكاليف المولوية ، والحقيقة التي تبتني عليها هي اشتمال الفعل على مصلحة أو مفسدة .

وبما تقدم يظهر فساد ما قيل: إن حجتهم مبنية على مقدمتين: الاولى أن عبادتهم للملائكة بمشيّته تعالى ، والثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى وقد أصابوا في الاولى وأخطاوا في الثانية حيث جهلوا أن المشيّة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائناً ما كان من غير اعتبار الرضا والسخط في شيء من الطرفين .

وجه الفساد : أن مضمون الحجة عدم تعلق المشية على ترك العبادة وعدم تعلق المشية بالترك لا يستلزم تعلق المشية بالفعل بل لازمه الإذن الذي هو عدم المنع من الفعل. ثم إن ظاهر كلامه قصر الإرادة في التكوينية وإهمال التشريعية التي عليها المدار في التكاليف المولوية وهو خطأ منه .

ويظهر أيضاً فساد ما نسب إلى بعضهم أن المراد بقولهم : « لو شاء الرحمان ما عبدناهم» الاعتذار عن عبادة الملائكة بتعلق مشية الله بها مع الاعتراف بكونها قبيحة.

وذلك أنهم لم يكونوا مسلّمين لقبح عبادة آلهتهم حتى يعتذروا عنها وقد حكي عنهم ذيلاً قولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أُمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

وقوله : « إن هم إلا يخرصون » الخرص – على ما يظهر من الراغب – القول على الظن والتخمين ، وفسّر أيضاً بالكذب .

قوله تعالى : « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » ضمير «من قبله»

للقرآن ، وفي الآية نفي أن يكون لهم حجة من طريق النقل كما أن في الآية السابقة نفي حجتهم من طريق العقل ، ومحصّل الآيتين أن لا حجة لهم على عبادة الملائكة لا من طريق العقل ولا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها .

قوله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » الامة الطريقة التي تؤمّ وتقصد ، والمراد بها الدين ، والإضراب عما تحصّل من الآيتين ، والمعنى : لا دليل لهم على حقيـة عبادتهم بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على دين وإنا على آثارهم مهتدون أي إنهم متشبثون بتقليد آبائهم فحسب .

قوله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا » الخ ، أي إن التشبث بذيل التقليد ليس مما يختص بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الامم المشركين وما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير وهو النبي إلا تشبّث متنعّموها بذيل التقليد وقالوا : إنا وجدنا أسلافنا على دين وإنا على آثارهم مقتدون لن نتركها ولن نخالفهم .

ونسبة القول الى مترفيهم للاشارة الى أن الإتراف والتنعم هو الذي يدعوهم الى التقليد ويصرفهم عن النظر في الحق .

قوله تعالى : « قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » الخ ، القائل هو النذير ، والخطاب للمترفين ويشمل غيرهم بالتبعية ، والعطف في « أو لو جئتكم » على محذوف يدل عليـه كلامهم ، والتقدير إنكم على آثارهم مقتدون ولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ والمحصّل : هل أنتم لازمون لدينهم حتى لو كان ما جئتكم به من الدين أهدى منه ؟ وعد النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلاً لاهدى فيه من باب مجاراة الخصم .

وقوله : « قالوا إنا بما ارسلتم به كافرون » جواب منهم لقول النذير : « أو لو جئتكم » الخ وهو تحكم من غير دليل .

قوله تعالى : « فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » أي تفرّع على ذلك الإرسال والرد بالتقليد والتحكم أنا أهلكناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبة اولئك السابقين من أهل القرى ، وفيه تهديد لقوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

* * *

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ــ ٢٦ .
إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ــ ٢٧ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ــ ٢٨ . بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ
وَرَسُولٌ مُبِينٌ ــ ٢٩ . وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ
كَافِرُونَ ــ ٣٠ . وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ
الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ــ ٣١ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ
مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ
بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ــ ٣٢ . وَلَوْلَا
أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ
سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ــ ٣٣ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً
وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ــ ٣٤ . وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ــ ٣٥ . وَمَنْ يَعْشُ عَنْ
ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ــ ٣٦ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ــ ٣٧ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ
يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ــ ٣٨ . وَلَنْ
يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ــ ٣٩ . أَفَأَنْتَ

تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ــ ٤٠ . فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ــ ٤١ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ــ ٤٢ . فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ــ ٤٣ . وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ــ ٤٤ . وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ــ ٤٥ .

(بيان)

لما انجرّ الكلام إلى ردّهم رسالة الرسول وكفرهم بها تحكماً وتشبّثهم في الشرك بذيل تقليد الآباء والأسلاف من غير دليل عقّب ذلك بالإشارة إلى قصة إبراهيم عليه‌السلام ورفضه تقليد أبيه وقومه وتبرّيه عما يعبدونه من دون الله سبحانه واستهدائه هدى ربه الذي فطره .

ثم يذكر تمتيعه لهم بنعمه وكفرانهم بها بالكفر بكتاب الله وطعنهم فيه وفي رسوله بما هو مردود عليهم . ثم يذكر تبعة الإعراض عن ذكر الله وما تنتهي اليه من الشقاء والخسران، ويعطف عليه إيآس النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من إيمانهم وتهديدهم بالعذاب ويؤكد الأمر للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يستمسك بالقرآن وأنه لذكر له ولقومه وسوف يسألون عنه ، وأن الذي فيه من دين التوحيد هو الذي كان عليه الأنبياء السابقون عليه .

قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون» البراء مصدر من برىء يبرأ فهو بريء فمعنى « إنني براء » : إنني ذو براء أو بريء على سبيل المبالغة مثل زيد عدل .

وفي الآية إشارة إلى تبرّي إبراهيم عليه‌السلام مما كان يعبده أبوه وقومه من الأصنام

والكواكب بعد ما حاجّهم فيها فاستندوا فيها إلى سيرة آبائهم على ما ذكر في سور الأنعام والأنبياء والشعراء وغيرها .

والمعنى : واذكر لهم إذ تبرّأ إبراهيم عن آلهة أبيه وقومه إذ كانوا يعبدونها تقليداً لآبائهم من غير حجة وقام بالنظر وحده .

قوله تعالى : « إلا الذي فطرني فإنه سيهدين » أي إلا الذي أوجدني وهو الله سبحانه ، وفي توصيفه تعالى بالفطر إشارة إلى الحجة على ربوبيته وألوهيته فإن الفطر والإيجاد لا ينفكّ عن تدبير أمر الموجود المفطور فالذي فطر الكلّ هو الذي يدبّر أمرهم فهو الحقيق أن يعبد .

وقوله : « فإنه سيهدين » أي إلى الحق الذي أطلبه ، وقيل : أي إلى طريق الجنة ، وفي هذه الجملة إشارة إلى خاصة اخرى ربوبية وهي الهداية إلى السبيل الحق يجب أن يسلكه الإنسان فإن السوق إلى الكمال من تمام التدبير فعلى الرب المدبّر لأمر مربوبه أن يهديه إلى كماله وسعادته ، قال تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقال : « وعلى الله قصد السبيل » النحل : ٩ ، فالرجوع إلى الله بتوحيد العبادة يستتبع الهداية كما قال تعالى: « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » العنكبوت : ٦٩ .

والاستثناء في قوله : « إلا الذي فطرني » منقطع لأن الوثنيين لا يعبدون الله كما مرّ مراراً ، فقول بعضهم : إنه متصل، وأنهم كانوا يقولون : الله ربنا مع عبادتهم الأوثان ، كما ترى .

قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون » الظاهر أن ضمير الفاعل المستتر في « جعلها » لله سبحانه، والضمير البارز – على ما قيل – لكلمة البراءة التي تكلم بها إبراهيم عليه السلام ومعناها معنى كلمة التوحيد فإن مفاد « لا إله إلا الله » نفي الآلهة غير الله لا نفي الآلهة وإثبات الإله تعالى [١] وهو ظاهر فلا حاجة إلى ما تكلف به بعضهم أن الضمير لكلمة التوحيد المعلوم مما تكلم به إبراهيم عليه السلام .

والمراد بعقبه ذرّيته وولده، وقوله : « لعلهم يرجعون » أي يرجعون من عبادة

---

(١) وذلك أن « الله » فيها مرفوع على البدلية لا منصوب على الاستثناء .

آلهة غير الله إلى عبادته تعالى أي يرجع بعضهم – وهم العابدون لغير الله بدعوة بعضهم وهم العابدون لله – إلى عبادته تعالى ، وبهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمة في عقبه عدم خلوّهم عن الموحّد ما داموا ، ولعل هذا عن استجابة دعائه عليه السلام إذ يقول : « واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام » إبراهيم : ٣٥ .

وقيل : الضمير في « جعل » لإبراهيم عليه السلام فهو الجاعل هذه الكلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجعوا اليها ، والمراد بجعلها باقية فيهم وصيته لهم بذلك كما قال تعالى : « ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون » البقرة : ١٣٢ .

وأنت خبير بأن الوصية بكلمة التوحيد لا تسمى جعلاً للكلمة باقية في العقب وإن صحّ أن يقال : أراد بها ذلك لكنه غير جعلها باقية فيهم !

وقيل : المراد أن الله جعل الإمامة كلمة باقية في عقبه وسيجيء الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

ويظهر من الآية أن ذرية إبراهيم عليه السلام لا تخلو من هذه الكلمة إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : « بل متّعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين » إضراب عما يفهم من الآية السابقة ، والمعنى : أن رجوعهم عن الشرك إلى التوحيد كان هو الغاية المرجوّة منهم لكنهم لم يرجعوا بل متّعت هؤلاء من قومك وآباءهم فتمتعوا بنعمي « حتى جاءهم الحق ورسول مبين » .

ولعل الالتفات إلى التكلم وحده في قوله : « بل متعت » للاشارة إلى تفخيم جرمهم وأنهم لا يقصدون في كفرانهم للنعمة وكفرهم بالحق ورميه بالسحر إلا إياه تعالى وحده .

والمراد بالحق الذي جاءهم هو القرآن ، وبالرسول المبين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قوله تعالى : « ولما جاءهم قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » هذا طعنهم في الحق الذي جاءهم وهو القرآن ويستلزم الطعن في الرسول . كما أن قولهم الآتي : « لولا نزّل » الخ ، كذلك .

قوله تعالى : « وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » المراد بالقريتين مكة والطائف، ومرادهم بالعظمة — على ما يفيده السياق — ما هو من حيث المال والجاه اللذين هما ملاك الشرافة وعلوّ المنزلة عند أبناء الدنيا، والمراد بقوله: «رجل من القريتين عظيم » رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازاً .

ومرادهم أن الرسالة منزلة شريفة إلهية لا ينبغي أن يتلبّس به إلا رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه ، والنبي ﷺ فقير فاقد لهذه الخصلة ، فلو كان القرآن الذي جاء به وحياً نازلاً من الله فلولا نزّل على رجل عظيم من مكة أو الطائف كثير المال رفيع المنزلة .

وفي المجمع: ويعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتين الوليد بن المغيرة من مكة وأبا مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف. عن قتادة، وقيل: عتبة بن أبي ربيعة من مكة وابن عبد يا ليل من الطائف . عن مجاهد ، وقيل : الوليد بن المغيرة من مكة وحبيب بن عمر الثقفي من الطائف . عن ابن عباس . انتهى .

والحق أن ذلك من تطبيق المفسرين وإنما قالوا ما قالوا على الإبهام وأرادوا أحد هؤلاء من عظماء القريتين على ما هو ظاهر الآية .

قوله تعالى : «أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا» الخ ، المراد بالرحمة — على ما يعطيه السياق — النبوة .

وقال الراغب : العيش الحياة المختصة بالحيوان ، وهو أخص من الحياة لأن الحياة تقال في الحيوان وفي الباريء تعالى وفي الملك ، ويشتق منه المعيشة لما يتعيش به. انتهى. وقال : التسخير سياقة إلى الغرض المختص قهراً — إلى أن قال : والسخري هو الذي يُقهر فيتسخر بإرادته . انتهى .

والآية والآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم : « لولا نزّل هـذا القرآن على رجل » الخ ، ومحصلها أن قولهم هذا تحكم ظاهر ينبغي أن يتعجب منه فإنهم يحكمون فيما لا يملكون . هـذه معيشتهم في الحياة الدنيا يعيشون بهـا ويرتزقون وهي رحمة منا لا قدر لها ولا منزلة عندنا وليست إلا متاعاً زائلاً نحن نقسمها بينهم وهي خارجة عن مقدرتهم ومشيتهم فكيف يقسمون النبوة التي هي الرحمة الكبرى وهي مفتاح سعادة البشر الدائمة والفلاح الخالد فيعطونها لمن شاؤا ويمنعونها ممن شاؤا .

فقوله : « أهم يقسمون رحمة ربك » الاستفهام للانكار ، والالتفات إلى الغيبة في قوله : « رحمة ربك » ولم يقل : رحمتنا ، للدلالة على اختصاص النبي ﷺ بعناية الربوبية في النبوة .

والمعنى : أنهم لا يملكون النبوة التي هي رحمة لله خاصة به حتى يمنعوك منها ويعطوها لمن هوَوا .

وقوله : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » بيان لوجه الإنكار في الجملة السابقة بأنهم عاجزون عن قسمة ما هو دون النبوة بمراحل ولا منزلة له وهو معيشتهم في الحياة الدنيا فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزلة منها بما لا يقدّر قدره وهو النبوة التي هي رحمة ربك الخاصة به .

والدليل على أن الأرزاق والمعايش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنى والفقر والعافية والصحة وفي الأولاد وسائر ما يعدّ من الرزق ، وكلٌ يريد أن يقتني منها ما لا مزيد عليه، ولا يكاد يتيسّر لأحد منهم جميع ما يتمناه ويرتضيه فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد معدم فقير في شيء منها بل لم يختلف اثنان فيها فاختلافهم فيها أوضح دليل على أن الرزق مقسوم بمشيّة من الله دون الإنسان .

على أن الإرادة والعمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصة لحصول المطلوب الذي هو الرزق ووراءهما أسباب كونية لا تحصى خارجة عن مقدرة الإنسان لا يحصل المطلوب إلا بحصولها جميعاً واجتماعها عليه وليست إلا بيد الله الذي اليه تنتهي الأسباب.

هذا كله في المال وأما الجاه فهو أيضاً مقسوم من عند الله فإنه يتوقف على صفات خاصة بها ترتفع درجات الإنسان في المجتمع فيتمكن من تسخير من هو دونه كالفطنة والدهاء والشجاعة وعلوّ الهمة وإحكام العزيمة وكثرة المال والعشيرة وشيء من ذلك لا يتمّ إلا بصنع من الله سبحانه ، وذلك قوله : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

فيتبين بمجموع القولين أعني قوله: « نحن قسمنا » الخ ، وقوله: « ورفعنا بعضهم فوق بعض » الخ ، أن القاسم للمعيشة والجاه بين الناس هو الله سبحانه لا غير ، وقوله: « ورحمة ربك خير مما يجمعون » أي النبوة خير من المال فكيف يملكون قسمها وهم لا يملكون قسم المال فيما بينهم .

ومن الممكن أن يكون قوله : « ورفعنا بعضهم فوق بعض » عطف تفسير على قوله : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم » الخ ، يبين قسم المعيشة بينهم ببيان علل انقسامها في المجتمع الإنساني ، بيان ذلك أن كثرة حوائج الإنسان في حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها في عيش انفرادي أحوجته إلى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام والاستدرار أولاً وعلى طريق التعـاون والتعاضد ثانياً كما مرّ في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب .

فآل الأمر إلى المعاوضة العامة المفيدة لنوع من الاختصاص بأن يعطي كل ممـا عنده من حوائج الحياة ما يفضل من حاجته ويأخذ به من الغير ما يعادله مما يحتاج اليه فيعطي مثلاً ما يفضل من حاجته من الماء الذي عنده وقد حصّله واختصّ به ويأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغـذاء ، ولازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستمد له ويحسنه من السعي فيقتني مما يحتاج اليه ما يختص به ، ولازم ذلك أن يحتاج غيره اليه فيما عنده من متاع الحياة فيتسخر له فيفيده ما يحتاج اليه كالخبّاز يحتاج إلى ما عنـد السقّاء من الماء وبالعكس فيتعاونان بالمعاوضة وكالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته والخادم يتسخر للمخدوم لماله وهكذا فكل بعض من المجتمع مسخر لآخرين بما عنده والآخرون متسخرون له بلا واسطة أو بواسطة أو وسائط لما أن كلاً يرتفع على غيره بما يختص به مما عنده بدرجات مختلفة باختلاف تعلق الهمم والقصود به .

وعلى ما تقدم فالمراد بالمعيشة كل ما يعاش به أعم من المال والجاه أو خصوص المال وغيره تبع له كما يؤيده قوله ذيلاً : « ورحمة ربك خير مما يجمعون » فإن المراد به المال وغيره من لوازم الحياة مقصود بالتبع .

قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة – إلى قوله – ومعارج عليها يظهرون » الآية وما يتلوها لبيان أن متاع الدنيا من مال وزينة لا قدر لهـا عند الله سبحانه ولا منزلة .

قالوا : المراد بكون النـاس أمة واحدة كونهم مجتمعين على سنّة واحدة هي الكفر بالله لو رأوا أن زينة الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله والمؤمن صفر الكف منها مطلقاً ، والمعارج الدرجات والمصاعد .

والمعنى : ولولا أن يجتمع النـاس على الكفر لو رأوا تنعّم الكافرين وحرمان

المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ودرجات عليها يظهرون لغيرهم.

ويمكن أن يكون المراد بكون الناس أمة واحدة كونهم جميعاً على نسبة واحدة تجاه الأسباب العاملة في حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن والكافر، فمن سعى سعيه للرزق ووافقته الأسباب والعوامل الموصلة الاخرى نال منه مؤمناً كان أو كافراً، ومن لم يجتمع له حرم ذلك وقتر عليه الرزق مؤمناً أو كافراً .

والمعنى : لولا ما أردنا أن يتساوى النــاس تجاه الأسباب الموصلة إلى زخارف الدنيا ولا يختلفوا فيها بالإيمان والكفر لجعلنا لمن يكفر ، الخ .

قوله تعالى : « ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكؤن وزخرفاً » تنكير « أبواباً » و « سرراً » للتفخيم ، والزخرف الذهب أو مطلق الزينة ، قال في المجمع : الزخرف كمال حسن الشيء ومنه قيل للذهب، ويقال: زخرفه زخرفة إذا حسّنه وزيّنه، ومنه قيل للنقوش والتصاوير : زخرف ، وفي الحديث إنه ﷺ لم يدخل الكعبــة حتى أمر بالزخرف فنحّي . انتهى . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وإن كلُّ ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » « إن » للنفي و « لما » بمعنى إلا أي ليس كل ما ذكر من مزايا المعيشة إلا متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية التي لا تدوم .

وقوله: « والآخرة عند ربك للمتقين » المراد بالآخرة بقرينة المقام الحياة الآخرة السعيدة كأن الحياة الآخرة الشقية لا تعدُّ حياة .

والمعنى: أن الحياة الآخرة السعيدة بحكم من الله تعالى وقضاء منه مختصة بالمتقين، وهذا التخصيص والقصر يؤيد مــا قدمناه من معنى كون الناس أمة واحدة في الدنيا بعض التأييد .

قوله تعالى : « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين » يقال : عشى يعشى عشاً من باب علم يعلم إذا كان ببصره آفة لا يبصر مطلقاً أو بالليل فقط ، وعشا يعشو عشواً وعشوّاً من باب نصر ينصر إذا تعــامى وتعشّى بلا آفة ، والتقييض التقدير والإتيان بشيء إلى شيء ، يقال : قيّضه له إذا جاء به اليه .

لما انتهى الكلام إلى ذكر المتقين وأن الآخرة لهم عنــد الله قرنه بعاقبة أمر

المعرضين عن الحق المتعامين عن ذكر الرحمن مشيراً إلى أمرهم من أوله وهو أن تعاميهم عن ذكر الله يورثهم ملازمة قرناء الشياطين فيلازمونهم مضلّين لهم حتى يردوا عذاب الآخرة معهم .

فقوله : « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً » أي من تعامى عن ذكر الرحمن ونظر اليه نظر الأعشى جئنا اليه بشيطان ، وقد عبّر تعالى عنه في موضع آخر بالإرسال فقال : « ألم ترَ أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزّاً » مريم : ٨٣ ، وإضافة الذكر إلى الرحمن للاشارة إلى أنه رحمة .

وقوله : « فهو له قرين » أي مصاحب لا يفارقه .

قوله تعالى : « وإنهم ليصدُّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتـدون » ضمير « أنهم » للشياطين ، وضمائر الجمع الباقية للعاشين عن الذكر ، واعتبار الجمع نظراً إلى المعنى في « ومن يعشُ » الخ ، والصدّ الصرف ، والمراد بالسبيل ما يدعو اليه الذكر من سبيل الله الذي هو دين التوحيد .

والمعنى : وإن الشياطين ليصرفون العـاشين عن الذكر ويحسب العاشون أنهم ـ أي العاشين أنفسهم ـ مهتدون إلى الحق .

وهذا أعني حسبانهم أنهم مهتدون عند انصدادهم عن سبيل الحق امارة تقييض القرين ودخولهم تحت ولاية الشيطان فإن الانسان بطبعه الأوّلي مفطور على الميـل إلى الحق ومعرفته إذا عرض عليه ثم إذا عرض عليه فأعرض عنه اتباعاً للهوى ودام عليه طبع الله على قلبـه وأعمى بصره وقيّض له القرين فلم ير الحق الذي تراءى له وطبّق الحق الذي يميل اليه بالفطرة على الباطل الذي يدعوه اليه الشيطان فيحسب أنه مهتـد وهو ضالّ ويخيّل اليه أنه على الحق وهو على الباطل .

وهذا هو الغطاء الذي يذكر تعالى أنه مضروب عليهم في الدنيا وأنه سينكشف عنهم يوم القيامة ، قال تعالى : « الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ـ إلى أن قال ـ قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحيـاة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » الكهف : ١٠٤ ، وقال فيما يخاطبه يوم القيامة ومعه قرينه : « لقـد كنت في غفلة من هـذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ـ إلى أن قال ـ « قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد » ق : ٢٧ .

قوله تعالى : « حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » حتى » غاية لاستمرار الفعل الذي يدل عليه قوله في الآية السابقة : « يصدّونهم » وقوله : « يحسبون » أي لا يزال القرناء يصدونهم ولا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا الواحد منهم .

والمراد بالمجيء اليه تعالى البعث ، وضمير « جاء » و « قال » راجع الى الموصول باعتبار لفظه ، والمراد بالمشرقين المشرق والمغرب غلب فيه جانب المشرق .

والمعنى : وإنهم يستمرون على صدّهم عن السبيل ويستمر العاشون عن الذكر على حسبان أنهم مهتدون في انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا ومعه قرينه وكشف له عن ضلاله وما يستتبعه من العذاب الأليم ، قال مخاطباً لقرينه متأذياً من صحابته : يا ليت بيني وبينك بعد المشرق والمغرب فبئس القرين أنت .

ويستفاد من السياق أنهم معذبون بصحابة القرناء وراء عذابهم بالنار ، ولذا يتمنون التباعد عنهم ويخصونه بالذكر وينسون سائر العذاب .

قوله تعالى : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » الظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم ، والمراد باليوم يوم القيامة ، وقوله: « أنكم في العذاب مشتركون » فاعل « لن ينفعكم » والمراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر وقرناؤهم ، و « إذ ظلمتم » واقع موقع التعليل .

والمراد – والله أعلم – أنكم إذا أساء بعضكم إلى بعض في الدنيا فأوقعه في مصيبة ربما تسليتم بعض التسلي لو ابتلي هو نفسه بمثل ما ابتلاكم به فينفعكم ذلك تسلياً وتشفياً لكن لا ينفعكم يوم القيامة اشتراك قرنائكم معكم في العذاب فإن اشتراكهم معكم في العذاب وكونهم معكم في النار هو بعينه عذاب لكم .

وذكر بعض المفسرين أن فاعل « لن ينفعكم » ضمير راجع إلى تمنيهم المذكور في الآية السابقة ، وقوله: « إذ ظلمتم » أي لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي ، وقوله : « أنكم في العذاب مشتركون » تعليل لنفي النفع والمعنى : ولن ينفعكم تمني التباعد عنكم لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب .

وفيه أن فيه تدافعاً فإنه أخذ قوله : « إذ ظلمتم » تعليلاً لنفي نفع التمني أولاً

وقوله : « أنكم في العذاب مشتركون » تعليلاً له ثانياً ولازم التطابق بين التعليلين أن يذكر ثانياً القضاء على المتمنين التابعين بالعذاب لا باشتراك التابعين والمتبوعين فيه .

وقال بعضهم : معنى الآية أنه لا يخفف الاشتراك عنكم شيئاً من العذاب لأن لكل واحد منكم ومن قرنائكم الحظ الأوفر من العذاب .

وفيه أن ما ذكر من سبب عدم النفع وإن فرض صحيحاً في نفسه لكن لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية ولا سياق الكلام .

وقال بعضهم : المعنى: لا ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم في تحمّل أعبائها وتقسّمهم لعنائها لأن لكل منكم ومن قرنائكم من العذاب ما لا تبلغه طاقته .

وفيه ما في سابقه من الكلام ، وردّ أيضاً بأن الانتفاع بذلك الوجه ليس مما يخطر ببالهم حتى يردّ عليهم بنفيه .

قوله تعالى : « أفأنت تسمع الصمّ أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين » لما ذكر تقييضه القرناء لهم وتقليبهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدى ولا يقدرون على معرفة الحق فرّع عليه أن نبّه ﷺ أن هؤلاء صمّ عمي لا يقدر هو على إسماعهم كلمة الحق وهدايتهم إلى سبيل الرشد فلا يتجشم ولا يتكلف في دعوتهم ولا يحزن لإعراضهم ، والاستفهام للانكار ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فإما نذهبنّ بك فإنا منهم منتقمون أو نرينّك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون » المراد بالإذهاب به توفّيه ﷺ قبل الانتقام منهم ، وقيل : المراد إذهابه بإخراجه من بينهم ، وقوله : « فإنا منهم منتقمون » أي لا محالة ، والمراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توفيه ﷺ أو حال كونه بينهم ، وقوله : « فإنا عليهم مقتدرون » أي اقتدارنا يفوق عليهم .

وقوله في الصدر: « فإما نذهبنّ بك » أصله إن نذهب بك زيدت عليه ما والنون للتأكيد ، ومحصل الآية إنا منتقمون منهم بعد توفيك أو قبلها لا محالة .

قوله تعالى : « فاستمسك بالذي أوحي اليك إنك على صراط مستقيم » الظاهر أنه تفريع لجميع ما تقدم من أن إنزال الذكر من طريق الوحي والنبوة من سننه تعالى

وأن كتابه النازل عليه حق وهو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلا المتقون ولا يعرض عنها إلا قرناء الشياطين ، ولا مطمع في إيمانهم وسينتقم الله منهم .

فأكّد عليه الأمر بعد ذلك كله أن يجدّ في التمسك بالكتاب الذي أوحي اليه لأنه على صراط مستقيم .

قوله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون » الظاهر أن المراد بالذكر ذكر الله ، وبهذا المعنى تكرر مراراً في السورة ، واللام في « لك ولقومك » للاختصاص بمعنى توجّه ما فيه من التكاليف اليهم ، ويؤيده بعض التأييد قوله : « وسوف تسألون » أي عنه يوم القيامة .

وعن أكثر المفسرين أن المراد بالذكر الشرف الذي يذكر به ، والمعنى : وإنه لشرف عظيم لك ولقومك من العرب تذكرون به بين الامم .

قوله تعالى : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » قيل : المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم وعلماء دينهم كقوله تعالى : « فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك » يونس : ٩٤ ، وفائدة هذا المجاز أن المسؤل عنه السؤال منهم عن ما جاءت به رسلهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم .

وقيل : المراد السؤال من أهل الكتابين : التوراة والإنجيل فإنهم وإن كفروا لكن الحجة تقوم بتواتر خبرهم ، والخطاب للنبي ﷺ والتكليف لامته .

وبُعد الوجهين غير خفي ويزيد الثاني بعداً التخصيص بأهل الكتابين من غير مخصص ظاهر .

وقيل : الآية مما خوطب به النبي ﷺ ليلة المعراج أن يسأل أرواح الأنبياء عليهم السلام وقد اجتمع بهم أن يسألهم هل جاؤا بدين وراء دين التوحيد .

وقد وردت به غير واحدة من الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وسيوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية في عقبه » وقيل : الكلمة الباقية في عقبه هي الإمامة إلى يوم الدين . عن أبي عبد الله عليه السلام .

أقول : وفي هذا المعنى روايات اخر وقد طبّقت الآية في بعضها على الإمامة في عقب الحسين عليه السلام .

والتأمل في الروايات يعطي أن بناءها على إرجاع الضمير في « جعلها »الى الهداية المفهومة من قوله : « سيهدين » وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « إني جاعلك للناس إماماً »أن الإمام وظيفته هداية الناس في ملكوت أعمالهم بمعنى سوقهم إلى الله سبحانه بارشادهم وإيرادهم درجات القرب من الله سبحانه وإنزال كل ذي عمل منزلـه الذي يستدعيه عمله ، وحقيقة الهداية من الله سبحانه وتنسب اليه بالتبع أو بالعرض .

وفعلية الهداية النازلة من الله إلى الناس تشمله أولاً ثم تفيض عنه الى غيره فله أتم الهداية ولغيره مـــا هي دونها وما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله : « فإنه سيهدين » هداية مطلقة تقبل الانطباق على أتم مراتب الهداية التي هي حظ الإمام منها فهي الإمامة وجعلها كلمة باقية في عقبه جعل الامامة كذلك .

وفي الاحتجاج عن العسكري عن أبيه عليهم السلام قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال له عبد الله بن امية المخزومي: لو أراد الله أن يبعث الينا رسولاً لبعث أجل من فيما بيننا مالاً وأحسنه حالا فهلا نزل هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وابتعثك به رسولا ، على رجل من القريتين عظيم : إما الوليد بن المغيرة بمكة وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف .

ثم ذكر عليه السلام في كلام طويل جواب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله بما في معنى الآيات.

ثم قال : وذلك قوله تعالى :« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » قال الله : « أهم يقسمون رحمة ربك » يا محمد « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيـاة الدنيا » فأحوجنا بعضنا الى بعض أحوج هذا الى مال ذلك وأحوج ذلك الى سلعة هذا والى خدمته .

فترى أجل الملوك وأغنى الأغنياء محتاجاً الى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب

إما سلعة معه ليست معه ، وإما خدمة يصلح لها لا يتهيأ لذلك الملك أن يستغني إلا به وإما باب من العلوم والحكم هو فقير إلى أن يستفيدها من هذا الفقير الذي يحتاج الى مال ذلك الملك الغني ، وذلك الملك يحتاج إلى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته .

ثم ليس للملك أن يقول : هلا اجتمع الى مالي علم هذا الفقير ولا للفقير أن يقول: هلا اجتمع الى رأيي ومعرفتي وعلمي وما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني ، ثم قال تعالى:«ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا».

ثم قال : يا محمد « ورحمة ربك خير مما يجمعون » أي ما يجمعه هؤلاء من أموال الدنيا .

وفي الكافي بإسناده عن سعيد بن المسيّب قال : سألت علي بن الحسين عليه السلام عن قول الله عز وجل : « ولولا أن يكون الناس امة واحدة » قال : عنى بذلك امة محمد أن يكونوا على دين واحد كفاراً كلهم « لجعلنا لمن يكفر بالرحمان»الى آخر الآية.

وفي تفسير القمي بإسناده عن يحيى بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال:« فإما نذهبن بك » يا محمد من مكة الى المدينة فإما رادوك اليها ومنتقمون منهم بعلي بن أبي طالب عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن قتادة في قوله : « فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون » قال : قال أنس ذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبقيت النقمة ولم ير الله نبيه في امته شيئاً يكرهه حتى قبض ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في امته إلا نبيكم رأى ما يصيب امته بعده فما رؤي ضاحكاً منبسطاً حتى قبض .

اقول : وروى فيه هذا المعنى عنه وعن علي بن أبي طالب وعن غيرهما بطرق اخرى .

وفيه أخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى :« فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون » نزلت في علي بن أبي طالب انه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي .

أقول : ظاهر الرواية وما قبلها وما في معناهما أن الوعيد في الآيتين للمنحرفين عن الحق من أهل القبلة دون كفار قريش .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل يقول فيه : وأما قوله تعالى: « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا » فهذا من براهين نبينا صلى الله عليه وآله وسلم التي آتاه الله إياها وأوجب به الحجة على سائر خلقه لأنه لما ختم به الأنبياء وجعله الله رسولاً إلى جميع الامم وسائر الملل خصّه بالارتقاء إلى السماء عند المعراج وجمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به وحملوه من عزائم الله وآياته وبراهينه . الحديث .

أقول : وروى هذا المعنى القمي في تفسيره بإسناده عن أبي الربيع عن أبي جعفر عليه السلام في جواب مـــا سأله نافع بن الأزرق ، ورواه في الدر المنثور بطرق عن سعيد ابن جبير وابن جريح وابن زيد .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ــ ٤٦ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ــ ٤٧ . وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِٱلْعَــذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ــ ٤٨ . وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ــ ٤٩ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ــ ٥٠ . وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ــ ٥١ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَــٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ــ ٥٢ . فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ ٱلْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ــ ٥٣ . فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَــهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ــ ٥٤ . فَلَمَّا

آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ـــ ٥٥ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ ـــ ٥٦ .

(بيان)

لما ذكر طغيانهم بعد تمتيعهم بنعمه ورميهم الحق الذي جاءهم به رسول مبين بأنه سحر وأنهم قالوا : « لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » فرجّحوا الرجل على النبي ﷺ بكثرة ماله مثّل لهم بقصة موسى عليه السلام وفرعون وقومه حيث أرسله الله اليهم بآياته الباهرة فضحكوا منها واستهزؤا بها ، واحتجّ فرعون فيما خاطب به قومه على أنه خير من موسى بملك مصر وأنهار تجري من تحته فاستخفّهم فأطاعوه فآل أمر استكبارهم أن انتقم الله منهم فأغرقهم .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملإه فقال إني رسول رب العالمين » اللام في « لقد » للقسم ، والباء في قوله : « بآياتنا » للمصاحبة ، والباقي ظاهر.

قوله تعالى : « فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون » المراد بمجيئهم بالآيات إظهار المعجزات للدلالة على الرسالة ، والمراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفافاً بالآيات .

قوله تعالى : « وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها » الخ ، الاخت المثل ، وقوله : « هي أكبر من أختها » كناية عن كون كل واحدة منها بالغة في الدلالة على حقية الرسالة ، وجملة « وما نريهم من آية » الخ ، حال من ضمير « منها » ، والمعنى : فلما أتاهم بالمعجزات إذا هم منها يضحكون والحال أن كلاً منها تامة كاملة في إعجازها ودلالتها من غير نقص ولا قصور .

وقوله : « وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون » أي رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم إلى قبول رسالته ، والمراد بالعذاب الذي أُخذوا به آيات الرجز التي نزلت عليهم من السنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات كما في سورة الأعراف.

قوله تعالى : « وقالوا يا أيها الساحر ادعُ لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون » ما في « بما عهد عندك » مصدرية أي بعهده عندك والمراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعا كما احتمله بعضهم .

وقولهم : يا أيها الساحر خطاب استهزاء استكباراً منهم كما قالوا : ادع ربك ولم يقولوا : ادع ربنا أو ادع الله استكباراً ، والمراد أنهم طلبوا منه الدعاء لكشف العذاب عنهم ووعدوه الاهتداء .

وقيل : معنى الساحر في عرفهم العالم وكان الساحر عندهم عظيماً يعظمونه ولم يكن صفة ذم . وليس بذاك بل كانوا ساخرين على استكبارهم كما يشهد به قولهم : ادع لنا ربك .

قوله تعالى : « فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » النكث نقض العهد وخلف الوعد ، ووعدهم هو قولهم : « إننا لمهتدون » .

قوله تعالى : « ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » أي ناداهم وهو بينهم ، وفصل « قال » لكونه في موضع جواب السؤال كأنه قيل : فماذا قال ؟ فقيل : قال كذا .

وقوله : « وهذه الأنهار تجري من تحتي » أي من تحت قصري أو من بستاني الذي فيه قصري المرتفع العالي البناء، والجملة أعني قوله: « وهذه الأنهار » الخ ، حالية أو « وهذه الأنهار » معطوف على « ملك مصر » ، وقوله : « تجري من تحتي » حال من الأنهار ، والأنهار أنهار النيل .

وقوله : « أفلا تبصرون » في معنى تكرير الاستفهام السابق في قوله : « أليس لي ملك مصر » الخ .

قوله تعالى : « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين » المهين الحقير الضعيف من المهانة بمعنى الحقارة، ويريد بالمهين موسى عليه‌السلام لما به من الفقر ورثاثة الحال.

وقوله : « ولا يكاد يبين » أي يفصح عن مراده ولعله كان يصف موسى عليه‌السلام به باعتبار ما كان عليه قبل الرسالة لكن الله رفع عنه ذلك لقوله : « قال قد أُوتيت سؤلك يا موسى » طه : ٣٦ بعد قوله عليه‌السلام : « واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي» طه : ٢٨ .

وقوله في صدر الآية: «أم أنا خير» الخ» أم فيه إما منقطعة لتقرير كلامه السابق والمعنى : بل أنا خير من موسى لأنه كذا وكذا ، وإما متصلة ، وأحد طرفي الترديد محذوف مع همزة الاستفهام،والتقدير:أهذا خير أم أنا خير الخ، وفي المجمع قال سيبويه والخليل: عطف أنا بأم على « أفلا تبصرون » لأن معنى « أنا خير » معنى أم تبصرون فكأنه قال : أفلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له : أنت خير منه فقد صاروا بصراء عنده انتهى. أي إن وضع « أم أنا خير » موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعكس .

وكيف كان فالإشارة الى موسى بهذا من دون أن يذكر باسمه للتحقير وتوصيفه بقوله : « الذي هو مهين ولا يكاد يبين » للتحقير وللدلالة على عدم خيريته .

قوله تعالى : « فلولا القي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين » الأسورة جمع سوار بالكسر، وقال الراغب : هو معرب دستواره قالوا: كان من دأبهم أنهم إذا سوّدوا رجلاً سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب فالمعنى لو كان رسولا وساد الناس بذلك لالقي اليه أسورة من ذهب .

وقوله : « أو جاء معه الملائكة مقترنين » الظاهر أن الاقتران بمعنى التقارن كالاستباق والاستواء بمعنى التسابق والتساوي ، والمراد إتيان الملائكة معه متقارنين لتصديق رسالته ، وهذه الكلمة مما تكررت على لسان مكذبي الرسل كقولهم : « لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيراً » الفرقان : ٧ .

قوله تعالى : « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » أي استخفّ عقول قومه وأحلامهم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » الإيساف الإغضاب أي فلما أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، والغضب منه تعالى إرادة العقوبة .

قوله تعالى : « فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين » السلف المتقدم والظاهر أن المراد بكونهم سلفاً للآخرين تقدمهم عليهم في دخول النار، والمثل الكلام السائر الذي يتمثّل به ويعتبر بـه ، والظاهر أن كونهم مثلاً لهم كونهم مما يعتبر به الآخرون لو اعتبروا واتعظوا .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ولا يكاد يبين » قال : لم يبين الكلام .

وفي التوحيد بإسناده الى أحمد بن أبي عبد الله رفعه الى أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل « فلما آسفونا انتقمنا منهم » قال : إن الله لا يأسف كأسفنا ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مدبرون فجعل رضاهم لنفسه رضىً وسخطهم لنفسه سخطاً وذلك لأنه جعلهم الدعاة اليه والأدلاء عليه فلذلك صاروا كذلك.

وليس أن ذلك يصل الى الله كما يصل الى خلقه ولكن هذا معنى ما قال من ذلك، وقد قال أيضاً من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني اليها ، وقال أيضاً: « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وقال أيضاً : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » وكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك، وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك .

ولو كان يصل الى المكوّن الأسف والضجر وهو الذي أحدثهما وأنشأهما لجاز لقائل أن يقول : ان المكون يبيد يوماً لأنه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة ، ولو كان ذلك كذلك لم يعرف المكوّن من المكوّن ولا القادر من المقدور ولا الخالق من المخلوقين تعالى الله عن هذا القول علواً كبيراً .

هو الخالق للأشياء لا لحاجة فإذا كان لا لحاجة استحال الحد والكيف فيه فافهم ذلك إن شاء الله .

أقول : وروى مثله في الكافي بإسناده عن محمد بن اسماعيل بن بزيع عن عمه حمزة بن بزيع عنه عليه السلام .

* * *

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ــ ٥٧ .

وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ

خَصِمُونَ ــ ٥٨ . إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي
إِسْرائِيلَ ــ ٥٩ . وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ
يَخْلُفُونَ ــ ٦٠ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هٰذا
صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ــ ٦١ . وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ ــ ٦٢ . وَلَمَّا جاءَ عِيسَى بِٱلْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِٱلْحِكْمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ــ ٦٣ .
إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ــ ٦٤ . فَٱخْتَلَفَ
ٱلْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ــ ٦٥ .

(بيان)

إشارة إلى قصة عيسى بعد الفراغ عن قصة موسى عليهما السلام وقدم عليها مجادلتهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عيسى عليه السلام وأجيب عنها .

قوله تعالى : « ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدُّون ــ إلى قوله ــ خصمون » الآية إلى تمام أربع آيات أو ست آيات حول جدال القوم فيما ضرب من مثل ابن مريم ، والذي يتحصل بالتدبر فيها نظراً إلى كون السورة مكية ومع قطع النظر عن الروايات هو أن المراد بقوله: « ولما ضرب ابن مريم مثلاً» هو ما أنزله الله من وصفه في أول سورة مريم فإنها السورة المكية الوحيدة التي وردت فيها قصة عيسى بن مريم عليه السلام تفصيلاً ، والسورة تقص قصص عدة من النبيين بما أن الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله : « اولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين » مريم : ٥٨ ، وقد وقع في

هذه الآيات قوله : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » وهو من الشواهد على كون قوله : « ولما ضرب ابن مريم مثلاً » إشارة إلى ما في سورة مريم .

والمراد بقوله: «إذا قومك منه يصدُّون» بكسر الصاد أي يضجون ويضحكون ذم لقريش في مقابلتهم المثل الحق بالتهكم والسخرية ، وقرىء « يصدُّون » بضم الصاد أي يعرضون وهو أنسب للجملة التالية .

وقوله : « وقالوا ءآلهتنا خير أم هو » الاستفهام للانكار أي آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمة والكرامة أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن وأخذوه بما له من الصفة عند النصارى أنه إله ابن إله فردُّوا على النبي ﷺ بأن آلهتنا خير منه وهـذا من أسخف الجدال كأنهم يشيرون بذلك إلى أن الذي في القرآن من وصفه لا يعتنى به وما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه .

وقوله : « ما ضربوه لك إلا جدلاً » أي ما وجّهوا هذا الكلام : « ءآلهتنا خير أم هو » اليك إلا جدلاً يريدون به إبطال المثل المذكور وإن كان حقاً « بل هم قوم خصمون » أي ثابتون على خصومتهم مصرُّون عليها .

وقوله : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » رد لما يستفاد من قولهم : « ءآلهتنا خير أم هو » أنه إله النصارى كما سيجيء .

وقال الزمخشري في الكشاف وكثير من المفسرين ونسب إلى ابن عباس وغيره في تفسير الآية: إن النبي ﷺ لما قرأ قوله تعالى: « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » على قريش امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً فقال ابن الزبعرى: يا محمد، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الامم ؟ فقال عليه‌السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الامم .

فقال : خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وتثني عليه خيراً وعلى أمه ؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما ، وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي ﷺ فأنزل الله: «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون» ونزلت هذه الآية .

والمعنى: ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلاً وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه إذا قومك يعني قريشاً من هـذا المثل يضجُّون فرحاً وضحكاً بما

سمعوا منه من إسكات رسول ﷺ ، وقالوا : ءآلهتنا خير أم هو أي إن عيسى عندك خير من آلهتنا وإذا كان هو حصب جهنم فأمر آلهتنا هيّن . ما ضربوا هذا المثل لك إلا جدلاً وغلبة في القول لا لميز الحق من الباطل .

وفيه أنه تقدم في تفسير[١] قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » الأنبياء : ٩٨ ، أن هذه الرواية بما فيها من وجوه الوهن والخلل ضعيفة لا يعبأ بها حتى نقل عن الحافظ ابن حجر أن الحديث لا أصل له ولم يوجد في شيء من كتب الحديث لا مسنداً ولا غير مسند . وقصة ابن الزبعرى هذه وإن رويت من طرق الشيعة على وجه سليم عن المناقشة لكن لم يذكر فيها نزول قوله : « ولما ضرب ابن مريم » الآية هناك .

على أن ظاهر قوله : « ضرب ابن مريم مثلاً » وقوله : « ءآلهتنا خير أم هو » لا يلائم ما فسّرته تلك الملاءمة .

وقيل : إنهم لما سمعوا قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » آل عمران : ٥٩ ، قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم يعبدون آدمياً ونحن نعبد الملائكة – يريدون أرباب الأصنام – فآلهتنا خير من إلههم فالذي ضرب المثل بابن مريم هو الله سبحانه ، وقولهم : « ءآلهتنا خير أم هو » لتفضيل آلهتهم على عيسى لا بالعكس كما في الوجه السابق .

وفيه أن قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم » مدنية . وهذه الآيات أعني قوله : « ولما ضرب ابن مريم » الخ ، آيات مكية من سورة مكية .

على أن الأساس في قولهم – على هذا الوجه – تفضيلهم أنفسهم على النصارى فلا يرتبط على هذا قوله : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » الخ ، بما تقدمه .

وقيل : إنهم لما سمعوا قوله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم » ضجّوا وقالوا : ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده كما يعبد النصارى المسيح ، وآلهتنا خير منه أي من محمد .

وفيه ما في سابقه .

---

(١) في البحث الروائي المعقود بعد الآية .

وقيل : مرادهم بقولهم : « ءآلهتنا خير أم هو » التنصل والتخلص عما أنكر عليهم من قولهم : الملائكة بنات الله ، ومن عبادتهم لهم كأنهم قالوا : ما كان ذلك منا بدعاً فإن النصارى يعبدون المسيح وينسبونه إلى الله وهو بشر ونحن نعبد الملائكة وننسبهم إلى الله وهم أفضل من البشر .

وفيه أنه لا يفي بتوجيه قوله : « ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدُّون » على أن قوله : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » على هذا الوجه لا يرتبط بما قبله كما في الوجهين السابقين .

وقيل : معنى قولهم : « ءآلهتنا خير أم هو » أن مثلنا في عبادة الآلهة مثل النصارى في عبادة المسيح فأيهما خير ؟ عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح ؟ فإن قال : عبادة المسيح خير فقد اعترف بعبادة غير الله ، وإن قال : عبادة الآلهة فكذلك ، وإن قال : ليس في عبادة المسيح خير فقد قصر به عن منزلته وجوابه أن اختصاص المسيح بضرب من التشريف والإنعام من الله تعالى لا يوجب جواز عبادته .

وفيه أنه في نفسه لا بأس به لكن الشأن في دلالة قوله تعالى : « ءآلهتنا خير أم هو » على هذا التفصيل .

وقال في المجمع في الوجوه التي أوردها في معنى الآية : ورابعها ما رواه سادة أهل البيت عن علي عليهم السلام أنه قال : جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فوجدته في ملأ من قريش فنظر إليّ ثم قال : يا علي ، إنما مثلك في هذه الامة مثل عيسى بن مريم أحبّه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا ، وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا ، واقتصد فيه قوم فنجوا. فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا: يشبّهه بالأنبياء والرسل، فنزلت الآية .

أقول : والرواية غير متعرضة لتوجيه قولهم : « ءآلهتنا خير أم هو » ولئن كانت القصة سبباً للنزول فمعنى الجملة : لئن نتّبع آلهتنا ونطيع كبراءنا خير من أن نتولى علياً فيتحكم علينا أو خير من أن نتبع محمداً فيحكّم علينا ابن عمه .

ويمكن أن يكون قوله : « وقالوا ءآلهتنا خير أم هو » الخ ، استئنافاً والنازل في القصة هو قوله : « ولما ضرب ابن مريم مثلاً » الآية .

قوله تعالى : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل » الذي

يستدعيه السياق أن يكون الضمير لابن مريم ، والمراد بكونه مثلاً – على ما قيل – كونه آية عجيبة إلهية يسير ذكره كالأمثال السائرة .

والمعنى : ليس ابن مريم إلا عبداً متظاهراً بالعبودية أنعمنا عليه بالنبوة وتأييده بروح القدس وإجراء المعجزات الباهرة على يديه وغير ذلك وجعلناه آية عجيبة خارقة نصف به الحق لبني إسرائيل .

وهذا المعنى كما ترى ردّ لقولهم : « ءآلهتنا خير أم هو » الظاهر في تفضيلهم آلهتهم في ألوهيتها على المسيح عليه السلام في ألوهيته ومحصّله أن المسيح لم يكن إلهاً حتى ينظر في منزلته في ألوهيته وإنما كان عبداً أنعم الله عليه بما أنعم ، وأما آلهتهم فنظر القرآن فيهم ظاهر .

قوله تعالى : « ولو شئنا لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون » الظاهر أن الآية متصلة بما قبلها مسرودة لرفع استبعاد أن يتلبّس البشر من الكمال ما يقصه القرآن عن عيسى عليه السلام فيخلق الطير ويحيي الموتى ويكلم الناس في المهد إلى غير ذلك ، فيكون كالملائكة المتوسطين في الإحياء والإماتة والرزق وسائر أنواع التدبير ويكون مع ذلك عبداً غير معبود ومألوهاً غير إله فإن هذا النوع من الكمال عند الوثنية مختص بالملائكة وهو ملاك الوهيتهم ومعبوديتهم وبالجملة هم يحيلون تلبّس البشر بهذا النوع من الكمال الذي يخصونه بالملائكة .

فاجيب بأن لله أن يزكي الإنسان ويطهره من أدناس المعاصي بحيث يصير باطنه باطن الملائكة فظاهره ظاهر البشر وباطنه باطن الملك يعيش في الأرض يخلف مثله ويخلفه مثله ويظهر منه ما يظهر من الملائكة (١) .

وعلى هذا فمن في قوله « منكم » للتبعيض ، وقوله : « يخلفون » أي يخلف بعضهم بعضاً .

وفي المجمع أن « من » في قوله : « منكم » تفيد معنى البدلية كما في قوله :

---

(١) وليس هذا من الانقلاب المحال في شيء بل نوع من التكامل الوجودي بالخروج من حد منه أدنى إلى حد منه أعلى كما بين في محله .

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبرّدة باتت على الطهيان[١]

وقوله : « يخلفون » أي يخلفون بني آدم ويكونون خلفاء لهم ، والمعنى : ولو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلكم ملائكة يسكنون الأرض ويعمرونها ويعبدون الله .

وفيه أنه لا يلائم النظم تلك الملاءمة .

قوله تعالى : « وإنه لعلم للساعة فلا تمترنّ بها واتّبعون هذا صراط مستقيم » ضمير « إنه » لعيسى عليه‌السلام والمراد بالعلم ما يعلم به ، والمعنى : وإن عيسى يعلم به الساعة في خلقه من غير أب وإحيائه الموتى فيعلم به أن الساعة ممكنة فلا تشكّوا في الساعة ولا ترتابوا فيها البتة .

وقيل : المراد بكونه علماً للساعة كونه من أشراطها ينزل على الأرض فيعلم به قرب الساعة .

وقيل : الضمير للقرآن وكونه علماً للساعة كونه آخر الكتب المنزلة من السماء .

وفي الوجهين جميعاً خفاء التفريع الذي في قوله : « فلا تمترنّ بها » .

وقوله : « واتّبعون هذا صراط مستقيم » قيل : هو من كلامه تعالى ، والمعنى: اتّبعوا هداي أو شرعي أو رسولي ، وقيل : من كلام الرسول بأمر منه تعالى .

قوله تعالى : « ولا يصدّنّكم الشيطان إنه لكم عدو مبين » الصد الصرف ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ولما جاء عيسى بالبيّنات قال قد جئتكم بالحكمة » الخ ، المراد بالبينات الآيات البينات من المعجزات ، وبالحكمة المعارف الإلهية من العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة .

وقوله : « ولابيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه » أي في حكمه من الحوادث والأفعال، والذي يختلفون فيه وإن كان أعمّ من الاعتقادات التي يختلف في كونها حقة أو باطلة والحوادث والأفعال التي يختلف في مشروع حكمها لكن المناسب لسبق قوله: « قد جئتكم بالحكمة » أن يختص ما اختلفوا فيه بالحوادث والأفعال والله أعلم .

---

(١) الطهيان قلة الجبل ، ومعنى البيت : ليت لنا بدلاً من ماء زمزم شربة من الماء مبردة بقيت ليلة على قلة الجبل .

وقيل : المراد بقوله : « بعض الذي تختلفون فيه » كل الذي تختلفون فيه . وهو كما ترى .

وقيل : المراد لابين لكم أمور دينكم دون أمور دنياكم ولا دليل عليه من لفظ الآية ولا من المقام .

وقوله : « فاتقوا الله وأطيعون » نسب التقوى إلى الله والطاعة إلى نفسه ليسجل أنه لا يدعي إلا الرسالة .

قوله تعالى : « إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » دعوة منه إلى عبادة الله وحده وأنه هو ربه وربهم جميعاً وإتمام للحجة على من يقول بالوهيته .

قوله تعالى : « فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » ضمير « من بينهم » لمن بعث اليهم عيسى عليه السلام والمعنى : فاختلف الأحزاب المتشعبة من بين أمته في أمر عيسى من كافر به قال فيه ، ومن مؤمن به غال فيه ، ومن مقتصد لزم الاعتدال .

وقوله : « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » تهديد ووعيد للقالي منهم والغالي.

* * *

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ـ ٦٦ . أَلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ـ ٦٧ . يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ـ ٦٨ . أَلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ـ ٦٩ . أُدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ـ ٧٠ . يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ـ ٧١ . وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ـ ٧٢ . لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ـ ٧٣ .

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ــ ٧٤ . لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ
فِيهِ مُبْلِسُونَ ــ ٧٥ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ــ ٧٦ .
وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ــ ٧٧ . لَقَدْ
جِئْنَاكُمْ بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ــ ٧٨ .

(بيان)

رجوع إلى إنذار القوم وفيه تخويفهم بالساعة والإشارة إلى مـــا يؤل اليه حال المتقين والمجرمين فيها من الثواب والعقاب .

قوله تعالى : « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون » النظر الانتظار ، والبغتة الفجأة ، والمراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بامور الدنيا كما قال تعالى : « ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون » يس : ٤٩ ، فلا يتكرر المعنى في قوله : « بغتة وهم لا يشعرون » .

والمعنى : ما ينتظر هؤلاء الكفار بكفرهم وتكذيبهم لآيات الله إلا أن تأتيهم الساعة مباغتة لهم وهم غافلون عنهـا مشتغلون بامور دنياهم أي إن حالهم حال من هدّده الهلاك فلم يتوسل بشيء من أسباب النجاة وقعد ينتظر الهلاك ففي الكلام كناية عن عدم اعتنائهم بالإيمان بالحق ليتخلصوا به عن أليم العذاب .

قوله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » الأخلاء جمع خليل وهو الصديق حيث يرفع خـــلة صديقه وحاجته ، والظاهر أن المراد بالأخلاء المطلق الشامل للمخالّة والتحابّ في الله كما في مخالة المتقين أهل الآخرة والمخالة في غيره كما في مخالة أهل الدنيا فاستثناء المتقين متصل .

والوجه في عداوة الأخلاء غير المتقين أن من لوازم المخـــالة إعانة أحد الخليلين الآخر في مهام اموره فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الإعانة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد كما قال تعالى حاكياً عن الظالمين يوم القيامة : « يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً

لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني » الفرقان : ٢٩ ، وأما الأخلاء من المتقين فإن مخالتهم تتأكد وتنفعهم يومئذ .

وفي الخبر النبوي : إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلّت الأنساب وذهبت الاخوّة إلا الاخوة في الله وذلك قوله : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين (١) .

قوله تعالى : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » من خطابه تعالى لهم يوم القيامة كما يشهد به قوله بعد : « ادخلوا الجنة » الخ ، وفي الخطاب تأمين لهم من كل مكروه محتمل أو مقطوع به فإن مورد الخوف المكروه المحتمل ومورد الحزن المكروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا .

قوله تعالى : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » الموصول بدل من المنادى المضاف في « يا عباد » أو صفة له ، والآيات كل ما يدل عليه تعالى من نبي وكتاب وأي آية أخرى دالة ، والمراد بالإسلام التسليم لإرادة الله وأمره .

قوله تعالى : « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » ظاهر الأمر بدخول الجنة أن المراد بالأزواج هي النساء المؤمنات في الدنيا دون الحور العين لأنهن في الجنة غير خارجات منها .

والحبور – على ما قيل – السرور الذي يظهر أثره وحُبار في الوجه والحبرة الزينة وحسن الهيئة ، والمعنى : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات والحال أنكم تسرّون سروراً يظهر أثره في وجوهكم أو تزينون بأحسن زينة .

قوله تعالى : « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب » الخ الصحاف جمع صحفة وهي القصعة أو أصغر منها ، والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له ، وفي ذكر الصحاف والأكواب إشارة إلى تنعمهم بالطعام والشراب .

وفي الالتفات إلى الغيبة في قوله : « يطاف عليهم » بين الخطابين « ادخلوا الجنة » و « أنتم فيها خالدون » تفخيم لإكرامهم وإنعامهم أن ذلك بحيث ينبغي أن يذكر

(١) رواه في الدر المنثور في الآية عن سعد بن معاذ .

لغيرهم ليزيد به اغتباطهم ويظهر به صدق ما ُوعدوا به .

وقوله : « وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » الظاهر أن المراد بما تشتهيه الأنفس ما تتعلق به الشهوة الطبيعية من مذوق ومشموم ومسموع وملموس مما يتشارك فيه الإنسان وعامة الحيوان ، والمراد بما تلذه الأعين الجمال والزينة وذلك مما الالتذاذ به كالمختص بالإنسان كما في المناظر البهجة والوجه الحسن واللباس الفاخر ، ولذا غيّر التعبير فعبّر عما يتعلق بالأنفس بالاشتهاء وفيما يتعلق بالأعين باللذة وفي هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانية عندنا .

ويمكن أن تندرج اللذائذ الروحية العقلية فيما تلذه الأعين فإن الإلتذاذ الروحي يعد من رؤية القلب .

قال في المجمع : وقد جمع الله سبحانه في قوله :« ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين» ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان . انتهى .

وقوله : « وأنتم فيها خالدون » إخبار ووعد وتبشير بالخلود ولهم في العلم به من اللذة الروحية ما لا يقاس بغيره ولا يقدر بقدر .

قوله تعالى : « وتلك الجنة التي أُورثتموها بما كنتم تعملون » قيل : المعنى أعطيتموها بأعمالكم ، وقيل أورثتموها من الكفار وكانوا داخليها لو آمنوا وعملوا صالحاً ، وقد تقدم الكلام في المعنيين في تفسير قوله تعالى : « أُولئك هم الوارثون » المؤمنون : ١٠ .

قوله تعالى : « لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » أضاف الفاكهة الى ما مرت الإشارة اليه من الطعام والشراب لإحصاء النعمة ، و « من » في «منها تأكلون» للتبعيض ولا يخلو من إشارة إلى أنها لا تنفد بالأكل .

قوله تعالى : « إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيها مبلسون » المراد بالمجرمين المتلبّسون بالإجرام فيكون أعم من الكفار ويؤيده إيراده في مقابلة المتقين وهو أخص من المؤمنين .

والتفتير التخفيف والتقليل ، والإبلاس اليأس ويأسهم من الرحمة أو من الخروج من النار .

قوله تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » وذلك أنه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوة والهلكة .

قوله تعالى : « وقالوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون » مالك هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامة والخاصة .

وخطابهم مالكاً بما يسألونه من الله سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففين : ١٥ ، وقال : « قال اخسؤا فيها ولا تكلمون » المؤمنون : ١٠٨ .

فالمعنى : أنهم يسألون مالكاً أن يسأل الله أن يقضي عليهم .

والمراد بالقضاء عليهم إماتتهم ، ويريدون بالموت الانعدام والبطلان لينجوا بذلك عما هم فيه من الشقوة وأليم العذاب ، وهذا من ظهور ملكاتهم الدنيوية فإنهم كانوا يرون في الدنيا أن الموت انعدام وفوت لا انتقال من دار إلى دار فيسألون الموت بالمعنى الذي ارتكز في نفوسهم وإلا فهم قد ماتوا وشاهدوا ما هي حقيقته .

وقوله : « قال إنكم ماكثون » أي فيما أنتم فيه من الحياة الشقيّة والعذاب الأليم ، والقائل هو مالك جواباً عن مسألتهم .

قوله تعالى : « لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » ظاهره أنه من تمام كلام مالك يقوله عن لسان الملائكة وهو منهم ، وقيل : من كلامه تعالى ويبعّده أنهم محجوبون يومئذ عن ربهم لا يكلمهم الله تعالى .

والخطاب لأهل النار بما أنهم بشر ، فالمعنى : لقد جئناكم معشر البشر بالحق ولكن أكثركم وهم المجرمون كارهون للحق .

وقيل : المراد بالحق مطلق الحق أي حق كان فهم يكرهونه وينفرون منه وأما الحق المعهود الذي هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشمئزون منه .

والمراد بكراهتهم للحق الكراهة بحسب الطبع الثاني المكتسب بالمعاصي والذنوب لا بحسب الطبع الأول الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها إذ لو كرهوه بحسبها لم يكلفوا بقبوله ، قال تعالى : « لا تبديل لخلق الله » الروم : ٣٠ ، وقال : « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ .

ويظهر من الآية أن الملاك في السعادة والشقاء قبول الحق وردّه .

* * *

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ــ ٧٩ . أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ــ ٨٠ . قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ ــ ٨١ . سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ــ ٨٢ . فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ــ ٨٣ . وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ــ ٨٤. وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ــ ٨٥ . وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ــ ٨٦. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ــ ٨٧. وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ ــ ٨٨. فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ــ ٨٩ .

(بيان)

رجوع إلى سابق الكلام وفيه توبيخهم على مـا يريدون من الكيد برسول الله ﷺ وتهديدهم بأن الله يكيدهم ، ونفي الولد الذي يقولون به ، وإبطال القول بمطلق الشريك وإثبات الربوبية المطلقة لله وحده ، وتختتم السورة بالتهديد والوعيد .

قوله تعالى : « أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون » الابرام خـلاف النقض وهو الاحكام ، وأم منقطعة .

والمعنى : على ما يفيده سياق الآية والآية التالية : بل أحكموا أمراً من الكيد بك يا محمد فإنا محكمون الكيد بهم فالآية في معنى قوله تعالى :« أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون » الطور : ٤٢ .

قوله تعالى : « أم يحسبون أنا لا نسمع سرّهم ونجواهم بلى ورسلنـــا لديهم يكتبون » السر ما يستسرونه في قلوبهم والنجوى ما يناجيه بعضهم بعضاً بحيث لا يسمعه غيرهما، ولما كان السر حديث النفس عبر عن العلم بالسر والنجوى جميعاً بالسمع.

وقوله :« بلى ورسلنا لديهم يكتبون» أي بلى نحن نسمع سرهم ونجواهم ورسلنا الموكلون على حفظ أعمالهم عليهم يكتبون ذلك .

قوله تعالى : « قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين » إبطال لالوهية الولد بإبطال أصل وجوده من جهة علمه بأنه ليس، والتعبير بإن الشرطية دون لو الدالة على الامتناع – وكان مقتضى المقام أن يقال : لو كان للرحمن ولد ، لاستنزالهم عن رتبة المكابرة إلى مرحلة الانتصاف .

والمعنى : قل لهم إن كان للرحمان ولد كما يقولون ، فأنا أول من يعبده أداء لحقّ بنوّته ومسانخته لوالده ، لكني أعلم أنه ليس ولذلك لا أعبده لا لبغض ونحوه .

وقد أوردوا للآية معاني أخرى :

منها : أن المعنى لو كان لله ولد كما تزعمون فأنا أعبد الله وحده ولا أعبد الولد الذي تزعمون .

ومنها : أن « إن » نافية والمعنى:قل ما كان لله ولد فأنا أول العابدين الموحدين له من بينكم .

ومنها : أن « العابدين » من عبد بمعنى أنف والمعنى : قل لو كان للرحمان ولد فأنا أول من أنف واستنكف عن عبادته لأن الذي يلد لا يكون إلا جسماً والجسمية تنافي الالوهية .

ومنها : أن المعنى: كما أني لست أول من عبد الله كذلك ليس لله ولد أي لو جاز لكم أن تدعوا ذاك المحال جاز لي أن أدعي هـذا المحال . الى غير ذلك مما قيل لكن الظاهر من الآية ما قدمناه .

قوله تعالى : « سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون » تسبيح

له سبحانه عما ينسبون اليه ، والظاهر أن « رب العرش » عطف بيان لرب السماوات والأرض لأن المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود وهو عرش ملكه تعالى الذي استوى عليه وحكم فيه ودبر أمره .

ولا يخلو من إشارة الى حجة على الوحدانية إذ لما كان الخلق مختصاً به تعالى حتى باعتراف الخصم وهو من شؤن عرش ملكه ، والتدبير من الخلق والايجاد فإنه إيجاد النظام الجاري بين المخلوقات فالتدبير أيضاً من شؤن عرشه فربوبيته للعرش ربوبية لجميع السماوات والأرض .

قوله تعالى : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » وعيد إجمالي لهم بأمر النبي ﷺ بالاعراض عنهم حتى يلاقوا ما يحذّرهم منه من عذاب يوم القيامة .

والمعنى : فاتركهم يخوضوا في أباطيلهم ويلعبوا في دنياهم ويشتغلوا بذلك حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدونه وهو يوم القيامة كما ذكر في الآيات السابقة : « هل ينظرون إلا الساعة » الخ .

قوله تعالى : « وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم » أي هو الذي هو في السماء إله مستحق للمعبودية وهو في الأرض إله أي هو المستحق لمعبودية أهل السماوات والأرض وحده ،ويفيد تكرار « إله » كما قيل التأكيد والدلالة على أن كونه تعالى إلهاً في السماء والأرض بمعنى تعلق ألوهيته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو في أحدهما .

وفي الآية مقابلة لما يثبته الوثنية لكل من السماء والأرض إلهاً أو آلهة ، وفي تذييل الآية بقوله : « وهو الحكيم العليم » الدال على الحصر إشارة الى وحدانيته في الربوبية التي لازمها الحكمة والعلم .

قوله تعالى : « وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه يرجعون » ثناء عليه تعالى بالتبارك وهو مصدريته للخير الكثير .

وكل من الصفات الثلاث المذكورة حجة على توحّده في الربوبية أما ملكه للجميع فظاهر فإن الربوبية لمن يدبر الأمر والتدبير للملك ، وأما اختصاص علم الساعة به فلأن

الساعة هي المنزل الأقصى اليه يسير الكل وكيف يصح أن يرب الأشياء من لا علم له بمنتهى مسيرها فهو تعالى رب الأشياء لا من يدعونه ، وأما رجوع الناس اليه فإن الرجوع للحساب والجزاء وهو آخر التدبير فمن اليه الرجوع فإليه التدبير ومن اليه التدبير له الربوبية .

قوله تعالى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » السياق سياق العموم فالمراد بالذين يدعون، أي يعبدونهم من دونه، كل معبود غيره تعالى من الملائكة والجن والبشر وغيرهم .

والمراد « بالحق » الحق الذي هو التوحيد ، والشهادة به الاعتراف به ، والمراد بقوله : « وهم يعلمون » حيث أطلق العلم علمهم بحقيقة حال من شفعوا له وحقيقة عمله كما قال : « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » النبأ : ٣٨ ، وإذا كان هذا حال الشفعاء لا يملكونها إلا بعد الشهادة بالحق فما هم بشافعين إلا لأهل التوحيد كما قال : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » .

والآية مصرحة بوجود الشفاعة .

قوله تعالى : «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله فأنّى يؤفكون» أي إلى متى يصرفون عن الحق الذي هو التوحيد إلى الباطل الذي هو الشرك، وذلك أنهم معترفون أن لا خالق إلا الله والتدبير الذي هو ملاك الربوبية غير منفك عن الخلق كما اتضح مراراً فالرب المعبود هو الذي بيده الخلق وهو الله سبحانه .

قوله تعالى : « وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون» ضمير «قيله» للنبي ﷺ بلا إشكال ، والقيل مصدر كالقول والقال ، و « قيله » معطوف – على ما قيل – على الساعة في قوله : « وعنده علم الساعة » ، والمعنى : وعنده علم قوله : « يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون » .

قوله تعالى : « فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون » أمر بالإعراض عنهم وإقناط من إيمانهم ، وقوله : « قل سلام » أي وادعهم موادعة ترك من غير همّ لك فيهم ، وفي قوله : « فسوف يعلمون » تهديد ووعيد .

(بحث روائي)

في الاحتجاج عن علي عليه السلام في حديث طويل يقول فيه : قوله : (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) أي الجاحدين ، والتأويل في هـذا القول باطنه مضاد لظاهره .

أقول : الظاهر أن المراد أنه خلاف ما ينصرف اليه لفظ عابد عند الإطلاق .

وفي الكافي بإسناده عن هشام بن الحكم قـال : قال أبو شاكر الديصاني : إن في القرآن آية هي قولنا . قلت : وما هي ؟ قال : هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله فلم أدرِ بما أجيبه فحججت فخبّرت أبا عبد الله عليه السلام فقال: هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت اليه فقل:ما اسمك بالكوفة ؟ فإنه يقول:فلان، فقل: ما اسمك بالبصرة ؟ فإنه يقول : فلان ، فقل : كذلك الله ربنا في السماء إله ، وفي الأرض إله ، وفي البحار إله ، وفي القفار إله ، وفي كل مكان إله .

قال : فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته فقال : هذه نقلت من الحجاز .

وفي تفسير القمي في قوله تعـالى : (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) قال : هم الذين عبدوا في الدنيا لا يملكون الشفاعة لمن عبدهم .

وفي الكافي بإسناده عن أبي هاشم الجعفري قال: سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام: ما معنى الواحد ؟ فقال : إجمـاع الألسن عليه بالوحدانية لقوله : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله) .

(سورة الدخان مكية ، وهي تسع وخمسون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ ـ ١ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ـ ٢ .
إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ـ ٣ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ
أَمْرٍ حَكِيمٍ ـ ٤ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ـ ٥ . رَحْمَةً
مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ـ ٦ . رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ـ ٧ . لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ـ ٨ .

(بيان)

يتلخص غرض السورة في إنذار المرتابين في الكتاب بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقد سيق بيان ذلك بأنه كتاب مبين نازل من عند الله على من أرسله إلى الناس لإنذارهم وقد نزل رحمة منه تعالى لعباده خير نزول في ليلة القدر التي فيها يفرق كل أمر حكيم.

غير أن الناس وهم الكفار ارتابوا فيه لاعبين في هوساتهم وسيغشاهم أليم عذاب الدنيا ثم يرجعون إلى ربهم فينتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد.

ثم يذكر لهم تنظيراً لأول الوعيدين قصة إرسال موسى عليه السلام إلى قوم فرعون لإنجاء بني إسرائيل وتكذيبهم له وإغراقهم نكالاً منه .

ثم يذكر إنكارهم لثاني الوعيدين وهو الرجوع الى الله في يوم الفصل فيقيم الحجة على أنه آت لا محالة ثم يذكر طرفاً من أخباره وما سيجري فيه على المجرمين ويصيبهم من ألوان عذابه ، وما سيثاب به المتقون من حياة طيبة ومقام كريم .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « حم والكتاب المبين »الواو للقسم والمراد بالكتاب المبين القرآن.

قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين » المراد بالليلة المباركة التي نزل فيها القرآن ليلة القدر على ما يدل عليه قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » القدر : ١ ، وكونها مباركة ظرفيتها للخير الكثير الذي ينبسط على الخلق من الرحمة الواسعة ، وقد قال تعالى : « وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر » القدر : ٣ .

وظاهر اللفظ أنها إحدى الليالي التي تدور على الأرض وظاهر قوله : « فيها يفرق » الدال على الاستمرار أنها تتكرّر وظاهر قوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » البقرة:١٨٥ ، أنها تتكرر بتكرر شهر رمضان فهي تتكرر بتكرر السنين القمرية وتقع في كل سنة قمرية مرة واحدة في شهر رمضان ، وأما أنها أي ليلة هي؟فلا إشعار في كلامه تعالى بذلك،وأما الروايات فستوافيك في البحث الروائي التالي.

والمراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة على ما هو ظاهر قوله : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » ، وقوله : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » القدر: ١ ، وقوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان » البقرة : ١٨٥ ، أن النازل هو القرآن كله .

ولا يدفع ذلك قوله:«وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً» أسرى : ١٠٦ ، وقوله: « وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » الفرقان : ٣٢ ، الظاهرين في نزوله تدريجاً ، ويؤيد ذلك آيات اخر كقوله : « فإذا انزلت سورة محكمة » سورة محمد : ٢٠ ، وقوله : « وإذا ما انزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض » التوبة : ١٢٧ وغير ذلك ويؤيد ذلك أيضاً ما لا يحصى من الأخبار المتضمنة لأسباب النزول .

وذلك أنه يمكن أن يحمل على نزول القران مرتين مرة مجموعاً وجملة في ليلة

واحدة من ليالي شهر رمضان ، ومرة تدريجاً ونجوماً في مدة ثلاث وعشرين سنة وهي مدة دعوته ﷺ .

لكن الذي لا ينبغي الإرتياب فيه أن هذا القرآن المؤلف من السور والآيات بما فيه من السياقات المختلفة المنطبقة على موارد النزول المختلفة الشخصية لا يقبل النزول دفعة فإن الآيات النازلة في وقائع شخصية وحوادث جزئية مرتبطة بأزمنة وأمكنة وأشخاص وأحوال خاصة لا تصدق إلا مع تحقق مواردها المتفرقة زماناً ومكاناً وغير ذلك بحيث لو اجتمعت زماناً ومكاناً وغير ذلك انقلبت عن تلك الموارد وصارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن وهو على هيئته وحاله بعينها مرة جملة ، ومرة نجوماً .

فلو قيل بنزوله مرتين كان من الواجب أن يفرّق بين المرتين بالإجمال والتفصيل فيكون نازلاً مرة إجمالاً ومرة تفصيلاً ونعني بهذا الإجمال والتفصيل ما يشير اليه قوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير » هود : ١ ، وقوله : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف : ٤ ، وقد مرّ الكلام في معنى الإحكام والتفصيل في تفسير سورتي هود والزخرف .

وقيل: المراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة افتتاح نزوله التدريجي في ليلة القدر من شهر رمضان فأول ما نزل من آيات القرآن ـ وهو سورة العلق أو سورة الحمد ـ نزل في ليلة القدر .

وهذا القول مبني على استشعار منافاة نزول الكتاب كله في ليلة ونزوله التدريجي الذي تدل عليه الآيات السابقة وقد عرفت أن لا منافاة بين الآيات .

على أنك خبير بأنه خلاف ظاهر الآيات .

وقيل : إنه نزل أولاً جملة على السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل من السماء الدنيا على الأرض تدريجاً في ثلاث وعشرين سنة مدة الدعوة النبوية .

وهذا القول مأخوذ من الأخبار الواردة في تفسير الآيات الظاهرة في نزوله جملة وستمر بك في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

وقوله : «إنا كنا منذرين» واقع موقع التعليل ، وهو يدل على استمرار الإنذار منه تعالى قبل هذا الإنذار ، فيدل على أن نزول القرآن من عنده تعالى ليس ببدع ،

فإنما هو إنذار والإنذار سنّة جارية له تعالى لم تزل تجري في السابقين من طريق الوحي إلى الأنبياء والرسل وبعثهم لإنذار الناس .

قوله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » ضمير « فيها » لليلة والفرق فصل الشيء من الشيء بحيث يتمايزان ويقابله الإحكام فالأمر الحكيم ما لا يتميز بعض أجزائه من بعض ولا يتعين خصوصياته وأحواله كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

فللامور بحسب القضاء الإلهي مرحلتان : مرحلة الإجمال والإبهام ومرحلة التفصيل ، وليلة القدر – على ما يدل عليه قوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم – ليلة يخرج فيها الامور من مرحلة الإحكام الى مرحلة الفرق والتفصيل ، وقد نزل فيها القرآن وهو أمر من الامور المحكمة فرق في ليلة القدر .

ولعل الله سبحانه أطلع نبيه على جزئيات الحوادث التي ستقع في زمان دعوته وما يقارن منها نزول كل آية أو آيات أو سورة من كتابه فيستدعي نزولها وأطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلاً عليه دفعة وجملة قبل نزوله تدريجاً ومفرّقاً .

ومآل هذا الوجه اطلاع النبي ﷺ على القرآن في مرحلة نزوله إلى القضاء التفصيلي قبل نزوله على الأرض واستقراره في مرحلة العين ، وعلى هذا الوجه لا حاجة إلى تفريق المرتين بالإجمال والتفصيل كما تقدم في الوجه الأول .

وظاهر كلام بعضهم أن المراد بقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » تفصيل الامور المبينة في القرآن من معارف وأحكام وغير ذلك . ويدفعه أن ظاهر قوله : «فيها يفرق» الاستمرار والذي يستمر في هذه الليلة بتكررها تفصيل الامور الكونية بعد إحكامها وأما المعارف والأحكام الإلهية فلا استمرار في تفصيلها فلو كان المراد فرقها كان الأنسب أن يقال : « فيها فرق » .

وقيل : المراد بكون الأمر حكيماً إحكامه بعد الفرق لا الإحكام الذي قبل التفصيل ، والمعنى : يقضى في الليلة كل أمر محكم لا يتغير بزيادة أو نقصان أو غير ذلك هذا ، والأظهر ما قدمناه من المعنى .

قوله تعالى : « أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين » المراد بالأمر الشأن وهو حال من الأمر السابق والمعنى فيها يفرق كل أمر حال كونه أمراً من عندنا ومبتدأً من

لدنا ، ويمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهي والمعنى: يفرق فيها كل أمر بأمر منا، وهو على أي حال متعلق بقوله : « يفرق » .

ويمكن أن يكون متعلقاً بقوله : « أنزلناه » أي حال كون الكتاب أمراً أو بأمر من عندنا ، وقوله : « إنا كنا مرسلين » لا يخلو من تأييد لذلك ، ويكون تعليلاً له والمعنى : إنا أنزلناه أمراً من عندنا لأن سنتنا الجارية إرسال الأنبياء والرسل .

قوله تعالى : « رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » أي إنزاله رحمة من ربك أو أنزلناه لأجل إفاضة الرحمة على الناس أو لاقتضاء رحمة ربك إنزاله فقوله: « رحمة » حال على المعنى الاول ومفعول له على الثاني والثالث .

وفي قوله : « من ربك » التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة ووجهه إظهار العناية بالنبي ﷺ لأنه هو الذي انزل عليه القران وهو المنذر المرسل إلى الناس .

وقوله : « إنه هو السميع العليم » أي السميع للمسائل والعليم بالحوائج فيسمع مسألتهم ويعلم حاجتهم إلى الاهتداء بهدى ربك فينزل الكتاب ويرسل الرسول رحمة منـــه لهم .

قوله تعالى : « رب السماوات والأرض ومـــا بينهما إن كنتم موقنين » لما كانت الوثنية يرون أن لكل صنف من الخلق إلهاً أو أكثر وربما اتخذ قوم منهم إلهاً غير ما يتخذه غيرهم عقب قوله : « من ربك » بقوله : « رب السماوات » الخ ، لئلا يتوهم متوهم منهم أن ربوبيته للنبي ﷺ ليست بالاختصاص كالتي بينهم بل هو تعالى ربه ورب السماوات والأرض وما بينهما ، ولذلك عقبه أيضاً في الآية التالية بقوله : « لا إله إلا هو » .

وقوله : « إن كنتم موقنين » هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشري من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهروا سخاءه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته فالمعنى هو الذي يعرفه الموقنون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شيء .

قوله تعالى : « لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين » لما كان مدلول الآية السابقة انحصار الربوبية وهي الملك والتدبير فيه تعالى والالوهية وهي

المعبودية بالحق من لوازم الربوبية عقبه بكلمة التوحيد النافية لكل إله دونه تعالى .

وقوله : « يحيي ويميت » من أخص الصفات به تعالى وهما من شؤن التدبير ، وفي ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتي من إنذارهم بالمعاد .

وقوله : « ربكم ورب آبائكم الأولين » فيه كمال التصريح بأنه ربهم ورب آبائهم فليعبدوه ولا يتعللوا باتباع آبائهم في عبادة الأصنام ، ولتكميل التصريح سيقت الجملة بالخطاب فقيل : « ربكم ورب آبائكم » .

وهما أعني قوله : « يحيي ويميت » وقوله : « ربكم » خبران لمبتدأ محذوف والتقدير هو يحيي ويميت الخ .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » : والليلة المباركة هي ليلة القدر ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي الكافي بإسناده عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران أنه سأل أبا جعفر عليه‌السلام عن قول الله تعالى : « انا أنزلناه في ليلة مباركة » قال: نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر فلم ينزل القران إلا في ليلة القدر قال الله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » قال : يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة الى مثلها من قابل : خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل ورزق فما قدر في تلك السنة وقضي فهو المحتوم ولله تعالى فيه المشيّة .

أقول : قوله : فهو المحتوم ولله فيه المشيّة أي أنه محتوم من جهة الأسباب والشرائط فلا شيء يمنع عن تحققه إلا أن يشاء الله ذلك .

وفي البصائر عن عباس بن معروف عن سعدان بن مسلم عن عبدالله بن سنان قال: سألته عن النصف من شعبان فقال: ما عندي فيه شيء ولكن إذا كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان قسم فيها الأرزاق وكتب فيها الآجال وخرج فيها صكاك الحاج واطّلع الله إلى عباده فغفر الله لهم إلا شارب خمر مسكر .

فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين فيها يفرق كل أمر حكيم ثم ينهي ذلك ويمضي ذلك. قلت : إلى من ؟ قال : إلى صاحبكم ولولا ذلك لم يعلم .

وفي الدر المنثور أخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » قال : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب الحاج : يحجّ فلان ويحجّ فلان .

أقول : والأخبار في ليلة القدر وما يقضى فيها وفي تعيينها كثيرة جداً وسيأتي عمدتها في تفسير سورة القدر إن شاء الله تعالى .

* * *

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ــ ٩. فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ
مُبِينٍ ــ ١٠ . يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ــ ١١ . رَبَّنَا ٱكْشِفْ
عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ــ ١٢ . أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مُبِينٌ ــ ١٣ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ــ ١٤ .
إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ــ ١٥ . يَوْمَ نَبْطِشُ
ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ــ ١٦ . وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ
وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ــ ١٧ . أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ــ ١٨ . وَأَنْ لاَ تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ
مُبِينٍ ــ ١٩ . وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ــ ٢٠. وَإِنْ لَمْ
تُؤْمِنُوا لِي فَٱعْتَزِلُونِ ــ ٢١ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ــ ٢٢.

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ـ ٢٣ . وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ
جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ـ ٢٤ . كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ـ ٢٥ .
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ـ ٢٦ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ـ ٢٧ .
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ـ ٢٨ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ـ ٢٩ . وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ
ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ـ ٣٠ . مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ـ ٣١ .
وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ـ ٣٢ . وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ ٱلْآيَاتِ
مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ـ ٣٣ .

(بيان)

تذكر الآيات ارتيابهم في كتاب الله بعد ما ذكرت أنه كتاب مبين نازل في خير ليلة على رسوله لغرض الإنذار رحمة من الله، ثم تهددهم بعذاب الدنيا وبطش يوم القيامة وتتمثل لهم بقصة إرسال موسى الى قوم فرعون وتكذيبهم له وإغراقهم .

ولا تخلو القصة من إيماء إلى أنه تعالى سينجّي النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين به من عتاة قريش بإخراجهم من مكة ثم إهلاك صناديد قريش في تعقيبهم النبي والمؤمنين به .

قوله تعالى : «بل هم في شك يلعبون» ضمير الجمع لقوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والإضراب عن محذوف يدل عليه السياق السابق أي إنهم لا يوقنون ولا يؤمنون بما ذكر من رسالة الرسول وصفة الكتاب الذي أُنزل عليه بل هم في شك وارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بدنياهم ، وذكر الزمخشري أن الإضراب عن قوله : « إن كنتم موقنين » .

قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى النـاس » الإرتقاب الانتظار وهذا وعيد بالعذاب وهو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس .

واختلف في المراد بهذا العذاب المذكور في الآية .

فقيل : المراد به المجاعة التي ابتلى بها أهل مكة فإنهم لما أصروا على كفرهم وأذاهم للنبي ﷺ والمؤمنين به دعا عليهم النبي ﷺ فقال : اللهم سنين كسني يوسف فأجدبت الأرض وأصابت قريشاً مجاعة شديدة ، وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان وأكلوا الميتة والعظام ثم جاؤا الى النبي ﷺ وقالوا : يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم وقومك قد هلكوا ، ووعدوه إن كشف الله عنهم الجدب أن يؤمنوا ، فدعا وسأل الله لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم ثم عادوا الى كفرهم ونقضوا عهدهم .

وقيل : إن الدخان المذكور في الآية من أشراط الساعة وهو لم يأت بعد وهو يأتي قبل قيام الساعة فيدخل أسماع الناس حتى أن رؤسهم تكون كالرأس الحنيذ . ويصيب المؤمن منه مثل الزكمة وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص [١] ويمكث ذلك أربعين يوماً .

وربما قيل : إن المراد بيوم الدخان يوم فتح مكة حين دخل جيش المسلمين مكة فارتفع الغبار كالدخان المظلم ، وربما قيل : المراد به يوم القيامة ، والقولان كما ترى .

وقوله : « يغشى الناس » أي يشملهم ويحيط بهم ، والمراد بالناس أهل مكة على القول الأول ، وعامة الناس على القول الثاني .

قوله تعالى : « هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » حكاية قول الناس عند نزول عذاب الدخان أي يقول الناس يوم تأتي السماء بدخان مبين : هذا عذاب أليم ويسألون الله كشفه بالاعتراف بربوبيته وإظهار الإيمان بالدعوة الحقة فيقولون : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون .

قوله تعالى : « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين » أي من أين لهم أن يتذكروا ويذعنوا بالحق والحال أنه قد جاءهم رسول مبين ظاهر في رسالته لا يقبل الإرتياب وهو محمد ﷺ ، وفي الآية ردّ صدقهم في وعدهم .

قوله تعالى : « ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون » التولي الإعراض ، وضمير

---

(١) الخصاص : الثقبة والفرجة .

« عنه » للرسول و « معلّم مجنون » خبران لمبتدء محذوف هو ضمير راجع إلى الرسول والمعنى : ثم أعرضوا عن الرسول وقالوا هو معلم مجنون فرموه أولاً بأنه معلم يعلّمه غيره فيسند ما تعلمه إلى الله سبحانه ، قال تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر » النحل : ١٠٣ ، وثانياً بأنه مجنون مختلّ العقل .

قوله تعالى : « إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون » أي إنا كاشفون للعذاب زماناً انكم عائدون إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب هذا بناء على القول الأول والآية تأكيد لرد صدقهم فيما وعدوه من الإيمان .

وأما على القول الثاني فالأقرب أن المعنى: إنكم عائدون الى العذاب يوم القيامة .

قوله تعالى : «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» البطش – على ما ذكره الراغب – تناول الشيء بصولة ، وهذا اليوم بناء على القول الأول المذكور يوم بدر وبناء على القول الثاني يوم القيامة ، وربما أيد توصيف البطشة بالكبرى هذا القول الثاني فإن بطش يوم القيامة وعذابه أكبر البطش والعذاب ، قال تعالى : « فيعذبه الله العذاب الأكبر » الغاشية : ٢٤ ، كما أن أجره أكبر الأجر قال تعالى : « ولأجر الآخرة أكبر » النحل : ٤١ .

قوله تعالى : «ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم» الفتنة الامتحان والابتلاء للحصول على حقيقة الشيء ، وقوله : « وجاءهم رسول كريم » الخ ، تفسير للامتحان ، والرسول الكريم موسى عليه السلام ، والكريم هو المتّصف بالخصال الحميدة قال الراغب : الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر نحو قوله : « إن ربي غني كريم » ، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه ، ولا يقال : هو كريم حتى يظهر ذلك منه ، قال : وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم قال تعالى : «وأنبتنا فيها من كل زوج كريم» «وزروع ومقام كريم » « إنه لقرآن كريم » « وقل لهما قولاً كريماً » انتهى .

قوله تعالى : « أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين » تفسير لمجيء الرسول فإن معنى مجيء الرسول تبليغ الرسالة وكان من رسالة موسى عليه السلام الى فرعون وقومه أن يرسلوا معهم بني إسرائيل ولا يعذبوهم ، والمراد بعباد الله بنو إسرائيل وعبر عنهم

بذلك استرحاماً وتلويحاً الى أنهم في استكبارهم وتعديهم عليهم إنما يستكبرون على الله لأنهم عباد الله .

وفي قوله : « إني لكم رسول أمين » حيث وصف نفسه بالأمانة دفع لاحتمال أن يخونهم في دعوى الرسالة وإنجاء بني إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من أرضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملإ حوله : « إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » الشعراء : ٣٥ .

وقيل : « عباد الله » نداء لفرعون وقومه والتقدير أن أدّوا إلى ما آمركم به يا عباد الله ، ولا يخلو من التقدير المخالف للظاهر .

قوله تعالى : « وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين » أي لا تتجبروا على الله بتكذيب رسالتي والإعراض عما أمركم الله فإن تكذيب الرسول في رسالته استعلاء وتجبر على من أرسله والدليل على أن المراد ذلك تعليل النهي بقوله : « إني آتيكم بسلطان مبين » أي حجة بارزة من الآيات المعجزة أو حجة المعجزة وحجة البرهان .

قيل : ومن حسن التعبير الجمع بين التأدية والأمين وكذا بين العلو والسلطان .

قوله تعالى : « وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون » أي التجأت اليه تعالى من رجمكم إياي فلا تقدرون على ذلك ، والظاهر أنه إشارة الى ما آمنه ربه قبل المجيء الى القوم كما في قوله تعالى : « قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » طه : ٤٦ .

وبما مر يظهر فساد ما قيل : إن هذا كان قبل أن يخبره الله بعجزهم عن رجمه بقوله سبحانه : « فلا يصلون اليكما » .

قوله تعالى : « وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون » أي إن لم تؤمنوا لي فكونوا بمعزل مني لا لي ولا عليّ ولا تتعرضوا لي بخير أو شر ، وقيل : المراد تنحوا عني وانقطعوا ، وهو بعيد .

قوله تعالى : « فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون » أي دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون وقد ذكر من دعائه السبب الداعي له الى الدعاء وهو إجرامهم الى حد يستحقون معه الهلاك ويعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالى إذ قال : « فأسر بعبادي »

الخ ، وهو الإهلاك .

قوله تعالى : «فأسر بعبادي ليلاً إنكم متّبعون» الإسراء : السير بالليل فيكون قوله : « ليلاً » تأكيداً له وتصريحاً به ، والمراد بعبادي بنو إسرائيل، وقوله : « إنكم متّبعون » أي يتبعكم فرعون وجنوده ، وهو استئناف يخبر عما سيقع عقيب الإسراء.

وفي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فقال له : أسر بعبادي ليلاً إنكم متّبعون يتبعكم فرعون وجنوده .

قوله تعالى : «واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون» قال في المفردات : واترك البحر رهواً أي ساكناً ، وقيل : سعة من الطريق وهو الصحيح . انتهى . وقوله : « إنهم جند مغرقون » تعليل لقوله : « واترك البحر رهواً » .

وفي الكلام إيجاز بالحذف اختصاراً والتقدير : أسر بعبادي ليلاً يتّبعكم فرعون وجنوده حتى إذا بلغتم البحر فاضربه بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه واتركه ساكناً أو مفتوحاً على حاله فيدخلونه طمعاً في إدراككم فهم جند مغرقون .

قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك » « كم » للتكثير أي كثيراً ما تركوا ، وقوله : « من جنات » الخ ... بيان لما تركوا ، والمقام الكريم المساكن الحسنة الزاهية ، والنعمة بفتح النون التنعّم وبناؤها بناء المرّة كالضربة وبكسر النون قسم من التنعم وبناؤها بناء النوع كالجلسة وفسروا النعمة ههنا بما يتنعم به وهو أنسب للترك ، وفاكهين من الفكاهة بمعنى حديث الانس ولعل المراد به ههنا التمتع كما يتمتع بالفواكه وهي أنواع الثمار .

وقوله : « كذلك» قيل : معناه الأمر كذلك ، وقيل : المعنى نفعل فعلاً كذلك لمن نريد إهلاكه ، وقيل : الإشارة إلى الإخراج المفهوم من الكلام السابق ، والمعنى : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها .

ويمكن أن يكون حالاً من مفعول «تركوا» المحذوف والمعنى : كثيراً ما تركوا أشياء كذلك أي على حالها والله أعلم .

قوله تعالى : « وأورثناها قوماً آخرين » الضمير لمفعول « تركوا » المحذوف المبيّن بقوله : « من جنات » الخ ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » بكاء السماء والأرض على شيء فائت كناية تخييلية عن تأثرهما عن فوته وفقده فعدم بكائهما عليهم بعد إهلاكهم كناية عن هوان أمرهم على الله وعدم تأثير هلاكهم في شيء من أجزاء الكون.

وقوله : « وما كانوا منظرين » كناية عن سرعة جريان القضاء الإلهي والقهر الربوبي في حقهم وعدم مصادفته لمانع يمنعه أو يحتاج إلى علاج في رفعه حتى يتأخر به .

قوله تعالى : «ولقد نجّينا بني إسرائيل من العذاب المهين» وهو ما يصيبهم وهم في أسارة فرعون من ذبح الأبناء واستحياء النساء وغير ذلك .

قوله تعالى : « من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين » « من فرعون » بدل من قوله : « من العذاب » إما بحذف مضاف والتقدير من عذاب فرعون ، أو من غير حذف بجعل فرعون عين العذاب دعوى للمبالغة ، وقوله : «إنه كان عالياً من المسرفين» أي متكبراً من أهل الإسراف والتعدّي عن الحد .

قوله تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » أي اخترناهم على علم منا باستحقاقهم الاختيار على ما يفيده السياق .

والمراد بالعالمين جميع العالمين من الامم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثرة الأنبياء فإنهم يمتازون من سائر الامم بكثرة الأنبياء المبعوثين منهم ويمتازون بأن مرّ عليهم دهر طويل في التيه وهم يتظللون بالغمام ويأكلون المن والسلوى إلى غير ذلك .

وعالموا أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقة فإنهم لم يختاروا على الامة الاسلامية التي خاطبهم الله تعالى بمثل قوله : « كنت خير أمة أُخرجت للناس » آل عمران : ١١٠ ، وقوله : « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج » الحج: ٧٨.

قوله تعالى : «وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين» البلاء الاختبار والامتحان أي وأعطينا بني إسرائيل من الآيات المعجزات ما فيه امتحان ظاهر ولقد أُوتوا من الآيات المعجزات ما لم يعهد في غيرهم من الامم وابتلوا بذلك ابتلاء مبيناً .

قيل : وفي قوله : « فيه » إشارة إلى أن هناك اموراً اخرى ككونه معجزة .

وفي تذييل القصة بهذه الآيات الأربع أعني قوله : « ولقد نجّينا بني إسرائيل

– إلى قوله – بلاء مبين» نوع تطييب لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإيماء إلى أن الله تعالى سينجّيه والمؤمنين به من فراعنة مكة ويختارهم ويمكّنهم في الأرض فينظر كيف يعملون .

(بحث روائي)

عن جوامع الجامع في قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » واختلف في الدخان فقيل : إنه دخان يأتي من السماء قبل قيام الساعة يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ [١] ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام ويكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص يمدّ ذلك أربعين يوماً ، وروي ذلك عن علي وابن عباس والحسن .

أقول : ورواه في الدر المنثور عنهم وأيضاً عن حذيفة بن اليمان وأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ورواه أيضاً عن ابن عمر موقوفاً .

وفي تفسير القمي في الآية قال: ذلك إذا خرجوا في الرجعة من القبر يغشى الناس كلهم الظلمة فيقولون : هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون .

وفي المجمع وروى زرارة بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : بكت السماء على يحيى بن زكريا والحسين بن علي عليهما السلام أربعين صباحاً . قلت : فما بكاؤها ؟ قال : كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب عن إبراهيم قال : ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قيل لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن ؟ قال : ذاك مقامه وحيث يصعد عمله. قال : وتدري ما بكاء السماء ؟ قال : لا. قال : تحمرّ وتصير وردة كالدهان . إن يحيى بن زكريا لما قتل احمرّت السماء وقطرت دماً ، وإن الحسين بن علي يوم قتل احمرّت السماء .

وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام قال : إذا مات المؤمن بكت عليه بقاع الأرض التي كان يعبد الله عز وجل فيها والباب الذي كان يصعد منه عمله وموضع سجوده .

---

(١) الحنيذ : المشوي .

أقول : وفي هذا المعنى ومعنى الروايتين السابقتين روايات أخر من طرق الشيعة وأهل السنة .

ولو بني في معنى بكاء السماء والأرض على ما يظهر من هذه الروايات لم يحتج إلى حمل بكائها على الكناية التخييلية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وقالوا معلّم مجنون » قال : قالوا ذلك لما نزل الوحي على رسول الله ﷺ فأخذه الغشي فقالوا : هو مجنون .

* * *

إِنَّ هٰؤُلاءِ لَيَقُولُونَ ـ ٣٤ . إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا ٱلْأُولىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ـ ٣٥ . فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ـ ٣٦ . أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ـ ٣٧ . وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ـ ٣٨ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ـ ٣٩ . إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ـ ٤٠ . يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ـ ٤١ . إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ـ ٤٢ . إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ـ ٤٣ . طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ـ ٤٤ . كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ـ ٤٥ . كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ـ ٤٦ . خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلىٰ سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ ـ ٤٧ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ـ ٤٨ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ـ ٤٩ . إِنَّ هٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ـ ٥٠ .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ــ ٥١ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ــ ٥٢ . يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ــ ٥٣ . كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ــ ٥٤ . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ــ ٥٥ . لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ــ ٥٦ . فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ــ ٥٧ . فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ــ ٥٨ . فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ــ ٥٩ .

(بيان)

لما أنذر القوم بالعذاب الدنيوي ثم بالعذاب الاخروي وتمثل للعذاب الدنيوي بما جرى على قوم فرعون اذ جاءهم موسى عليه السلام بالرسالة من ربه فكذبوه فأخذهم الله بعذاب الإغراق فاستأصلهم .

رجع الى الكلام في العذاب الاخروي فذكر إنكار القوم للمعاد وقولهم أن ليس بعد الموتة الاولى حياة فاحتج على إثبات المعاد بالبرهان ثم أنبأ عن بعض ما سيلقاه المجرمون من العذاب في الآخرة وبعض ما سيلقاه المتقون من النعيم المقيم وعند ذلك تختتم السورة بما بدأت به وهو نزول الكتاب للتذكر وأمره صلى الله عليه وآله وسلم بالارتقاب .

قوله تعالى : « إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين » رجوع الى أول الكلام من قوله : « بل هم في شك يلعبون » والإشارة بهؤلاء الى قريش ومن يلحق بهم من العرب الوثنيين المنكرين للمعاد ، وقولهم : « إن هي إلا موتتنا الاولى » يريدون به نفي الحياة بعد الموت الملازم لنفي المعاد بدليل قولهم بعده: « وما نحن بمنشرين » أي بمبعوثين ، قال في الكشاف يقال : أنشر الله الموتى ونشرهم اذا بعثهم . انتهى .

فقولهم : « إن هي إلا موتتنا الاولى » الضمير فيه للعاقبة والنهاية أي ليست عاقبة أمرنا ونهاية وجودنا وحياتنا إلا موتتنا الاولى فنعدم بها ولا حياة بعدها أبداً.

ووجه تقييد الموتة في الآية بالاولى ، بأنه ليس بقيد احترازي إذ لا ملازمة بين الأول والآخر أو بين الأول والثاني فمن الجائز أن يكون هناك شيء أول ولا ثاني له ولا في قباله آخر ، كذا قيل .

وهناك وجه آخر ذكره الزمخشري في الكشاف فقال : فإن قلت : كان الكلام واقعاً في الحيـــاة الثانية لا في الموت فهلا قيل : إلا حياتنا الاولى وما نحن بمنشرين كما قيل : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، وما معنى قوله : « إلا موتتنا الاولى » ؟ وما معنى ذكر الاولى ؟ كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الاولى .

قلت: معناه – والله الموفق للصواب – أنهم قيل لهم : إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبتها حياة وذلك قوله عز وجل: « وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » فقالوا : إن هي إلا موتتنا الاولى يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تتعقبها حياة إلا الموتة الاولى دون الموتة الثانية ، وما هــذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لهـا إلا للموتة الاولى خاصة فلا فرق إذاً بين هــذا وبين قوله : « إن هي إلا حياتنا الدنيا » في المعنى انتهى .

ويمكن أن يوجّه بوجه ثالث وهو أن يقولوا : « إن هي إلا موتتنا الاولى » بعد ما سمعوا قوله تعالى : « قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » الآية ، وقد تقدم في تفسير الآية أن الإماتة الاولى هي الموتة بعد الحياة الدنيا ، والإماتة الثانية هي التي بعد الحياة البرزخية فهم في قولهم : « إن هي إلا موتتنا الاولى » ينفون الموتـــة الثانية الملازمة للحياة البرزخية التي هي حياة بعد الموت فإنهم يرون موت الإنسان انعداماً له وبطلاناً لذاته .

ويمكن أن يوجه بوجه رابع وهو أن يرجع التقيد بالاولى الى الحكاية دون المحكي وذلك بأن يكون الذي قالوا إنما هو « إن هي إلا موتتنا » ويكون معنى الكلام

أن هؤلاء ينفون الحياة بعد الموت ويقولون : إن هي إلا موتتنا يريدون الموتة الاولى من الموتتين اللتين ذكرنا في قولنا : « قالوا ربنا أمتنا اثنتين » الآية .

والوجوه الأربع مختلفة في القرب من الفهم فأقربها ثالثها ثم الرابع ثم الأول .

قوله تعالى : « فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » تتمة كلام القوم وخطاب منهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بـه حيث كانوا يذكرون لهم البعث والإحياء فاحتجوا لردّ الإحياء بعد الموت بقولهم : «فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين» أي فليحي آباؤنا الماضون بدعائكم أو بأي وسيلة اتخذتموها حتى نعلم صدقكم في دعواكم أن الأموات سيحيون وأن الموت ليس بانعدام .

قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تبّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين » تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبّع والذين من قبلهم من الامم .

وتبّع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن واسمه على ما ذكروا أسعد أبو كرب وقيل: سعد أبو كرب وسيأتي في البحث الروائي نبذة من قصته وفي الكلام نوع تلويح إلى سلامة تبّع نفسه من الإهلاك .

قوله تعالى : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » ضمير التثنية في قوله : «وما بينهما» لجنسي السماوات والأرض ولذا لم يجمع ، والباء في قوله « بالحق » للملابسة أي ما خلقناهما إلا متلبستين بالحق ، وجوّز بعضهم كونها للسببية أي ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ، ولا يخفى بعده .

ومضمون الآيتين حجة برهانية على ثبوت المعاد وتقريرها أنـه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال يوجد أشياء ثم يعدمها ثم يوجد أشياء أخر ثم يعدمها ويحيي هذا ثم يميته ويحيي آخر وهكذا كان لاعباً في فعله عابثاً به واللعب عليه تعالى محال ففعله حق له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائمي ينتقل اليه الأشياء وما في هذا العالم الدنيوي الفاني البائد مقدمة للانتقال إلى ذلك العالم وهو الحياة الآخرة.

وقد فصّلنا القول في هذا البرهان في تفسير الآية ١٦ من سورة الأنبياء ، والآية ٢٧ من سورة ص فليراجع .

وقوله : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » تقريع لهم بالجهل .

قوله تعالى : « إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » بيان لصفة اليوم الذي يثبته البرهان السابق وهو يوم القيامة الذي فيه يقوم الناس لرب العالمين .

وسماه الله يوم الفصل لأنه يفصل فيه بين الحق والباطل وبين المحق والمبطل والمتقين والمجرمين أو لأنه يوم القضاء الفصل منه تعالى .

وقوله : « ميقاتهم أجمعين » أي موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدم ذكره من قوم تبع وقوم فرعون ومن تقدمهم وقريش وغيرهم .

قوله تعالى : « يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون » بيان ليوم الفصل، والمولى هو الصاحب الذي له أن يتصرف في أمور صاحبه ويطلق على من يتولى الأمر وعلى من يُتولى أمره والمولى الأول في الآية هو الأول والثاني هو الثاني .

والآية تنفي أولاً إغناء مولى عن مولاه يومئذ ، وتخبر ثانياً أنهم لا ينصرون والفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقل المغني في عمله ولا يكون لمن يغني عنه صنع في ذلك ، والنصرة إنما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصة ويتم له ذلك بنصرة الناصر .

والوجه في انتفاء الإغناء والنصر يومئذ أن الأسباب المؤثرة في نشأة الحياة الدنيا تسقط يوم القيامة ، قال تعالى : « وتقطعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ ، وقال : « فزيّلنا بينهم » يونس : ٢٨ .

قوله تعالى : « إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم » استثناء من ضمير « لا ينصرون » والآية من أدلة الشفاعة يومئذ وقد تقدم تفصيل القول في الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب .

هذا على تقدير رجوع ضمير « لا ينصرون » الى الناس جميعاً على ما هو الظاهر . وأما لو رجع الى الكفار كما قيل فالاستثناء منقطع والمعنى : لكن من رحمه الله وهم المتقون فإنهم في غنى عن مولى يغني عنهم وناصر ينصرهم .

وأما ما جوّزه بعضهم من كونه استثناء متصلاً من « مولى » فقد ظهر فساده مما قدمناه فإن الإغناء إنما هو فيما لم يكن عند الإنسان شيء من أسباب النجاة ومن كان

على هذه الصفة لم يغن عنه مغن ولا استثناء والشفاعة نصرة تحتاج إلى بعض أسباب النجاة وهو الدين المرضي وقد تقدم في بحث الشفاعة ، نعم يمكن أن يوجه بما سيجيء في رواية الشحام .

وقوله : « إنه هو العزيز الرحيم » أي الغالب الذي لا يغلبه شيء حتى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه ،ومفيض الخير على من يريد أن يرحمه ويفيض الخير عليه ومناسبة الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهرة .

قوله تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » تقدم الكلام في شجرة الزقوم في تفسير سورة الصافات ،والأثيم من استقر فيه الإثم إما بالمداومة على معصية أو بالإكثار من المعاصي والآية إلى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار .

قوله تعالى : « كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم » المهل هو المذاب من النحاس والرصاص وغيرهما ، والغلي والغليان معروف ، والحميم الماء الحار الشديد الحرارة ، وقوله : « كالمهل » خبر ثان لقوله : « إن » كما أن قوله : « طعام الأثيم » خبر أول ، وقوله : « يغلي في البطون كغلي الحميم » خبر ثالث ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم » الاعتلاء الزعزعة والدفع بعنف وسواء الجحيم وسطه ، والخطاب للملائكة الموكلين على النار أي نقول للملائكة خذوا الأثيم وادفعوه بعنف الى وسط النـــار لتحيط به قال تعالى : « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » التوبة : ٤٩ .

قوله تعالى : « ثم صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم » كأن المراد بالعذاب ما يعذّب به ،وإضافته الى الحميم بيانية والمعنى : ثم صبّوا فوق رأسه من الحميم الذي يعذب بــه .

قوله تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » خطاب يخاطب به الأثيم وهو يقاسي العذاب بعد العذاب، وتوصيفه بالعزة والكرامة على ما هو عليه من الذلة واللأمة استهزاء به تشديداً لعذابه وقد كان يرى في الدنيا لنفسه عزة وكرامة لا تفارقانه كما يظهر مما حكى الله سبحانه من قوله:« وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي إن لي عنده للحسنى » حم السجدة : ٥٠

قوله تعالى : « إنّ هذا ما كنتم به تمترون » الإمتراء الشك والإرتياب ، والآية تتمة قولهم له : « ذق » الخ ، وفيها تأكيد وإعلام لهم بخطإهم وزلتهم في الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهدة عيان ، ولذا عبّر عن تحمل العذاب بالذوق لما أنه يعبّر عن إدراك ألم المولمات ولذة الملذات إدراكاً تاماً بالذوق .

ويمكن أن تكون الآية استئنافاً من كلام الله سبحانه يخاطب به الكفار بعد ذكر حالهم في يوم القيامة ، وربما أيّده قوله: «كنتم به تمترون» بخطاب الجمع والخطاب في الآيات السابقة بالإفراد .

قوله تعالى: « إن المتقين في مقام أمين » المقام محل القيام بمعنى الثبوت والركوز ولذا فسّر أيضاً بموضع الإقامة ، والأمين صفة من الأمن بمعنى عدم إصابة المكروه ، والمعنى : إن المتقين – يوم القيامة – ثابتون في محل ذي أمن من إصابة المكروه مطلقاً.

وبذلك يظهر أن نسبة الأمن إلى المقام بتوصيف المقام بالأمين من المجاز في النسبة .

قوله تعالى : « في جنات وعيون » بيان لقوله : « في مقام أمين » وجعل العيون ظرفاً لهم باعتبار المجاورة ووجودها في الجنات التي هي ظرف ، وجمع الجنات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لكل منهم وحده جنة أو أكثر .

قوله تعالى : « يلبسون من سندس واستبرق متقابلين » السندس الرقيق من الحرير والإستبرق الغليظ منه وهما معرّبان من الفارسية .

وقوله : « متقابلين » أي يقابل بعضهم بعضاً للإستيناس إذ لا شرّ ولا مكروه عندهم لكونهم في مقام أمين .

قوله تعالى : « كذلك وزوّجناهم بحور عين » أي الأمر كذلك أي كما وصفناه والمراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهن من الزوج بمعنى القرين وهو أصل التزويج في اللغة ، والحور جمع حوراء بمعنى شديدة سواد العين وبياضها أو ذات المقلة السوداء كالظباء ، والعين جمع عيناء بمعنى عظيمة العينين ، وظاهر كلامه تعالى أن الحور العين غير نساء الدنيا الداخلة في الجنة .

قوله تعالى : « يدعون فيها بكل فاكهة آمنين » أي آمنين من ضررها .

قوله تعالى : « لا يذوقون فيهـا الموت إلا الموتة الاولى ووقاهم عذاب الجحيم » أي إنهم في جنة الخلد أحياء بحياة أبدية لا يعتريها موت .

وقد استشكل في الآية بأن استثناء الموتـة الاولى من قوله : « لا يذوقون فيها الموت » يفيد أنهم يذوقون الموتة الاولى فيها ، والمراد خلافـــه قطعاً ، وبتقرير آخر الموتة الاولى هي موتة الدنيا وقد مضت بالنسبة إلى أهل الجنة ، والتلبس في المستقبل بأمر ماض محال قطعاً فما معنى استثناء الموتة الاولى من عدم الذوق في المستقبل ؟

وهنا إشكال آخر لم يتعرضوا له وهو أنه قـد تقدم في قوله تعالى : « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » المؤمن : ١١ ، أن بين الحيـاة الدنيا والساعة موتتين : موتة بالانتقال من الدنيا الى البرزخ وموتة بالإنتقال من البرزخ الى الآخرة ، والظـاهر أن المراد بالموتة الاولى في الآية هي موتة الدنيا الناقلة للانسان الىالبرزخ فهب أنـّا أصلحنا استثناء الموتة الاولى بوجه فما بال الموتة الثانية لم تستثن ؟ وما الفرق بينهما وهما موتتان ذاقوهما قبل الدخول في جنة الخلد ؟

وأجيب عن الإشكال الأول بأن الاستثناء منقطع ، والمعنى : لكنهم قـد ذاقوا الموتة الاولى في الدنيا وقد مضت فعموم قوله : « لا يذوقون فيها الموت » على حاله .

وعلى تقدير عدم كون الاستثناء منقطعاً « إلا » بمعنى سوى و« إلا الموتة الاولى» بدل من « الموت » وليس من الاستثناء في شيء، والمعنى: لا يذوقون فيها سوى الموتة الاولى من الموت أما الموتة الاولى فقد ذاقوها ومحال أن تعود وتذاق وهي اولى .

وأجيب ببعض وجوه أخر لا يعبأ بـه ، وأنت خبير بأن شيئاً من الوجهين لا يوجه اتصاف الموتة بالاولى وقـد تقدم في تفسير قوله : « إن هي إلا موتتنا الاولى » الآية ، وجوه في ذلك .

وأما الإشكال الثاني فيمكن أن يجاب عنه بالجواب الثاني المتقدم لـما أن هناك موتتين الموتة الاولى وهي الناقـــلة للانسان من الدنيا الى البرزخ والموتة الثانية وهي الناقلة له من البرزخ إلى الآخرة فإذا كان «إلا» في قوله:« إلا الموتة الاولى» بمعنى سوى والمجموع بدلاً من الموت كانت الآية مسوقة لنفيغير الموتة الاولى وهي الموتة الثانية التي هي موتة البرزخ فلا موت في جنة الآخرة لا موتة الدنيا لأنها تحققت لهم قبلاً ولا غير موتة الدنيا التي هي موتة البرزخ ، ويتبين بهذا وجه تقييد الموتة بالاولى .

وقوله : « ووقاهم عذاب الجحيم » الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، فالمعنى : وحفظهم من عذاب الجحيم ، وذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفي الموت عنهم تتميم لقسمة المكاره أي إنهم مصونون من الانتقال من دار إلى دار ومن نشأة الجنة إلى نشأة غيرها وهو الموت ومصونون من الانتقال من حال سعيدة إلى حال شقية وهي عذاب الجحيم .

قوله تعالى : « فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم » حال مما تقدم ذكره من الكرامة والنعمة ، ويمكن أن يكون مفعولاً مطلقاً أو مفعولاً له ، وعلى أي حال هو تفضُّل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقاً يوجب عليه تعالى ويلزمه على الإثابة فإنه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكم عليه شيء ، وإنما هو وعده لعباده ثم أخبر أنه لا يخلف وعده ، وقد تقدم تفصيل القول في هذا المعنى في الأبحاث السابقة .

وقوله : « ذلك هو الفوز العظيم » الفوز هو الظفر بالمراد وكونه فوزاً عظيماً لكونه آخر ما يسعد به الإنسان .

قوله تعالى: « فإنما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » تفريع على جميع ما تقدم من أول السورة إلى هنا وفذلكة للجميع ، والتيسير التسهيل ، والضمير للكتاب والمراد بلسان النبي ﷺ العربية .

والمعنى : فإنما سهّلنا القرآن ــ أي فهم مقاصده ــ بالعربية لعلهم ــ أي لعل قومك ــ يتذكرون فتكون الآية قريبة المعنى من قوله : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » الزخرف : ٣ .

وقيل : المراد من تيسير الكتاب بلسان النبي ﷺ إجراؤه على لسانه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ليكون آية لصدق نبوته ، وهو بعيد من سياق الفذلكة .

قوله تعالى : « فارتقب إنهم مرتقبون » كأنه متفرع على ما يتفرع على الآية السابقة ، ومحصّل المعنى أنا يسرناه بالعربية رجاء أن يتذكروا فلم يتذكروا بل هم في شك يلعبون وينتظرون العذاب الذي لا مردّ له من المكذبين فانتظر العذاب إنهم منتظرون له .

فإطلاق المرتقبين على القوم من باب التهكم ، ومن سخيف القول قول من يقول إن في الآية أمراً بالمتاركة وهي منسوخة بآية السيف .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى: « أهم خير أم قوم تبّع » روى سهل بن ساعد عن النبي ﷺ أنه قال : لا تسبوا تبّعاً فإنه كان قد أسلم .

أقول : وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن ابن عباس أيضاً ، وأيضاً عن ابن عساكر عن عطاء بن أبي رباح عن النبي ﷺ .

وفيه وروى الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن تبّعاً قال للأوس والخزرج: كونوا ههنا حتى يخرج هذا النبي،أما أنا فلو أدركته لخدمته وخرجت معه.

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن سلام قال : لم يمت تبّع حتى صدّق بالنبي ﷺ لما كان يهود يثرب يخبرونه .

أقول : والأخبار في أمر تبّع كثيرة ، وفي بعضها أنه أول من كسى الكعبة .

وفي الكافي بإسناده عن زيد الشحّام قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام ونحن في الطريق في ليلة الجمعة : إقرأ فإنها ليلة الجمعة قرآناً ، فقرأت « إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله » فقال أبو عبد الله عليه السلام : نحن والله الذي استثنى الله فكنا نغني عنهم .

أقول : يشير عليه السلام إلى الشفاعة وقد أخذ الاستثناء عن « مولى » الأول .

وفي تفسير القمي: ثم قال : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » نزلت في أبي جهل ابن هشام، وقوله : « كالمهل » قال : المهل الصفر المذاب « يغلي في البطون كغلي الحميم » وهو الذي قد حمي وبلغ المنتهى .

أقول : ومن طرق أهل السنة أيضاً روايات تؤيد نزول الآية في أبي جهل .

(سورة الجاثية مكية ، وهي سبع وثلاثون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ ــ ١ . تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ اللهِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ــ ٢ . إِنَّ فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ــ ٣ .
وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ــ ٤ . وَٱخْتِلَافِ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ــ ٥ . تِلْكَ آيَاتُ
اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ــ ٦ .
وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ــ ٧ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ
مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ــ ٨ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ
آيَاتِنَا شَيْئاً ٱتَّخَذَهَا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ــ ٩ . مِنْ وَرَائِهِمْ
جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ
أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ــ ١٠ . هٰذَا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ــ ١١ . أَللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ
لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ــ ١٢ .

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ـ ١٣ .

(بيان)

غرض السورة دعوة عامة على الإنذار تفتتح بآيات الوحدانية ثم تذكر تشريع الشريعة للنبي ﷺ وتشير إلى لزوم اتباعها له ولغيره بما أن أمامهم يوماً يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحة من الإيمان واتباع الشريعة واجتراحهم السيئات بالإعراض عن الدين ، ثم تذكر ما سيجري على الفريقين في ذلك اليوم وهو يوم القيامة .

وفي خلال مقاصدها إنذار ووعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله والذين اتخذوا إلههم هواهم وأضلّهم الله على علم .

ومن طرائف مطالبها بيان معنى كتابة الأعمال واستنساخها .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها واستثنى بعضهم قوله تعالى : « قل للذين آمنوا » الآية ، ولا شاهد له .

قوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » الظاهر أن « تنزيل الكتاب » من إضافة الصفة إلى الموصوف والمصدر بمعنى المفعول، و « من الله » متعلق بتنزيل ، والمجموع خبر لمبتدأ محذوف .

والمعنى: هذا كتاب منزّل من الله العزيز الحكيم، وقد تقدم الكلام في مفردات الآية فيما تقدم .

قوله تعالى : « إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين » آية الشيء علامته التي تدلُّ عليه وتشير اليه ، والمراد بكون السماوات والأرض فيها آيات كونهما بنفسها آيات له فليس وراء السماوات والأرض وسائر ما خلق الله أمر مظروف لها هو آية دالّة عليه تعالى .

ومن الدليل على ما ذكرنا اختلاف التعبير فيها في كلامه تعالى فتارة يذكر أن في الشيء آية له وأخرى يعدّه بنفسه آية كقوله تعالى : « إن في خلق السماوات والأرض

واختلاف الليل والنهار لآيات » آل عمران : ١٩٠ ، وقوله: « ومن آياته خلق السماوات والأرض » الروم : ٢٢ ، ونظائرهما كثيرة ، ويستفاد من اختلاف التعبير الذي فيها أن معنى كون الشيء فيه آية هو كونه بنفسه آية كما يستفاد من اختلاف التعبير في مثل قوله : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات » وقوله : « إن في السماوات والأرض لآيات » الآية ، أن المراد من خلق السماوات والأرض نفسها لا غير.

والعناية في أخذ الشيء ظرفاً للآية مع كونه بنفسه آية اعتبار جهات وجوده وأن لوجوده جهة أو جهات كل واحدة منها آية من الآيات ولو أخذت نفس الشيء لم يستقم إلا أخذها آية واحدة كما في قوله تعالى: « وفي الأرض آيات للموقنين » الذاريات: ٢٠ ، ولو أخذت الآية نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال: والأرض آية للموقنين وضاع المراد وهو أن في وجود الأرض جهات كل واحدة منها آية وحدها .

فمعنى قوله : « إن في السماوات والأرض » الخ ، أن لوجود السماوات والأرض جهات دالة على أن الله تعالى هو خالقها المدبّر لها وحده لا شريك له فإنها بحاجتها الذاتية إلى من يوجدها وعظمة خلقتها وبداعة تركيبها واتصال وجود بعضها ببعض وارتباطه على كثرتها الهائلة واندراج أنظمتها الجزئية الخاصة بكل واحد تحت نظام عام يجمعها ويحكم فيها تدل على أن لها خالقاً هو وحده ربها المدبر أمرها فلولا أن هناك من يوجدها لم توجد من رأس ، ولولا أن مدبرها واحد لتناقضت النظامات وتدافعت واختلف التدبير .

ومما تقدم يظهر أن قول بعضهم : إن قوله : « في السماوات » بتقدير مضاف محذوف والتقدير في خلق السماوات ، تكلف من غير ضرورة تدعو اليه .

قوله تعالى : « وفي خلقكم وما يبثّ من دابة آيات لقوم يوقنون » البث التفريق والإثارة وبثه تعالى للدواب خلقها وتفريقها ونشرها على الأرض كما قال في خلق الإنسان: « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » الروم : ٢٠ .

ومعنى الآية : وفيكم من حيث وجودكم المخلوق وفيما يفرّقه الله من دابة من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين .

وخلق الإنسان على كونه موجوداً أرضياً له ارتباط بالمادة نوع آخر من الخلق يغاير خلق السماوات والأرض لأنه مركب من بدن أرضي مؤلف من مواد كونية

عنصرية تفسد بالموت بالتفرق والتلاشي وأمر آخر وراء ذلك علوي غير مادي لا يفسد بالموت بل يتوفى ويحفظ عند الله، وهو الذي يسميه القرآن بالروح قال تعالى: «ونفخت فيه من روحي» الحجر: ٢٩، وقال بعد ذكر خلق الإنسان من نطفة ثم من علقة ثم مضغة ثم تتميم خلق بدنه: «ثم أنشأناه خلقاً آخر» المؤمنون: ١٤، وقال: «قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم» الم السجدة: ١١.

فالناظر في خلق الإنسان ناظر في اية ملكوتية وراء الآيات المادية وكذا الناظر في خلق الدواب ولها نفوس ذوات حياة وشعور وإن كانت دون الإنسان في حياتها وشعورها كما أنها دونه في تجهيزاتها البدنية ففي الجميع آيات لأهل اليقين يعرفون بها الله سبحانه بأنه واحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته.

قوله تعالى: «واختلاف الليل والنهار» إلى اخر الآية هذا القبيل من الآيات آيات ما بين السماء والأرض.

وقوله: «واختلاف الليل والنهار» يريد به اختلافهما في الطول والقصر اختلافاً منظماً باختلاف الفصول الأربعة بحسب بقاع الأرض المختلفة ويتكرر بتكرر السنين يدبر سبحانه بذلك أقوات أهل الأرض ويربيهم بذلك تربية صالحة قال تعالى: «وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين» حم السجدة: ١٠.

وقوله: «وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها» المراد بالرزق الذي ينزله الله من السماء هو المطر تسمية للسبب باسم المسبّب مجازاً أو لأن المطر أيضاً من الرزق فإن مياه الأرض من المطر، والمراد بالسماء جهة العلو أو السحاب مجازاً، وإحياء الأرض به بعد موتها هو إحياء ما فيها من النبات بالأخذ في الرشد والنمو، ولا يخلو التعرض للإحياء بعد الموت من تلويح الى المعاد.

وقوله: «وتصريف الرياح» أي تحويلها وإرسالها من جانب الى جانب، لتصريفها فوائد عامة كثيرة من أعمها سوق السحب الى أقطار الأرض وتلقيح النباتات ودفع العفونات والروائح المنتنة.

وقوله: «آيات لقوم يعقلون» أي يميزون بين الحق والباطل والحسن والقبيح بالعقل الذي أودعه الله سبحانه فيهم.

وقد خص كل قبيل من الآيات بقوم خاص فخصت آية السماوات والأرض

بالمؤمنين واية الانسان وسائر الحيوان بقوم يوقنون ، واية اختلاف الليل والنهار والأمطار وتصريف الرياح بقوم يعقلون .

ولعل الوجه في ذلك أن اية السماوات والأرض تدل بدلالة بسيطة ساذجة على أنها لم توجد نفسها بنفسها ولا عن اتفاق وصدفة بل لها موجد أوجدها مع مالها من الآثار والأفعال التي يتحصل منها النظام المشهود فخالقها خالق الجميع ورب الكل ، والإنسان يدرك ذلك بفهمه البسيط الساذج والمؤمنون بجميع طبقاتهم يفهمون ذلك وينتفعون به .

وأما أنه خلق الانسان وسائر الدواب التي لها حياة وشعور فإنها من حيث أرواحها ونفوسها الحية الشاعرة من عالم وراء عالم المادة وهو المسمى بالملكوت وقد خص القرآن كال إدراكه ومشاهدته بأهل اليقين كما قال : « وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ .

وأما آية اختلاف الليل والنهار والأمطار المحيية للارض وتصريف الرياح فإنها لتنوع أقسامها وتعدد جهاتها وارتباطها بالارض والارضيات وكثرة فوائدها وسعة منافعها تحتاج الى تعقل فكري تفصيلي عميق ولا تنال بالفهم البسيط الساذج ولذلك خصت بقوم يعقلون والآيات آيات لجميع الناس لكن لما كان المنتفع بها بعضهم خصت بهم .

وقد عبر عن أهل اليقين والعقل بقوم يوقنون وبقوم يعقلون وعن أهل الإيمان بالمؤمنين لان بساطة آية أهل الإيمان تفيد أن المراد بالإيمان أصله وهو ثابت فيهم فناسب التعبير عنهم بالوصف بخلاف آيتي أهل اليقين والعقل فإنها لدقتها وعلو منالها تدرك شيئاً فشيئاً فناسبتا التعبير بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرار التجددي .

وقيل في وجه ما في الآيات الثلاث من الترتيب بين أهلها حيث ذكر أولاً أهل الإيمان ثم الإيقان ثم العقل أنه على ترتيب الترقي فإن الإيقان مرتبة خاصة في الإيمان فهو بعد الإيمان والعقل مدار الإيمان والإيقان ونعني العقل المؤيّد بنور البصيرة فبسببه يخلص اليقين من اعتراء الشكوك من كل وجه وفي استحكامه كل خير . وروعي في ترتيب الآيات ما روعي في ترتيب المراتب الثلاث (١) .

---

(١) هـذا الوجه مستفاد من الكشاف ، وما يتلوه لصاحب الكشف ، والوجه الأخير للرازي في التفسير الكبير .

وفيه أن مقتضى ما وصفه من أمر العقل وقوعه قبل الثاني بل قبل أول المراتب على أن ما ذكره من إمكان اعتراء الشكوك على اليقين مما لا سبيل إلى تصوّره .

وقيل في وجه الترتيب : أن تمام النظر في الثـاني يضطر إلى النظر في الأول لأن السماوات والأرض من أسباب تكوُّن الحيوان بوجه فيجب أن تذكر قبله ، وكذلك النظر في الثالث يضطر إلى النظر في الأولين أما الأول فظاهر ، وأما الثاني فلأنه العلة الغائية فلا بد أن يكون جامعاً أي إن الثالث وهو المعلول يتوقف في معرفته على ذكر علّته الغائية قبله .

وفيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الآيات دون مراتب الصفات الثلاث أعني الإيمان والإيقان والعقل. على أن الثالث أيضاً كالأول من أسباب تكوّن الحيوان فيجب أن يتقدم على الثاني ، وبوجه آخر الثاني علة غائية للأول فيجب أن يتقدم على الأول كما تقدم على الثالث .

وقيل : إن السبب في ترتيب هذه الفواصل أنه قيل : إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم بمؤمنين وكنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هـذه الدلائل ، وإن كنتم لستم بمؤمنين ولا موقنين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل .

وفيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الصفات الثلاث دون أقسام الآيات الثلاثة على أن لازمه أن لا يختص شيء من الآيات الثلاث بواحدة من الصفات الثلاث بل يكون الجميع للجميع والسياق لا يساعد عليه. على أن ظاهر كلامه أنه فسّر اليقين بالجزم وهو العلم فلا يبقى للعقل إلا الحكم الظني ولا يعبأ به في المعارف الاعتقادية .

قوله تعالى : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملاً فلو لم يلتزم لم يكن إيماناً وإن كان هناك علم ، قال تعـالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ ، وقال : « وأضلّه الله على علم » الجاثية : ٢٣ .

والآيات هي العلامات الدالة فآيات الله الكونية هي الامور الكونيـة الدالة بوجودها الخارجي على كونه تعـالى واحداً في الخلق متصفاً بصفات الكمال منزّهاً عن كل نقص وحاجة ، والإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلالتها عليه تعالى ولازمه الإيمان به

تعالى كما تدلّ هي عليه .

والآيات القرآنية آيات له تعالى بما تدلّ على الآيات الكونية الدالة عليه سبحانه أو على معارف اعتقادية أو أحكام عملية أو أخلاق يرتضيها الله سبحانه ويأمر بها فإن مضامينها دالّة عليه ومن عنده ، والإيمان بهذه الآيات أيضاً إيمان بدلالتها ويلزمه الإيمان بمدلولها .

والآيات المعجزة أيضاً إما آيات كونية ودلالتها دلالة الآيات الكونية وإما غير كونية كالقرآن في إعجازه ومرجع دلالتها إلى دلالة الآيات الكونية .

وقوله : « تلك آيات الله نتلوها عليك » الإشارة إلى الآيات القرآنية المتلوّة عليه ﷺ ، ويمكن أن تكون إشارة إلى الآيات الكونية المذكورة في الآيات الثلاث السابقة بعناية الاتحاد بين الدالّ والمدلول .

وقوله : « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » قيل : هو من قبيل قولك : أعجبني زيد وكرمه ، وإنما أعجبك كرمه والمعنى بحسب النظر الدقيق أعجبني كرم زيد وزيد من حيث كرمه ، فمعنى الآية فبأي حديث بعد ايات الله يعني الآيات القرآنية يؤمنون ؟ يعني إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأي حديث بعده يؤمنون؟

وقيل : الكلام بتقدير حديث أي إذا لم يؤمنوا فبأي حديث بعد حديث الله وآياته يؤمنون ، والأنسب على هذا المعنى أن يكون المراد بالآيات الآيات الكونية ولذا قال الطبرسي بعد ذكر هذا المعنى : والفرق بين الحديث الذي هو القران وبين الآيات أن الحديث قصص يستخرج منه عبر تبيين الحق من الباطل ، والآيات هي الأدلة الفاصلة بين الصحيح والفاسد . انتهى وأول الوجهين ألطف .

قوله تعالى : « ويل لكل أفّاك أثيم » الويل والهلاك ، والأفاك مبالغة من الإفك وهو الكذب ، والأثيم من الإثم بمعنى المعصية والمعنى : ليكن الهلاك على كل كذاب ذي معصية .

قوله تعالى : « يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها » الخ صفة لكل أفاك أثيم ، و « ثم » للتراخي الرتبي وتفيد معنى الاستبعاد ، والإصرار على الفعل ملازمته وعدم الإنفكاك عنه .

والمعنى : يسمع ايات الله – وهي ايات القران – تقرأ عليه ثم يلازم الكفر والحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم .

قوله تعالى : « وإذا علم من اياتنا شيئاً اتخذوها هزواً » الخ ، ظاهر السياق أن ضمير « اتخذها » للآيات ، وجعل الهزء متعلقاً بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله ، والمعنى : وإذا علم ذلك الأفاك الأثيم المصرّ المستكبر بعض اياتنا استهزء باياتنا جميعاً .

وقوله : « أولئك لهم عذاب مهين » أي مذل مخز ، وتوصيف العذاب بالاهانة مقابلة لاستكبارهم واستهزائهم ، والاشارة باولئك إلى كل أفّاك ، وقيل في الآية بوجوه أخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها .

قوله تعالى : « من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء » الخ ، لما كانوا مشتغلين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين الى تبعات أعمالهم جعلت جهنم وراءهم مع أنها قدامهم وهم سائرون نحوها متوجهون اليها.

وقيل : وراءهم بمعنى قدامهم قال في المجمع : وراء اسم يقع على القدام والخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك . انتهى . وفي قوله : « من ورائهم جهنم » قضاء حتم .

وقوله : « ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً » المراد بما كسبوا ما حصلوه في الدنيا من مال ونحوه ، وتنكير « شيئاً » للتحقير أي ولا يغني عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال وجاه وأنصار في الدنيا شيئاً يسيراً حقيراً .

وقوله : « ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء » «ما» مصدرية والمراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أرباباً آلهة وزعموا أنهم لهم شفعاء أو الأصنام .

وقوله : « ولهم عذاب عظيم » تأكيد لوعيدهم وقد أوعدهم الله سبحانه أولاً بقوله : « ويل لكل أفّاك » الخ، وثانياً بقوله: « فبشّره بعذاب أليم » وثالثاً بقوله: « اولئك لهم عذاب مهين » ورابعاً بقوله : « من ورائهم جهنم » الخ ، وخامساً بقوله: « ولهم عذاب عظيم » ، ووصف عذابهم في خلالها بأنه أليم مهين عظيم .

قوله تعالى : « هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم »

الإشارة بقوله: « هذا هدى » إلى القرآن ووصفه بالهدى للمبالغة نحو زيد عدل والرجز – كما قيل – أشد العذاب وأصله الاضطراب .

والآية في مقام الردّ لما رموا به القرآن وعدّوه مهاناً بالهزء والسخرية وخلاصة وعيد من كفر بآياته .

قوله تعالى : « الله الذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره » الخ ، لما ذكر سبحانه حال الأفاكين من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إذا تليت عليهم والاستهزاء بما علموا منها وأوعدهم أبلغ الإيعاد بأشد العذاب رجع اليهم بخطاب الجميع ممّن يؤمن ويكفر ، وذكر بعض آيات ربوبيته التي فيها منْ عظيم عليهم وليس في وسعهم إنكارها فذكر أولاً تسخير البحر لهم ثم ما في السماوات والأرض جميعاً ففيها آيات لا يكفر بها إلا من انسلخ عن الفطرة الإنسانية ونسي التفكر الذي هو من أجلى خواص الإنسان .

فقوله : « الله الذي سخّر لكم البحر » اللام في « لكم » للغاية أي سخر لأجلكم البحر بأن خلقه على نحو يحمل الفلك ويقبل أن تجري فيه فينتفع به الإنسان ، ويمكن أن تكون للتعدية فيكون الانسان يسخر البحر بإذن الله .

وقوله : « لتجري الفلك فيه بأمره » غاية لتسخير البحر ، وجريان الفلك فيه بأمره ، هو إيجاد الجريان بكلمة كن فآثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبة اليه تعالى وقوله : « ولتبتغوا من فضله » أي ولتطلبوا بركوبه عطيته تعالى وهو رزقه .

وقوله : « ولعلكم تشكرون » أي رجاء أن تشكروه تعالى قبال هذه النعمة التي هي تسخير البحر .

قوله تعالى : « وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه » الخ ، هذا من الترقي بعطف العام على الخاص ، والكلام في « لكم » كالكلام في مثله في الآية السابقة ، وقوله : « جميعاً » تأكيد لما في السماوات والأرض أو حال منه .

وقوله : « سخر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً » معنى تسخيرها للانسان أن أجزاء العالم المشهود تجري على نظام واحد يحكم فيها ويربط بعضها ببعض ويربط

الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويها وسفليها ولا يزال المجتمع البشري يتوسع في الانتفاع بها والاستفادة من توسيطها والتوسل بشتاتها في الحصول على مزايا الحياة فالكل مسخر له .

وقوله : « منه » من للابتداء ، والضمير لله تعالى وهو حال مما في السماوات والأرض ، والمعنى : سخر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً حال كونه مبتدأ منه حاصلاً من عنده فذوات الأشياء تبتدىء منه بإيجاده لها من غير مثال سابق وكذلك خواصها وآثارها بخلقه ومن خواصها وآثارها ارتباط بعضها ببعض وهو النظام الجاري فيها المرتبط بالانسان قال تعالى : « الله يبدؤ الخلق ثم يعيده » الروم : ١١ ، وقال : « إنه هو يبدىء ويعيد » البروج : ١٣ .

وقد ذكروا لقوله : « منه » معاني أخر لا يخلو شيء منها عن التكلف تركنا التعرّض لها .

وقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وجه تعلقها بالتفكر ظاهر .

* * *

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ
قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ــ ١٤ . مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ
فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ــ ١٥ . وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
ٱلْعَالَمِينَ ــ ١٦ . وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ــ ١٧ . ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا

وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ــ ١٨ . إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ــ ١٩ .

(بيان)

لما ذكر آيات الوحدانية وأشار فيها بعض الإشارة إلى المعاد وكذا إلى النبوّة في ضمن ذكر تنزيل الكتاب وإيعاد المستكبرين المستهزئين به ذكر في هذه الآيات تشريع الشريعة للنبي ﷺ ، وتوسّل إلى ذلك بمقدمتين تربطانه بما تقدم من الكلام إحداهما دعوة المؤمنين إلى أن يكفوا عن التعرض لحال الكفار الذين لا يرجون أيام الله فإن الله مجازيهم لأن الأعمال مسؤل عنها صالحة أو طالحة ، وهذا هو السبب لتشريع الشريعة ، والثانية : أن إنزال الكتاب والحكم والنبوة ليس ببدع فقد آتى الله بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وآتاهم البينات التي لا يبقى معها في دين الله ريب لمرتاب إلا أن علماءهم اختلفوا فيه بغياً منهم وسيقضي الله بينهم .

ثم ذكر سبحانه تشريع الشريعة له وأمره باتباعها ونهاه عن اتباع أهواء الجاهلين .

قوله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » الخ ، أمر منه تعالى لنبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين أن يغفروا للكفار فيصير تقدير الآية : قل لهم : اغفروا يغفروا فهي كقوله تعالى : « قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة » إبراهيم : ٣١ .

والآية مكية واقعة في سياق الآيات السابقة الواصفة لحال المستكبرين المستهزئين بآيات الله المهددة لهم بأشد العذاب وكأن المؤمنين بالنبي ﷺ كانوا إذا رأوا هؤلاء المستهزئين يبالغون في طعنهم وإهانتهم للنبي واستهزائهم بآيات الله لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن كتاب الله ومن أرسله به ويدعوهم إلى رفض ما هم فيه والإيمان مع كونهم ممن حقّت عليهم كلمة العذاب كما هو ظاهر الآيات السابقة ، فأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يأمرهم بالعفو والصفح عنهم وعدم التعرض لحالهم فإن وبال أعمالهم

سيلحق بهم وجزاء ما كسبوه سينالهم .

وعلى هذا فالمراد بالمغفرة في قوله : « قل للذين آمنوا يغفروا » الصفح والإعراض عنهم بترك مخاصمتهم ومجادلتهم ، والمراد بالذين لا يرجون أيام الله هم الذين ذكروا في الآيات السابقة فإنهم لا يتوقعون لله أياماً لا حكم فيها ولا ملك إلا له تعالى كيوم الموت والبرزخ ويوم القيامة ويوم عذاب الاستئصال .

وقوله : « ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون » تعليل للأمر بالمغفرة أو للأمر بالأمر بالمغفرة ومحصله ليصفحوا عنهم ولا يتعرضوا لهم ، فلا حاجة إلى ذلك لأن الله سيجزيهم بما كانوا يكسبون فتكون الآية نظيرة قوله : « وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهّلهم قليلاً إن لدينا أنكالاً وجحيماً » المزمل : ١٢ ، وقوله: « ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » الأنعام : ٩١ ، وقوله : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » المعارج : ٤٢ ، وقوله : « فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون » الزخرف : ٨٩ .

ومعنى الآية : مر الذين آمنوا أن يعفوا ويصفحوا عن أولئك المستكبرين المستهزئين بآيات الله الذين لا يتوقعون أيام الله ليجزيهم الله بما كانوا يكسبون ويوم الجزاء يوم من أيامه أي ليصفحوا عن هؤلاء المنكرين لأيام الله حتى يجزيهم بأعمالهم في يوم من أيامه .

وفي قوله : « ليجزي قوماً » وضع الظاهر موضع الضمير ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ليجزيهم ، والنكتة فيه مع كون « قوماً » نكرة غير موصوفة تحقير أمرهم وعدم العناية بشأنهم كأنهم قوم منكرون لا يعرف شخصهم ولا يهتم بشيء من أمرهم .

وبما تقدم من تقرير معنى الآية تتصل الآية وما بعدها بما قبلها وتندفع الاشكالات التي أوردوها عليها واهتموا بالجواب عنها ، ويظهر فساد المعاني المختلفة التي ذكروها لها ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع المطولات .

قوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون » في موضع التعليل لقوله : « ليجزي قوماً » الخ ، ولذا لم يعطف وليس من الاستئناف في شيء .

ومحصل المعنى : ليجزيهم الله بما كسبوا فإن الأعمال لا تذهب سُدىً وبلا أثر

بل من عمل صالحاً انتفع به ومن أساء العمل تضرر به ثم إلى ربكم ترجعون فيجزيكم حسب أعمالكم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً .

قوله تعالى : « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » الخ ، لما بين أن للأعمال آثاراً حسنة أو سيئة تلحق صاحبيها أراد التنبيه على تشريع شريعة للنبي ﷺ إذ كان على الله سبحانه أن يهدي عباده إلى مـــا فيه خيرهم وسعادتهم كما قال تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر » النحل : ٩ .

فنبه على ذلك بقوله الآتي : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر » الخ ، وقدّم على ذلك الإشارة إلى ما آتى بني إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم وإيتائهم البينات ليؤذن به أن الإفاضة الإلهية بالشريعـة والنبوة والكتاب ليست ببدع لم يسبق اليه بل لها نظير في بني إسرائيل وهم بمرآهم ومسمعهم.

فقوله : « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » المراد بالكتاب التوراة المشتملة على شريعة موسى عليه السلام وأما الانجيل فلا يتضمن الشريعة وشريعته شريعة التوراة ، وأما زبور داود فهي أدعية وأذكار ، ويمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراة والإنجيل والزبور كما قيل لكن يبعده أن الكتاب لم يطلق في القرآن إلا على ما يشتمل على الشريعة .

والمراد بالحكم بقرينة ذكره مع الكتاب ما يحكم ويقضي به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعـــالى : « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » البقرة : ٢١٣ ، وقال في التوراة : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » المـائدة : ٤٤ ، فالحكم من لوازم الكتاب كما أن النبوة من لوازمه .

والمراد بالنبوة معلوم وقد بعث الله من بني إسرائيل جماً غفيراً من الأنبياء كما في الأخبار وقص في كتابه جماعة من رسلهم .

وقوله :« ورزقناهم من الطيبات » أي طيبات الرزق ومن ذلك المن والسلوى.

وقوله : « وفضلناهم على العالمين » إن كان المراد جميع العالمين فقـد فضلوا من بعض الجهات ككثرة الأنبياء المبعوثين والمعجزات الكثيرة الظاهرة من أنبيائهم ، وإن كان المراد عالمي زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات .

قوله تعالى : « وآتيناهم بينات من الأمر » إلى آخر الآية المراد بالبينات الآيات البينات التي تزيل كل شك وريب وتمحوه عن الحق ويشهد بذلك تفريع قوله : « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم » .

والمراد بالأمر قيل : هو أمر الدين ، و « من » بمعنى في والمعنى : وأعطيناهم دلائل بينة في أمر الدين ويندرج فيه معجزات موسى عليه السلام .

وقيل :المراد به أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى:آتيناهم آيات من أمر النبي وعلامات مبينة لصدقه كظهوره في مكة ومهاجرته منها إلى يثرب ونصرة أهله وغير ذلك مما كان مذكوراً في كتبهم .

وقوله : « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » يشير إلى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف في الدين واختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهة أو جهل وإنما أوجدها علماؤهم بغياً وكان البغي دائراً بينهم .

وقوله : « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » إشارة إلى أن اختلافهم الذي لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يذهب سدى وسيؤثر أثره ويقضي الله بينهم يوم القيامة فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم .

قوله تعالى : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويشاركه فيه أمته ، والشريعة طريق ورود الماء والأمر أمر الدين ،والمعنى: بعد ما آتينا بني إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقة خاصة من أمر الدين الالهي وهي الشريعة الاسلامية التي خص الله بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمته .

وقوله : « فاتبعها » الخ ، أمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم باتباع ما يوحى اليه من الدين وأن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفة للدين الالهي .

ويظهر من الآية أولاً : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكلف بالدين كسائر الامة .

وثانياً : أن كل حكم عملي لم يستند الى الوحي الالهي ولم ينته اليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب الى العلم .

قوله تعالى : « إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً » الخ ، تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون ، والاغناء من شيء رفع الحاجة اليه ، والمحصّل : أن لك إلى الله سبحانه حوائج ضرورية لا يرفعها إلا هو والذريعة إلى ذلك اتباع دينه لا غير فلا

يغني عنك هؤلاء الذين اتّبعت أهواءهم شيئاً من الأشياء اليهـا الحاجة أو لا يغني شيئاً من الاغناء .

وقوله : « وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين » الذي يعطيـه السياق أنه تعليل آخر للنهي عن اتباع أهواء الجاهلين ، وأن المراد بالظالمين المتبعون لأهوائهم المبتدعة وبالمتقين المتبعون لدين الله .

والمعنى : أن الله ولي الذين يتبعون دينـه لأنهم متقون والله وليهم ، والذين يتبعون أهواء الجهلة ليس هو تعالى ولياً لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون والظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين الله يكن لك ولياً ولا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئاً .

وتسمية المتبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق لما يستفاد من قوله : « أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وبالآخرة هم كافرون» الأعراف : ٤٥ .

* * *

هٰذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ــ ٢٠ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّآتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ ــ ٢١ . وَخَلَقَ اللهُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ــ ٢٢ . أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ــ ٢٣ . وَقالُوا ما هِيَ إِلاّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ

وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ ــ ٢٤ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا
أَنْ قَالُوا ٱئْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ــ ٢٥ . قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ــ ٢٦ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ
السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ــ ٢٧ . وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ
تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ــ ٢٨ . هَٰذَا كِتَابُنَا
يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ــ ٢٩ . فَأَمَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ــ ٣٠ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ ــ ٣١ . وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ
حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا
وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ــ ٣٢ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ــ ٣٣ . وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ــ ٣٤ . ذَٰلِكُمْ
بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا
يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ــ ٣٥ . فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ السَّمَٰوَاتِ

وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ـ ٣٦ . وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ـ ٣٧ .

(بيان)

لما أشار إلى جعل النبي ﷺ على شريعة من الأمر وهو تشريع الشريعة الإسلامية أشار في هذه الآيات إلى أنها بصائر للناس يبصرون بها ما يجب عليهم أن يسلكوه من سبيل الحياة الطيبة في الدنيا وتتلوها سعادة الحياة الآخرة، وهدى ورحمة لقوم يوقنون بآيات الله .

وأشار إلى أن الذي يدعو مجترحي السيئات أن يستنكفوا عن التشرّع بالشريعة إنكارهم المعاد فيحسبون أنهم والمتشرعون بالدين سواء في الحياة والممات وأن لا أثر للتشرع بالشريعة فلا ثمرة للعمل الصالح الذي تهدي اليه الشريعة إلا إتعاب النفس بالتقيُّد من غير موجب . فبرهن تعالى على بطلان حسبانهم بإثبات المعاد ثم أردفه بوصف المعاد وما يثيب به الصالحين يومئذ وما يعاقب به الطالحين أهل الجحود والإجرام ، وعند ذلك تختتم السورة بالتحميد والتسبيح .

قوله تعالى : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » الإشارة بهذا إلى الأمر المذكور الذي هو الشريعة أو إلى القرآن بما يشتمل على الشريعة ، والبصائر جمع بصيرة وهي الإدراك المصيب للواقع، والمراد بها ما يبصر به ، وإنما كانت الشريعة بصائر لأنها تتضمن أحكاماً وقوانين كل منها يهدي إلى واجب العمل في سبيل السعادة .

والمعنى : هذه الشريعة المشرّعة أو القرآن المشتمل عليها وظائف عملية يتبصّر بكل منها الناس ويهتدون إلى السبيل الحق وهو سبيل الله وسبيل السعادة ، فقوله بعد ذكر تشريع الشريعة : « هذا بصائر للناس » كقوله بعد ذكر آيات الوحدانية في أول السورة : « هذا هدى والذين كفروا » الخ .

وقوله : « وهدى ورحمة لقوم يوقنون » أي دلالة واضحة وإفاضة خير لهم ، والمراد بقوم يوقنون : الذين يوقنون بآيات الله الدالة على أصول المعارف فإن المعهود في

القرآن تعلّق الإيقان بالاصول الاعتقادية .

وتخصيص الهدى والرحمة بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر للناس لا يخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرد التبصر ، وبالرحمة الرحمة الخاصة بمن اتّقى وآمن برسوله بعد الإيمان بالله ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم » الحديد : ٢٨ ، وقال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب – إلى أن قال – وبالآخرة هم يوقنون » البقرة : ٤ ، وللرحمة درجات كثيرة تختلف سعة وضيقاً ثم للرحمة الخاصة بأهل الإيمان أيضاً مراتب مختلفة باختلاف مراتب الإيمان فلكل مرتبة من مراتبه ما يناسبها منها .

وأما الرحمة بمعنى مطلق الخير الفائض منه تعالى فإن القرآن بما يشتمل على الشريعة رحمة للناس كافة كما أن الرسول المبعوث به رحمة لهم جميعاً ، قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » الأنبياء : ١٠٧ ، وقد أوردنا بعض الكلام في هذا المعنى في بعض المباحث السابقة .

قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم » الخ ، قال في المجمع : الاجتراح الاكتساب ، يقال : جرح واجترح وكسب واكتسب وأصله من الجراح لأن لذلك تأثيراً كتأثير الجراح . قال : والسيئة الفعلة القبيحة التي يسوء صاحبها باستحقاق الذمّ عليها . انتهى .

والجعل بمعنى التصيير ، وقوله : « كالذين آمنوا وعملوا الصالحات » في محل المفعول الثاني للجعل ، والتقدير كائنين كالذين آمنوا ، الخ .

وجزم الزمخشري في الكشاف على كون الكاف في « كالذين » اسماً بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله : « نجعلهم » ، وقوله : « سواء » بدلاً منه .

وقوله : « سواء » بالنصب على القراءة الدائرة وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل أي مستوياً أو متساوياً ، وقوله : « محياهم » مصدر ميمي وفاعل « سواء » وضميره راجع إلى مجموع المجترحين والمؤمنين ، و « مماتهم » معطوف على « محياهم » وحاله كحاله .

والآية مسوقة سوق الإنكار و « أم » منقطعة ، والمعنى : بل أحسب وظنّ الذين يكتسبون السيئات أن نصيّرهم مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات مستوياً محياهم

ومماتهم أي تكون حياة هؤلاء كحياة أولئك وموتهم كموتهم فيكون الإيمان والتشرع بالدين لغواً لا أثر له في حياة ولا موت ويستوي وجوده وعدمه .

وقوله : « ساء ما يحكمون » ردّ لحسبانهم المذكور وحكمهم بالمماثلة بين مجترحي السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات ومساءة الحكم كناية عن بطلانه .

فالفريقان لا يتساويان في الحياة ولا في الممات .

أما أنهما لا يتساويان في الحياة فلأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في سلوكهم مسلك الحيـاة على بصيرة من أمرهم وهدى ورحمة من ربهم كما ذكره سبحانه في الآية السابقة والمسيء صفر الكف من ذلك وقال تعالى في موضع آخر : « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً » طه : ١٢٤ ، وقال في موضع آخر : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ .

وأما أنهما لا يتساويان في الممات فلأن الموت كما ينطق به البراهين الساطعة ليس انعـــداماً للشيء وبطلاناً للنفس الانسانية كما يحسبه المبطلون بل هو رجوع الى الله سبحانه وانتقال من نشأة الدنيا إلى نشأة الآخرة التي هي دار البقاء وعالم الخلود يعيش فيها المؤمن الصالح في سعادة ونعمة وغيره في شقاء وعذاب .

وقد أشار سبحانه اليه فيما تقدم من كلامه بقوله : « كذلك يحيي الله الموتى » وقوله : « ثم إلى ربكم ترجعون » وغير ذلك ، وسيتعرض له بقوله : « وخلق الله السماوات والأرض بالحق » الخ .

والآية من حيث تركيب ألفاظها والمعنى المتحصل منها من معارك الآراء بين المفسرين وقد ذكروا لها محامل كثيرة والذي يعطيه السياق ويساعد عليه هو ما قدمناه ولا كثير فائدة في التعرض لوجوه أخر ذكروها فمن أراد الاطلاع عليها فليراجع المطولات.

قوله تعالى : « وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » الظاهر أن المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود والباء في « بالحق » للملابسة فكون خلق العالم بالحق كونه حقاً لا باطلاً ولعباً وهو أن يكون لهذا العالم الكائن الفاسد غاية ثابتة باقية وراءه .

وقوله : « ولتجزى » الخ ، عطف على « بالحق » والباء في قوله : « بما كسبت »

للتعدية أو للمقابلة أي لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعة فالثواب وإن كان معصية فالعقاب ، وقوله : « وهم لا يظلمون » حال من كل نفس أي ولتجزي كل نفس بما كسبت بالعدل .

فيؤل معنى الآية إلى مثل قولنا وخلق الله السماوات والأرض بالحق وبالعدل فكون الخلق بالحق يقتضي أن يكون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات وكون الخلق بالعدل يقتضي أن تجزى كل نفس ما تستحقه بكسبها فالمحسن يجزى جزاء حسناً والمسيء يجزى جزاء سيئاً وإذ ليس ذلك في هذه النشأة ففي نشأة أخرى .

وبهذا البيان يظهر إن الآية تتضمن حجتين على المعاد إحداهما ما أشير اليه بقوله: « وخلق الله السماوات والأرض بالحق » ويسلك من طريق الحق ، والثانية ما أشير اليه بقوله : « ولتجزى » الخ ، ويسلك من طريق العدل .

فتؤل الحجتان إلى ما يشتمل عليه قوله : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ .

والآية بما فيها من الحجة تبطل حسبانهم أن المسيء كالمحسن في الممات فإن حديث المجازاة بالثواب والعقاب على الطاعة والمعصية يوم القيامة ينفي تساوي المطيع والعاصي في الممات ، ولازم ذلك إبطال حسبانهم أن المسيء كالمحسن في الحياة فإن ثبوت المجازاة يومئذ يقتضي وجوب الطاعة في الدنيا والمحسن على بصيرة من الأمر في حياته يأتي بواجب العمل ويتزود من يومه لغده بخلاف المسيء العائش في عمى وضلال فليسا بمتساويين.

قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم » إلى آخر الآية ظاهر السياق أن قوله: «أفرأيت» مسوق للتعجيب أي ألا تعجب ممن حاله هذا الحال؟

والمراد بقوله : « اتخذ إلهه هواه » حيث قدم « إلهه » على « هواه » أنه يعلم أن له إلهاً يجب أن يعبده – وهو الله سبحانه – لكنه يبدله من هواه ويجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه ، ولذلك عقبه بقوله : « وأضله الله على علم » أي إنه ضال عن السبيل وهو يعلم .

ومعنى اتخاذ الإله العبادة والمراد بها الإطاعة فإن الله سبحانه عدّ الطاعة عبادة كما في قوله : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن

اعبدوني » يس : ٦١ ، وقوله : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » التوبة : ٣١ ، وقوله : « ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » آل عمران : ٦٤.

والاعتبار يوافقه إذ ليست العبادة إلا إظهار الخضوع وتمثيل أن العابد عبد لا يريد ولا يفعل إلا ما أراده ورضيه معبوده فمن أطاع شيئاً فقد اتخذه إلهاً وعبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ولا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته .

فقوله : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » أي ألا تعجب ممن يعبد هواه بإطاعته واتباعه وهو يعلم أن له إلهاً غيره يجب أن يعبده ويطيعه لكنه يجعل معبوده ومطاعه هو هواه .

وقوله : « وأضله الله على علم » أي هو ضال بإضلال منه تعالى يضله به مجازاة لاتباعه الهوى حال كون إضلاله مستقراً على علم هذا الضال، ولا ضير في اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل ومعرفته كما في قوله تعالى : «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل: ١٤ ، وذلك أن العلم لا يلازم الهدى ولا الضلال يلازم الجهل بل الذي يلازم الهدى هو العلم مع التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقبه الاهتداء وأما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لاتباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال وإن كان معه علم .

وأما قول بعضهم : إن المراد بالعلم هو علمه تعالى والمعنى : وأضله الله على علم منه تعالى بحاله فبعيد عن السياق .

وقوله : « وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » كالعطف التفسيري لقوله : « وأضله الله على علم » والختم على السمع والقلب هو أن لا يسمع الحق ولا يعقله ، وجعل الغشاوة على البصر هو أن لا يبصر الحق من آيات الله ومحصّل الجميع : أن لا يترتب على السمع والقلب والبصر أثرها وهو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحق إذا أدركه لاستكبار من نفسه وإتباع للهوى ، وقد عرفت أن الضلال عن السبيل لا ينافي العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه .

وقوله : « فمن يهديه من بعد الله » الضمير لمن اتخذ إلهه هواه والتفريع على ما تحصل من حاله أي إذا كان حاله هذا الحال وقد أضله الله على علم الخ ، فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادي دونه قال تعالى: « قل إن هدى الله هو الهدى » البقرة: ١٢٠ وقال : « ومن يضلل الله فما له من هاد » المؤمن : ٣٣ .

وقوله : « أفلا تذكرون » أي أفلا تتفكرون في حاله فتتذكروا أن هؤلاء لا سبيل لهم إلى الهدى مع اتباع الهوى فتتعظوا .

قوله تعالى : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » إلى آخر الآية ، قال الراغب : الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ، وعلى ذلك قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » ثم يعبّر به عن كل مدّة كثيرة ، وهو خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة . انتهى .

والآية على ما يعطيه السياق – سياق الاحتجاج على الوثنيين المثبتين للصانع المنكرين للمعاد – حكاية قول المشركين في إنكار المعاد لا كلام الدهريّين الناسبين للحوادث وجوداً وعدماً الى الدهر المنكرين للمبدأ والمعاد جميعاً إذا لم يسبق لهم ذكر في الآيات السابقة .

فقولهم : « ما هي إلا حياتنا الدنيا » الضمير للحياة أي لا حياة لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياة وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهي من البعث والحياة الآخرة ، وهذا هو القرينة المؤيدة لأن يكون المراد بقوله : « نموت ونحيا » يموت بعضنا ويحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنساني بموت الأسلاف وحياة الأخلاف ويؤيد ذلك بعض التأييد قوله بعده : « وما يهلكنا إلا الدهر » المشعر بالاستمرار .

فالمعنى : وقال المشركون : ليست الحياة إلا حياتنا الدنيا التي نعيش بها في الدنيا فلا يزال يموت بعضنا وهم الأسلاف ويحيى آخرون وهم الأخلاف وما يهلكنا إلا الزمان – الذي بمروره يبلى كل جديد ويفسد كل كائن ويميت كل حي – فليس الموت انتقالاً من دار الى دار منتهياً الى البعث والرجوع الى الله .

ولعل هذا كلام بعض الجهلة من وثنية العرب وإلا فالعقيدة الدائرة بين الوثنية هي التناسخ وهو أن نفوس غير أهل الكمال إذا فارقت الأبدان تعلقت بأبدان اخرى جديدة فإن كانت النفس المفارقة اكتسبت السعادة في بدنها السابق تعلقت ببدن جديد تتنعم فيه وتسعد ، وإن كانت اكتسبت الشقاء في البدن السابق تعلقت ببدن لاحق تشقى فيه وتعذب جزاء لعملها السيىء وهكذا ، وهؤلاء لا ينكرون استناد أمر الموت كالحياة إلى وساطة الملائكة .

ولهذا أعني كون القول بالتناسخ دائراً بين الوثنية ذكر بعض المفسرين أن المراد بالآية قولهم بالتناسخ ، والمعنى : « إن هي إلا حياتنا الدنيا » فلسنا نخرج من الدنيا أبداً « نموت » عن حياة دنيا « ونحيا » بعد الموت بالتعلق ببدن جديد وهكذا « وما يهلكنا إلا الدهر » .

وهذا لا يخلو من وجه لكن لا يلائمه قولهم المنقول ذيلاً : « وما يهلكنا إلا الدهر » إلا أن يوجه بأن مرادهم من نسبة الإهلاك إلى الدهر كون الدهر وسيلة يتوسل بها الملك الموكل على الموت إلى الإماتة ، وكذا لا تلائمه حجتهم المنقولة ذيلاً : « ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » الظاهرة في أنهم يرون آباءهم معدومين باطلي الذوات .

وذكر في معنى الآية وجوه أخر لا يعبأ بها كقول بعضهم : المعنى نكون أمواتاً لا حياة فيها وهو قبل ولوج الروح ثم نحيا بولوجها على حد قوله تعالى : « وكنتم أمواتاً فأحياكم » البقرة : ٢٨ .

وقول بعضهم : المراد بالحياة بقاء النسل مجازاً ، والمعنى : نموت نحن ونحيا ببقاء نسلنا . إلى غير ذلك مما قيل .

وقوله : « وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » أي إن قولهم ذلك المشعر بإنكار المعاد قول بغير علم وإنما هو ظن يظنونه وذلك أنهم لا دليل لهم يدلّ على نفي المعاد مع ما هناك من الأدلة على ثبوته .

قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينـات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » تأكيد لكون قولهم بنفي المعاد وحصر الحياة في الحياة الدنيا قولاً بغير علم .

والمراد بالآيات البينات الآيات المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد وكونها بينـات وضوح دلالتها على ثبوته بلا شك ، وتسمية قولهم : « ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » مع كونه اقتراحاً جزافياً بعـد قيام الحجة إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل : ما كانت حجتهم إلا اللاحجة .

والمعنى : وإذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعـاد آياتنا المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد والحال أنهـا واضحات الدلالة على ثبوته ما قابلوها إلا بجزاف من القول وهو طلب الدليل على إمكانه بإحياء آبائهم الماضين .

قوله تعالى : « قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيـامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون – إلى قوله – والأرض» ما ذكر من اقتراحهم الحجة على مطلوب قـامت عليه الحجة وإن كان اقتراحاً جزافياً لا يستدعي شيئاً من الجواب لكنه سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يجيبهم بإثبات إمكانه الذي كانوا يستبعدونه .

ومحصله: أن الذي يحييكم لأول مرة ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة الذي لا ريب فيه هو الله سبحانه ولله ملك السماوات والأرض يحكم فيها ما يشاء ويتصرف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس اليه ويتصرف فيكم بجمعكم إلى يوم القيامة والقضاء بينكم ثم الجزاء ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون » قال الراغب : الخسر والخسران انتقاص رأس المال وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال : خسرت تجارته ، قال تعـالى : « تلك إذاً كرّة خاسرة » ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجية كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر ، وفي المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين .

قال : وكل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هـذا المعنى الآخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات المالية والتجارات البشرية .

وقال : والإبطال يقال في إفساد الشيء وإزالته سواء كان ذلك الشيء حقاً أو باطلاً قال تعالى : « ليحق الحق ويبطل الباطل » وقد يقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقة له نحو « ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون » ، وقوله تعالى : « خسر هنالك المبطلون » أي الذين يبطلون الحق . انتهى .

والأشبه أن يكون المراد بقيـام الساعة فعلية ما يقع فيها من البعث والجمع والحساب والجزاء وظهوره ، وبذلك صح جعل الساعة مظروفاً لليوم وهما واحد ، والأشبه أن يكون قوله : « يومئذ » تأكيداً لقوله : « يوم تقوم الساعة » .

والمعنى: ويوم تقوم الساعة وهي يوم الرجوع إلى الله يومئذ يخسر المبطلون الذين أبطلوا الحق وعدلوا عنه .

قوله تعالى: « وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها » الخ، الجثوُّ البروك على الركبتين كما أن الجذو البروك على أطراف الأصابع .

والخطاب عام لكل من يصح منه الرؤية وإن كان متوجهاً إلى النبي ﷺ والمراد بالدعوة إلى الكتاب الدعوة إلى الحساب على ما ينطق به الكتاب بإحصائه الأعمال بشهادة قوله بعده : « اليوم تجزون ما كنتم تعملون » .

والمعنى : وترى أنت وغيرك من الرائين كل امة من الامم جالسة على الجثوّ جلسة الخاضع الخائف كل امة منهم تدعى إلى كتابها الخاص بها وهي صحيفة الأعمال وقيل لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون .

ويستفاد من ظاهر الآية أن لكل امة كتاباً خاصاً بهم كما أن لكل إنسان كتاباً خاصاً به قال تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » أسرى : ١٣ .

قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » قال في الصحاح : ونسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته كله بمعنى ، والنُسخة اسم المنتسخ منه . انتهى ، وقال الراغب : النسخ إزالة الشيء بشيء يتعقبه كنسخ الشمس الظل ونسخ الظل الشمس والشيب الشباب – إلى أن قال – ونسخ الكتاب نقل صورته المجردة إلى كتاب آخر وذلك لا يقتضي إزالة الصورة الاولى بل يقتضي إثبات مثلها في مادة اخرى كاتخاذ نقش الخاتم في شموع كثيرة ، والاستنساخ التقدم بنسخ الشيء والترشح للنسخ . انتهى .

ومقتضى ما نقل أن المفعول الذي يتعدى اليه الفعل في قولنا : استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه ، ولازم ذلك أن تكون الأعمال في قوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » كتاباً وأصلاً وإن شئت فقل : في أصل وكتاب يستنسخ وينقل منه ولو اريد به ضبط الأعمال الخارجية القائمة بالإنسان بالكتابة لقيل : إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون إذ لا نكتة تستدعي فرض هذه الأعمال كتاباً وأصلاً يستنسخ ، ولا دليل على كون « يستنسخ » بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم .

ولازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجية بما أنها في اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ وتكون

صحيفة الأعمال صحيفة الأعمال وجزء من اللوح المحفوظ، ويكون معنى كتابة الملائكة للأعمال تطبيقهم ما عندهم من نسخة اللوح على الأعمال .

وهذا هو المعنى الذي وردت به الرواية من طرق الشيعة عن الصادق عليه السلام ومن طرق أهل السنة عن ابن عباس ، وسيوافيك في البحث الروائي التالي .

وعلى هذا فقوله : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » من كلامه تعالى لا من كلام الملائكة ، وهو من خطابه تعالى لأهل الجمع يوم القيامة يحكيه لنا فيكون في معنى : « ويقال لهم هذا كتابنا » الخ .

والإشارة بهذا – على ما يعطيه السياق – إلى صحيفة الأعمال وهي بعينها إشارة إلى اللوح المحفوظ على ما تقدم وإضافة الكتاب اليه تعالى نظراً إلى أنه صحيفة الأعمال من جهة أنه مكتوب بأمره تعالى ونظراً إلى أنه اللوح المحفوظ من جهة التشريف وقوله : « ينطق عليكم بالحق » أي يشهد على ما عملتم ويدل عليه دلالة واضحة ملابساً للحق .

وقوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » تعليل لكون الكتاب ينطق عليهم بالحق أي إن كتابنا هذا دالّ على عملكم بالحق من غير أن يتخلف عنه لأنه اللوح المحفوظ المحيط بأعمالكم بجميع جهاتها الواقعية .

ولولا أن الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لا يداخله شك ولا يحتمل منهم التكذيب لكذّبوه ، قال تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » آل عمران : ٣٠ .

وللقوم في الآية أقوال أُخر :

منها ما قيل: إن الآية من كلام الملائكة لا من كلام الله ومعنى الاستنساخ الكتابة والمعنى: هذا أي صحيفة الأعمال كتابنا معشر الملائكة الكاتبين للأعمال يشهد عليكم بالحق إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون .

وفيه أن كونه من كلام الملائكة بعيد من السياق على أن كون الاستنساخ بمعنى مطلق الكتابة لم يثبت لغة .

ومنها : أن الآية من كلام الله ، والإشارة بهذا إلى صحيفة الأعمال ، وقيل : إلى اللوح المحفوظ ، والاستنساخ بمعنى الاستكتاب مطلقاً .

قوله تعالى : « أمـا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين » تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعادة والشقاء والثواب والعقاب ، والسعداء المثابون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والأشقياء المعاقبون هم الذين كفروا من المستكبرين المجرمين .

والمراد بالرحمة الإفاضة الإلهية تسعد من استقر فيها ومنها الجنة ، والفوز المبين الفلاح الظاهر ، والباقي واضح .

قوله تعالى : « وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين » المراد بالذين كفروا المتلبسون بالكفر عن تكذيب وجحود بشهادة قوله : « أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم » الخ .

والفاء في « أفلم تكن » للتفريع فتدلّ على مقـدّر متفرع عليه هو جواب لما ، والتقدير : فيقال لهم ألم تكن آياتي تتلى عليكم ، والمراد بالآيات الحجج الإلهية الملقاة اليهم عن وحي ودعوة ، والمجرم هو المتلبس بالإجرام وهو الذنب .

والمعنى: وأما الذين كفروا جاحدين للحق مع ظهوره فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ألم تكن حججي تقرأ وتبين لكم في الدنيا فاستكبرتم عن قبولها وكنتم قوماً مذنبين.

قوله تعالى : « وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة » الخ، المراد بالوعد الموعود وهو ما وعده الله بلسان رسله من البعث والجزاء فيكون قوله : « والساعة لا ريب فيها » من عطف التفسير ، ويمكن أن يراد بالوعد المعنى المصدري .

وقولهم: « ما ندري ما الساعة » معناه أنه غير مفهوم لهم والحال أنهم أهل فهم ودراية فهو كناية عن كونه أمراً غير معقول ولو كان معقولاً لدروه .

وقوله : « إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين » أي ليست مـمـا نقطع به ونجزم بل نظن ظناً لا يسعنا أن نعتمد عليه، ففي قولهم: « ما ندري ما الساعة » الخ ، غبّ ما تليت عليهم من الآيات البينة أفحش المكابرة مع الحق .

قوله تعالى : « وبدا لهم سيئات مـا عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون » إضافة السيئات إلى ما عملوا بيانية أو بمعنى من ، والمراد بـما عملوا جنس ما عملوا أي

ظهر لهم أعمالهم السيئة أو السيئات من أعمالهم فالآية في معنى قوله : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

فالآية من الآيات الدالة على تمثل الأعمال، وقيل : إن في الكلام حذفاً والتقدير: وبدا لهم جزاء سيئات ما عملوا .

وقوله : « وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون » أي وحلّ بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه في الدنيا إذا أنذروا به بلسان الأنبياء والرسل .

قوله تعالى : « وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » النسيان كناية عن الإعراض والترك فنسيانه تعالى لهم يوم القيامة إعراضه عنهم وتركه لهم في شدائده وأهواله ، ونسيانهم لقاء يومهم ذاك في الدنيا إعراضهم عن تذكّره وتركهم التأهب للقائه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا » الخ ، الإشارة بقوله : « ذلكم » إلى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات وحلول العذاب والهزء السخرية التي يستهزء بها والباء للسببية .

والمعنى : ذلكم العذاب الذي يحل بكم بسبب أنكم اتخذتم آيات الله سخرية تستهزؤن بها وبسبب أنكم غرتكم الحياة الدنيا فأخلدتم اليها وتعلقتم بها .

وقوله : « فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون » صرف الخطاب عنهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويتضمن الكلام خلاصة القول فيما يصيبهم من العذاب يومئذ وهو الخلود في النار وعدم قبول العذر منهم .

والاستعتاب طلب العتبى والاعتذار ،ونفي الاستعتاب كناية عن عدم قبول العذر.

قوله تعالى : « فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين » تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدم في السورة من كونه خالق السماوات والأرض وما بينهما والمدبر لأمر الجميع ومن بديع تدبيره خلق الجميع بالحق المستتبع ليوم الرجوع اليه والجزاء بالأعمال وهو المستدعي لجعل الشرائع التي تسوق إلى السعادة والثواب ويتعقبه الجمع ليوم الجمع ثم الجزاء واستقرار الجميع على الرحمة والعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه فلم يدبر إلا تدبيراً جميلاً ولم يفعل إلا فعلاً محموداً فله الحمد كله .

وقد كرر « الرب » فقال : رب السماوات ورب الأرض ثم أبدل منهما قوله : « رب العالمين » ليأتي بالتصريح بشمول الربوبية للجميع فلو جيء برب العالمين وأكتفى به أمكن أن يتوهم أنه رب المجموع لكن للسماوات خاصة رب آخر وللأرض وحدها رب آخر كما ربما قال بمثله الوثنية ، وكذا لو اكتفى بالسماوات والأرض لم يكن صريحاً في ربوبيته لغيرهما ، وكذا لو أكتفى بإحداهما .

قوله تعالى : « وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » الكبرياء على ما عن الراغب : الترفع عن الانقياد ، وعن ابن الأثير : العظمة والملك وفي المجمع السلطان القاهر والعظمة القاهرة والعظمة والرفعة .

وهي على أي حال أبلغ معنى من الكبر وتستعمل في العظمة غير الحسية ومرجعه إلى كمال وجوده ولا تناهي كماله .

وقوله : « وله الكبرياء في السماوات والأرض » أي له الكبرياء في كل مكان فلا يتعالى عليه شيء فيهما ولا يستصغره شيء وتقديم الخبر في « له الكبرياء » يفيد الحصر كما في قوله : « فلله الحمد » .

وقوله : « وهو العزيز الحكيم » أي الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق وتدبير في الدنيا والآخرة والباني خلقه وتدبيره على الحكمة والإتقان .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » قال : نزلت في قريش كلما هووا شيئاً عبدوه .

وفي الدر المنثور أخرج النسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان الرجل من العرب يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه أخذه وألقى الآخر فأنزل الله « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وما يهلكنا إلا الدهر » وقد روي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر .

أقول : قال الطبرسي بعد إيراد الحديث : وتأويله أن أهل الجاهلية كانوا ينسبون

الحوادث المجحفة والبلايا النازلة الى الدهر فيقولون : فعل الدهر كذا ، وكانوا يسبون الدهر فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن فاعل هذه الامور هو الله فلا تسبوا فاعلها انتهى . ويؤيد هذا الوجه الرواية التالية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله تبارك وتعالى : لا يقل ابن آدم يسب الدهر يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أرسل الليل والنهار فإذا شئت قبضتهما .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » الآية ، حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن « ن والقلم » قال : إن الله خلق القلم من شجرة في الجنة يقال لها الخلد ثم قال لنهر في الجنة : كن مداداً فجمد النهر وكان أشد بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد . ثم قال للقلم : أكتب . قال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة فكتب القلم في رق أشد بياضاً من الفضة وأصفى من الياقوت . ثم طواه فجعله في ركن العرش ثم ختم على فم القلم فلن ينطق أبداً .

فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها أولستم عرباً ؟ فكيف لا تعرفون معنى الكلام؟ وأحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب أو ليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل ؟ وهو قوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

أقول : قوله عليه السلام : فكتب القلم في رق الخ، تمثيل للوح المكتوب فيه الحوادث بالرق والرق ما يكتب فيه شبه الكاغد – على ما ذكره الراغب – وقد تقدم الحديث عنه عليه السلام أن القلم ملك واللوح ملك، وقوله: فجعله في ركن العرش تمثيل للعرش بعرش الملك ذي الأركان والقوائم وقوله : ثم ختم على فم القلم « الخ » كناية عن كون ما كتب في الرق قضاء محتوماً لا يتغير ولا يتبدل ، وقوله: أولستم عرباً « الخ » ، إشارة الى ما تقدم توضيحه في تفسير الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون وهو الدواة وخلق القلم فقال : اكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن الى يوم القيامة من عمل معمول بر أو فاجر أو رزق مرزوق حلال أو حرام ثم ألزم كل شيء من ذلك شأنه : دخوله في الدنيا ومقامه فيها كم ، وخروجه منها كيف ؟

ثم جعل على العباد حفظة وعلى الكتاب خزاناً تحفظه ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم فإذا فنى ذلك الرزق انقطع الأمر وانقضى الأجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم فيقول لهم الخزنة: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً فيرجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا .

قال ابن عباس : ألستم قوماً عرباً ؟ تسمعون الحفظة يقولون : «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل ؟

أقول : والخبر كما ترى يجعل الآية من كلام الملائكة الحفظة .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : يستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم فإنما يعمل الانسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب .

وعن كتاب سعد السعود لابن طاوس قال بعد ذكر الملكين الموكلين بالعبد : وفي رواية أنهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساء ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ فيعطيهما ذلك فإذا صعدا صباحاً ومساء بديوان العبد قابله إسرافيل بالنسخ التي انتسخ لهما حتى يظهر أنه كان كما نسخ منه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وله الكبرياء في السماوات والأرض » وفي الحديث يقول الله : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحـــدة منهما ألقيته في نار جهنم .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن مسلم وأبي داود وابن ماجه وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

(سورة الأحقاف مكية ، وهي خمس وثلاثون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ ــ ١ . تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ اللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ــ ٢ . مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ــ ٣ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوَاتِ ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ــ ٤ . وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ــ ٥ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ــ ٦ . وَإِذَا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ــ ٧ . أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ الرَّحِيمُ ــ ٨ . قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا

إلاَّ نَذيرٌ مُبينٌ ـــ ٩ . قُلْ أرَأَيْتُمْ إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ـــ ١٠ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إلَيْهِ وَإذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إفْكٌ قَدِيمٌ ـــ ١١ . وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إمَاماً وَرَحْمَةً وَهٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ـــ ١٢ . إنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ـــ ١٣ . أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ـــ ١٤ .

(بيان)

غرض السورة إنذار المشركين الرادّين للدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله بالمعاد بما فيه من أليم العذاب لمنكريه المعرضين عنه ، ولذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد : «ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق» ثم يعود اليه عودة بعد عودة كقوله: « وإذا حشر الناس »، وقوله : « والذي قال لوالديه أفٍّ لكما أتعدانني أن أخرج »، وقوله : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم » ، وقوله : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » ، وقوله في مختتم السورة : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ » الآية .

وفيها احتجاج على الوحدانية والنبوة، وإشارة إلى هلاك قوم هود وهلاك القرى التي حول مكة وإنذارهم بذلك ، وإنباء عن حضور نفر من الجن عند النبي ﷺ واستماعهم القرآن وإيمانهم به ورجوعهم إلى قومهم منذرين لهم .

والسورة مكية كلها إلا آيتين اختلف فيهما سنشير اليهما في البحث الروائي الآتي إن شاء الله ، قوله تعالى : « أم يقولون افتراه » الخ ، وقوله : « قل أرأيتم إن كان من عند الله » الآية .

قوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » تقدّم تفسيره .

قوله تعالى : « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمّى » الخ ، المراد بالسماوات والأرض وما بينهما بجموع العالم المشهود علويه وسفليه ، والباء في « بالحق » للملابسة ، والمراد بالأجل المسمى ما ينتهي اليه أمد وجود الشيء ، والمراد به في الآية الأجل المسمى لوجود بجموع العالم وهو يوم القيامة الذي تطوى [١] فيه السماء كطي السجل للكتب وتبدل الأرض [٢] غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار .

والمعنى : ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلوية والسفلية إلا ملابساً للحق له غاية ثابتة وملابساً لأجل معين لا يتعداه وجوده وإذا كان له أجل معين يفنى عند حلوله وكانت مع ذلك له غاية ثابتة فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء وهو المعاد الموعود ، وقد تكرر الكلام فيما تقدم في معنى كون الخلق بالحق .

وقوله : « والذين كفروا عما أنذروا معرضون » المراد بالذين كفروا هم المشركون بدليل الآية التالية لكن ظاهر السياق أن المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد ، و « ما » في « عما » مصدرية أو موصولة والثاني هو الأوفق للسياق والمعنى : والمشركون الذين كفروا بالمعاد عما أنذروا به — وهو يوم القيامة بما فيه من أليم العذاب لمن أشرك بالله — معرضون منصرفون .

قوله تعالى : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله » إلى آخر الآية « أرأيتم » بمعنى أخبروني والمراد بما تدعون من دون الله الأصنام التي كانوا يدعونها ويعبدونها وإرجاع ضمائر اولي العقل اليها بعد لكونهم ينسبون اليه أفعال اولي العقل وحجّة الآية وما بعدها مع ذلك تجري في كل إله معبود من دون الله .

---

(١) اشارة الى الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء .
(٢) اشارة الى الآية ٤٨ من سورة ابراهيم .

وقوله : « أروني ماذا خلقوا من الأرض » أروني بمعنى أخبروني و « ما » اسم استفهام و « ذا » بعده زائدة والمجموع مفعول « خلقوا » ومن الأرض متعلق به .

وقوله : « أم لهم شرك في السماوات » أي شركة في خلق السماوات فإن خلق شيء من السماوات والأرض هو المسؤل عنه .

توضيح ذلك أنهم وإن لم ينسبوا اليها إلا تدبير الكون وخصوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » الزمر : ٣٨، وقال : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » الزخرف : ٨٧ ، لكن لما كان الخلق لا ينفك عن التدبير أوجب ذلك أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم في الخلق ولذلك أمر تعالى نبيه ﷺ أن يسألهم عما لأربابهم الذين يدعون من دون الله من النصيب في خلق الأرض أو في خلق السماوات فلا معنى للتدبير في الكون من غير خلق .

وقوله : « ائتوني بكتاب من قبل هـذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » الإشارة بهذا الى القرآن ، والمراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوي كالتوراة نازل من عند الله يذكر شركة آلهتهم في خلق السماوات أو الأرض .

والاثارة على ما ذكره الراغب مصدر بمعنى النقل والرواية قال : وأثرت العلم رويته آثره أثراً وأثارة وأثرة وأصله تتبعت أثره انتهى . وعليه فالاثارة في الآية مصدر بمعنى المفعول أي شيء منقول من علم يثبت أن لآلهتهم شركة في شيء من السماوات والأرض ، وفسره غالب المفسرين بمعنى البقية وهو قريب مما تقدم .

والمعنى : ائتوني للدلالة على شركهم لله في خلق شيء من الأرض أو في خلق السماوات بكتاب سماوي من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشيء منقول من علم أو بقية من علم اورثتموها يثبت ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم أنهم شركاء لله سبحانه .

قوله تعالى : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » الخ ، الاستفهام إنكاري ، وتحديد عدم استجابتهم الدعوة بيوم القيامة لما أن يوم القيامة أجل مسمى للدنيا والدعوة مقصورة في الدنيا ولا دنيا بعد قيام الساعة .

وقوله : « وهم عن دعائهم غافلون » صفة اخرى من صفات آلهتهم مضافة الى صفة عدم استجابتهم وليس تعليلاً لعدم الاستجابة فإن عدم استجابتهم معلول كونهم

لا يملكون لعبادهم شيئاً قال تعالى : « قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً » المائدة : ٧٦ .

بل هي صفة مضافة إلى صفة مذكورة لتكون توطئة وتمهيداً لما سيذكره في الآية التالية من عداوتهم لهم وكفرهم بعبادتهم يوم القيامة فهم في الدنيا غافلون عن دعائهم وسيطّلعون عليه يوم القيامة فيعادونهم ويكفرون بعبادتهم .

وفي الآية دلالة على سراية الحياة والشعور في الأشياء حتى الجمادات فإن الأصنام من الجماد وقد نسب اليها الغفلة والغفلة من شؤن ذوي الشعور لا تطلق إلا على ما من شأن موصوفه أن يشعر .

قوله تعالى : « حتى إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » الحشر إخراج الشيء من مقرّه بإزعاج ، والمراد بعث الناس من قبورهم وسوقهم إلى المحشر يوم القيامة فيومئذ يعاديهم آلهتهم ويكفرون بشرك عبّادهم بالتبرّي منهم كما قال تعالى : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » فاطر : ١٤ ، وقال حكاية عنهم : « تبرّأنا اليك ما كانوا إيانا يعبدون » القصص : ٦٣ ، وقال : « فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم أن كنا عن عبادتكم لغافلين » يونس : ٢٩ .

وفي سياق الآيتين تلويح إلى أن هذه الجمادات التي لا تظهر لنا في هذه النشأة أن لها حياة لعدم ظهور آثارها سيظهر في النشأة الآخرة أن لها حياة وتظهر آثارها وقد تقدم بعض الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » الم السجدة : ٢١ .

قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين » الآية والتي بعدها مسوقتان للتوبيخ ، والمراد بالآيات البينات آيات القرآن تتلى عليهم ، ثم بدّلها من الحق الذي جاءهم حيث قال : « للحق لما جاءهم » – وكان مقتضى الظاهر أن يقال : « لها » للدلالة على أنها حق جاءهم لا مسوّغ لرميها بأنها سحر مبين وهم يعلمون أنها حق مبين فهم متحكمون مكابرون للحق الصريح .

قوله تعالى : « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً » الخ ، « أم » منقطعة أي بل يقولون افترى القرآن على الله في دعواه أنه كلامه .

وقوله : « قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً » أي إن افتريت القرآن لأجلكم آخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب على الافتراء ولستم تقدرون على دفع عذابه عني فكيف أفتريه عليه لأجلكم ، والمحصل أني على يقين من أمر الله وأعلم أنه يأخذ المفترى عليه أو يعاجل في عقوبته وأنكم لا تقدرون على دفع ما يريده فكيف أفتري عليه فأعرض نفسي على عذابه المقطوع لأجلكم ؟ أي لست بمفترٍ عليه .

ويتبين بذلك أن جزاء الشرط في قوله : « إن افتريته فلا تملكون لي » الخ ، محذوف وقد أُقيم مقامه ما يجري مجرى ارتفاع المانع ، والتقدير : إن افتريته آخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب ولا مانع من قبلكم يمنع عنه ، وليس من قبيل وضع المسبب موضع السبب كما قيل .

وقوله : « هو أعلم بما تفيضون فيه » الإفاضة في الحديث الخوض فيه و « ما » موصولة يرجع اليه ضمير « فيه » أو مصدرية ومرجع الضمير هو القرآن ، والمعنى : الله سبحانه أعلم بالذي تخوضون فيه من التكذيب برمي القرآن بالسحر والافتراء على الله أو المعنى : هو أعلم بخوضكم في القرآن .

وقوله : « كفى به شهيداً بيني وبينكم » احتجاج ثان على نفي الافتراء وأول الاحتجاجين قوله : « إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً » وقد تقدم بيانه آنفاً ، ومعنى الجملة : أن شهادة الله سبحانه في كلامه بأنه كلامه وليس افتراء مني يكفي في نفي كوني مفترياً به عليه ، وقد صدّق سبحانه هذه الدعوى بقوله : « لكن الله يشهد بما أُنزل اليك أنزله بعلمه » النساء : ١٦٦ ، وما في معناه من الآيات ، وأما أنه كلامه فيكفي في ثبوته آيات التحدي .

وقوله : « وهو الغفور الرحيم » تذييل الآية بالاسمين الكريمين للاحتجاج على نفي ما يتضمنه تحكمهم الباطل من نفي الرسالة كأنه قيل : إن قولكم : « افتراه » يتضمن دعويين: دعوى عدم كون هذا القرآن من كلام الله ودعوى بطلان الرسالة ـ والوثنيون ينفونها مطلقاً ـ أما الدعوى الاولى فيدفعه أولاً : أنه إن افتريته فلا تملكون ، الخ ، وثانياً : أن الله يكفيني شهيداً على كونه كلامه لا كلامي .

وأما الدعوى الثانية فيدفعها أن الله سبحانه غفور رحيم ، ومن الواجب في حكمته أن يعامل خلقه بالمغفرة والرحمة ولا تشملان إلا التائبين الراجعين اليه الصالحين

لذلك وذلك بأن يهديهم إلى صراط يقرّبهم منه سلوكه فتشملهم مغفرته ورحمته بحطّ السيئات والاستقرار في دار السعادة الخالدة، وكونه واجباً في حكمته لأن فيهم صلاحية هذا الكمال وهو الجواد الكريم، قال تعالى : « وما كان عطاء ربك محظوراً » أسرى: ٢٠ ، وقال : « وعلى الله قصد السبيل » النحل : ٩ ، والسبيل إلى هـذه الهداية هي الدعوة من طريق الرسالة فمن الواجب في الحكمة أن يرسل إلى الناس رسولاً يدعوهم إلى سبيله الموصلة إلى مغفرته ورحمته .

قوله تعالى : « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » الخ ، البدع ما كان غير مسبوق بالمثل من حيث صفاته أو من حيث أقواله وأفعاله ولذا فسّره بعضهم بأن المعنى : ما كنت أول رسول أرسل اليكم لا رسول قبلي ، وقيل : المعنى : ما كنت مبدعاً في أقوالي وأفعالي لم يسبقني اليها أحد من الرسل .

والمعنى الأول لا يلائم السياق ولا قوله المتقدم : « وهو الغفور الرحيم » بالمعنى الذي تقدم توجيهه فثـاني المعنيين هو الأنسب ، وعليه فالمعنى : لست أخالف الرسل السابقين في صورة أو سيرة وفي قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم فيّ من آثار البشرية ما فيهم وسبيلهم في الحياة سبيلي .

وبهذه الجمـلة يجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها » الفرقان : ٨ .

وقوله : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » نفي لعلم الغيب عن نفسه فهو نظير قوله: « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء » الأعراف:١٨٨ ، والفرق بين الآيتين أن قوله : « ولو كنت أعلم الغيب » الخ ، نفي للعـلم بمطلق الغيب واستشهاد له بمسّ السوء وعدم الاستكثار من الخير ، وقوله : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » نفي للعلم بغيب خاص وهو مـا يفعل به وبهم من الحوادث التي يواجهونها جميعاً ، وذلك أنهم كانوا يزعمون أن المتلبس بالنبوة لو كان هناك نبي يجب أن يكون عالماً في نفسه بالغيوب ذا قدرة مطلقة غيبية كما يظهر من اقتراحاتهم المحكية في القرآن فامِر ﷺ أن يعترف - مصرّحاً به - أنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم فينفي عن

نفسه العلم بالغيب، وأن ما يجري عليه وعليهم من الحوادث خارج عن إرادته واختياره وليس له في شيء منها صنع بل يفعله به وبهم غيره وهو الله سبحانه .

فقوله : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » كما ينفي عنه العلم بالغيب ينفي عنه القدرة على شيء مما يصيبه ويصيبهم مما هو تحت أستار الغيب .

ونفي الآية العلم بالغيب عنه ﷺ لا ينافي علمه بالغيب من طريق الوحي كما يصرّح تعالى به في مواضع من كلامه كقوله : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك » آل عمران : ٤٤ ، يوسف : ١٠٢ ، وقوله : « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك » هود : ٤٩ ، وقوله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » الجن : ٢٧ ، ومن هذا الباب قول المسيح عليه السلام : « وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم » آل عمران : ٤٩ ، وقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » يوسف : ٣٧ .

وجه عدم المنافاة أن الآيات النافية للعلم بالغيب عنه وعن سائر الأنبياء عليهم السلام إنما تنفيه عن طبيعتهم البشرية بمعنى أن تكون لهم طبيعة بشرية أو طبيعة هي أعلى من طبيعة البشر من خاصتها العلم بالغيب بحيث يستعمله في جلب كل نفع ودفع كل شر كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب وهذا لا ينافي انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهي من طريق الوحي كما أن إتيانهم بالمعجزات فيما أتوا بها ليس عن قدرة نفسية فيهم يملكونها لأنفسهم بل بإذن من الله تعالى وأمر ، قال تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » الإسراء : ٩٣ ، جواباً عما اقترحوا عليه من الآيات ، وقال : « قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » العنكبوت : ٥٠ ، وقال : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق » المؤمن : ٧٨ .

ويشهد بذلك قوله بعده متصلا به : « إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ » فإن اتصاله بما قبله يعطي أنه في موضع الإضراب ، والمعنى : إني ما أدري شيئاً من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسي وإنما أتّبع ما يوحى إليّ من ذلك .

وقوله : « وما أنا إلا نذير مبين » تأكيد لجميع ما تقدم في الآية من قوله : « ما كنت بدعاً » الخ ، و « وما أدري » الخ ، وقوله : « إن أتّبع » الخ .

(بحث فلسفي ودفع شبهة)

تظافرت الأخبار من طرق أئمة أهل البيت أن الله سبحانه علّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام علم كل شيء ، وفسّر ذلك في بعضها أن علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طريق الوحي وأن علم الأئمة عليهم السلام ينتهي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وأورد عليه أن المأثور من سيرتهم أنهم كانوا يعيشون مدى حياتهم عيشة سائر الناس فيقصدون مقاصدهم ساعين اليها على ما يرشد اليه الأسباب الظاهرية ويهدي اليه السبل العادية فربما أصابوا مقاصدهم وربما أخطأ بهم الطريق فلم يصيبوا ، ولو علموا الغيب لم يخيبوا في سعيهم أبداً فالعاقل لا يترك سبيلاً يعلم يقيناً أنه مصيب فيه ولا يسلك سبيلاً يعلم يقيناً أنه مخطىء فيه .

وقد أصيبوا بمصائب ليس من الجائز أن يلقى الإنسان نفسه في مهلكتها لو علم بواقع الأمر كما أصيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد بما أصيب ، وأصيب علي عليه السلام في مسجد الكوفة حين فتك به المرادي لعنه الله ، وأصيب الحسين عليه السلام فقتل في كربلاء ، وأصيب سائر الأئمة بالسمّ ،فلو كانوا يعلمون ما سيجري عليهم كان ذلك من إلقاء النفس في التهلكة وهو محرّم ، والإشكال كما ترى مأخوذ من الآيتين : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » .

ويردّه أنه مغالطة بالخلط بين العلوم العادية وغير العادية فالعلم غير العادي بحقائق الامور لا أثر له في تغيير مجرى الحوادث الخارجية .

توضيح ذلك أن أفعالنا الاختيارية كما تتعلق بإرادتنا كذلك تتعلق بعلل وشرائط اخرى مادية زمانية ومكانية إذا اجتمعت عليها تلك العلل والشرائط وتمّت بالإرادة تحققت العلة التامة وكان تحقق الفعل عند ذلك واجباً ضرورياً إذ من المستحيل تخلف المعلول عن علته التامة .

فنسبة الفعل وهو معلول إلى علته التامة نسبة الوجوب والضرورة كنسبة جميع الحوادث إلى عللها التامة ، ونسبته إلى إرادتنا وهي جزء علته نسبة الجواز والإمكان.

فتبين أن جميع الحوادث الخارجية ومنها أفعالنا الاختيارية واجبة الحصول في

الخارج واقعة فيها على صفة الضرورة ولا ينافي ذلك كون أفعالنا الاختيارية ممكنة بالنسبة الينا مع وجوبها على ما تقدم .

فإذا كان كل حادث ومنها أفعالنا الاختيارية بصفة الاختيار معلولاً له علة تامة يستحيل معها تخلفه عنها كانت الحوادث سلسلة منتظمة يستوعبها الوجوب لا يتعدى حلقة من حلقاتها موضعها ولا تتبدل من غيرها، وكان الجميع واجباً من أول يوم سواء في ذلك ما وقع في الماضي وما لم يقع بعد ، فلو فرض حصول علم بحقائق الحوادث على ما هي عليها في متن الواقع لم يؤثر ذلك في إخراج حادث منها وإن كان اختيارياً عن ساحة الوجوب إلى حدّ الإمكان .

فإن قلت : بل يقع هـذا العلم اليقيني في مجرى أسباب الأفعال الاختيارية كالعلم الحاصل من الطرق العادية فيستفاد منه فيما إذا خالف العلم الحاصل من الطرق العادية فيصير سبباً للفعل أو الترك حيث يبطل معه العلم العادي .

قلت : كلا فإن المفروض تحقق العلة التامة للعلم العـادي مع سائر أسباب الفعل الاختياري فمثله كمثل أهل الجحود والعناد من الكفار يستيقنون بأن مصيرهم مع الجحود إلى النار ومع ذلك يصرّون على جحودهم لحكم هواهم بوجوب الجحود وهذا منهم هو العلم العادي بوجوب الفعل، قال تعالى في قصة آل فرعون : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ .

وبهذا يندفع ما يمكن أن يقال : لا يتصور علم يقيني بالخلاف مع عدم تأثيره في الإرادة فليكشف عدم تأثيره في الإرادة عن عدم تحقق علم على هذا الوصف .

وجه الاندفاع : أن مجرد تحقق العلم بالخلاف لا يستوجب تحقق الإرادة مستندة اليه وإنما هو العلم الذي يتعلق بوجوب الفعل مع التزام النفس به كما مرّ في جحود أهل الجحود وإنكارهم الحق مع يقينهم بـه ومثله الفعل بالعناية فإن سقوط الواقف على جذع عال ، منه على الأرض بمجرد تصوّر السقوط لا يمنع عنه علمه بأن في السقوط هلاكه القطعي .

وقد أجاب بعضهم عن أصل الإشكال بأن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام

تكاليف خاصة بكل واحد منهم فعليهم أن يقتحموا هذه المهالك وإن كان ذلك منا إلقاء النفس في التهلكة وهو حرام ، واليه إشارة في بعض الأخبار .

وأجاب بعضهم عنه بأن الذي ينجز التكاليف من العلم هو العلم من الطرق العادية وأما غيره فليس بمنجز ، ويمكن توجيه الوجهين بما يرجع إلى ما تقدم .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » الخ ، ضمائر « كان » و « به » و « مثله » على ما يعطيه السياق للقرآن ، وقوله : « وشهد شاهد من بني إسرائيل » الخ ، معطوف على الشرط ويشاركه في الجزاء ، والمراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه في المعارف الإلهية وهو كتاب التوراة الأصلية التي نزلت على موسى عليه‌السلام ، وقوله : « فآمن واستكبرتم » أي فآمن الشاهد الإسرائيلي المذكور بعد شهادته .

وقوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » تعليل للجزاء المحذوف دال عليه ، والظاهر أنه ألستم ضالين لا ما قيل : إنه ألستم ظلمتم لأن التعليل بعدم هداية الله الظالمين إنما يلائم ضلالهم لا ظلمهم وإن كانوا متصفين بالوصفين جميعاً .

والمعنى : قل للمشركين : أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله والحال أنكم كفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما في القرآن من المعارف فآمن هو واستكبرتم أنتم ألستم في ضلال ؟ فإن الله لا يهدي القوم الظالمين .

والذي شهد على مثله فآمن على ما في بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود ، والآية على هذا مدنية لا مكية لأنه ممن آمن بالمدينة ، وقول بعضهم : من الجائز أن يكون التعبير بالماضي في قوله: « وشهد شاهد من بني إسرائيل فآمن » لتحقق الوقوع والقصة واقعة في المستقبل سخيف لأنه لا يلائم كون الآية في سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم صدقه فيما يخبرهم به من الامور المستقبلة .

وفي معنى الآية أقوال أخر منها أن المراد ممن شهد على مثله فآمن هو موسى عليه‌السلام شهد على التوراة فآمن به وإنما عدلوا عن المعنى السابق إلى هذا المعنى للبناء على كون الآية مكية ، وأنه إنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة .

وفيه أولاً : عدم الدليل على كون الآية مكية ولتكن القصة دليلاً على كونها مدنية ، وثانياً : بعد أن يجعل موسى الكليم عليه‌السلام قريناً لهؤلاء المشركين الأجلاف

يقاسون به فيقال ما محصله: إن موسى عليه السلام آمن بالكتاب النازل عليه وأنتم استكبرتم عن الإيمان بالقرآن فسخافته ظاهرة .

ومما قيل أن المثل في الآية بمعنى نفس الشيء كما قيل في قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » الشورى : ١١ ، وهو في البعد كسابقه .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه » إلى آخر الآية قيل : اللام في قوله : « للذين آمنوا » للتعليل أي لأجل إيمانهم ويؤل إلى معنى في ، وضمير « كان » و « اليه » للقرآن من جهة الإيمان به .

والمعنى : وقال الذين كفروا في الذين آمنوا – أي لأجل إيمانهم – : لو كان الإيمان بالقرآن خيراً ما سبقونا – أي المؤمنون – اليه .

وقال بعضهم : إن المراد بالذين آمنوا بعض المؤمنين وبالضمير العائد اليه في قوله : « سبقونا » البعض الآخر ، واللام متعلق بقال والمعنى: وقال الذين كفروا لبعض المؤمنين لو كان خيراً ما سبقنا البعض من المؤمنين وهم الغائبون اليه ، وفيه أنه بعيد من سياق الآية .

وقال آخرون : إن المراد بالذين آمنوا المؤمنون جميعاً لكن في قوله : ما سبقونا التفاتاً والأصل ما سبقتمونا وهو في البعد كسابقه وليس خطاب الحاضرين بصيغة الغيبة من الالتفات في شيء .

وقوله : « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » ضمير « به » للقرآن وكذا الإشارة بهذا اليه والإفك الافتراء أي وإذ لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن الإيمان به فسيقولون أي الذين كفروا هذا أي القرآن إفك وافتراء قديم ، وقولهم : هذا إفك قديم كقولهم : أساطير الأولين .

قوله تعالى : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً » الخ ، الظاهر أن قوله : « ومن قبله » الخ ، جملة حالية والمعنى : فسيقولون هذا إفك قديم والحال أن كتاب موسى حال كونه إماماً ورحمة قبله أي قبل القرآن، وهذا القرآن كتاب مصدق له حال كونه لساناً عربياً ليكون منذراً للذين ظلموا وهو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكاً ؟

وكون التوراة إماماً ورحمة هو كونها بحيث يقتدي بها بنو إسرائيل ويتبعونها في أعمالهم ورحمة للذين آمنوا بها واتبعوها في إصلاح نفوسهم .

قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » إلى آخر الآية المراد بقولهم ربنا الله إقرارهم وشهادتهم بانحصار الربوبية في الله سبحانه وتوحده فيها، وباستقامتهم ثباتهم على ما شهدوا به من غير زيغ وانحراف والتزامهم بلوازمه العملية .

وقوله : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أي ليس قبالهم مكروه محتمل يخافونه من عقاب محتمل ، ولا مكروه محقق يحزنون به من عقاب أو هول ، فالخوف إنما يكون من مكروه ممكن الوقوع ، والحزن من مكروه محقق الوقوع ، والفاء في قوله : « فلا خوف » الخ ، لتوهم معنى الشرط فإن الكلام في معنى من قال ربنا الله ثم استقام فلا خوف الخ .

قوله تعالى : « أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » المراد بصحابة الجنة ملازمتها ، وقوله : « خالدين فيها » حال مؤكدة لمعنى الصحابة .

والمعنى : اولئك الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ملازمون للجنة حال كونهم خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من الطاعات والقربات .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أبي عبيدة قال: سألت أبا جعفر عليه‌السلام عن قول الله تعالى: « ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » قال : عنى بالكتاب التوراة والإنجيل « وأثارة من علم » فإنما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمان عن ابن عباس عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم « أو أثارة من علم» قال : الخط .

أقول : لعل المراد بالخط كتاب مخطوط موروث من الأنبياء أو العلماء الماضين لكن في بعض ما روي في تفسير قوله : « أو أثارة من علم » أنه حسن الخط وفي بعض اخر أنه جودة الخط وهو أجنبي من سياق الاحتجاج الذي في الآية .

وفي العيون في باب مجلس الرضا مع المأمون عنه عليه السلام حدثني أبي عن جدي عن ابائه عن الحسين بن علي عليهم السلام قال : اجتمع المهاجرون والأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : إن لك يا رسول الله مؤنة في نفقتك وفيمن يأتيك من الوفود ، وهذه أموالنا مع دمائنا فاحكم فيها باراً مأجوراً أعط ما شئت واحكم ما شئت من غير حرج .

قال: فأنزل الله تعالى اليه الروح الأمين فقال: يا محمد « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى » يعني أن تودّوا قرابتي من بعدي ، فخرجوا فقال المنافقون : ما حمل رسول الله على ترك ما عرضنا عليه إلا ليحثنا على قرابته من بعده ، وإن هو إلا شيء افتراه في مجلسه وكان ذلك من قولهم عظيما .

فأنزل الله عز وجل هذه الآية « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم » فبعث اليهم النبي صلى الله عليه وآله فقال : هل من حدث ؟ فقالوا : إي والله يا رسول الله لقد قال بعضنا كلاماً غليظاً كرهناه فتلا عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله الآية فبكوا واشتدّ بكاؤهم فأنزل الله تعالى : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » .

وفي الدر المنثور أخرج أبو داود في ناسخه من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » قال : نسختها هذه [1] الآية التي في الفتح فخرج إلى الناس فبشّرهم بالذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

فقال رجل من المؤمنين : هنيئاً لك يا نبي الله قد علمنا الآن ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله في سورة الأحزاب « وبشّر المؤمنين والمؤمنات بأن لهم من الله فضلاً كبيراً » ، وقال : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفّر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » فبيّن الله ما به يفعل وبهم .

أقول : الرواية لا تخلو من شيء :

---

(١) يريد قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » الفتح : ٢ .

أما أولاً : فلما تقدم بيانه في تفسير الآية أعني قوله : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » أنهـا أجنبية عن العلم بالغيب الذي هو من طريق الوحي بدلالة صريحة من القرآن فلا ينفي بها العلم بالمغفرة من طريق الوحي حتى تنسخها آية سورة الفتح .

وأما ثانياً : فلأن ظاهر الرواية أن الذنب الذي تصرّح بمغفرته آية سورة الفتح هو الذنب بمعنى مخالفة الأمر والنهي المولويين وسيأتي في تفسير سورة الفتح – إن شاء الله تعالى – أن الذنب في الآية لغير هذا المعنى .

وأما ثالثاً : فلأن الآيات الدالة على دخول المؤمنين الجنـة كثيرة جداً في مكية السور ومدنيتها ولا تدلّ آيتا سورة الأحزاب على أزيد ممـا يدلّ عليه سائر الآيات فلا وجه لتخصيصها بالدلالة على دخول المؤمنين الجنة وشمول المغفرة لهم .

على أن سورة الأحزاب نازلة قبل سورة الفتح بزمان .

وفيه أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبراني والحـاكم وصححه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال : انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا على كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد فثلّث فلم يجبه أحد فقال: أبيتم فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفي آمنتم أو كذبتم .

ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه فقـال : كما أنت يا محمد، فأقبل فقال ذلك الرجل : أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود ؟ فقالوا : والله لا نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك ، فقال: إني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل، قالوا : كذبت ثم ردّوا عليه وقالوا شراً ، فقال رسول الله ﷺ : كذبتم لن يقبل منكم قولكم .

فخرجنا ونحن ثلاث : رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام فأنزل الله : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

أقول : وفي نزول الآية في عبد الله بن سلام روايات اخرى من طرق أهل السنة

غير هذه الرواية ، وسياق الآية وخاصة قوله : « من بني إسرائيل » لا يلائم كون الخطاب فيها لبني إسرائيل ، وقد عدّ الإنجيل في الرواية من كتبهم وليس من كتبهم واليهود لا يصدّقونه .

وفي بعض الروايات أن الآية نزلت في ابن يامين من علمائهم حين شهد وأسلم فكذبته اليهود ، والإشكال السابق على حاله .

* * *

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ــ ١٥ . أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ــ ١٦ . وَٱلَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ــ ١٧ . أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ــ ١٨ . وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ــ ١٩ . وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ

طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ـ ٢٠.

(بيان)

لما قسّم النـــاس في قوله : « لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » إلى ظالمين ومحسنين وأشير فيه إلى أن للظالمين ما يخاف ويحذر وللمحسنين ما يسرّ الإنسان ويبشر به عقّب ذلك في هذا الفصل من الآيات بتفصيل القول فيه، وأن الناس بين قوم تائبين إلى الله مسلمين له وهم الذين يتقبل أحسن أعمالهم ويتجـــاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وقوم خاسرين حقّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس .

ومثّل الطائفة الاولى بمن كان مؤمناً بالله مسلماً له بارّاً بوالديه يسأل الله أن يلهمه الشكر على ما أنعم عليه وعلى والديه والعمل الصالح وإصلاح ذرّيته ، والطائفة الثانية بمن كان عاقّاً لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر فيزجرهما ويعدّ ذلك من أساطير الأولين .

قوله تعالى : « ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً » إلى آخر الآية، الوصية على ما ذكره الراغب هو التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ والتوصية تفعيل من الوصية قال تعالى :« ووصّى بها إبراهيم بنيه » البقرة : ١٣٢ ، فمفعوله الثاني الذي يتعدى اليه بالباء من قبيل الأفعـــال ، فالمراد بالتوصية بالوالدين التوصية بعمل يتعلق بهما وهو الإحسان اليهما .

وعلى هذا فتقدير الكلام : ووصّينا الإنسان بوالديه أن يحسن اليهما إحساناً .

وفي إعراب « إحساناً » أقوال أخر كقول بعضهم : إنه مفعول مطلق على تضمين « وصينا » معنى أحسنّا ، والتقـدير : وصينا الإنسان محسنين اليهما إحساناً ، وقول بعضهم : إنه صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أي إيصاءً ذا إحسان، وقول بعضهم : هو مفعول له ، والتقدير : وصيناه بهما لإحساننا اليهما ، إلى غير ذلك مما قيل .

وكيف كان فبرّ الوالدين والإحسان اليهما من الأحكام العـامة المشرعة في جميع

الشرائع كما تقدم في تفسير قوله تعالى : « قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً» الأنعام: ١٥١ ، ولذلك قال: « ووصينا الإنسان » فعمّمه لكل إنسان .

ثم عقّبه سبحانه بالإشارة إلى ما قاسته امه في حمله ووضعه وفصاله إشعاراً بملاك الحكم وتهييجاً لعواطفه وإثارة لغريزة رحمته ورأفته فقال: «حملته امه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » أي حملته امه حملاً ذا كره أي مشقة وذلك لما في حمله من الثقل ، ووضعته وضعاً ذا كره وذلك لما عنده من ألم الطلق .

وأما قوله : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » فقد اخذ فيه أقل مدة الحمل وهو ستة أشهر ، والحولان الباقيان إلى تمام ثلاثين شهراً مدة الرضاع ،قال تعالى: «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » البقرة : ٢٣٣ ، وقال : « وفصاله في عامين » لقمان : ١٤ .

والفصال التفريق بين الصبي وبين الرضاع ، وجعل العامين ظرفاً للفصال بعناية أنه في آخر الرضاع ولا يتحقق إلا بانقضاء عامين .

وقوله : « حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة » بلوغ الأشد بلوغ زمان من العمر تشتد فيه قوى الإنسان ، وقد مرّ نقل اختلافهم في معنى بلوغ الأشد في تفسير قوله: « ولما بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً » يوسف : ٢٢ ، وبلوغ الأربعين ملازم عادة لكمال العقل .

وقوله : « قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه » الإيزاع الإلهام ، وهذا الإلهام ليس بإلهام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما في قوله: « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ ، بل هو إلهام عملي بمعنى البعث والدعوة الباطنية إلى فعل الخير وشكر النعمة وبالجملة العمل الصالح .

وقد أطلق النعمة التي سأل إلهام الشكر عليها فتعمّ النعم الظاهرية كالحياة والرزق والشعور والإرادة ، والباطنية كالإيمان بالله والإسلام والخشوع له والتوكل عليه والتفويض اليه ففي قوله: « رب أوزعني أن أشكر نعمتك» الخ، سؤال أن يلهمه الثناء عليه بإظهار نعمته قولاً وفعلا : أما قولاً فظاهر ، وأما فعلاً فباستعمال هذه النعم

استعمالاً يظهر بــه أنها لله سبحانه أنعم بها عليه وليست له من قبل نفسه ولازمه ظهور العبودية والمملوكية من هذا الإنسان في قوله وفعله جميعاً .

وتفسير النعمة بقوله : « التي أنعمت عليّ وعلى والديّ » يفيد شكره من قبل نفسه على ما اختص به من النعمة ومن قبل والديه فيما أنعم بــه عليهما فهو لسان ذاكر لهما بعدهما .

وقوله : « وأن أعمل صالحاً ترضاه » عطف على قوله : « أن أشكر » الخ ، سؤال متمم لسؤال الشكر على النعم فإن الشكر يحلي ظاهر الأعمال ، والصلاحية التي يرتضيها الله تعالى تحلّى باطنها وتخلّصها له تعالى .

وقوله : « وأصلح لي في ذريتي » الإصلاح في الذرية إيجاد الصلاح فيهم وهو من الله سبحانه توفيقهم للعمل الصالح وينجرّ الى إصلاح نفوسهم ، وتقييد الإصلاح بقوله : «لي» للدلالة على أن يكون إصلاحهم بنحو ينتفع هو به أي أن يكون ذريته له في برّه وإحسانه كما كان هو لوالديه .

ومحصّل الدعاء سؤال أن يلهمه الله شكر نعمته وصالح العمل وأن يكون بارّاً محسناً بوالديه ويكون ذريته له كما كان هو لوالديه ، وقد تقدّم [1] غير مرّة أن شكر نعمه تعالى بحقيقة معناه هو كون العبد خالصاً لله فيؤل معنى الدعــاء إلى سؤال خلوص النفس وصلاح العمل .

وقوله: « إني تبت إليك وإني من المسلمين » أي الذين يسلمون الأمر لك فلا تريد شيئاً إلا أرادوه بل لا يريدون إلا ما أردت .

والجملة في مقام التعليل لما يتضمنه الدعاء من المطالب ، ويتبين بالآية حيث ذكر الدعاء ولم يردّه بل أيّده بما وعد في قوله:« اولئك الذين نتقبّل عنهم » الخ، أن التوبة والإسلام لله سبحانه إذا اجتمعا في العبد استعقب ذلك إلهامه تعالى بمــا يصير به العبد من المخلصين – بفتح اللام – ذاتاً والمخلصين – بكسر اللام – عملاً أما إخلاص الذات فقد تقدمت الإشارة اليه آنفاً ، وأما إخلاص العمل فلأن العمل لا يكون صالحاً لقبوله

---

(١) تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران والآية ١٧ من سورة الآعراف .

تعالى مرفوعاً اليه إلا إذا كان خالصاً لوجهه الكريم ، قال تعالى : « ألا لله الدين الخالص » الزمر : ٣ .

قوله تعالى : « اولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة » الخ ، التقبل أبلغ من القبول ، والمراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات والمندوبات فإنها هي المقبولة المتقبلة وأما المباحات فإنها وإن كانت ذات حسن لكنها ليست بمتقبلة ، كذا ذكر في مجمع البيان وهو تفسير حسن ويؤيده مقابلة تقبّل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السيئات فكأنه قيل : إن أعمالهم طاعات من الواجبات والمندوبات وهي أحسن أعمالهم فنتقبلها وسيئات فنتجاوز عنها وما ليس بطاعة ولا حسنة فلا شأن له من قبول وغيره .

وقوله : « في أصحاب الجنة » متعلق بقوله : « نتجاوز » أي نتجاوز عن سيئاتهم في جملة من نتجاوز عن سيئاتهم من أصحاب الجنة ، فهو حال من ضمير «عنهم».

وقوله : « وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » أي يعدهم الله بهذا الكلام وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه الى هذا الحين بلسان الأنبياء والرسل ، أو المراد أنه ينجّز لهم بهذا التقبل والتجاوز يوم القيامة وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه في الدنيا .

قوله تعالى : « والذي قال لوالديه أفّ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي» لما ذكر الإنسان الذي تاب إلىالله وأسلم له وسأله الخلوص والإخلاص وبرّ والديه وإصلاح أولاده له قابله بهذا الإنسانالذي يكفر بالله ورسولهوالمعاد ويعقّ والديه إذا دعواه إلى الإيمان وأنذراه بالمعاد .

فقوله : « والذي قال لوالديه أفّ لكما » الظاهر أنه مبتدء في معنى الجمع وخبره قوله بعد : «أولئك الذين» الخ ، و «أفّ» كلمة تبرّم يقصد بها إظهار التسخط والتوجع و « أتعدانني أن أخرج » الإستفهام للتوبيخ، والمعنى: أتعدانني أن أُخرج من قبري فاحيا وأُحضر للحساب أي أتعدانني المعاد « وقد خلت القرون من قبلي » أي والحال أنه هلكت امم الماضون العائشون من قبلي ولم يُحي منهم أحد ولا بُعث .

وهذا على زعمهم حجة على نفي المعاد وتقريره أنه لو كان هناك إحياء وبعث لاحيى بعض من هلك إلى هذا الحين وهم فوق حد الإحصاء عدداً في أزمنة طويلة لا

أمد لها ولا خبر عنهم ولا أثر ولم يتنبهوا أن القرون السالفة لو عادوا كما يقولون كان ذلك بعثاً لهم وإحياء في الدنيا والذي وعده الله سبحانه هو البعث للحياة الآخرة والقيام لنشأة اخرى غير الدنيا .

وقوله :«وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق»الاستغاثة طلب الغوث من الله أي والحال أن والديه يطلبان من الله أن يغيثهما ويعينهما على إقامة الحجة واستمالته إلى الإيمان ويقولان له : ويلك آمن بالله وبما جاء به رسوله ومنه وعده تعالى بالمعاد إن وعد الله بالمعاد من طريق رسله حق .

ومنه يظهر أن مرادهما بقولهما : « آمن » هو الأمر بالإيمان بالله ورسوله فيما جاء به من عند الله ، وقولهما : « إن وعد الله حق » المراد به المعاد ، وتعليل الأمر بالإيمان به لغرض الانذار والتخويف .

وقوله : « فيقول ما هـذا إلا أساطير الأولين » الإشارة بهذا إلى الوعد الذي ذكراه وأنذراه به أو بمجموع ما كانا يدعوانه اليه والمعنى : فيقول هذا الإنسان لوالديه ليس هذا الوعد الذي تنذرانني به أو ليس هـذا الذي تدعوانني اليه إلا خرافات الأولين وهم الامم الأولية الهمجية .

قوله تعالى : « أُولئك الذين حق عليهم القول » الخ ، تقدم بعض الكلام فيه في تفسير الآية ٢٥ من سورة حم السجدة .

قوله تعالى :« ولكل درجات مما عملوا » إلى آخر الآية أي لكل من المذكورين وهم المؤمنون البررة والكافرون الفجرة منازل ومراتب مختلفة صعوداً وحدوراً فللجنة درجات وللنار دركات .

ويعود هذا الاختلاف إلى اختلافهم في أنفسهم وإن كان ظهوره في أعمالهم ولذلك قال : « لهم درجات مما عملوا » فالدرجات لهم ومنشأها أعمالهم .

وقوله : « وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » اللام للغاية والجملة معطوفة على غاية أو غايات اخرى محذوفة لم يتعلق بذكرها غرض ، وإنما جعلت غاية لقوله : « هم درجات » لأنه في معنى وجعلناهم درجات ، والمعنى : جعلناهم درجات لكذا و كذا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون .

ومعنى توفيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فالآية من الآيات الدالة على تجسم الأعمال، وقيل : الكلام على تقدير مضاف والتقدير وليوفيهم اجور أعمالهم .

قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار » الخ ، عرض الماء على الدابة وللدابة وضعه بمرئى منها بحيث إن شاءت شربته ، وعرض المتاع على البيع وضعه موضعاً لا مانع من وقوع البيع عليه .

وقوله : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار » قيل : المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم : عرض فلان على السيف إذا قتل وهو مجاز شائع .

وفيه أن قوله في آخر السورة « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب » لا يلائمه تلك الملاءمة حيث فرع ذوق العذاب على العرض فهو غيره .

وقيل : إن في الآية قلباً والأصل عرض النار على الذين كفروا لأن من الواجب في تحقق معنى العرض أن يكون في المعروض عليه شعور بالمعروض والنار لا شعور لها بالذين كفروا بل الأمر بالعكس ففي الكلام قلب، والمراد عرض النار على الذين كفروا.

ووجهه بعض المفسرين بأن المناسب أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه كما في قولنا : عرضت الماء على الدابة وعرضت الطعام على الضيف ، ولما كان الأمر في عرض النار على الذين كفروا بالعكس فإنهم هم المسيرون إلى النار فقلب الكلام رعاية لهذا الاعتبار .

وفيه نظر أما ما ذكر من أن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور وإدراك بالمعروض حتى يرغب اليه أو يرغب عنه والنار لا شعور لها ففيه أولاً : أنه ممنوع كما يؤيده قولهم : عرضت المتاع على البيع ، وقوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال » الأحزاب : ٧٢ ، وثانياً : أنا لا نسلم خلو نار الآخرة عن الشعور ، ففي الأخبار الصحيحة أن للجنة والنار شعوراً ويشعر به قوله : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد » ق : ٣٠ ، وغيره من الآيات .

وأما ما قيل من أن المناسب تحريك المعروض إلى المعروض عليه فلا نسلم لزومه ولا اطراده فهو منقوض بقوله : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض » الآية ، الأحزاب : ٧٢ .

على أن في كلامه تعالى ما يدل على الإتيان بالنار إلى الذين كفروا كقوله: وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى » الفجر : ٢٣ .

فالحق أن العرض وهو إظهار عـدم المانع من تلبس شيء بشيء معنى له نسبة إلى الجانبين يمكن أخذ كل منهما أصلاً معروضاً عليه والآخر فرعاً معروضاً فتارة تؤخذ النار معروضة على الكافرين بعناية أن لا مانع من عمل صالح أو شفاعة تمنع من دخولهم فيها كقوله تعالى : « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً » الكهف : ١٠٠ ، وتارة يؤخذ الكفار معروضين للنـار بعناية أن لا مانع يمنع النار أن تعذبهم ، كما في قوله : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » المؤمن : ٣٦ ، وقوله : « يعرض الذين كفروا على النار » الآية .

وعلى هذا فالأشبه تحقق عرضين يوم القيامة : عرض جهنم للكافرين حين تبرز لهم ثم عرضهم على جهنم بعد الحساب والقضاء الفصل بدخولهم فيها حين يساقون اليها، قال تعالى : « وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً » الزمر : ٧١ .

وقوله : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » على تقدير القول أي يقال لهم : « أذهبتم » الخ ، والطيبات الامور التي تلائم النفس وتوافق الطبع ويستلذ بها الإنسان ، وإذهاب الطيبات إنفادها بالاستيفاء لها ، والمراد بالاستمتاع بها استعمالها والانتفاع بها لنفسها لا للآخرة والتهيؤ لها .

والمعنى : يقال لهم حين عرضهم على النار : أنفذتم الطيبات التي تلتذون بها في حياتكم الدنيا واستمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شيء تلتذون به في الآخرة .

وقوله: « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » تفريع على إذهابهم الطيبات ، وعذاب الهون العذاب الذي فيه الهوان والخزي .

والمعنى : فاليوم تجزون العذاب الذي فيه الهوان والخزي قبـال استكباركم في الدنيا عن الحق وقبال فسقكم وتوليكم عن الطاعات ، وهمـا ذنبان أحدهمـا متعلق بالاعتقاد وهو الاستكبار عن الحق والثاني متعلق بالعمل وهو الفسق .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق قتادة عن أبي حرب بن أبي الأسود الدئلي قال : رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر فسأل عنها أصحاب النبي فقال علي: لا رجم عليها ألا ترى أنه يقول : وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، وقال : وفصاله في عامين ، وكان الحمل ههنا ستة أشهر فتركها عمر . قال : ثم بلغنا أنها ولدت آخر لستة أشهر .

أقول : وروى القصة المفيد في الإرشاد .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد الله الجهني قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له تماماً لستة أشهر فانطلق زوجها الى عثمان بن عفان فأمر برجمها فبلغ ذلك علياً فأتاه فقال : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ قال علي : أما سمعت الله تعالى يقول:وحمله وفصاله ثلاثون شهراً وقال: حولين كاملين فكم تجده بقي إلا ستة أشهر ؟

فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا . عليّ بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها ، وكان من قولها لاختها : لا تحزني فوالله ما كشف فرجي أحد قط غيره . قال : فشب الغلام بعد فاعترف الرجل به وكان أشبه الناس به. قال : فرأيت الرجل بعد يتساقط عضواً عضواً على فراشه .

وفي التهذيب بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : سأله أبي وأنا حاضر عن قول الله عز وجل : « حتى إذا بلغ أشدّه » قال : الاحتلام .

وفي الخصال عن أبي بصير قال : قال أبو عبد الله عليه‌السلام : إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشده، وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه، فإذا طعن في إحدى وأربعين فهو في النقصان ، وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع .

أقول: لا تخلو الرواية من إشعار بكون بلوغ الأشد مما يختلف بالمراتب فيكون الاحتلام وهو غالباً في الست عشرة أول مرتبة منها والثلاث والثلاثين وهي بعد مضيّ ست عشرة اخرى المرتبة الثانية ، وقد تقدم في نظيرة الآية من سورة يوسف بعض أخبار أخر .

واعلم أنه قد وردت في الآية أخبار تطبقها على الحسين بن علي عليه السلام وولادته لستة أشهر وهي من الجري .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال : إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: إن الله قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : أهرقلية ؟ إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده .

فقال مروان : ألست الذي قال لوالديه: أفّ لكما ؟ فقال عبد الرحمن: ألست ابن اللعين الذي لعن أباك رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟

قال : وسمعتها عائشة فقالت : يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ؟ كذبت والله ما فيه نزلت . نزلت في فلان بن فلان .

وفيه أخرج ابن جرير عن ابن عباس في الذي قال لوالديه اف لكما الآية ، قال : هذا ابن لأبي بكر .

أقول : وروي ذلك أيضاً عن قتادة والسدّي ، وقصة رواية مروان وتكذيب عائشة له مشهورة . قال في روح المعاني بعد رد رواية مروان: ووافق بعضهم كالسهيلي في الأعلام مروان في زعم نزولها في عبد الرحمن ، وعلى تسليم ذلك لا معنى للتعيير لا سيما من مروان فإن الرجل أسلم وكان من أفاضل الصحابة وأبطالهم ، وكان له في الاسلام عناء يوم اليمامة وغيره ، والاسلام يجبّ ما قبله فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يعيَّر بما كان يقول . انتهى .

وفيه أن الروايات لو صحّت لم يكن مناص عن صريح شهادة الآية عليه بقوله: « اولئك الذين حقّ عليهم القول – إلى قوله – إنهم كانوا خاسرين » ولم ينفع شيء مما دافع عنه به .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا – إلى قوله – واستمتعتم بها » قال : أكلتم وشربتم وركبتم ، وهي في بني فلان « فاليوم تجزون عذاب الهون » قال : العطش .

وفي المحاسن بإسناده عن ابن القدّاح عن أبي عبدالله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام

قال : أُتي يعني النبي ﷺ بخبيص[1] فأبى أن يأكله فقيل : أتحرّمه ؟ فقال : لا ولكني أكره أن تتوق اليه نفسي ثم تلا الآية « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » .

وفي المجمع في الآية وقد روي في الحديث أن عمر بن الخطاب قال : استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة ام ابراهيم وإنه لمضطجع على حفصة وإن بعضه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوّة ليفاً فسلمت عليه ثم جلست فقلت : يا رسول الله أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه وكسرى وقيصر على سرير الذهب وفرش الحرير والديباج ! فقال رسول الله ﷺ : اولئك قوم عجّلت طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع ، وإنما أُخّرت لنا طيباتنا .

أقول : ورواه في الدر المنثور بطرق عنه .

* * *

وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ــ ٢١ . قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ــ ٢٢ . قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ــ ٢٣ . فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ــ ٢٤ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا

---

(١) نوع من الحلواء .

لاَ يُرىٰ إلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ـ ٢٥ . وَلَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ـ ٢٦ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْقُرىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ـ ٢٧. فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذٰلِكَ إفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ ـ ٢٨ .

(بيان)

لما قسّم الناس على قسمين وانتهى الكلام إلى الإنذار عقب ذلك بالإشارة إلى قصتين قصة قوم عاد وهلاكهم ومعها الإشارة إلى هلاك القرى التي حول مكة وقصة إيمان قوم من الجن صرفهم الله إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاستمعوا القرآن فآمنوا ورجعوا إلى قومهم منذرين وإنما أورد القصتين ليعتبر بهما من شاء أن يعتبر منهم ، وهذه الآيات المنقولة تتضمن أولى القصتين .

قوله تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » الخ ، أخو القوم هو المنسوب اليهم من جهة الأب ، والمراد بأخي عاد هود النبي عليه السلام ، والأحقاف مسكن قوم عاد والمتيقن أنه في جنوب جزيرة العرب ولا أثر اليوم باقياً منهم ، واختلفوا أين هو ؟ فقيل : واد بين عمان ومهرة ، وقيل رمال بين عمان إلى حضرموت ، وقيل : رمال مشرفة على البحر بالشّحر من أرض اليمن وقيل غير ذلك .

وقوله : « وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » النذر جمع نذير والمراد به الرسول على ما يفيده السياق ، وأما تعميم بعضهم النذر للرسل ونوابهم من العلماء ففي غير محله .

وفسروا « من بين يديه » بالذين كانوا قبله و « من خلفه » بالذين جاؤا بعده ويمكن العكس بأن يكون المراد بالنذر بين يديه من كانوا في زمانه ، ومن خلفه من كان قبله ، والأولى على الأول أن يكون المراد بخلو النذر من بين يديه ومن خلفه أن يكون كناية عن مجيئه اليهم وإنذاره لهم على فترة من الرسل .

وقوله : « أن لا تعبدوا إلا الله » تفسير للإنذار وفيه إشارة إلى أن أساس دينه الذي يرجع اليه تفاصيله هو التوحيد .

وقوله : « إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » تعليل لدعوتهم إلى التوحيد ، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم عذاب الاستئصال لا يوم القيامة يدل على ذلك ما سيأتي من قولهم : « فائتنا بما تعدنا » وقوله :« بل هو ما استعجلتم به » والباقي ظاهر.

قوله تعالى : « قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا » الخ ، جواب القوم له قبال إنذاره ، وقوله : « لتأفكنا عن آلهتنا » بتضمين الإفك وهو الكذب والفرية معنى الصرف والمعنى : قالوا أجئتنا لتصرفنا عن آلهتنا إفكاً وافتراء .

وقوله : «فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين» أمر تعجيزي منهم له زعماً منهم أنه عليه السلام كاذب في دعواته آفك في إنذاره .

قوله تعالى : « قال إنما العلم عند الله وأبلّغكم ما أرسلت به » الخ ، جواب هود عن قولهم رداً عليهم ، فقوله : « إنما العلم عند الله » قصر العلم بنزول العذاب فيه تعالى لأنه من الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله جل شأنه ، وهو كناية عن أنه عليه السلام لا علم له بأنه ما هو ؟ ولا كيف هو ؟ ولا متى هو ؟ ولذلك عقّبه بقوله : « وأبلغكم ما أرسلت به» أي إن الذي حمّلته وأرسلت به اليكم هو الذي أبلّغكموه ولا علم لي بالعذاب الذي أمرت بإنذاركم به ما هو ؟ وكيف هو ؟ ومتى هو ؟ ولا قدرة لي عليه .

وقوله : « ولكني أراكم قوماً تجهلون » إضراب عما يدل عليه الكلام من نفيه العلم عن نفسه ، والمعنى : لا علم لي بما تستعجلون به من العذاب ولكني أراكم قوماً

تجهلون فلا تميّزون ما ينفعكم مما يضركم وخيركم من شركم حين تردون دعوة الله وتكذبون بآياته وتستهزؤن بما يوعدكم به من العذاب .

قوله تعالى : «فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا» الخ ، صفة نزول العذاب اليهم بادىء ظهوره عليهم .

والعارض هو السحاب يعرض في الافق ثم يطبق السماء وهو صفة العذاب الذي يرجع اليه ضمير « رأوه » المعلوم من السياق ، وقوله : «مستقبل أوديتهم» صفة اخرى له ، والأودية جمع الوادي ، وقوله : « قالوا هـذا عارض ممطرنا » أي استبشروا ظناً منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا : هذا الذي نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا.

وقوله : « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » رد لقولهم : « هـــذا عارض ممطرنا» بالإضراب عنه إلى بيان الحقيقة فبيّن أولاً على طريق التهكم أنه العذاب الذي استعجلتم به حين قلتم : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » وزاد في البيان ثانياً بقوله : « ريح فيها عذاب أليم » .

والكلام من كلامه تعالى وقيل : هو كلام لهود النبي عليه السلام .

قوله تعالى : « تدمّر كل شيء بإذن ربها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين» التدمير الإهلاك ، وتعلقه بكل شيء وإن كان يفيد عموم التدمير لكن السياق يخصصه بنحو الإنسان والدواب والأموال ، فالمعنى : إن تلك الريح ريح تهلك كل ما مرّت عليه من إنسان ودواب وأموال .

وقوله : « فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم » بيان لنتيجة نزول العذاب ، وقوله: « كذلك نجزي القوم المجرمين » إعطاء ضابط كلي في مجازاة المجرمين بتشبيه الكلي بالفرد الممثل به والتشبيه في الشدة أي إن سنتنا في جزاء المجرمين على هذا النحو الذي قصصناه من الشدة فهو كقوله تعالى : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد » هود : ١٠٢ .

قوله تعالى : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه » الخ ، موعظة لكفار مكة مستنتجة من القصة .

والتمكين إقرار الشيء وإثباته في المكان ، وهو كنـاية عن إعطاء القدرة والإستطاعة في التصرف و « ما » في « فيما » موصولة أو موصوفة و « إن » نافية ، والمعنى: ولقد جعلنا قوم هود في الذي - أو في شيء - ما مكناكم معشر كفار مكة ومن يتلوكم فيه من بسطة الأجسام وقوة الأبدان والبطش الشديد والقدرة القومية .

وقوله : « وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة » أي جهّزناهم بما يدركون به ما ينفعهم وما يضرهم وهو السمع والأبصار وما يميزون به ما ينفعهم مما يضرهم فيحتالون لجلب النفع ولدفع الضر بما قدروا كما أن لكم ذلك .

وقوله : « فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله » ما في « فما أغنى » نافية لا استفهامية ، و « إذ » ظرف متعلق بالنفي الذي في قوله : « فما أغنى » .

ومحصل المعنى : أنهم كانوا من التمكن على ما ليس لكم ذلك وكان لهم من أدوات الإدراك والتمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكاره والإتقاء من الحوادث المهلكة المبيدة لكن لم يغن عنهم ولم ينفعهم هذه المشاعر والأفئدة شيئاً عند ما جحدوا آيات الله فما الذي يؤمّنكم من عذاب الله وأنتم جاحدون لآيات الله .

وقيل : معنى الآية : ولقـد مكّناهم في الذي أو في شيء ما مكّناكم فيه من القوة والاستطاعة وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ليستعملوها فيما خلقت له ويسمعوا كلمة الحق ويشاهدوا آيات التوحيـد ويعتبروا بالتفكر في العبر ، ويستدلوا بالتعقل الصحيح على المبدء والمعاد فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء حيث لم يستعملوها فيما يوصل إلى معرفة الله سبحانه ، هـذا ولعل الذي قدمناه من المعنى أنسب للسياق .

وقد جوّزوا في مفردات الآية وجوهاً لم نوردها لعدم جدوى فيها .

وقد تقدم في نظائر قوله :« سمعاً وأبصاراً وأفئدة » أن إفراد السمع - والمراد منه الجمع - لمكان مصدريته في الأصل نظير الضيف والقربان والجنب ، قال تعـالى : « ضيف إبراهيم المكرمين » الذاريات: ٢٤ ، وقال : « إذ قرّبا قرباناً » المائدة : ٢٧ ، وقال : « وإن كنتم جنباً » المائدة : ٦ .

وقوله:«وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن» عطف على قوله:«ما أغنى عنهم» الخ .

قوله تعالى : « ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى » تذكرة إنذارية متفرعة على العظة التي في قوله:« ولقد مكّنّاهم» الخ ، فهي معطوفة عليه على ما يفيده السياق لا على قوله : « واذكر أخا عاد » .

وقوله:« وصرّفنا الآيات لعلهم يرجعون» أي وصيّرنا الآيات المختلفة من معجزة أيّدنا بها الأنبياء ووحي أنزلناه عليهم ونِعَم رزقناهموها ليتذكروا بها ونقم ابتليناهم بها ليتوبوا وينصرفوا عن ظلمهم لعلهم يرجعون من عبادة غير الله سبحانه إلى عبادته .

والضمير في « لعلهم يرجعون » راجع إلى القرى والمراد بها أهل القرى .

قوله تعالى : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة » الخ ، ظاهر السياق أن آلهة مفعول ثان لاتخذوا ومفعوله الأول هو الضمير الراجع إلى الموصول و « قرباناً » بمعنى ما يتقرب به ، والكلام مسوق للتهكم ، والمعنى : فلولا نصرهم الذين اتخذوهم آلهة حال كونهم متقرباً بهم إلى الله كما كانوا يقولون : « ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى » .

وقوله : « بل ضلوا عنهم » أي ضلّ الآلهة عن أهل القرى وانقطعت رابطة الالوهية والعبودية التي كانوا يزعمونها ويرجون بذلك أن ينصروهم عند الشدائد والمكاره فالضلال عنهم كناية عن بطلان مزعمتهم .

وقوله : « وذلك إفكهم وما كانوا يفترون » مبتدأ وخبر والإشارة إلى ضلال آلهتهم ، والمراد بالإفك أثر الإفك أو بتقدير مضاف ، و « ما » مصدرية ، والمعنى : وذلك الضلال أثر إفكهم وافترائهم .

ويمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوّز والإشارة إلى إهلاكهم بعد تصريف الآيات وضلال آلهتهم عند ذلك ، ومحصل المعنى : أن هذا الذي ذكرناه من عاقبة أمرهم هو حقيقة زعمهم أن الآلهة يشفعون لهم ويقرّبونهم من الله زعمهم الذي أفكوه وافتروه ، والكلام مسوق للتهكم .

* * *

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ — ٢٩ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ — ٣٠ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ — ٣١. وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ — ٣٢ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ ٱلَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ — ٣٣ . وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ — ٣٤ . فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ — ٣٥ .

(بيان)

هذه هي القصة الثانية عقبت بها قصة عاد ليعتبر بها قومه ﷺ إن اعتبروا ،

وفيه تقريع للقوم حيث كفروا به ﷺ وبكتابه النازل على لغتهم وهم يعلمون أنها آية معجزة وهم مع ذلك يماثلونه في النوعية البشرية وقد آمن الجن بالقرآن إذ استمعوا اليه ورجعوا إلى قومهم منذرين .

قوله تعالى : « وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن » إلى آخر الآية الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة أو من مكان إلى مكان ، والنفر – على ما ذكره الراغب – عدة من الرجال يمكنهم النفر وهو اسم جمع يطلق على ما فوق الثلاثة من الرجال والنساء والإنسان وعلى الجن كما في الآية «ويستمعون القرآن» صفة نفر ، والمعنى: واذكر إذ وجهنا اليك عدة من الجن يستمعون القرآن .

وقوله : « فلما حضروه قالوا انصتوا » ضمير « حضروه » للقرآن بما يلمح اليه من المعنى الحدثي والإنصات السكوت للاستماع أي فلما حضروا قراءة القرآن وتلاوته قالوا أي بعضهم لبعض : اسكتوا حتى نستمع حق الاستماع .

وقوله : « فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين » ضمير « قضي » للقرآن باعتبار قراءته وتلاوته ، والتولية الإنصراف و « منذرين » حال من ضمير الجمع في « ولوا » أي فلما أتمت القراءة وفرغ منها انصرفوا إلى قومهم حال كونهم منذرين مخوفين لهم من عذاب الله .

قوله تعالى : « قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه » الخ ، حكاية دعوتهم قومهم وإنذارهم لهم ، والمراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن ، وفي الكلام إشعار بل دلالة على كونهم مؤمنين بموسى عليه السلام وكتابه ، والمراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراة أو جميع الكتب السماوية السابقة .

وقوله : « يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » أي يهدي من اتبعه إلى صراط الحق وإلى طريق مستقيم لا يضل سالكوه عن الحق في الاعتقاد والعمل .

قوله تعالى : « يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم » المراد بداعي الله هو النبي ﷺ قال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة » يوسف : ١٠٨ ، وقيل : المراد به ما سمعوه من القرآن وهو بعيد.

والظاهر أن «من» في « يغفر لكم من ذنوبكم » للتبعيض ، والمراد مغفرة بعض الذنوب وهي التي اكتسبوها قبل الإيمان ، قال تعالى : « إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » الأنفال : ٣٨ .

وقيل : المراد بهذا البعض حقوق الله سبحانه فإنها مغفورة بالتوبة والإيمان توبة وأما حقوق الناس فإنها غير مغفورة بالتوبة ، ورُدّ بأن الاسلام يجبّ ما قبله .

قوله تعالى : « ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء » الخ ، أي ومن لم يؤمن بداعي الله فليس بمعجز لله في الأرض بردّ دعوته وليس له من دون الله أولياء ينصرونه ويمدّونه في ذلك ، والمحصل : أن من لم يجب داعي الله في دعوته فإنما ظلم نفسه وليس له أن يعجز الله بذلك لا مستقلاً ولا بنصرة من ينصره من الأولياء فليس له أولياء من دون الله ، ولذلك أتمّ الكلام بقوله : « اولئك في ضلال مبين » .

قوله تعالى : « أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعيَ بخلقهن بقادر » الخ ، الآية وما بعدها إلى آخر السورة متصلة بما تقدم من قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم » الخ ، وفيها تتميم القول فيما به الإنذار في هذه السورة وهو المعاد والرجوع إلى الله تعالى كما أشرنا اليه في البيان المتقدم .

والمراد بالرؤية العلم عن بصيرة ، والعيّ العجز والتعب ، والأول أفصح على ما قيل ، والباء في « بقادر » زائدة لوقوعها موقعاً فيه شائبة حيّز النفي كأنه قيل: أليس الله بقادر .

والمعنى : أولم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعجز عن خلقهن أو لم يتعب بخلقهن قادر على إحياء الموتى ــ وهو تعالى مبدء وجود كل شيء وحياته ــ بلى هو قادر لأنه على كل شيء قدير ، وقد أوضحنا هذه الحجة فيما تقدم غير مرة .

قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » إلى آخر الآية ، تأييد للحجة المذكورة في الآية السابقة بالإخبار عما سيجري على منكري المعاد يوم القيامة ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : «فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم» إلى آخر الآية ، تفريع على حقّية المعاد على ما دلّت عليه الحجة العقلية وأخبر به الله سبحانه ونفى الريب عنه .

والمعنى : فاصبر على جحود هؤلاء الكفار وعدم إيمانهم بذاك اليوم كما صبر اولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم بالعذاب فإنهم سيلاقون اليوم بما فيه من العذاب وليس اليوم عنهم ببعيد وإن استبعدوه .

وقوله : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » تبيين لقرب اليوم منهم ومن حياتهم الدنيا بالإخبار عن حالهم حينما يشاهدون ذلك اليوم فإنهم إذا رأوا ما يوعدون من اليوم وما هيّىء لهم فيه من العذاب كان حالهم حال من لم يلبث في الأرض إلا ساعة من نهار .

وقوله : « بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » أي هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من الله من طريق النبوة فهل يهلك بهذا الذي بلّغه الله من الإهلاك إلا القوم الفاسقون الخارجون عن زيّ العبودية .

وقد أمر الله سبحانه في هذه الآية نبيّه ﷺ أن يصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل وفيه تلويح إلى أنه ﷺ منهم فليصبر كصبرهم ، ومعنى العزم ههنا إما الصبر كما قال بعضهم لقوله تعالى : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور » الشورى : ٤٣ ، وإما العزم على الوفاء بالميثاق المأخوذ من الأنبياء كما يلوّح اليه قوله : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » طه : ١١٥ ، وإما العزم بمعنى العزيمة وهي الحكم والشريعة .

وعلى المعنى الثالث وهو الحق الذي تذكره روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام هم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعليهم لقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى » الشورى : ١٣ ، وقد مرّ تقريب معنى الآية .

وعن بعض المفسرين أن جميع الرسل أولوا العزم ، وقد أخذ « من الرسل »

بياناً لاولي العزم في قوله : « أولوا العزم من الرسل » وعن بعضهم أنهم الرسل الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام (الآية ٨٣ – ٩٠) لأنه تعالى قال بعد ذكرهم : « فبهداهم اقتده » .

وفيه أنه تعالى قال بعد عدّهم : « ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم » ثم قال : « فبهداهم اقتده » ولم يقل ذلك بعد عدهم بلا فصل .

وعن بعضهم أنهم تسعة : نوح وإبراهيم والذبيح ويعقوب ويوسف وأيوب وموسى وداود وعيسى، وعن بعضهم أنهم سبعة : آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ، وعن بعضهم أنهم ستة وهم الذين أمروا بالقتال: نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان ، وذكر بعضهم أن الستة هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب، وعن بعضهم أنهم خمسة وهم: نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى، وعن بعضهم أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وذكر بعضهم أن الأربعة هم نوح وإبراهيم وهود ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين .

وهذه الأقوال بين ما لم يستدل عليه بشيء أصلاً وبين ما استدل عليه بما لا دلالة فيه ، ولذا أغمضنا عن نقلها ، وقد تقدم في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب بعض الكلام في أولي العزم من الرسل فراجعه إن شئت .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: « وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن » الآيات ، كان سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله ﷺ خرج من مكة الى سوق عكاظ ، ومعه زيد بن حارثة يدعو الناس الى الإسلام فلم يجبه أحد ولم يجد أحداً يقبله ثم رجع الى مكة .

فلما بلغ موضعاً يقال له : وادي مجنّة [1] تهجّد بالقرآن في جوف الليل فمرّ به

---

(١) المجنة : محل الجن .

نفر من الجن فلما سمعوا قراءة رسول الله ﷺ استمعوا له فلما سمعوا قرآنه قال بعضهم لبعض : « أنصتوا » يعني اسكتوا « فلما قضي » أي فرغ رسول الله ﷺ من القرآن « ولـّوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا » إلى آخر الآيات .

فجاؤا الى رسول الله ﷺ وأسلموا وآمنوا وعلمهم رسول الله ﷺ شرائع الإسلام فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ « قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن » السورة كلهـــا ، فحكى الله قولهم وولـّى عليهم رسول الله ﷺ منهم ، وكانوا يعودون الى رسول الله ﷺ في كل وقت فأمر رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام أن يعلمهم ويفقههم فمنهم مؤمنون وكافرون وناصبون ويهود ونصارى ومجوس ، وهم ولد الجان .

أقول : والروايات في قصة هؤلاء النفر من الجن الذين استمعوا الى القرآن كثيرة مختلفة اختلافاً شديداً ، ولا سبيل الى تصحيح متونها بالكتاب أو بقرائن موثوق بهـا ولذا اكتفينا منها على ما تقدم من خبر القمي وسيأتي نبذ منها في تفسير سورة الجن إن شاء الله تعالى .

وفيه سئل العالم عليه السلام عن مؤمني الجن أيدخلون الجنة ؟ فقال : لا ، ولكن لله حظائر بين الجنة والنار يكون فيها مؤمنو الجن وفساق الشيعة .

أقول : وروي مثله في بعض الروايات الموقوفة من طرق أهل السنة ، ورواية القمي مرسلة كالمضمرة فإن قبلت فلتحمل على أدنى مراتب الجنة وعمومات الكتاب تدل على عموم الثواب للمطيعين من الإنس والجن .

وفي الكافي بإسناده عن ابن أبي يعفور قال : سمعت أبا عبـد الله عليه السلام يقول : سادة النبيين والمرسلين خمسة : وهم أولو العزم من الرسل وعليهم دارت الرحى : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعلى جميـع الأنبياء .

وفيه بإسناده عن عبد الرحمان بن كثير عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : إن أول وصي كان على وجه الأرض هبة الله بن آدم ، وما من نبي مضى إلا وله وصي .

وكان جميع الأنبياء مائة ألف وعشرين ألف نبي : منهم خمسة أولوا العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم . الحديث .

أقول : كون اولي العزم خمسة مما استفاضت عليه الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فهو مروي عن النبي صلى الله عليه وآله وعن البـاقر والصادق والرضا عليهم السلام بطرق كثيرة .

وعن روضة الواعظين للمفيد : قيل للنبي صلى الله عليه وآله : كم بين الدنيا والآخرة ؟ قال: غمضة عين قال الله عز وجل : « كأنهم يوم يرون مـا يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ » الآية .

(سورة محمد مدنية ، وهي ثمان وثلاثون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ
أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ــ ١ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا
نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ
بَالَهُمْ ــ ٢ . ذٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ــ ٣ .
فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا
الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذٰلِكَ
وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ
قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ــ ٤ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ
بَالَهُمْ ــ ٥ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ــ ٦ .

(بيان)

تصف السورة الذين كفروا بما يخصهم من الأوصاف الخبيثة والأعمال السيئة وتصف الذين آمنوا بصفاتهم الطيبة وأعمالهم الحسنة ثم تذكر ما يعقب صفات هؤلاء

من النعمة والكرامة وصفات اولئك من النقمة والهوان وعلى الجملة فيها المقايسة بين الفريقين في صفاتهم وأعمالهم في الدنيا وما يترتب عليها في الاخرى ، وفيها بعض ما يتعلق بالقتال من الأحكام .

وهي سورة مدنية على ما يشهد به سياق آياتها .

قوله تعالى : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم » فسر الصد بالإعراض عن سبيل الله وهو الإسلام كما عن بعضهم ، وفسر بالمنع وهو منعهم الناس أن يؤمنوا بما كان النبي ﷺ يدعوهم اليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر .

وثاني التفسيرين أوفق لسياق الآيات التالية وخاصة ما يأمر المؤمنين بقتلهم وأسرهم وغيرهم .

فالمراد بالذين كفروا كفار مكة ومن تبعهم في كفرهم وقد كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بالنبي ﷺ ويفتنونهم ، وصدوهم أيضاً عن المسجد الحرام .

وقوله : « أضل أعمالهم » أي جعل أعمالهم ضالة لا تهتدي إلى مقاصدها التي قصدت بها وهي بالجملة إبطال الحق وإحياء الباطل فالجملة في معنى ما تكرر منه تعالى من قوله : « والله لا يهدي القوم الكافرين » البقرة : ٢٦٤ ، وقد وعد سبحانه بإحياء الحق وإبطال الباطل كما في قوله : « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » الأنفال : ٨ .

فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها وفسادها دون الوصول إلى الغاية ، وعد ذلك ضلالاً من الاستعارة بالكناية .

قوله تعالى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد وهو الحق من ربهم » الخ ، ظاهر إطلاق صدر الآية أن المراد بالذين آمنوا الخ ، مطلق من آمن وعمل صالحاً فيكون قوله : « وآمنوا بما نزل على محمد » تقييداً احترازياً لا تأكيداً وذكراً لما تعلقت به العناية في الإيمان .

وقوله : « وهو الحق من ربهم » جملة معترضة والضمير راجع إلى ما نزل .

وقوله : « كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم » قال في المجمع: البال الحال والشأن والبال القلب أيضاً يقال : خطر ببالي كذا ، والبال لا يجمع لأنه أبهم أخواته من الحال والشأن . انتهى .

وقد قوبل إضلال الأعمال في الآية السابقة بتكفير السيئات وإصلاح البال في هذه الآية فمعنى ذلك هداية إيمانهم وعملهم الصالح إلى غاية السعادة ، وإنما يتم ذلك بتكفير السيئات المانعة من الوصول إلى السعادة ، ولذلك ضمّ تكفير السيئات إلى إصلاح البال .

والمعنى : ضرب الله الستر على سيئاتهم بالعفو والمغفرة ، وأصلح حالهم في الدنيا والآخرة أما الدنيا فلأن الدين الحق هو الدين الذي يوافق ما تقتضيه الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها ، والفطرة لا تقتضي إلا ما فيه سعادتها وكمالها ففي الإيمان بما أنزل الله من دين الفطرة والعمل به صلاح حال المؤمنين في مجتمعهم الدنيوي ، وأما في الآخرة فلأنها عاقبة الحياة الدنيا وإذ كانت فاتحتها سعيدة كانت خاتمتها كذلك قال تعالى : « والعاقبة للتقوى » طه : ١٣٢ .

قوله تعالى : « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » الخ ، تعليل لما في الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفار وإصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيئاتهم .

وفي تقييد الحق بقوله : « من ربهم » إشارة إلى أن المنتسب اليه تعالى هو الحق ولا نسبة للباطل اليه ولذلك تولى سبحانه إصلاح بال المؤمنين لما ينتسب اليه طريق الحق الذي اتبعوه ، وأما الكفار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم وأما انتساب ضلالهم اليه في قوله : « أضل أعمالهم » فمعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها إلى غايات صالحة سعيدة .

وفي الآية إشارة إلى أن الملاك كل الملاك في سعادة الإنسان وشقائه اتباع الحق واتباع الباطل والسبب في ذلك انتساب الحق اليه تعالى دون الباطل .

وقوله : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » أي يبيّن لهم أوصافهم على ما هي عليه ، وفي الإتيان باسم الإشارة الموضوعة للبعيد تفخيم لأمر ما ضربه من المثل .

قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » إلى آخر الآية ، تفريع على ما تقدم في الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنه قيل : إذا كان المؤمنون أهل الحق والله ينعم عليهم بما ينعم والكفار أهل الباطل والله يضلّ أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا

الكفار أن يقتلوهم ويأسروهم ليحيا الحق الذي عليه المؤمنون وتطهر الأرض من الباطل الذي عليه الكفار .

فقوله : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » المراد باللقاء اللقاء في القتال وضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه ، والتقدير : فاضربوا الرقاب – أي رقابهم – ضرباً وضرب الرقبة كناية عن القتل بالسيف ،لأن أيسر القتل وأسرعه ضرب الرقبة به .

وقوله : « حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » في المجمع: الإثخان إكثار القتل وغلبة العدو وقهرهم ومنه أثخنه المرض اشتدّ عليه وأثخنه الجراح . انتهى . وفي المفردات : وثقت به أثق ثقة سكنت اليه واعتمدت عليه ، وأوثقته شددته ، والوثاق – بفتح الواو – والوثاق – بكسر الواو – اسمان لما يوثق به الشيء. انتهى . و «حتى» غاية لضرب الرقاب ،والمعنى:فاقتلوهم حتى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشدّ الوثاق وإحكامه فالمراد بشد الوثاق الأسر فالآية في ترتب الأسر فيها على الاثخان في معنى قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » الأنفال : ٦٧.

وقوله : « فإما مناً بعد وإما فداء » أي فأسروهم ويتفرع عليه أنكم إما تمنون عليهم مناً بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم وإما تفدونهم فداء بالمال أو بمن لكم عندهم من الأسارى .

وقوله : « حتى تضع الحرب أوزارها » أوزار الحرب أثقالها وهي الأسلحة التي يحملها المحاربون والمراد به وضع المقاتلين وأهل الحرب أسلحتهم كناية عن انقضاء القتال .

وقد تبين بما تقدم من المعنى ما في قول بعضهم إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » الأنفال : ٦٧ ، لأن هذه السورة متأخرة نزولاً عن سورة الأنفال فتكون ناسخة لها .

وذلك لعدم التدافع بين الآيتين فآية الأنفال تنهى عن الأسر قبل الإثخان والآية المبحوث عنها تأمر بالأسر بعد الإثخان .

وكذا ما قيل : إن قوله : « فشدوا الوثاق » الخ ، منسوخ بآية السيف «فاقتلوا

المشركين حيث وجدتموهم » التوبة : ٥ ، وكأنه مبني على كون العام الوارد بعد الخاص ناسخاً له لا مخصصاً به والحقّ خلافه وتمام البحث في الاصول ، وفي الآية أيضاً مباحث فقهية محلها علم الفقه .

وقوله : « ذلك » أي الأمر ذلك أي إن حكم الله هو ما ذكر في الآية .

وقوله : « ولو شاء الله لانتصر منهم » الضمير للكفار أي ولو شاء الله الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاكهم وتعذيبهم من غير أن يأمركم بقتالهم .

وقوله : « ولكن ليبلو بعضكم ببعض » استدراك من مشية الانتصار أي ولكن لم ينتصر منهم بل أمركم بقتالهم ليمتحن بعضكم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكفار يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصين ويمتحن الكفار بالمؤمنين فيتميز أهل الشقاء منهم ممن يوفق للتوبة من الباطل والرجوع إلى الحق .

وقد ظهر بذلك أن قوله : « ليبلو بعضكم ببعض » تعليل للحكم المذكورة في الآية والخطاب في « بعضكم » لمجموع المؤمنين والكفار ووجه الخطاب إلى المؤمنين .

وقوله : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم » الكلام مسوق سوق الشرط والحكم عام أي ومن قتل في سبيل الله وهو الجهاد والقتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحة التي أتوا بها في سبيل الله .

وقيل : المراد بقوله : « والذين قتلوا في سبيل الله » شهداء يوم أُحد ، وفيه أنه تخصيص من غير مخصّص والسياق سياق العموم .

قوله تعالى : « سيهديهم ويصلح بالهم » الضمير للذين قتلوا في سبيل الله فالآية وما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهادة أي سيهديهم الله إلى منازل السعادة والكرامة ويصلح حالهم بالمغفرة والعفو عن سيئاتهم فيصلحون لدخول الجنة .

وإذا انضمت هذه الآية إلى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم » آل عمران : ١٦٩ ، ظهر أن المراد بإصلاح بالهم إحياؤهم حياة يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء .

وقال في المجمع : والوجه في تكرير قوله : « بالهم » أن المراد بالأول أنه أصلح بالهم في الدين والدنيا ، وبالثاني أنه يصلح حالهم في نعيم العقبى فالأول سبب النعيم والثاني نفس النعيم . انتهى . والفرق بين ما ذكره من المعنى وما قدمناه أن قوله

تعالى : « ويصلح بالهم » على ما ذكرنا كالعطف التفسيري لقوله : « سيهديهم » دون ما ذكره ، وقوله الآتي : « ويدخلهم الجنة » على ما ذكره كالعطف التفسيري لقوله : « ويصلح بالهم » دون ما ذكرناه .

قوله تعالى : « ويدخلهم الجنة عرّفها لهم » غاية هدايته لهم ، وقوله : « عرفها لهم » حال من إدخاله إياهم الجنة أي سيدخلهم الجنة والحال أنه عرفها لهم إما بالبيان الدنيوي من طريق الوحي والنبوة وإما بالبشرى عند القبض أو في القبر أو في القيامة أو في جميع هذه المواقف هذا ما يفيده السياق من المعنى .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن علي قال : سورة محمد آية فينا وآية في بني أميّة .

أقول : وروى القمي في تفسيره عن أبيه عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام مثله .

وفي المجمع في قوله : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » الخ ، المروي عن أئمة الهدى عليهم السلام: أن الاسارى ضربان: ضرب يؤخذون قبل انقضاء القتال والحرب قائمة فهؤلاء يكون الإمام مخيراً بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويتركهم حتى ينزفوا ، ولا يجوز المن ولا الفداء .

والضرب الآخر الذين يؤخذون بعد أن وضعت الحرب أوزارها وانقضى القتال فالإمام مخير فيهم بين المن والفداء إما بالمال أو بالنفس وبين الاسترقاق وضرب الرقاب فإذا أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك وكان حكمهم حكم المسلمين .

أقول : وروى ما في معناه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله تعالى : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم » قال: نزل فيمن قتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد.

أقول : قد عرفت أن الآية عامة ، وسياق الاستقبال في قوله: سيهديهم ويصلح بالهم » الخ ، إنما يلائم العموم وكون الكلام مسوقاً لضرب القاعدة .

وقد روي أن قوله تعالى : « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » ناسخ لقوله: « وما كان لنبي أن يكون له أسرى » الآية ، وأيضاً أن قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ناسخ لقوله : « فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء » وقد عرفت فيما تقدم عدم استقامة النسخ .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ــ ٧.
وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ــ ٨ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا
مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ــ ٩. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ
أَمْثَالُهَا ــ ١٠ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا
مَوْلَى لَهُمْ ــ ١١ . إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا
تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ــ ١٢ . وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ
قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ــ ١٣ .
أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ ــ ١٤ . مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ
غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ
لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ـــ ١٥ .

(بيان)

الآيات جارية على السياق السابق .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » تحضيض لهم على الجهاد ووعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى فالمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييداً لدينه وإعلاء لكلمة الحق لا ليستعلوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمة أو ليظهروا نجدة وشجاعة .

والمراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضية لظهورهم وغلبتهم على عدوهم كإلقاء الرعب في قلوب الكفار وإدارة الدوائر للمؤمنين عليهم وربط جأش المؤمنين وتشجيعهم ، وعلى هـذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام وتخصيص تثبيت الأقدام ، وهو كناية عن التشجيع وتقوية القلوب، لكونه من أظهر أفراد النصر .

قوله تعالى : « والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم » ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين لله لقياس حالهم من حالهم .

والتعس هو سقوط الإنسان على وجهه وبقاؤه عليه ويقابله الانتعاش وهو القيام عن السقوط على الوجه فقوله : «تعساً لهم» أي تعسوا تعساً وهو ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله : « قاتلهم الله أنى يؤفكون » التوبة : ٣٠ ، « قتل الإنسان ما أكفره » عبس : ١٧ ، ويمكن أن يكون إخباراً عن تعسهم وبطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطاً على وجهه .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » المراد بما أنزل الله هو القرآن والشرائع والأحكام التي أنزلها الله تعالى على نبيه ﷺ وأمر بإطاعتها والإنقياد لها فكرهوها واستكبروا عن اتباعها .

والآية تعليل مضمون الآية السابقة ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها » التدمير الإهلاك ، يقال : دمّره الله أي أهلكه ، ويقال: دمّر الله عليه أي أهلك ما يخصه من نفس وأهل ودار وعقار فدمّر عليه أبلغ من دمّره كما قيل ، وضمير « أمثالها » للعاقبة أو للعقوبة المدلول عليها بسابق الكلام .

والمراد بالكافرين الكافرون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : وللكافرين بك يا محمد أمثال تلك العاقبة أو العقوبة وإنما اوعدوا بأمثال العاقبة أو العقوبة ولا يحلّ بهم إلا مثل واحد لأنهم في معرض عقوبات كثيرة دنيوية واخروية وإن كان لا يحلّ بهم إلا بعضها ، ويمكن أن يراد بالكافرين مطلق الكافرين ، والجملة من باب ضرب القاعدة .

قوله تعالى : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » الإشارة بذلك إلى ما تقدم من نصر المؤمنين ومقت الكافرين وسوء عاقبتهم ،ولا يصغى إلى ما قيل: إنه إشارة إلى ثبوت عاقبة أو عقوبة الامم السالفة لهؤلاء ، وكذا ما قيل: إنه إشارة إلى نصر المؤمنين ، وذلك لأن الآية متعرضة لحال الطائفتين : المؤمنين والكفار جميعاً .

والمولى كأنه مصدر ميمي أريد به المعنى الوصفي فهو بمعنى الولي ولذلك يطلق على سيد العبد ومالكه لأن له ولاية التصرف في امور عبده ، ويطلق على الناصر لأنه يلي التصرف في أمر منصوره بالتقوية والتأييد والله سبحانه مولى لأنه المالك الذي يلي امور خلقه في صراط التكوين ويدبرها كيف يشاء ، قال تعالى : « ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع » الم السجدة : ٤ ، وقال : « وردّوا إلى الله مولاهم الحق » يونس : ٣٠ ، وهو تعالى مولى لأنه يلي تدبير امور عباده في صراط السعادة فيهديهم إلى سعادتهم والجنة ويوفقهم للصالحات وينصرهم على أعدائهم ، والمولوية بهذا المعنى الثاني تختص بالمؤمنين ، لأنهم هم الداخلون في حظيرة العبودية المتبعون لما يريده منهم ربهم دون الكفار .

وللمؤمنين مولى وولي هو الله سبحانه كما قال: «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا »، وقال : « الله وليُّ الذين آمنوا » البقرة : ٢٥٧ ، وأما الكفار فقد اتخذوا الأصنام أو

أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكم : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت » البقرة : ٢٥٧ ، ونفى ولايتهم بالبناء على حقيقة الأمر فقال : « وأن الكافرين لا مولى لهم » ثم نفي ولايتهم مطلقاً تكويناً وتشريعاً مطلقاً فقال : « أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي » الشورى : ٩ ، وقال : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » النجم : ٢٣ .

فمعنى الآية : أن نصره تعالى للمؤمنين وتثبيته أقدامهم وخذلانه الكفار وإضلاله أعمالهم وعقوبته لهم إنما ذلك بسبب أنه تعالى مولى المؤمنين ووليّهم ، وأن الكفار لا مولى لهم فينصرهم ويهدي أعمالهم وينجيهم من عقوبته .

وقد تبين بما تقدم ضعف ما قيل : إن المولى في الآية بمعنى الناصر دون المالك وإلا كان منافياً لقوله تعالى : « وردّوا إلى الله مولاهم الحق » يونس : ٣٠ ، ووجه الضعف ظاهر .

قوله تعالى : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم » مقايسة بين الفريقين وبيان أثر ولاية الله للمؤمنين وعدم ولايته للكفار من حيث العاقبة والآخرة وهي أن المؤمنين يدخلون الجنة والكفار يقيمون في النار .

وقد أشير في الكلام إلى منشإ ما ذكر من الأثر حيث وصف كلاً من الفريقين بما يناسب مآل حاله فأشار إلى صفة المؤمنين بقوله : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وإلى صفة الكفار بقوله : « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابلة أن المؤمنين راشدون في حياتهم الدنيا مصيبون للحق حيث آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة فسلكوا سبيل الرشد وقاموا بوظيفة الإنسانية ، وأما الكفار فلا عناية لهم بإصابة الحق ولا تعلق لقلوبهم بوظائف الإنسانية ، وإنما همّهم بطنهم وفرجهم يتمتعون في حياتهم الدنيا القصيرة ويأكلون كما تأكل الأنعام لا منية لهم إلا ذلك ولا غاية لهم وراءه .

فهؤلاء أي المؤمنون تحت ولاية الله حيث يسلكون مسلكاً يريده منهم ربهم ويهديهم اليه ولذلك يدخلهم في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأولئك أي الكفار ما لهم من ولي وإنما وكلوا إلى أنفسهم ولذلك كان مثواهم ومقامهم النار .

وإنما نسب دخول المؤمنين الجنات إلى الله نفسه دون إقامة الكفار في النار قضاء لحق الولاية المذكورة فلله تعالى عناية خاصة بأوليائه ، وأما المنسلخون من ولايته فلا يبالي في أي واد هلكوا .

قوله تعالى : « وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » المراد بالقرية أهل القرية بدليل قوله بعد : « أهلكناهم » الخ ، والقرية التي أخرجته ﷺ هي مكة .

وفي الآية تقوية لقلب النبي ﷺ وتهديد لأهل مكة وتحقير لأمرهم أن الله أهلك قرى كثيرة كل منها أشد قوة من قريتهم ولا ناصر لهم ينصرهم .

قوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم » السياق الجاري على قياس حال المؤمنين بحال الكفار يدل على أن المراد بمن كان على بينة من ربه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بينة من ربهم كونهم على دلالة بينة من ربهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه وهي الحجة البرهانية فهم إنما يتبعون الحجة القاطعة على ما هو الحري بالإنسان الذي من شأنه أن يستعمل العقل ويتبع الحق .

وأما الذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيئة التي زينها لهم الشيطان وتعلقت بها أهواؤهم وعملوا السيئات ، فكم بين الفريقين من فرق .

قوله تعالى : « مثل الجنة التي وعد المتقون » إلى آخر الآية يفرق بين الفريقين ببيان مآل أمرهما وهو في الحقيقة توضيح ما مر في قوله : « إن الله يدخل الذين آمنوا » الخ من الفرق بينهما فهذه الآية في الحقيقة تفصيل تلك الآية .

فقوله : « مثل الجنة التي وعد المتقون » المثل بمعنى الصفة – كما قيل – أي صفة الجنة التي وعد الله المتقين أن يدخلهم فيها ، وربما حمل المثل على معناه المعروف واستفيد منه أن الجنة أرفع وأعلى من أن يحيط بها الوصف ويحدها اللفظ وإنما تقرب إلى الأذهان نوع تقريب بأمثال مضروبة كما يلوح اليه قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين » السجدة : ١٧ .

وقد بدل قوله في الآية السابقة : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » في هذه الآية من قوله : « المتقون » تبديل اللازم من الملزوم فإن تقوى الله يستلزم الإيمان به وعمل

الصالحات من الأعمال .

وقوله:«فيها أنهار من ماء غير آسن» أي غير متغير بطول المقام، وقوله:«وأنهار من لبن لم يتغير طعمه» كما في ألبان الدنيا، وقوله: «وأنهار من خمر لذة للشاربين» أي لذيذة للشاربين، واللذة إما صفة مشبهة مؤنثة وصف للخمر، وإما مصدر وصفت به الخمر مبالغة، وإما بتقدير مضاف أي ذات لذة، وقوله: «وأنهار من عسل مصفى» أي خالص من الشمع والرغوة والقذى وسائر ما في عسل الدنيا من الأذى والعيوب، وقوله: «ولهم فيها من كل الثمرات» جمع للتعميم .

وقوله: «ومغفرة من ربهم» ينمحي بها عنهم كل ذنب وسيئة فلا تتكدر عيشتهم بمكدر ولا يتنغص بمنغص، وفي التعبير عنه تعالى بربهم إشارة إلى غشيان الرحمة وشمول الحنان والرأفة الإلهية .

وقوله: «كمن هو خالد في النار» قياس محذوف أحد طرفيه أي أمن يدخل الجنة التي هذا مثلها كمن هو خالد في النار وشرابهم الماء الشديد الحرارة الذي يقطع أمعاءهم وما في جوفهم من الأحشاء إذا سقوه، وإنما يسقونه وهم مكرهون كما في قوله: «وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم»، وقيل: قوله: «كمن هو خالد» الخ، بيان لقوله في الآية السابقة: «كمن زين» الخ، وهو كما ترى .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى: «ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله» قال أبو جعفر عليه السلام: كرهوا ما أنزل الله في حق علي عليه السلام .

وفيه في قوله تعالى: «كمن زيّن له سوء عمله» قيل: هم المنافقون وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام .

أقول: ويحتمل أن تكون الروايتان من الجري .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: «كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم» قال: ليس من هو في هذه الجنة الموصوفة كمن هو في هذه النار كما أن ليس عدوّ الله كوليّه .

* * *

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا
لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ـــ ١٦ . وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ
تَقْوَاهُمْ ـــ ١٧ . فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ
أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ـــ ١٨ . فَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا
اللهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
وَمَثْوَاكُمْ ـــ ١٩ . وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ
سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ـــ ٢٠ .
طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً
لَهُمْ ـــ ٢١ . فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا
أَرْحَامَكُمْ ـــ ٢٢. أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ـــ ٢٣.
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ـــ ٢٤ . إِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ
وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ـــ ٢٥ . ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ
سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ـــ ٢٦ . فَكَيْفَ إِذَا

تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ — ٢٧ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ — ٢٨ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ — ٢٩ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ — ٣٠ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ — ٣١ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ — ٣٢ .

(بيان)

الآيات جارية على السياق السابق ، وفيها تعرّض لحال الذين في قلوبهم مرض والمنافقين ومن ارتدّ بعد إيمانه .

قوله تعالى : « ومنهم من يستمع اليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً » الخ، آنفاً اسم فاعل منصوب على الظرفية أو لكونه مفعولاً فيه ، ومعناه الساعة التي قبيل ساعتك ، وقيل : معناه هذه الساعة وهو على أي حال مأخوذ من الأنف بمعنى الجارحة .

وقوله : « ومنهم من يستمع اليك » الضمير للذين كفروا ، والمراد باستماعهم إلى النبي ﷺ إصغاؤهم إلى ما يتلوه من القرآن وما يبيّن لهم من اصول المعارف وشرائع الدين .

وقوله : « حتى إذا خرجوا من عندك » الضمير للموصول وجمع الضمير باعتبار المعنى كما أن إفراده في « يستمع » باعتبار اللفظ .

وقوله : « قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً » المراد بالذين أوتوا العلم العلماء بالله من الصحابة ، والضمير في « ماذا قال » للنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

والاستفهام في قولهم : « ماذا قال آنفاً » قيل: للاستعلام حقيقة لأن استغراقهم في الكبر والغرور واتباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحق كما قال تعالى : « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » النساء : ٧٨ ، وقيل: للاستهزاء، وقيل: للتحقير كأن القول لكونه مشحوناً بالأباطيل لا يرجع إلى معنى محصّل ، ولكل من المعاني الثلاثة وجه .

وقوله : « اولئك الذين طبع الله على قلوبهم » تعريف لهم ، وقوله : « واتبعوا أهواءهم » تعريف بعد تعريف فهو كعطف التفسير ، ويتحصل منه أن اتباع الأهواء أمارة الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقي على طهارة الفطرة الأصلية لا يتوقف في فهم المعارف الدينية والحقائق الإلهية .

قوله تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » المقابلة الظاهرة بين الآية وبين الآية السابقة يعطي أن المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب وهو التسليم لما تهدي اليه الفطرة السليمة واتباع الحق ، وزيادة هداهم من الله سبحانه رفعه تعالى درجة إيمانهم ، وقد تقدم أن الهدى والإيمان ذو مراتب مختلفة ، والمراد بالتقوى ما يقابل اتباع الأهواء وهو الورع عن محارم الله والتجنب عن ارتكاب المعاصي .

وبذلك يظهر أن زيادة الهدى راجع إلى تكميلهم في ناحية العلم وإيتاء التقوى إلى تكميلهم في ناحية العمل ، ويظهر أيضاً بالمقابلة أن الطبع على القلوب راجع إلى فقدانهم كمال العلم واتباع الأهواء راجع إلى فقدانهم العمل الصالح وحرمانهم منه وهذا لا ينافي ما قدمنا أن اتباع الأهواء كعطف التفسير بالنسبة إلى الطبع على القلوب .

قوله تعالى : «فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها» الخ، النظر هو الانتظار ، والأشراط جمع شرط بمعنى العلامة ، والأصل في معناه الشرط بمعنى ما يتوقف عليه وجود الشيء لأن تحققه علامة تحقق الشيء فأشراط الساعة علاماتها الدالة عليها .

وسياق الآية سياق التهكم كأنهم واقفون موقفاً عليهم إما أن يتبعوا الحق فتسعد بذلك عاقبتهم ، وإما أن ينتظروا الساعة حتى إذا أيقنوا بوقوعها وأشرفوا عليها تذكروا وآمنوا واتبعوا الحق أما اتباع الحق اليوم فلم يخضعوا له بحجة أو بموعظة أو عبرة ، وأما انتظارهم بمجيء الساعة ليتذكروا عنده فلا ينفعهم شيئاً فإنها تجيء بغتة ولا تمهلهم شيئاً حتى يستعدوا لها بالذكرى وإذا وقعت لم ينفعهم الذكرى لأن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل قال تعالى : « يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي » الفجر : ٢٤ .

مضافاً إلى أن أشراطها وعلاماتها قد جاءت وتحققت ، ولعل المراد بأشراطها خلق الإنسان وانقسام نوعه إلى صلحاء ومفسدين ومتقين وفجّار المستدعي للحكم الفصل بينهم ونزول الموت عليهم فإن ذلك كله من شرائط وقوع الواقعة وإتيان الساعة ، وقيل : المراد بأشراط الساعة ظهور النبي ﷺ وهو خاتم الأنبياء وانشقاق القمر ونزول القرآن وهو آخر الكتب السماوية .

هذا ما يعطيه التدبر في الآية من المعنى وهي – كما ترى – حجة برهانية في عين أنها مسوقة سوق التهكم .

وعليه فقوله : « بغتة » حال من الإتيان جيء به لبيان الواقع وليتفرع عليه قوله الآتي : « فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » وليس قيداً للانتظار حتى يفيد أنهم إنما ينتظرون إتيانها بغتة ، ولدفع هذا التوهم قيل : « إلا الساعة أن تأتيهم بغتة » ولم يقل : إلا أن تأتيهم الساعة بغتة .

وقوله : « فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » أنى خبر مقدم و « ذكراهم » مبتدأ مؤخر و « إذا جاءتهم » معترضة بينهما ، والمعنى : فكيف يكون لهم أن يتذكروا إذا جاءتهم ؟ أي كيف ينتفعون بالذكرى في يوم لا ينفع العمل الذي يعمل فيه وإنما هو يوم الجزاء .

وللقوم في معنى جمل الآية ومعناها بالجملة أقوال مختلفة تركنا إيرادها من أرادها فليراجع كتبهم المفصلة .

قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » الخ ، قيل : هو متفرع على جميع ما تقدم في السورة من سعادة المؤمنين وشقاوة الكفار

كأنه قيل : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة أولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم .

ويمكن أن يكون تفريعاً على ما بينه في الآيتين السابقتين أعني قوله : « ومنهم من يستمع اليك – إلى قوله – وآتاهم تقواهم » من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين ويتركهم وذنوبهم ويعكس الأمر في الذين اهتدوا الى توحيده والإيمان به فكأنه قيل: إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانية الإله واطلب مغفرة ذنبك ومغفرة امتك من المؤمنين بك والمؤمنات حتى لا تكون ممن يطبع الله على قلبه ويحرمه التقوى بتركه وذنوبه ، ويؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية : « والله يعلم متقلبكم ومثواكم » .

فقوله : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك أنه لا إله إلا الله ، وقوله : « واستغفر لذنبك » تقدم الكلام في معنى الذنب المنسوب اليه ﷺ وسيأتي أيضاً في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى .

وقوله :« وللمؤمنين والمؤمنات» أمر بطلب المغفرة للامة من المؤمنين والمؤمنات وحاشا أن يأمر تعالى بالاستغفار ولا يواجهه بالمغفرة أو بالدعاء ولا يقابله بالاستجابة .

وقوله : « والله يعلم متقلبكم ومثواكم » تعليل لما في صدر الآية : « فاعلم أنه » الخ ، والظاهر أن المتقلب مصدر ميمي بمعنى الانتقال من حال الى حال ، وكذلك المثوى بمعنى الإستقرار والسكون ، والمراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغيّر وثابت وحركة وسكون فاثبتوا على توحيده واطلبوا مغفرته ، واحذروا أن يطبع على قلوبكم ويترككم وأهواءكم .

وقيل : المراد بالمتقلب والمثوى التصرف في الحياة الدنيا والاستقرار في الآخرة وقيل : المتقلب هو التقلب من الأصلاب إلى الأرحام والمثوى السكون في الأرض .

وقيل : المتقلب التصرف في اليقظة والمثوى المنام ، وقيل : المتقلب التصرف في المعايش والمكاسب والمثوى الاستقرار في المنازل ، وما قدمناه أظهر وأعم .

قوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة » إلى آخر الآية ، لولا تحضيضية أي هلاّ أنزلت سورة يظهرون بهـــا الرغبة في نزول سورة جديدة تأتيهم

بتكاليف جديدة يمتثلونها ، والمراد بالسورة المحكمة المبيّنة التي لا تشابه فيها ، والمراد بذكر القتال الأمر به .

والمراد بالذين في قلوبهم مرض ، الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآية صريحة في أن الذين أظهروا الرغبة في نزولها هم الذين آمنوا ، ولا يعمّ الذين آمنوا للمنافقين إلا على طريق المساهلة غير اللائقة بكلام الله تعالى فالآية كقوله تعالى في فريق من المؤمنين : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » النساء : ٧٧ .

والمغشي عليه من الموت هو المحتضر ، يقال : غشيه غشاوة إذا ستره وغطّاه وغشي على فلان – بالبناء – للمفعول – إذا نابه ما غشي فهمه ، ونظر المغشي عليه من الموت إشخاصه ببصره اليك من غير أن يطرف .

وقوله : « فأولى لهم » لعله خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : أولى لهم ذلك أي حريّ بهم أن ينظروا كذلك أي أن يحتضروا فيموتوا ، وعن الأصمعي أن قولهم : « أولى لك » كلمة تهديد معناه وليك وقارنك ما تكره ، والآية نظيرة قوله تعالى : « أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » القيامة : ٣٥ .

ومعنى الآية : ويقول الذين آمنوا هلا أنزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة لا تشابه فيها وامروا فيها بالقتال والجهاد رأيت الضعفاء الإيمان منهم ينظرون اليك من شدة الخشية نظر المحتضر فأولى لهم ذلك .

قوله تعالى : « طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » عزم الأمر أي جد وتنجز .

وقوله : « طاعة وقول معروف » كأنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير أمرنا – أو أمرهم وشأنهم – أي إيمانهم بنا طاعة واتقونا عليها وقول معروف غير منكر قالوا لنا وهو إظهار السمع والطاعة كما يحكيه تعالى عنهم بقوله : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون – الى أن قال – وقالوا سمعنا وأطعنا » البقرة : ٢٨٥ .

وعلى هذا يتصل قوله بعده : « فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » بما قبله اتصالا بينا ،والمعنى : أن الأمر هو ما واثقوا الله عليه من قولهم : سمعناوأطعنا

فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا وأطاعوه فيما يأمر به ومنه أمر القتال لكان خيراً لهم .

ويحتمل أن يكون قوله : « طاعة » الخ ، خبراً لضمير عائد الى القتال المذكور والتقدير القتال المذكور في السورة طاعة منهم وقول معروف فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله في إيمانهم وأطاعوه به لكان خيراً لهم . أما كونه طاعة منهم فظاهر، وأما كونه قولاً معروفاً فلأن إيجاب القتال والأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لإبطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل والعقلاء .

وقيل : إن قوله : « طاعة » الخ ، مبتدأ الخبر والتقدير طاعة وقول معروف خير لهم وأمثل ، وقيل : مبتدأ خبره « فأولى لهم » في الآية السابقة فالآية من تمام الآية السابقة ، وهو قول ردي ، وأردء منه ما قيل : إن « طاعة » الخ ، صفة لسورة في قوله : « فإذا انزلت سورة » وقيل غير ذلك

قوله تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » الخطاب للذين في قلوبهم مرض المتثاقلين في أمر الجهاد في سبيل الله ، وقد التفت اليهم بالخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع ، والاستفهام للتقرير ، والتولي الإعراض والمراد به الإعراض عن كتاب الله والعمل بما فيه والعود إلى الشرك ورفض الدين .

والمعنى : فهل يتوقع منكم إن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه ومنه الجهاد في سبيل الله أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم بسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض تكالباً على جيفة الدنيا أي إن توليتم كان المتوقع منكم ذلك .

وقد ظهر بذلك أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : « لكان خيراً لهم » ولذا صدّر بالفاء .

وقيل : المراد بالتولي التصدّي للحكم والولاية ، والمعنى : هل يتوقع منكم إن جعلتم ولاة أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم بسفك الدماء الحرام وأخذ الرشاء والجور في الحكم هذا ، وهو معنى بعيد عن السياق .

قوله تعالى : « اولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم » الإشارة إلى المفسدين في الأرض المقطعين للأرحام وقد وصفهم الله بأنه لعنهم فأصمّهم وأذهب

بسمعهم فلا يسمعون القول الحق وأعمى أبصارهم فلا يرون الرأي الحق فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » الاستفهام للتوبيخ وضمير الجمع راجع إلى المذكورين في الآية السابقة ، وتنكير « قلوب » كما قيل للدلالة على أن المراد قلوب هؤلاء وأمثالهم .

قال في مجمع البيان : وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال : لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع . انتهى .

قوله تعالى : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم » الارتداد على الأدبار الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال وهو استعارة أريد بها الترك بعد الأخذ ، والتسويل تزيين ما تحرض النفس عليه وتصوير القبيح لها في صورة الحسن ، والمراد بالإملاء الإمداد أو تطويل الآمال .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم » الإشارة بذلك إلى تسويل الشيطان وإملائه وبالجملة تسلطه عليهم ، والمراد « بالذين كرهوا ما نزّل الله » هم الذين كفروا كما تقدم في قوله : « والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله » الآية ٩ من السورة .

وقوله : « سنطيعكم في بعض الأمر » مقول قولهم ووعد منهم للكفار بالطاعة وهو كما يلوح من تقييد الطاعة ببعض الأمر على نحو الإجمال كلام من لا يقدر على التظاهر بطاعة من يريد طاعته في جميع الامور لكونه على خطر من التظاهر بالطاعة المطلقة فيسرّ إلى من يعده أنه سيطيعه في بعض الأمر وفيما تيسّر له ذلك ثم يكتم ذلك ويقعد متربصاً للدوائر .

ويستفاد من ذلك أن هؤلاء كانوا قوماً من المنافقين أسرّوا إلى الكفار ما حكاه تعالى عنهم ووعدهم الطاعة لهم مهما تيسر لهم ذلك ، ويؤيد ذلك قوله تعالى بعد : « والله يعلم إسرارهم » .

واختلفوا في هؤلاء من هم ؟ فقيل: هم اليهود قالوا للمنافقين : إن أعلنتم الكفر

نصرناكم ، وقيل : هم اليهود أو اليهود والمنافقون قالوا ذلك للمشركين . ويرد على الوجهين جميعاً أن موضوع الكلام في الآية المرتدّون بعد إيمانهم واليهود لم يؤمنوا حتى يرتدّوا .

وقيل : هم المنافقون وعدوا اليهود النصر كما قال تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم » الحشر : ١١ .

وفيه أن الآية تقبل الانطباق على ذلك كما تقبل الانطباق على اليهود في وعدهم النصر للمشركين على تكلف في صدق الارتداد على كفرهم برسول الله ﷺ بعد تبين رسالته لهم لكن لا دليل من طريق لفظ الآية على ذلك فلعلهم قوم من المنافقين غيرهم.

قوله تعالى : « فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم» متفرع على ما قبله، والمعنى : هذا حالهم اليوم يرتدّون بعد تبين الهدى لهم فيفعلون ما يشاؤن فكيف حالهم إذا توفتهم الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبارهم .

قوله تعالى : «ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم» الظاهر أن المراد بما أسخط الله أهواء النفس وتسويلات الشيطان المستتبعة للمعاصي والذنوب الموبقة كما قال تعالى : « واتبعوا أهواءهم » ، وقال : « الشيطان سوّل لهم وأملى لهم » .

والسخط والرضا من صفاته تعالى الفعلية والمراد بها العقاب والثواب .

والإشارة في قوله : « ذلك » إلى ما ذكر في الآية السابقة من عذاب الملائكة لهم عند توفيهم أي سبب عقابهم أن أعمالهم حابطة لاتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه ، وإذ لا عمل لهم صالحاً يشقون بالعذاب .

قوله تعالى : « أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم » قال الراغب : الضغن - بكسر الضاد - والضغن - بضمها - الحقد الشديد وجمعه أضغان انتهى. والمراد بالذين في قلوبهم مرض الضعفاء الإيمان ولعلهم الذين آمنوا أولاً على ضعف في إيمانهم ثم مالوا إلى النفاق وارتدوا بعد الإيمان، فالتدبر الدقيق في تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوماً ممن آمن بالنبي ﷺ كانوا على هذه الصفة كما أن قوماً منهم آخرين كانوا

منافقين من أول يوم آمنوا إلى آخر عمرهم ، وعلى هـــذا فعدّهم من المؤمنين فيما تقدم بملاحظة بادىء أمرهم .

والمعنى : بل ظن هؤلاء المنــافقون الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله ولن يظهر أحقادهم للدين وأهله .

قوله تعالى : « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم » السيماء العلامة ، والمعنى : ولو نشاء لأريناك اولئك المرضى القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التي أعلمناهم بها .

وقوله : « ولتعرفنهم في لحن القول » قــال الراغب : اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه : إمـــا بإزالة الإعراب أو التصحيف وهو المذموم ، وذلك أكثر استعمالاً ، وإما بإزالته عن التصريح وصرفه إلى تعريض وفحوى ، وهو محمود عنـد أكثر الادباء من حيث البلاغة . انتهى .

فالمعنى : ولتعرفنهم من جنس قولهم بما يشتمل عليه من الكناية والتعريض. وفي جعل لحن القول ظرفاً للمعرفة نوع من العناية المجازية .

وقوله : « والله يعلم أعمالكم » أي يعلم حقائقها وأنهـا من أي القصود والنيّات صدرت فيجـازي المؤمنين بصالح أعمالهم وغيرهم بغيرها ، ففيه وعــد للمؤمنين ووعيد لغيرهم .

قوله تعالى : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » البلاء والابتلاء الامتحان والاختبار ، والآية بيان علة كتابة القتال على المؤمنين ، وهو الاختبار الإلهي ليمتاز به المجاهدون في سبيل الله الصابرون على مشاق التكاليف الإلهية .

وقوله : « ونبلو أخباركم » كأن المراد بالأخبار الأعمال من حيث إنها تصدر عن العاملين فيكون أخباراً لهم يخبر بها عنهم ، واختبار الأعمال يمتاز به صالحها من طالحها كما أن اختبار النفوس يمتــاز به النفوس الصالحة الخيّرة وقـد تقدم فيما تقدم أن المراد بالعلم الحاصل له تعالى من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك ، وبنظر أدق هو علم فعلي له تعالى خارج عن الذات .

قوله تعالى : « إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول من بعد

ما تبين لهم الهدى لن يضرّوا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم » المراد بهؤلاء رؤساء الضلال من كفـــار مكة ومن يلحق بهم لأنهم الذين صدّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول وعادوه أشد المعاداة بعد ما تبين لهم الهدى .

وقوله : « لن يضرّوا الله شيئاً » لأن كيد الإنسان ومكره لا يرجع إلا إلى نفسه ولا يضرّ إلا إياه ، وقوله : « وسيحبط أعمالهم » أي مساعيهم لهدم أساس الدين وما عملوه لإطفاء نور الله ، وقيل: المراد إحباط أعمالهم وإبطالها فلا يثابون في الآخرة على شيء من أعمالهم ، والمعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين وتشجيعهم على قتال المشركين وتطييب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيده الآيات التالية .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « ومنهم من يستمع اليك » الخ ، عن الأصبغ بن نباتة عن علي عليه‌السلام قال: إنا كنا عند رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا ومن يعيه فإذا خرجنا قالوا : ماذا قال آنفاً .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى .

أقول : وروي هـــذا اللفظ عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله بطرق أخرى عن أبي هريرة وسهل ابن مسعود .

وفيـــه أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما المسؤل عنها بأعلم من السائل ولكن ساحدثك عن أشراطها .

إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كانت الحفاة العراة رعاء الشاء رؤس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها .

وفي العلل بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في حديث طويل يقول فيه لعبد الله بن سلام وقد سأله عن مسائل : أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

أقول: ولعل المراد به غير ظاهره، والأخبار في أشراط الساعة من طرق الشيعة وأهل السنة فوق حد الإحصاء، وقد مرت في آخر الجزء الخامس من الكتاب رواية سلمان عن النبي ﷺ ورواية حمران عن الصادق عليه السلام وهما روايتان جامعتان في الباب.

وفي المجمع قد صح الحديث بالإسناد عن حذيفة بن اليمان قال: كنت رجلاً ذرب اللسان على أهلي فقلت: يا رسول الله إني لأخشى أن يدخلني لساني النار فقال رسول الله ﷺ: فأين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن الأغر المزني قال: قال رسول الله ﷺ: إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة.

وفيه في قوله تعالى: «فهل عسيتم إن توليتم» الآية أخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: إن الرحم معلقة بالعرش لها لسان ذلق تقول: اللهم صل من وصلني، واقطع من قطعني.

أقول: والروايات فيها وفي صلتها وقطعها كثيرة، وقد مر شطر منها في تفسير أول سورة النساء.

وفي المجمع في قوله تعالى: «أفلا يتدبرون القرآن» الآية أفلا يتدبرون القرآن فيقضوا ما عليهم من الحق عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام.

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن عمارة قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت له: يا بن رسول الله أخبرني عن الله عز وجل هل له رضىً وسخط؟ قال: نعم وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين ولكن غضب الله عقابه ورضاه ثوابه.

وفي المجمع في قوله تعالى: «ولتعرفنهم في لحن القول» الآية، عن أبي سعيد الخدري قال: لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب. قال: كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ ببغضهم علي بن أبي طالب.

قال في المجمع: وروي مثل ذلك عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

وقال: وعن عبادة بن الصامت قال: كنا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبه علمنا أنه لغير رشدة.

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا ببغض علي بن أبي طالب .

وفي أمالي الطوسي بإسناده إلى علي عليه السلام أنه قال : قلت أربعاً أنزل الله تعالى تصديقي بها في كتابه ، قلت : المرء مخبوّ تحت لسانه فإذا تكلم ظهر ، فأنزل الله : « ولتعرفنهم في لحن القول » .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ــ ٣٣ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ــ ٣٤ . فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ــ ٣٥ . إِنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ــ ٣٦ . إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ــ ٣٧. هَا أَنْتُمْ هٰؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ــ ٣٨ .

(بيان)

لما وصف حال الكفار وأضاف اليه وصف حال الذين في قلوبهم مرض وتثاقلهم في أمر القتال وحال من ارتدّ منهم بعد ، رجع يحذّر المؤمنين أن يكونوا أمثالهم

فيفاوضوا المشركين ويميلوا اليهم فيتبعوا مـا أسخط الله ويكرهوا رضوانه فيبطل أعمالهم بالحبط ، وفي الآيات موعظة لهم بالترغيب والترهيب والتطميع والتخويف ، وبذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « يا أيهـــا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » الآية وإن كانت في نفسها مستقلة في مدلولها مطلقـة في معناها حتى استدلّ الفقهاء بقوله فيها : « ولا تبطلوا أعمالكم » على حرمة إبطال الصلاة بعـد الشروع فيها لكنها من حيث وقوعها في سياق الآيات السابقة المتعرضة لأمر القتال ، وكذا الآيات اللاحقة الجارية على السياق وخاصة ما في ظاهر قوله : « إن الذين كفروا » الخ ، من التعليل وما في قوله : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم » الخ ، من التفريـع ، وبالجملة الآية بالنظر إلى سياقها تدلّ على إيجاب طاعة الله سبحانه فيما أنزل من الكتاب وشرّع من الحكم وإيجاب طاعة الرسول فيما بلـّغ عن الله سبحانه ، وفيما يُصدر من الأمر من حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الديني ، وعلى تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلي به اولئك الضعفاء الإيمان المائلون إلى النفاق الذين انجرّ أمر بعضهم أن ارتدّوا بعد ما تبين لهم الهدى .

فالمراد بحسب المورد من طاعة الله طاعته فيما شرّع وأنزل من حكم القتال ، ومن طاعة الرسول طاعته فيما بلـّغ منه وفيما أمر به منه ومن مقدماته بما له من الولاية فيه وبإبطال الأعمال التخلف عن حكم القتال كما تخلف المنافقون وأهل الردّة .

وقيل : المراد بإبطال الأعمال إحبـــاطها بمنّهم على الله ورسوله بإيمانهم كما في قوله تعالى : « يمنّون عليك أن أسلموا » ، وقيل : إبطالها بالرياء والسمعة ، وقيل : بالعجب ، وقيل : بالكفر والنفاق ، وقيل : المراد إبطال الصدقات بالمنّ والأذى كما قال : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى » البقرة : ٢٦٤ ، وقيل: إبطالها بالمعاصي، وقيل : بخصوص الكبائر .

ويرد على هذه الأقوال جميعاً أن كل واحد منها على تقدير صحته وتسليمه مصداق من مصاديق الآية مع الغضّ من وقوعها في السياق الذي تقدمت الإشارة اليه ، وأما من حيث وقوعها في السياق فلا تشمل إلا القتال كما مرّ .

قوله تعالى : « إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن

يغفر الله لهم » ظاهر السياق أنه تعليل لمضمون الآية السابقة فيفيد أنكم لو لم تطيعوا الله ورسوله وأبطلتم أعمالكم باتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه أدّاكم ذلك إلى اللحوق بأهل الكفر والصد ولا مغفرة لهم بعد موتهم كذلك أبداً .

والمراد بالصد عن سبيل الله الإعراض عن الإيمان أو منع الناس أن يؤمنوا .

قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » تفريع على ما تقدم ، وقوله : « فلا تهنوا » من الوهن بمعنى الضعف والفتور ، وقوله : « وتدعوا إلى السلم » معطوف على « تهنوا » واقع في حيز النهي أي ولا تدعوا إلى السلم ، والسلم - بفتح السين - الصلح ، وقوله : « وأنتم الأعلون » جملة حالية أي لا تفعلوا الصلح ، وقوله : « وأنتم الأعلون » جملة حالية أي لا تفعلوا ذلك والحال أنكم الغالبون ، والمراد بالعلوّ الغلبة وهي استعارة مشهورة .

وقوله : « والله معكم » معطوف على « وأنتم الأعلون » يبين سبب علوّهم ويعلله فالمراد بمعيّته تعالى لهم معيّة النصر دون المعيّة القيُّومية التي يشير اليها قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » الحديد : ٤ .

وقوله : « ولن يتركم أعمالكم » قال في المجمع : يقال : وتره يتره وتراً إذا نقصه ومنه الحديث [١] فكأنه وتر أهله وماله ، وأصله القطع ومنه الترة القطع بالقتل ومنه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره . انتهى .

فالمعنى : لن ينقصكم أعمالكم أي يوفـّي أجرها تاماً كاملاً ، وقيل : المعنى : لن يضيع أعمالكم ، وقيل : لن يظلمكم ، والمعاني متقاربة .

ومعنى الآية : إذا كانت سبيل عدم طاعة الله ورسوله وإبطال أعمالكم هذه السبيل وكان مؤدّياً إلى الحرمان من مغفرة الله أبداً فلا تضعفوا ولا تفتروا في أمر القتال ولا تدعوا المشركين إلى الصلح وترك القتال والحال أنكم أنتم الغالبون والله ناصركم عليهم ولن ينقصكم شيئاً من اجوركم بل يوفيكموها تامة كاملة .

---

(١) وهو ما عن النبي صلى الله عليه وآله : « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » عن الجوامع .

وفي الآية وعد المؤمنين بالغلبة والظفر إن أطاعوا الله ورسوله فهي كقوله: « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » آل عمران : ١٣٩ .

قوله تعالى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم ولا يسألكم أموالكم » ترغيب لهم في الآخرة وتزهيد لهم عن الدنيا ببيان حقيقتها وهي أنها لعب ولهو – وقد مر معنا كونها لعباً ولهواً – .

وقوله : « وإن تؤمنوا » الخ ، أي إن تؤمنوا وتتقوا بطاعته وطاعة رسوله يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم بإزاء ما أعطاكم وظاهر السياق أن المراد بالأموال جميع أموالهم ويؤيده أيضاً الآية التالية .

قوله تعالى : « إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويُخرج أضغانكم » الإحفاء الإجهاد وتحميل المشقة ، والمراد بالبخل – كما قيل – الكفّ عن الإعطاء ، والأضغان الأحقاد .

والمعنى : إن يسألكم جميع أموالكم فيجهدكم بطلب كلها كففتم عن الإعطاء لحبكم لها ويخرج أحقاد قلوبكم فضللتم .

قوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل » إلى آخر الآية بمنزلة الاستشهاد في بيان الآية السابقة كأنه قيل : إنه إن يسأل الجميع فيحفكم تبخلوا ويشهد بذلك أنكم أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله – وهو بعض أموالكم – فبعضكم يبخل فيظهر به أنه لو سأل الجميع جميعكم بخلتم .

وقوله : « ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » أي يمنع الخير عن نفسه فإن الله لا يسأل ما لهم لينتفع هو به بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم وآخرتهم فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خير أنفسهم ، واليه يشير قوله بعده : « والله الغني وأنتم الفقراء » والقصران للقلب أي الله هو الغني دونكم وأنتم الفقراء دون الله .

وقوله : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » قيل : عطف على قوله : « وإن تؤمنوا وتتقوا » والمعنى : إن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم وإن تتولوا وتعرضوا يستبدل قوماً غيركم بأن يوفقهم للإيمان دونكم ثم لا يكونوا أمثالكم بل يؤمنون ويتقون وينفقون في سبيل الله .

(بحث روائي)

في ثواب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من قال : سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال: لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال: الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة .

فقال رجل من قريش : يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير . قال : نعم ولكن إياكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها ، وذلك أن الله عز وجل يقول : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .

وفي تفسير القمي « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » قال : هي منسوخة بقوله : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم » .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله هذه الآية : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فقالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على منكب سلمان ثم قال : هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس .

أقول : وروي بطرق أخر عن أبي هريرة مثله . وكذا عن ابن مردويه عن جابر مثله .

وفي المجمع وروى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إن تتولوا » يا معشر العرب « يستبدل قوماً غيركم » يعني الموالي .

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قد والله أبدل خيراً منهم الموالي .

(سورة الفتح مدنية ، وهي تسع وعشرون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ــ ١ .
لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ
وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ــ ٢ . وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ــ ٣ .
هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ
إِيمَانِهِمْ وَلِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ــ ٤ .
لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً ــ ٥ .
وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ
ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ
جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ــ ٦ . وَلِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ
اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ــ ٧ .

(بيان)

مضامين آيات السورة بفصولها المختلفة ظاهرة الانطباق على قصة صلح الحديبية الواقعة في السنة السادسة من الهجرة وما وقع حولها من الوقائع كقصة تخلّف الأعراب

وصدّ المشركين ، وبيعة الشجرة على ما تفصّله الآثار وسيجيء شطر منها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

فغرض السورة بيان ما امتنّ الله تعالى على رسوله ﷺ بما رزقه من الفتح المبين في هذه السفرة ، وعلى المؤمنين ممن معه ، ومدحهم البالغ ، والوعد الجميل للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات ، والسورة مدنية .

قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » كلام واقع موقع الامتنان ، وتأكيد الجملة بإنّ ونسبة الفتح إلى نون العظمة وتوصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذي يمتنّ به .

والمراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيه ﷺ من الفتح في صلح الحديبية .

وذلك أن ما سيأتي في آيات السورة من الامتنان على النبي ﷺ والمؤمنين ، ومدحهم والرضا عن بيعتهم ووعدهم الجميل في الدنيا بغنائم عاجلة وآجلة وفي الآخرة بالجنة وذمّ المخلّفين من الأعراب إذ استنفرهم رسول الله ﷺ فلم يخرجوا معه ، وذمّ المشركين في صدّهم النبي ﷺ ومن معه ، وذمّ المنافقين ، وتصديقه تعالى رؤيا نبيه ﷺ ، وقوله : « فعلم ما لم تعلموا وجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » – وكاد يكون صريحاً – كل ذلك معانٍ مرتبطة بخروجه ﷺ إلى مكة للحج وانتهاء ذلك إلى صلح الحديبية .

وأما كون هذا الصلح فتحاً مبيناً رزقه الله نبيه ﷺ فظاهر بالتدبر في لحن آيات السورة في هذه القصة فقد كان خروج النبي والمؤمنين إلى هذه البغية خروجاً على خطر عظيم لا يرجى معه رجوعهم إلى المدينة عادة كما يشير اليه قوله تعالى : « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً » والمشركون من صناديد قريش ومن يتبعهم على ما لهم من الشوكة والقوة والعداوة مع النبي ﷺ والمؤمنين لم يتوسط بينهم منذ سنين إلا السيف ولم يجمعهم جامع غير معركة القتال كغزوة بدر وأُحد والأحزاب ، ولم يخرج مع النبي ﷺ إلا شرذمة قليلون – ألف وأربعمائة – لا قدر لهم عند جموع المشركين وهم في عقر دارهم .

لكن الله سبحانه قلّب الأمر للنبي ﷺ والمؤمنين على المشركين فرضوا بما لم

يكن مطموعاً فيه متوقعاً منهم فسألوا النبي ﷺ أن يصالحهم على ترك القتال عشر سنين ، وعلى تأمين كل من القبيلين أتباع الآخر ومن لحق به ، وعلى أن يرجع النبي ﷺ إلى المدينة عامه هذا ثم يقدم إلى مكة العام القابل فيخلّوا له المسجد والكعبة ثلاثة أيام .

وهذا من أوضح الفتح رزقه الله نبيه ﷺ وكان من أمسّ الأسباب بفتح مكة سنة ثمان من الهجرة فقد آمن جمع كثير من المشركين في السنتين بين الصلح وفتح مكة ، وفتح في أوائل سنة سبع خيبر وما والاه وقوي به المسلمون واتّسع الإسلام اتساعاً بيّناً وكثر جمعهم وانتشر صيتهم وأشغلوا بلاداً كثيرة ، وخرج النبي ﷺ لفتح مكة في عشرة آلاف أو في اثني عشر ألفاً ، وقد كان خرج إلى حديبية في ألف وأربعمائة على ما تفصّله الآثار .

وقيل : المراد بالفتح فتح مكة فالمراد بقوله : « إنا فتحنا لك » إنا قضينا لك فتح مكة ، وفيه أن القرائن لا تساعده .

وقيل : المراد به فتح خيبر ، ومعناه – على تقدير نزول السورة عند مرجع النبي ﷺ من الحديبية إلى المدينة – إنا قضينا لك فتح خيبر ، وحال هذا القول أيضاً كسابقه .

وقيل: المراد به الفتح المعنوي وهو الظفر على الأعداء بالحجج البيّنة والمعجزات الباهرة التي غلب بها كلمة الحق على الباطل وظهر الإسلام على الدين كله ، وهذا الوجه وإن كان في نفسه لا بأس به لكن سياق الآيات لا يلائمه .

قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً » اللام في قوله : « ليغفر » للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ فظاهره أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ومن المعلوم أن لا رابطة بين الفتح وبين مغفرة الذنب ولا معنى معقولاً لتعليله بالمغفرة .

وقول بعضهم فراراً عن الإشكال : إن اللام المكسورة في « ليغفر » لام القسَم والأصل ليغفرنّ حذفت نون التوكيد وبقي ما قبلها مفتوحاً للدلالة على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال .

وكذا قول بعض آخر فراراً عن الإشكال : « إن العلة هو مجموع المغفرة وما عطف عليه من إتمام النعمة والهداية والنصر العزيز من حيث المجموع فلا ينافي عدم كون البعض أي مغفرة الذنب في نفسه علة للفتح » كلام سخيف لا يغني طائلا فإن مغفرة الذنب لا هي علة أو جزء علة للفتح ولا مرتبطة نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجه دخولها في ضمن علله فلا مصحح لذكرها وحدها ولا مع العلل وفي ضمنها .

وبالجملة هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب في الآية هو الذنب المعروف وهو مخالفة التكليف المولوي ، ولا المراد بالمغفرة معناها المعروف وهو ترك العقاب على المخالفة المذكورة فالذنب في اللغة على ما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الذي له تبعة سيئة كيفما كان ، والمغفرة هي الستر على الشيء ، وأما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذنب والمغفرة إلى أذهاننا اليوم أعني مخالفة الأمر المولوي المستتبع للعقاب وترك العقاب عليها فإنما لزماهما بحسب عرف المتشرعين .

وقيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة ونهضته على الكفر والوثنية فيما تقدم على الهجرة وإدامته ذلك وما وقع له من الحروب والمغازي مع الكفار والمشركين فيما تأخر عن الهجرة كان عملاً منه صلى الله عليه وآله وسلم ذا تبعة سيئة عند الكفار والمشركين وما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة ومقدرة ، وما كانوا لينسوا زهوق ملتهم وانهدام سنتهم وطريقتهم ، ولا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه وإمحاء اسمه وإعفاء رسمه غير أن الله سبحانه رزقه صلى الله عليه وآله وسلم هذا الفتح وهو فتح مكة أو فتح الحديبية المنتهي إلى فتح مكة فذهب بشوكتهم وأخمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه صلى الله عليه وآله وسلم من الذنب وآمنه منهم .

فالمراد بالذنب ـ والله أعلم ـ التبعة السيئة التي لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم عند الكفار والمشركين وهو ذنب لهم عليه كما في قول موسى لربه : « ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون » الشعراء : ١٤ ، وما تقدم من ذنبه هو ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم بمكة قبل الهجرة ، وما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة ، ومغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنيتهم ، ويؤيد ذلك ما يتلوه من قوله : « ويتم نعمته عليك ـ إلى أن قال ـ وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

وللمفسرين في الآية مذاهب مختلفة أخر :

فمن ذلك : أن المراد بذنبه ﷺ ما صدر عنه من المعصية، والمراد بما تقدم منه وما تأخر ما صدر عنه قبل النبوة وبعدها، وقيل: ما صدر قبل الفتح وما صدر بعده.

وفيه أنه مبني على جواز صدور المعصية عن الأنبياء عليهم السلام وهو خلاف ما يقطع به الكتاب والسنة والعقل من عصمتهم عليهم السلام وقد تقدم البحث عنه في الجزء الثاني من الكتاب وغيره .

على أن إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

ومن ذلك : أن المراد بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر مغفرة ما وقع من معصيته وما لم يقع بمعنى الوعد بمغفرة ما سيقع منه إذا وقع لئلا يرد الإشكال بأن مغفرة ما لم يتحقق من المعصية لا معنى له .

وفيه مضافاً إلى ورود ما ورد على سابقه عليه أن مغفرة ما سيقع من المعصية قبل وقوعه تلازم ارتفاع التكاليف عنه ﷺ عامة، ويدفعه نص كلامه تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى : « إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين » الزمر : ٢ ، وقوله : « وأمرت لأن أكون أول المسلمين » الزمر : ١٢ ، إلى غير ذلك من الآيات التي تأبى بسياقها التخصيص .

على أن من الذنوب والمعاصي مثل الشرك بالله وافتراء الكذب على الله والاستهزاء بآيات الله والإفساد في الأرض وهتك المحارم ، وإطلاق مغفرة الذنوب يشملها ولا معنى لأن يبعث الله عبداً من عباده فيأمره أن يقيم دينه على ساق ويصلح به الأرض فإذا فتح له ونصره وأظهره على ما يريد يجيز له مخالفة ما أمره وهدم ما بناه وإفساد ما أصلحه بمغفرة كل مخالفة ومعصية منه والعفو عن كل ما تقوّله وافتراه على الله ، وفعله تبليغ كقوله، وقد قال تعالى: « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » الحاقة : ٤٦ .

ومن ذلك : قول بعضهم : إن المراد بمغفرة ما تقدم من ذنبه مغفرة ما تقدم من ذنب أبويه آدم وحواء عليهما السلام ببركته ﷺ والمراد بمغفرة ما تأخر منه مغفرة ذنوب أمته بدعائه .

وفيه ورود ما ورد على ما تقدم عليه .

ومن ذلك : أن الكلام في معنى التقدير وإن كان في سياق التحقيق والمعنى : ليغفر لك الله قديم ذنبك وحديثه لو كان لك ذنب .

وفيه أنه أخذ بخلاف الظاهر من غير دليل .

ومن ذلك : أن القول خارج مخرج التعظيم وحسن الخطاب والمعنى : غفر الله لك كما في قوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » التوبة : ٤٣ .

وفيه أن العادة جرت في هذا النوع من الخطاب أن يورد بلفظ الدعاء . كما قيل .

ومن ذلك : أن المراد بالذنب في حقه ﷺ ترك الأولى وهو مخالفة الأوامر الإرشادية دون التمرد عن امتثال التكاليف المولوية ، والأنبياء على ما هم عليه من درجات القرب يؤاخذون على ترك ما هو أولى كما يؤاخذ غيرهم على المعاصي المعروفة كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقرّبين .

ومن ذلك : ما ارتضاه جمع من أصحابنا من أن المراد بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر مغفرة ما تقدم من ذنوب أمته وما تأخر منها بشفاعته ﷺ ، ولا ضير في إضافة ذنوب أمته ﷺ اليه للاتصال والسبب بينه وبين أمته .

وهذا الوجه والوجه السابق عليه سليمان عن عامة الإشكالات لكن إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

ومن ذلك : ما عن علم الهدى رحمه الله أن الذنب مصدر ،والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً فيكون هنا مضافاً الى المفعول ، والمراد ما تقدم من ذنبهم اليك في منعهم إياك من مكة وصدّهم لك عن المسجد الحرام ، ويكون معنى المغفرة علىهذا الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين أي يزيل الله تعالى ذلك عنك ويستر عليك تلك الوصمة بما يفتح لك من مكة فتدخلها فيما بعد .

وهذا الوجه قريب المأخذ مما قدمنا من الوجه ، ولا بأس به لو لم يكن فيه بعض المخالفة لظاهر الآية .

وفي قوله : « ليغفر لك الله » الخ ، بعد قوله : « إنا فتحنا لك » التفات من التكلم إلى الغيبة ولعل الوجه فيه أن محصّل السورة امتنانه تعالى على النبي ﷺ

والمؤمنين بما رزق من الفتح وإنزال السكينة والنصر وسائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجاري في السورة سياق الغيبة ويذكر تعالى فيها باسمه وينسب اليه النصر بما يعبده نبيه والمؤمنون وحده قبال ما لا يعبده المشركون وإنما يعبدون آلهة من دونه طمعاً في نصرهم ولا ينصرونهم .

وأما سياق التكلم مع الغير المشعر بالعظمة في الآية الاولى فلمناسبته ذكر الفتح فيها ويجري الكلام في قوله تعالى الآتي : « إنا أرسلناك شاهداً » الآية .

وقوله : « ويتم نعمته عليك » قيل : أي يتمها عليك في الدنيا بإظهارك على عدوك وإعلاء أمرك وتمكين دينك ، وفي الآخرة برفع درجتك ، وقيل : أي يتمها عليك بفتح خيبر ومكة والطائف .

وقوله : « ويهديك صراطاً مستقيماً » قيل : أي ويثبتك على صراط يؤدي بسالكه إلى الجنة ، وقيل : أي ويهديك إلى مستقيم الصراط في تبليغ الأحكام وإجراء الحدود .

وقوله : « وينصرك الله نصراً عزيزاً » قيل : النصر العزيز هو ما يمتنع به من كل جبار عنيد وعاتٍ مريد ، وقد فعل بنبيه صلى الله عليه وآله ذلك إذ جعل دينه أعزّ الأديان وسلطانه أعظم السلطان ، وقيل : المراد بالنصر العزيز ما هو نادر الوجود قليل النظير أو عديمه ونصره تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله كذلك كما يظهر بقياس حاله في أول بعثته إلى حاله في آخر أيام دعوته .

والتدبر في سياق الآيتين بالبناء على ما تقدم من معنى قوله : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » يعطي أن يكون المراد بقوله: « ويتم نعمته عليك » هو تمهيده تعالى له صلى الله عليه وآله لتمام الكلمة وتصفيته الجو لنصره نصراً عزيزاً بعد رفع الموانع بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وبقوله : « ويهديك صراطاً مستقيماً » هدايته صلى الله عليه وآله بعد تصفية الجو له إلى الطريق الموصل إلى الغاية الذي سلكه بعد الرجوع من الحديبية من فتح خيبر وبسط سلطة الدين في أقطار الجزيرة حتى انتهى إلى فتح مكة والطائف .

وبقوله: « وينصرك الله نصراً عزيزاً » نصره له صلى الله عليه وآله ذاك النصر الظاهر الباهر

الذي قلما يوجد – أو لا يوجد – له نظير إذ فتح له مكة والطائف وانبسط الإسلام في أرض الجزيرة وانقلع الشرك وذلّ اليهود وخضع له نصارى الجزيرة والمجوس القاطنون بها ، وأكمل تعالى للناس دينهم وأتمّ عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً .

قوله تعالى : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » الخ ، الظاهر أن المراد بالسكينة سكون النفس وثباتها واطمئنانها إلى ما آمنت به ، ولذا علّل إنزالها فيها بقوله : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » وقد تقدم البحث عن السكينة في ذيل قوله تعالى : « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم » البقرة : ٢٤٨ في الجزء الثاني من الكتاب وذكرنا هناك أنها تنطبق على روح الإيمان المذكور في قوله تعالى : « وأيّدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ .

وقيل : السكينة هي الرحمة ، وقيل : العقل ، وقيل : الوقار والعصمة لله ولرسوله ، وقيل : الميل إلى ما جاء به الرسول ﷺ ، وقيل : ملك يسكن قلب المؤمن ، وقيل : شيء له رأس كرأس الهرة ، وهذه الأقاويل لا دليل على شيء منها .

والمراد بإنزال السكينة في قلوبهم إيجادها فيها بعد عدمها فكثيراً ما يعبر في القرآن عن الخلق والإيجاد بالإنزال كقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، وقوله : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ ، وقوله : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ . وإنما عبّر عن الخلق والإيجاد بالإنزال للإشارة إلى علوّ مبدئه .

وقيل : المراد بالإنزال الإسكان والإقرار من قولهم : نزل في مكان كذا أي حط رحله فيه وأنزلته فيه أي حططت رحله فيه هذا .

وهو معنى غير معهود في كلامه تعالى مع كثرة وروده فيه ، ولعل الباعث لهم على اختيار هذا المعنى تعديته في الآية بلفظة « في » إذ قال : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » لكنه عناية كلامية لوحظ فيها تعلق السكينة بالقلوب تعلق الاستقرار فيها كما لوحظ تعلقها تعلق الوقوع عليها من علو في قوله الآتي : « فأنزل السكينة عليهم » الآية وقوله : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الآية .

والمراد بزيادة الإيمان اشتداده فإن الإيمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتب عليه آثاره العملية ، ومن المعلوم أن كلا من العلم والالتزام المذكورين مما يشتد

ويضعف فالإيمان الذي هو العلم المتلبس بالالتزام يشتد ويضعف .

فمعنى الآية: الله الذي أوجد الثبات والاطمئنان الذي هو لازم مرتبة من مراتب الروح في قلوب المؤمنين ليشتد به الإيمان الذي كان لهم قبل نزول السكينة فيصير أكمل مما كان قبله .

(كلام في الإيمان وازدياده)

الإيمان بالشيء ليس مجرد العلم الحاصل به كما يستفاد من أمثال قوله تعالى : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى » سورة محمد : ٢٥ ، وقوله : «إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى » سورة محمد : ٣٢ ، وقوله : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ ، وقوله: «وأضله الله على علم » الجاثية : ٢٣ ، فالآيات – كما ترى – تثبت الارتداد والكفر والجحود والضلال مع العلم .

فمجرد العلم بالشيء والجزم بكونه حقاً لا يكفي في حصول الإيمان واتصاف من حصل له به ، بل لا بد من الإلتزام بمقتضاه وعقد القلب على مؤداه بحيث يترتب عليه آثاره العملية ولو في الجملة ، فالذي حصل له العلم بأن الله تعالى إله لا إله غيره فالتزم بمقتضاه وهو عبوديته وعبادته وحده كان مؤمناً ولو علم به ولم يلتزم فلم يأت بشيء من الأعمال المظهرة للعبودية كان عالماً وليس بمؤمن .

ومن هنا يظهر بطلان ما قيل : إن الإيمان هو مجرد العلم والتصديق وذلك لما مر أن العلم ربما يجامع الكفر .

ومن هنا يظهر أيضاً بطلان ما قيل : إن الإيمان هو العمل ، وذلك لأن العمل يجامع النفاق فالمنافق له عمل وربما كان ممن ظهر له الحق ظهوراً علمياً ولا إيمان له على أي حال .

وإذ كان الإيمان هو العلم بالشيء مع الالتزام به بحيث يترتب عليه آثاره العملية، وكل من العلم والالتزام مما يزداد وينقص ويشتد ويضعف كان الإيمان المؤلف منهما قابلاً للزيادة والنقيصة والشدة والضعف فاختلاف المراتب وتفاوت الدرجات من الضروريات التي لا يشك فيها قط .

هذا ما ذهب اليه الأكثر وهو الحق ويدل عليه من النقل قوله تعالى: «ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» وغيره من الآيات، وما ورد من أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام الدالة على أن الإيمان ذو مراتب.

وذهب جمع منهم أبو حنيفة وإمام الحرمين وغيرهما إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، واحتجوا عليه بأن الإيمان اسم للتصديق البالغ حد الجزم والقطع وهو مما لا يتصور فيه الزيادة والنقصان فالمصدق إذا ضم إلى تصديقه الطاعات أو ضم اليه المعاصي فتصديقه بحاله لم يتغير أصلاً.

وأولوا ما دلّ من الآيات على قبوله الزيادة والنقصان بأن الإيمان عرض لا يبقى بشخصه بل بتجدد الأمثال فهو بحسب انطباقه على الزمان بأمثاله المتجددة يزيد وينقص كوقوعه للنبي ﷺ مثلاً على التوالي من غير فترة متخللة وفي غيره بفترات قليلة أو كثيرة فالمراد بزيادة الإيمان توالي أجزاء الإيمان من غير فترة أصلاً أو بفترات قليلة.

وأيضاً للإيمان كثرة بكثرة ما يؤمن به، وشرائع الدين لما كانت تنزل تدريجاً والمؤمنون يؤمنون بما ينزل منها وكان يزيد عدد الأحكام حيناً بعد حين كان إيمانهم أيضاً يزيد تدريجاً، وبالجملة المراد بزيادة الإيمان كثرته عدداً.

وهو بيّن الضعف، أما الحجة ففيها أولاً: أن قولهم: الإيمان اسم للتصديق الجازم ممنوع بل هو اسم للتصديق الجازم الذي معه الالتزام كما تقدم بيانه اللهم إلا أن يكون مرادهم بالتصديق العلم مع الالتزام.

وثانياً: أن قولهم: إن هذا التصديق لا يختلف بالزيادة والنقصان دعوى بلا دليل بل مصادرة على المطلوب وبناؤه على كون الإيمان عرضاً وبقاء الأعراض على نحو تجدد الأمثال لا ينفعهم شيئاً فإن من الإيمان ما لا تحركه العواصف ومنه ما يزول بأدنى سبب يعترض وأوهن شبهة تطرأ، وهذا مما لا يعلل بتجدد الأمثال وقلة الفترات وكثرتها بل لا بد من استناده إلى قوة الإيمان وضعفه سواء قلنا بتجدد الأمثال أم لا.

مضافاً إلى بطلان تجدد الأمثال على ما بيّن في محله.

وقولهم: إن المصدق إذا ضمّ اليه الطاعات أو ضمّ اليه المعاصي لم يتغير حاله أصلاً ممنوع فقوة الإيمان بمزاولة الطاعات وضعفها بارتكاب المعاصي مما لا ينبغي

الارتياب فيه ، وقوة الأثر وضعفه كاشفة عن قوة مبدأ الأثر وضعفه ، قال تعالى: « اليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه » فاطر : ١٠ ، وقال : « ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوآى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن » الروم : ١٠ .

وأما ما ذكروه من التأويل فأول التأويلين يوجب كون من لم يستكمل الإيمان وهو الذي في قلبه فترات خالية من أجزاء الإيمان على ما ذكروه مؤمناً وكافراً حقيقة وهذا مما لا يساعده ولا يشعر به شيء من كلامه تعالى .

وأما قوله تعالى : « ولا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ ، فهو إلى الدلالة على كون الإيمان مما يزيد وينقص أقرب منه إلى الدلالة على نفيه فإن مدلوله أنهم مؤمنون في حال أنهم مشركون فإيمانهم إيمان بالنسبة إلى الشرك المحض وشرك بالنسبة إلى الإيمان المحض ، وهذا معنى قبول الإيمان للزيادة والنقصان .

وثاني التأويلين يفيد أن الزيادة في الإيمان وكثرته إنما هي بكثرة ما تعلق به وهو الأحكام والشرائع المنزلة من عند الله فهي صفة للإيمان بحال متعلقه والسبب في اتصافه بها هو متعلقه ، ولو كان هذه الزيادة هي المرادة من قوله: « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » كان الأنسب أن تجعل زيادة الإيمان في الآية غاية لتشريع الأحكام الكثيرة وإنزالها لا لإنزال السكينة في قلوب المؤمنين هذا .

وحمل بعضهم زيادة الإيمان في الآية على زيادة أثره وهو النور المشرق منه على القلب .

وفيه أن زيادة الأثر وقوته فرع زيادة المؤثر وقوته فلا معنى لاختصاص أحد الأمرين المتساويين من جميع الجهات بأثر يزيد على أثر الآخر .

وذكر بعضهم أن الإيمان الذي هو مدخول مع في قوله : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » الإيمان الفطري والإيمان المذكور قبله هو الإيمان الاستدلالي ، والمعنى : ليزدادوا إيماناً استدلالياً على إيمانهم الفطري .

وفيه أنه دعوى من غير دليل يدلُّ عليه. على أن الإيمان الفطري أيضاً استدلالي فمتعلق العلم والإيمان على أي حال أمر نظري لا بديهي .

وقال بعضهم كالإمام الرازي : إن النزاع في قبول الإيمان للزيادة والنقص وعدم قبوله نزاع لفظي فمراد النافين عدم قبول أصل الإيمان وهو التصديق ذلك وهو كذلك

لعدم قبوله الزيادة والنقصان ، ومراد المثبتين قبول مـا به كمال الإيمان وهو الأعمال للزيادة والنقصان وهو كذلك بلا شك .

وفيه أولاً : أن فيه خلطاً بين التصديق والإيمان فالإيمان تصديق مع الالتزام وليس بمجرد التصديق فقط كما تقدم بيانه .

وثانياً : أن نسبة نفي الزيادة في أصل الإيمان إلى المثبتين غير صحيحة فهم إنما يثبتون الزيادة في أصل الإيمان ، ويرون أن كلا من العلم والإلتزام المؤلف منهما الإيمان يقبل القوة والضعف .

وثالثاً : أن إدخال الأعمال في محل النزاع غير صحيح لأن النزاع في شيء غير النزاع في أثره الذي به كماله ولا نزاع لأحد في أن الأعمال والطاعات تقبل العد وتقل وتكثر بحسب تكرر الواحد .

* * *

وقوله : « ولله جنود السماوات والأرض » الجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله ولذا أطلق على العسكر المجتمعين على إجراء مـا يأمر به أميرهم ، والسياق يشهد أن المراد بجنود السماوات والأرض الأسباب الموجودة في العالم مما يرى ولا يرى من الخلق فهي وسائط متخللة بينه تعالى وبين ما يريده من شيء تطيعه ولا تعصاه .

وإيراد الجملة أعني قوله : « ولله جنود » الخ ، بعـد قوله : « هو الذي أنزل السكينة » الخ ، للدلالة على أن له جميع الأسباب والعلل التي في الوجود فله أن يبلغ إلى ما يشاء بما يشاء ولا يغلبه شيء في ذلك ، وقد نسبت إلى زيادة إيمان المؤمنين بانزال السكينة في قلوبهم .

وقوله : « وكان الله عزيزاً حكيماً » أي منيعاً جانبه لا يغلبه شيء متقناً في فعله لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته والجملة بيان تعليلي لقوله : « ولله جنود » الخ ، كما أنـه بيان تعليلي لقوله : « هو الذي أنزل السكينة » الخ ، كأنه قيل : أنزل السكينة لكذا وله ذلك لأن له جميع الجنود والأسباب لأنه العزيز على الإطلاق والحكيم على الإطلاق.

قوله تعالى : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار » إلى

آخر الآية ، تعليل آخر لقوله : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » على المعنى كما أن قوله : « ليزدادوا إيماناً » تعليل له بحسب اللفظ كأنه قيل : خص المؤمنين بإنزال السكينة وحرم على غيرهم ذلك ليزداد إيمان هؤلاء مع إيمانهم وحقيقة ذلك أن يدخل هؤلاء الجنة ويعذب اولئك فيكون قوله : « ليدخل » بدلاً أو عطف بيان من قوله : « ليزدادوا » الخ .

وفي متعلق لام « ليدخل » الخ ، أقوال أخر كالقول بتعلقها بقوله : « فتحنا » أو قوله : « يزدادوا » أو بجميع ما تقدم إلى غير ذلك مما لا جدوى لإيراده .

وضم المؤمنات إلى المؤمنين في الآية لدفع توهم اختصاص الجنة وتكفير السيئات بالذكور لوقوع الآية في سياق الكلام في الجهاد ، والجهاد والفتح واقعان على أيديهم فصرح باسم المؤمنات لدفع التوهم كما قيل .

وضمير « خالدين » و « يكفر عنهم سيئاتهم » للمؤمنين والمؤمنات جميعاً على التغليب.

وقوله : « وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » بيان لكون ذلك سعادة حقيقية لا ريب فيها لكونه عند الله كذلك وهو يقول الحق .

قوله تعالى : « ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات » إلى آخر الآية معطوف على قوله : « يدخل » بالمعنى الذي تقدم ، وتقديم المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات في الآية لكونهم أضر على المسلمين من أهل الشرك ولأن عذاب أهل النفاق أشد قال تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » .

وقوله : « الظانين بالله ظن السوء » السوء بالفتح فالسكون مصدر بمعنى القبح والسوء بالضم اسم مصدر ، وظن السوء هو ظنهم أن الله لا ينصر رسوله وقيل : المراد بظن السوء ما يعمّ ذلك وسائر ظنونهم السيئة من الشرك والكفر .

وقوله : « عليهم دائرة السوء » دعاء عليهم أو قضاء عليهم أي ليستضروا بدائرة السوء التي تدور لتصيب من تصيب من الهلاك والعذاب .

وقوله : « وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم » معطوف على قوله : « عليهم دائرة » الخ ، وقوله : « وساءت مصيراً » بيان مساءة مصيرهم ، كما أن قوله : « وكان عند الله فوزاً عظيماً » بيان لحسن مصير أهل الإيمان .

قوله تعالى : « ولله جنود السماوات والأرض » تقدم معناه ، والظاهر أنه بيان

تعليلي للآيتين أعني قوله : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات – إلى قوله – وأعـد لهم جهنم » على حذو ما كان مثله فيما تقـدم بياناً تعليلياً لقوله : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » الخ .

وقيل : إن مضمونه متعلق بالآية الأخيرة فهو تهـديد لهم أنهم في قبضة قدرته فينتقم منهم ، والوجه الأول أظهر .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : كان سبب نزول هذه الآية وهذا الفتح العظيم أن الله جل وعز أمر رسوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في النوم أن يدخل المسجد الحرام ويطوف ويحلـّق مع المحلقين فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا .

فلما نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة وساقوا البدن وساق رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ستة وستين بدنة وأحرموا من ذي الحليفـة ملبّين بالعمرة وقد ساق من ساق منهم الهدي معرّات مجللات .

فلمـا بلغ قريشاً بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً يستقبل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فكان يعارضه على الجبال فلما كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذّن بلال فصلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بالناس فقال خالد بن الوليد : لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبنـاهم لأنهم لا يقطعون صلاتهم ولكن تجيء الآن لهم صلاة اخرى أحب اليهم من ضياء أبصارهم فإذا دخـلوا في الصلاة أغرنا عليهم ، فنزل جبرئيل على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بصلاة الخوف في قوله عز وجل : « فإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة » الآية .

قال: فلما كان في اليوم الثاني نزل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الحديبية، وكان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يستنفر الأعراب في طريقه فلم يتبعه أحد ويقولون : أيطمع محمد وأصحابه أن يدخلوا الحرم وقد غزتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوهم، إنه لا يرجع محمد وأصحابه إلى المدينة أبداً . الحديث .

وفي المجمع : قال ابن عباس : إن رسول الله ﷺ خرج يريد مكة فلما بلغ الحديبية وقفت ناقته فزجرها فلم تنزجر وبركت الناقة فقال أصحابه : خلأت الناقة ، فقال : ما هذا لها عادة ولكن حبسها حابس الفيل .

ودعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة ليأذنوا له بأن يدخل مكة ويحلّ من عمرته وينحر هديه فقال : يا رسول الله ما لي بها حميم وإني أخاف قريشاً لشدة عداوتي إياها ولكن أدلّك على رجل هو أعز بها مني عثمان بن عفان فقال : صدقت .

فدعا رسول الله ﷺ عثمان فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظّماً لحرمته ، فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل . فقال ﷺ : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فقام رسول الله ﷺ إلى الشجرة واستند اليها وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفرّوا . قال عبد الله بن مغفل : كنت قائماً على رأس رسول الله ﷺ ذلك اليوم وبيدي غصن من السمرة أذبُّ عنه وهو يبايع الناس فلم يبايعهم على الموت وإنما بايعهم على أن لا يفرّوا .

وروى الزهري وعروة بن الزبير والمسوّر بن مخرمة قالوا : خرج رسول الله ﷺ من المدينة في بضع عشرة مائة من أصحابه حتى إذا كانوا بذي الحليفة قلّد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش .

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط قريباً من عسفان أتاه عينه الخزاعي فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش وجمعوا جموعاً وهم قاتلوك أو مقاتلوك وصادّوك عن البيت فقال ﷺ : روحوا فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين .

فسار حتى إذا كان بالثنية بركت راحلته فقال ﷺ : ما خلأت القصواء ولكن حبسها حابس الفيل . ثم قال : والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت به .

قال : فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء إنما يتبرضه الناس تبرضاً

فشكوا اليه العطش فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه في الماء فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه .

فبينا هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نجىء لقتال أحد وإنا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤا ماددتهم مدة ويخلو بيني وبين الناس ، وإن شاؤا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمّوا وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لاقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذ الله تعالى أمره ، فقال بديل : سابلغهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وإنه يقول : كذا وكذا فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته فقالوا : ائته فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ نحواً من قوله لبديل .

فقال عروة عند ذلك:أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تكن الاخرى فوالله إني لأرى وجوهاً وأرى اشاباً من الناس خلقاء أن يفرّوا ويدعوك فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات أنحن نفرّ عنه وندعه ؟ فقال : من ذا ؟ قال : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك .

قال: وجعل يكلم النبي ﷺ وكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال : أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا ترجع اليك ، فقال : من هذا ؟ قال المغيرة بن شعبة . قال : أي غُدَر أولست أسعى في غدرتك .

قال : وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهليـة فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ : أمـــا الإسلام فقد قبلنا ، وأما المال فإنه مال غدر لا حاجة لنا فيه .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ إذا أمرهم رسول الله ﷺ ابتدروا أمره ، وإذا توضأ ثاروا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون اليه النظر تعظيماً له .

قال : فرجع عروة إلى أصحابه وقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر و كسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون اليه النظر تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته فقالوا : ائته فلما أشرف عليهم قال رسول الله ﷺ : هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها فبعثت له واستقبله القوم يلبون فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت .

فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال : دعوني آته فقالوا : ائته فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ : قد سهل عليكم أمركم فقال: اكتب بيننا وبينك كتاباً .

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال له رسول الله ﷺ : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم فقال المسلمون: والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي ﷺ : اكتب باسمك اللهم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال رسول الله ﷺ : إني لرسول الله وإن كذبتموني ثم قال لعلي امح رسول الله فقال : يا رسول الله إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة فأخذه رسول الله ﷺ فمحاه .

ثم قال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً الى مصر أو إلى الشام فهو آمن

على دمه وماله ، وأن بيننا [١] عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهده دخل فيه .

فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

فقال رسول الله ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف فقال سهيل : والله مـا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل . فكتب فقال سهيل : على أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته الينا ومن جاءنا ممن معك لم نرده عليك فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فقال رسول الله ﷺ : من جاءهم منا فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم رددناه اليهم فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجاً .

فقال سهيل : وعلى أنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القراب [٢] وسلاح الراكب ، وعلى أن هذا الهدي حيث ما حبسناه محله لا تقدمه علينا فقال : نحن نسوق وأنتم تردون .

فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف [٣] في قيوده وقـد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض بالكتاب بعد . قال : والله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً فقال النبي ﷺ : فأجره لي فقال : مـا أنا بمجيره لك قال : بلى فافعل ، قال ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجرناه ، قال أبو جندل بن سهيل : معاشر المسلمين أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت ؟ — وكان قد عذب عذاباً شديداً — .

---

(١) أي يكون بيننا صدر نقي من الغل والخداع .

(٢) القراب : جمع قربة بمعنى الغمد .

(٣) رسف رسفاً : إذا مشى مشي المقيد .

فقال عمر بن الخطاب: والله ما شككت مذ أسلمت إلا يومئذ فأتيت النبي ﷺ فقلت : ألست نبي الله ؟ فقال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل ؟ قال : بلى، قلت : فلمَ نعطي الدنيّة في ديننا إذاً ؟ قال : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف حقاً ؟ قال : بلى أفأخبرتك أن نأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به فنحر رسول الله ﷺ بدنة فدعا بحالقه فحلق شعره ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات » الآية .

قال محمد بن إسحاق بن يسار : وحدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب أن كاتب رسول الله ﷺ في هذا الصلح كان علي بن أبي طالب فقال له رسول الله ﷺ : اكتب « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو » فجعل علي يتلكأ ويأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله فقال رسول الله : فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد، فكتب ما قالوا .

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلا يأكلان من تمر لهم قال أبو بصير لأحد الرجلين : وإني لأرى سيفك جيداً جداً فاستلّه فقال: أجل إنه لجيد وجرّبت به ثم جرّبت فقال أبو بصير: أرني أنظر اليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفرّ الآخر حتى بلغ المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعراً ، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول .

قال : فجاء أبو بصير فقال : يا رسول الله قد أوفى الله ذمّتك ورددتني اليهم ثم أنجاني الله منهم فقال النبي ﷺ : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده اليهم فخرج حتى أتى سيف البحر .

وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت عليه عصابة. قال: فوالله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت إلىالشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي

صلى الله عليه وآله تناشده الله والرحم لما أرسل اليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل صلى الله عليه وآله اليهم فأتوه .

وفي تفسير القمي في حديث طويل أوردنا صدره في أول البحث قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه - بعد ما كتب الكتاب - : انحروا بدنكم واحلقوا رؤسكم فامتنعوا وقالوا: كيف ننحر ونحلق ولم نطف بالبيت ولم نسعَ بين الصفا والمروة فاغتمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وشكا ذلك إلى أم سلمة فقالت: يا رسول الله انحر أنت واحلق فنحر رسول الله وحلق فنحر القوم على حيث يقين وشك وارتياب .

أقول : وهو مروي في روايات أُخر من طرق الشيعة وأهل السنة. وهذا الذي رواه الطبرسي مأخوذ مع تلخيص مّا عمّا رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن مروان والمسوّر .

وفي الدر المنثور أخرج البيهقي عن عروة قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله : والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصدّ هدينا وعكف رسول الله بالحديبية وردّ رجلين من المسلمين خرجا .

فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله قول رجال من أصحابه : إن هذا ليس بفتح فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : بئس الكلام . هذا أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون اليكم في الإياب وقد كرهوا منكم ما كرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم وردّكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح .

أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أُخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟

قال المسلمون : صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالامور منا فأنزل الله سورة الفتح .

أقول : والأحاديث في قصة الحديبية كثيرة وما أوردناه طرف منها .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى عمر بن يزيد بيّاع السابري قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام قول الله في كتابه : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » قال : ما كان له ذنب ولا همّ بذنب ولكن الله حمله ذنوب شيعته ثم غفر لها .

وفي العيون في مجلس الرضا مع المأمون بإسناده إلى ابن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال المأمون : يا ابن رسول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ، – إلى أن قال – قال : فأخبرني عن قول الله عز وجل : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

قال الرضا عليه السلام : لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم ، وقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاف فلما فتح الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم مكة قال : يا محمد إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر عند مشركي مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر لأن مشركي مكة أسلم بعضهم ، وخرج بعضهم عن مكة ، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعا الناس اليه فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم . فقال المأمون : لله درك يا أبا الحسن .

وفي تفسير العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام .

أقول : وهذا المعنى مروي من طرق أهل السنة أيضاً ، والحديث لا يخلو من شيء لأنه مبني على كون المراد بالذنب في الآية هو المعصية المنافية للعصمة .

وفي الكافي بإسناده إلى جميل قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » قال : الإيمان قال عز من قائل: « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » .

أقول : « ظاهر الرواية أنه عليه السلام أخذ قوله تعالى في الآية : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » تفسيراً للسكينة ، وفي معنى الرواية روايات أُخر .

وفيه بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : أيها العالم أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله ؟ قال : ما لا يقبل الله شيئاً إلا به . قلت: وما

هو ؟ قـــال : الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظاً .

قال : قلت : ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل أم قول بلا عمل ؟ قال : الإيمان عمل كله والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بين في كتابه واضح نوره ثابتة حجته يشهد له به الكتاب ويدعوه اليه. قال : قلت : صف لي جعلت فداك حتى أفهمه قال : الإيمان حالات ودرجات وصفات ومنازل فمنه التام المنتهي تمامه ومنه الناقص المبين نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه .

قلت : إن الإيمان ليتم وينقص ويزيد ؟ قال : نعم . قلت : كيف ذلك ؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرّقه فيها فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أُختها فمن لقي الله عز وجل حافظاً لجوارحه موفياً كل جارحة من جوارحه ما فرض الله عز وجل عليها لقي الله مستكملا لإيمانه وهو من أهل الجنة ، ومن خان في شيء منها أو تعدى ما أمر الله عز وجل فيها لقي الله عز وجل ناقص الإيمان .

قلت : وقد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته ؟ فقال : قول الله عز وجل : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيـّكم زادته هـــذه إيماناً فأمـا الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأمـا الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم » ، وقال : « نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق إنهم فتيـة آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

ولو كان كله واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولاستوت النعم فيه ،ولاستوى الناس وبطل التفضيل ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة ، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عنـــد الله ، وبالنقصان دخل المفرّطون النار .

* * *

إِنَّـا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِـــداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ــ ٨ . لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ

وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً – ٩ . إِنَّ
الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ
فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ
أَجْراً عَظِيماً – ١٠ .

(بيان)

فصل ثان من آيات السورة يعرف سبحانه فيه نبيه ﷺ تعريف إكبار وإعظام بأنه أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً طاعته طاعة الله وبيعته بيعة الله ، وقد كان الفصل الأول امتناناً منه تعالى على نبيّه بالفتح والمغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر وعلى المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم وإدخال الجنة ووعيد المشركين والمنافقين بالغضب واللعن والنار .

قوله تعالى : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونـذيراً » المراد بشهادته ﷺ شهادته على الأعمال من إيمان وكفر وعمل صالح أو طالح ، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر شهادته ﷺ ، وتقدم استيفاء الكلام في معني هذه الشهادة ، وهي شهادة حمل في الدنيا ، وأداء في الآخرة .

وكونه مبشراً تبشيره لمن آمن واتقى بالقرب من الله وجزيل ثوابه ،وكونه نذيراً إنذاره وتخويفه لمن كفر وتولى بأليم عذابه .

قوله تعالى : « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبّحوه بكرة وأصيلا » القراءة المشهورة بتاء الخطاب في الأفعال الأربعة ، وقرء ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في الجميع وقراءتها أرجح بالنظر إلى السياق .

وكيف كان فاللام في « لتؤمنوا » للتعليل أي أرسلناك كذا وكذا لتؤمنوا بالله ورسوله .

والتعزير – على ما قيل – النصر والتوقير التعظيم كما قال تعالى : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً » نوح : ١٣ ، والظاهر أن الضمائر في « تعزروه وتوقروه وتسبحوه » جميعاً لله تعالى والمعنى : إنا أرسلناك كذا وكذا ليؤمنوا بالله ورسوله وينصروه تعالى بأيديهم وألسنتهم ويعظموه ويسبحوه – وهو الصلاة – بكرة وأصيلا أي غداة وعشياً.

وقيل : الضميران في « تعزروه وتوقروه » للرسول ﷺ ، وضمير « تسبحوه » لله تعالى ويوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتسقة .

قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » إلى آخر الآية . البيعة نوع من الميثاق ببذل الطاعة قال في المفردات: وبايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضخ له انتهى ، والكلمة مأخوذة من البيع بمعناه المعروف فقد كان من دأبهم أنهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البايع يده للمشتري فكأنهم كانوا يمثلون بذلك نقل الملك بنقل التصرفات التي يتحقق معظمها باليد إلى المشتري بالتصفيق ، وبذلك سمي التصفيق عند بذل الطاعة بيعة ومبايعة ، وحقيقة معناه إعطاء المبايع يده للسلطان مثلاً ليعمل به ما يشاء .

فقوله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » تنزيل بيعته ﷺ منزلة بيعته تعالى بدعوى أنها هي فما يواجهونه ﷺ به من بذل الطاعة لا يواجهون به إلا الله سبحانه لأن طاعته طاعة الله ثم قرره زيادة تقرير وتأكيد بقوله: «يد الله فوق أيديهم» حيث جعل يده ﷺ يد الله كما جعل رميه ﷺ رمي نفسه في قوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » الأنفال : ١٧ .

وفي نسبة ماله ﷺ من الشأن إلى نفسه تعالى آيات كثيرة كقوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء : ٨٠ ، وقوله : « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » الأنعام : ٣٣ ، وقوله : ليس لك من الأمر شيء » آل عمران : ١٢٨ .

وقوله : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » النكث نقض العهد والبيعة ، والجملة تفريع على قوله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » والمعنى : فإذا كان

بيعتك بيعة الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعة الله ولا يتضرر بذلك إلا نفسه كما لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن الله غني عن العالمين .

وقوله : « ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » وعد جميل على حفظ العهد والإيفاء به .

والآية لا تخلو من إيماء إلى أن النبي ﷺ كان عند البيعة يضع يده على أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس .

وللمفسرين في قوله : « يد الله فوق أيديهم » أقوال أخر .

فقيل: إنه من الإستعارة التخييلية والاستعارة بالكناية جيء به لتأكيد ما تقدمه وتقرير أن مبايعة الرسول ﷺ كمبايعة الله من غير تفاوت فخيل أنه سبحانه كأحد المبايعين من الناس فاثبتت له يد تقع فوق أيدي المبايعين للرسول ﷺ مكان يد الرسول وفيه أنه غير مناسب لساحة قدسه تعالى أن يخيل على وجه هو منزه عنه .

وقيل : المراد باليد القوة والنصرة أي قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم أي ثق بنصرة الله لا بنصرتهم .

وفيه أن المقام مقام إعظام بيعة النبي ﷺ وأن مبايعتهم له مبايعة لله، والوثوق بالله ونصرته وإن كان حسناً في كل حال لكنه أجنبي عن المقام .

وقيل : المراد باليد العطيـــة والنعمة أي نعمة الله عليهم بالثواب أو بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم عليك بالمبايعة ، وقيل : نعمته عليهم بالهداية أعظم من نعمتهم عليك بالطاعة إلى غير ذلك من الوجوه التي أوردوها ولا طائل تحتها .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية « وتعزروه » قال النبي ﷺ لأصحابه : ما ذاك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : لتنصروه .

وفي العيون بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي قال : قلت لعلي بن موسى الرضا عليه‌السلام : يا بن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه أهل الحديث : أن

المؤمنين يزورون ربهم من منازلهم في الجنة ؟ فقال : يا أبا الصلت إن الله تعالى فضّل نبيه محمداً على جميع خلقه من النبيين والملائكة ، وجعل طاعته طاعته ، ومبايعته مبايعته ، وزيارته في الدنيا والآخرة زيارته ، فقال عز وجل : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وقال : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من زارني في حياتي أو بعد موتي فقد زار الله .

ودرجته في الجنة أعلى الدرجات ، ومن زاره في درجته في الجنة من منزله فقد زار الله تبارك وتعالى .

وفي إرشاد المفيد في حديث بيعة الرضا عليه السلام قال : وجلس المأمون ووضع للرضا عليه السلام وسادتين عظيمتين حتى لحق بمجلسه وفرشه ، وأجلس الرضا عليه السلام في الخضرة وعليه عمامة وسيف . ثم أمر ابنه العباس بن المأمون أن يبايع له في أول الناس فرفع الرضا عليه السلام يده فتلقّى بها وجهه وببطنها وجوههم فقال له المأمون : ابسط يدك للبيعة فقال الرضا عليه السلام : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا كان يبايع فبايعه الناس ويده فوق أيديهم .

* * *

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ــ ١١ . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ــ ١٢ . وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ــ ١٣ . وَلِلهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ

وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ــ ١٤ . سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ
إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا
كَلامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذٰلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاّ قَلِيلاً ــ ١٥ . قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ
ٱلْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ
فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ
يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً ــ ١٦ . لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى
ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ
يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً
أَلِيماً ــ ١٧ .

(بيان)

فصل ثالث من الآيات متعرض لحال الأعراب الذين قعدوا عن رسول الله ﷺ في سفرة الحديبية ولم ينفروا إذا استنفرهم وهم على ما قيل أعراب حول المدينة من قبائل جهينة ومزينة وغفار وأشجع وأسلم ودئل فتخلفوا عن النبي ﷺ ولم يصاحبوه قائلين : إن محمداً ومن معه يذهبون إلى قوم غزوهم بالأمس في عقر دارهم فقتلوهم قتلاً ذريعاً ، وإنهم لن يرجعوا من هذه السفرة ولن ينقلبوا الى ديارهم وأهليهم أبداً .

فأخبر الله سبحانه لنبيه ﷺ في هـــذه الآيات أنهم سيلقونك ويعتلون في قعودهم باشتغالهم بالأموال والأهلين ويسألونك أن تستغفر الله لهم ، وكذبهم الله فيما قالوا وذكر أن السبب في قعودهم غير ذلك وهو ظنهم السوء ، وأخبر أنهم سيسألونك

اللحوق وليس لهم ذلك غير أنهم سيدعون الى قتال قوم آخرين فإن أطاعوا كان لهم الأجر الجزيل وإن تولوا فأليم العذاب .

قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » إلى آخر الآية ، قال في المجمع : المخلف هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد ، وهو مشتق من الخلف وضده المقدم . انتهى . والأعراب – على ما قالوا – الجماعة من عرب البادية ولا يطلق على عرب الحاضرة ، وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه .

وقوله : « سيقول لك المخلفون من الأعراب » إخبار عما سيأتي من قولهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي اللفظ دلالة ما على نزول الآيات في رجوعه صلى الله عليه وآله وسلم من الحديبية إلى المدينة ولما يردها .

وقوله : « شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » أي كان الشاغل المانع لنا عن صحابتك والخروج معك هو أموالنا وأهلونا حيث لم يكن هنا من يقوم بأمرنا فخفنا ضيعتها فلزمناها فاستغفر لنا الله تعالى يغفر لنا تخلفنا عنك ، وفي سؤال الاستغفار دليل على أنهم كانوا يرون التخلف ذنباً فتعلقهم بأنه شغلتهم الأموال والأهلون ليس اعتذاراً للتبري عن الذنب بل ذكراً للسبب الموقع في الذنب .

وقوله : « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » تكذيب لهم في جميع ما أخبروا به وسألوه فلا أن الشاغل لهم هو شغل الأموال والأهلين ، ولا أنهم يهتمون باستغفاره صلى الله عليه وآله ، وإنما سألوه ليكون ذلك جنة يصرفون بها العتاب والتوبيخ عن أنفسهم .

وقوله : « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً » جواب حلي عما اعتذروا به من شغل الأموال والأهلين محصّله أن الله سبحانه له الخلق والأمر وهو المالك المدبر لكل شيء لا رب سواه فلا ضر ولا نفع إلا بإرادته ومشيّته فلا يملك أحد منه تعالى شيئاً حتى يقهره على ترك الضر أو فعل الخير إن أراد الضر أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريده هذا القاهر من الخير ، وإذا كان كذلك فانصرافكم عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصرةً للدين واشتغالكم بما اعتللتم به من حفظ الأموال

والأهلين لا يغني من الله شيئاً لا يدفع الضر إن أراد الله بكم ضراً ولا يعين على جلب الخير ولا يعجله إن أراد بكم خيراً .

فقوله : « قل فمن يملك لكم » الخ ، جواب عن تعللهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه ، ملخصه أن تعلقكم في دفع الضر وجلب الخير بظاهر الأسباب ومنها تدبيركم والقعود بذلك عن مشروع ديني لا يغنيكم شيئاً في ضر أو نفع بل الأمر تابع لما أراده الله سبحانه فالآية في معنى قوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ».

والتمسك بالأسباب وعدم إلغائها وإن كان مشروعاً مأموراً به لكنه فيما لا يعارض ما هو أهم منها كالدفاع عن الحق وإن كان فيه بعض المكاره المحتملة اللهم إلا إذا تعقّب خطراً قطعياً لا أثر معه للدفاع والسعي .

وقوله : « بل كان الله بما تعملون خبيراً » تعريض لهم فيه إشارة إلى كذبهم في قولهم : « شغلتنا أموالنا وأهلونا » .

قوله تعالى : «بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزيّن ذلك في قلوبكم » الخ ، بيان لما يشير اليه قوله : « بل كان الله بما تعملون خبيراً » من كذبهم في اعتذارهم ، والمعنى : ما تخلفتم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال والأهلين بل ظننتم أن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهليهم أبداً وأن الخارجين سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من الجموع والبأس الشديد والشوكة والقدرة ولذلك تخلفتم.

وقوله : « وزين ذلك في قلوبكم » أي زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلك الظن المزين وهو أن تتخلفوا ولا تخرجوا حذراً من أن تهلكوا وتبيدوا .

وقوله : « وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بوراً » البور – على ما قيل – مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك أريد به معنى الفاعل أي كنتم قوماً فاسدين أو هالكين .

قيل : المراد بظن السوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ولا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن الله لا ينصر رسوله ولا يظهر دينه كما مرّ في قوله في الآية السادسة من السورة : « الظانين بالله ظن السوء » بل هو أظهر .

قوله تعالى : «ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً» الجمع في هذه

الآيات بين الإيمان بالله ورسوله للدلالة على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله ، وفي الآية لحن تهديد .

وقوله : « فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً » كان مقتضى الظاهر أن يقال : أعتدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للاشارة إلى علة الحكم بتعليقه على المشتق ، والمعنى : أعتدنا وهيّأنا لهم لكفرهم سعيراً أي ناراً مسعّرة مشتعلة ، وتنكير سعيراً للتهويل .

قوله تعالى : « ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً » معنى الآية ظاهر وفيها تأييد لما تقدم ، وفي تذييل الملك المطلق بالإسمين : الغفور الرحيم إشارة إلى سبق الرحمة الغضب وحثّ على الاستغفار والاسترحام .

قوله تعالى : « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم » إلى آخر الآية إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوة فيرزقون الفتح ويصيبون مغانم ويسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعاً في الغنيمة ، وتلك غزوة خيبر اجتاز النبي ﷺ والمؤمنون اليه ففتحوه وأخذوا الغنائم وخصها الله تعالى بمن كان مع النبي ﷺ في سفرة الحديبية لم يشرك معهم غيرهم .

والمعنى : أنكم ستنطلقون إلى غزوة فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون: اتركونا نتبعكم .

وقوله : « يريدون أن يبدلوا كلام الله » قيل: المراد به وعده تعالى أهل الحديبية أن يخصهم بغنائم خيبر بعد فتحه كما سيجيء من قوله : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه الآية ، ويشير اليه في هذه الآية بقوله : « إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها » .

وقوله : « قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل » أمر منه تعالى للنبي ﷺ أن يمنعهم عن اتباعهم استناداً إلى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع .

وقوله : « فسيقولون بل تحسدوننا » أي سيقول المخلفون بعد ما منعوا عما سألوه من الاتباع : « بل تحسدوننا » وقوله : « بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً » جواب عن قولهم : « بل تحسدوننا » لم يوجه الخطاب اليهم أنفسهم لأن المدعى أنهم لا يفقهون

الحديث ولذلك وجه الخطاب بالجواب إلى النبي ﷺ وقال : « بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً » .

وذلك أن قولهم : « بل تحسدوننا » إضراب عن قول النبي ﷺ لهم بأمر الله : « لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل » فمعنى قولهم : إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل الله بل إنما تمنعنا أنت ومن معك من المؤمنين أهل الحديبية أن نشاركم في الغنائم وتريدون أن تختص بكم .

وهذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل وتمييز رسول الله ﷺ المعصوم الذي لا يرد ولا يصدر في شأن إلا بأمر من الله اللهم إلا أن يكون من بساطة العقل وبلادة الفهم فهذا القول الذي واجهوا به النبي ﷺ وهم مدعون للايمان والإسلام أدلّ دليل على ضعف تعقلهم وقلة فقههم .

ومن هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا قليلاً بساطة عقلهم وضعف فقههم للقول لا أنهم يفقهون بعض القول ولا يفقهون بعضه وهو الكثير ولا أن بعضهم يفقه القول وجلهم لا يفقهونه كما فسره به بعضهم .

قوله تعالى : « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » الخ ، اختلفوا في هذا القوم من هم ؟ فقيل : المراد به هوازن ، وقيل : ثقيف ، وقيل : هوازن وثقيف ، وقيل : هم الروم في غزاة مؤتة وتبوك ، وقيل : هم أهل الردّة قاتلهم أبو بكر بعد الرحلة ، وقيل : هم الفارس ، وقيل : أعراب الفارس وأكرادهم .

وظاهر قوله : « ستدعون » أنهم بعض الأقوام الذين قاتلهم النبي ﷺ بعد فتح خيبر من هوازن وثقيف والروم في مؤتة ، وقوله تعالى سابقاً : « قل لن تتبعونا » ناظر إلى نفي اتباعهم في غزوة خيبر على ما يفيده السياق .

وقوله : « تقاتلونهم أو يسلمون » استئناف يدل على التنويع أي إما تقاتلون أو يسلمون أي أنهم مشركون لا تقبل منهم جزية كما تقبل من أهل الكتاب بل إما أن يقاتلوا أو يسلموا .

ولا يصح أخذ « تقاتلونهم » صفة لقوم لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا إلى قتال

قوم يقاتلونهم ، وكذا لا يصح أخذ حالاً من نائب فاعل « ستدعون » لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا أنهم يدعون اليهم حال قتالهم ، كذا قيل .

ثم تمم سبحانه الكلام بالوعد والوعيد على الطاعة والمعصية فقال : « فإن تطيعوا » أي بالخروج اليهم « يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا » أي بالمعصية وعدم الخروج « كما توليتم من قبل » ولم تخرجوا في سفرة الحديبية « يعذبكم عذاباً أليماً » أي في الدنيا كما هو ظاهر المقام أو في الدنيا والآخرة معاً .

قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » رفع للحكم بوجوب الجهاد عن ذوي العاهة الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه وهو الحرج .

ثم تمّم الآية أيضاً بإعادة نظير ذيل الآية السابقة فقال : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّ يعذبه عذاباً أليماً » .

* * *

لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ
مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ــ ١٨ .
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ــ ١٩ . وَعَدَكُمُ
اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ
عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ــ ٢٠ .
وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيراً ــ ٢١ . وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا
يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً ــ ٢٢ . سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ــ ٢٣ . وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ــ ٢٤ . هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ــ ٢٥ . إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ــ ٢٦ . لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ــ ٢٧ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ــ ٢٨ .

(بيان)

فصل رابع من الآيات يذكر تعالى فيه المؤمنين ممن كان مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خروجه إلى الحديبية فيذكر رضاه عنهم إذ بايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشجرة ثم يمتن عليهم بإنزال السكينة وإثابة فتح قريب ومغانم كثيرة يأخذونها .

ويخبرهم – وهو بشرى – أن المشركين لو قاتلوهم لانهزموا وولّوا الأدبار وأن الرؤيا التي رآهـا النبي ﷺ رؤيا صادقة سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤسهم لا يخافون فإنه تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

قوله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » الرضا هيئة تطرأ على النفس من تلقّي ما يلائمها وتقبله من غير دفع ، ويقابله السخط ، وإذا نسب إلى الله سبحانه كان المراد الإثابة والجزاء الحسن دون الهيئة الطارئة والصفة العارضة الحادثة لاستحالة ذلك عليه تعالى : فرضاه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات .

والرضا – كما قيل – يستعمل متعدياً إلى المفعول بنفسه ومتعدياً بعن ومتعدياً بالباء فإذا عدّي بنفسه جاز دخوله على الذات نحو : رضيت زيداً ، وعلى المعنى نحو : رضيت أمارة زيد ، قال تعالى : « ورضيت لكم الإسلام ديناً » المائدة : ٣ ، وإذا عدّي بعن دخل على الذات كقوله : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » البينة : ٨ ، وإذا عدّي بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى : « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » .

ولما كان الرضا المنسوب اليه تعالى صفة فعل له بمعنى الإثابة والجزاء ، والجزاء إنما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضاه تعالى إلى الذات وعدّي بعن كما في الآية « لقد رضي الله عن المؤمنين » نوع عناية استدعى عد الرضا وهو متعلق بالعمل متعلقاً بالذات وهو أخذ بيعتهم التي هي متعلقة الرضا ظرفاً للرضى فلم يسع إلا أن يكون الرضا متعلقاً بهم أنفسهم .

فقوله : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له ﷺ تحت الشجرة .

وقد كانت البيعة يوم الحديبية تحت شجرة سمرة بها بايعه ﷺ من معه من المؤمنين وقد ظهر به أن الظرف في قوله : « إذ يبايعونك » متعلق بقوله : « لقد رضي » واللام للقسم .

قوله تعالى : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً

ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً» تفريع على قوله : « لقد رضي الله » الخ، والمراد بما في قلوبهم حسن النية وصدقها في مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضياً عند الله لا بصورته وهيئته بل بصدق النية وإخلاصها .

فالمعنى : فعلم ما في قلوبهم من صدق النية وإخلاصها في مبايعتهم لك .

وقيل : المراد بما في قلوبهم الإيمان وصحته وحب الدين والحرص عليه ، وقيل : الهم والأنفة من لين الجانب للمشركين وصلحهم. والسياق لا يساعد على شيء من هذين الوجهين كما لا يخفى .

فإن قلت : المراد بما في قلوبهم ليس مطلق ما فيها بل نيّتهم الصادقة المخلصة في المبايعة كما ذكر، وعلمه تعالى بنيتهم الموصوفة بالصدق والإخلاص سبب يتفرع عليه رضاه تعالى عنهم لا مسبب متفرع على الرضا ، ولازم ذلك تفريع الرضا على العلم بأن يقال : لقد علم ما في قلوبهم فرضي عنهم لا تفريع العلم على الرضا كما في الآية .

قلت: كما أن للمسبب تفرعاً على السبب من حيث التحقق والوجود كذلك للسبب – سواء كان تاماً أو ناقصاً – تفرع على المسبب من حيث الانكشاف والظهور، والرضا كما تقدم صفة فعل له تعالى منتزع عن مجموع علمه تعالى بالعمل الصالح وما يثيب به ويجزي صاحب العمل ، والذي انتزع عنه الرضا في المقام هو مجموع علمه تعالى بما في قلوبهم وإنزاله السكينة عليهم وإثابتهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها .

فقوله : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة » الخ ، تفريع على قوله : « لقد رضي الله عن المؤمنين » للدلالة على حقيقة هذا الرضا والكشف عن مجموع الامور التي بتحققها يتحقق معنى الرضا .

ثم قوله : « فأنزل السكينة عليهم » متفرع على قوله : « فعلم ما في قلوبهم » وكذا ما عطف عليه من قوله : « وأثابهم فتحاً قريباً » الخ .

والمراد بالفتح القريب فتح خيبر على ما يفيده السياق وكذا المراد بمغانم كثيرة يأخذونها ، غنائم خيبر ، وقيل : المراد بالفتح القريب فتح مكة ، والسياق لا يساعد عليه .

وقوله : « وكان الله عزيزاً حكيماً » أي غالباً فيما أراد متقناً لفعله غير مجازف فيه .

قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه » الخ ، المراد بهذه المغانم الكثيرة المغانم التي سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبية أعمّ من مغانم خيبر وغيرها فتكون الإشارة بقوله : « فعجل لكم هذه » الى المغانم المذكورة في الآية السابقة وهي مغانم خيبر نزلت منزلة الحاضرة لاقتراب وقوعها .

هذا على تقدير نزول الآية مع الآيات السابقة ، وأما على ما قيل : إن الآية نزلت بعد فتح خيبر فأمر الإشارة في قوله : « فعجل لكم هذه » ظاهر لكن المعروف نزول السورة بتمامها في مرجع النبي ﷺ من الحديبية بينها وبين المدينة .

وقيل : الإشارة بهذه الى البيعة التي بايعوها تحت الشجرة وهو كما ترى .

وقوله : « وكف أيدي الناس عنكم » قيل : المراد بالناس قبيلتا أسد وغطفان هموا بعد مسير النبي ﷺ الى خيبر أن يغيروا على أموال المسلمين وعيالهم بالمدينة فقذف الله في قلوبهم الرعب وكف أيديهم .

وقيل : المراد مالك بن عوف وعيينة بن حصين مع بني أسد وغطفان جاؤا لنصرة يهود خيبر فقذف الله في قلوبهم الرعب فرجعوا ، وقيل : المراد بالناس أهل مكة ومن والاها حيث لم يقاتلوه ﷺ ورضوا بالصلح .

وقوله : « ولتكون آية للمؤمنين » عطف على مقدر أي وعدهم الله بهذه الإثابة إثابة الفتح والغنائم الكثيرة المعجلة والمؤجلة لمصالح كذا وكذا ولتكون آية للمؤمنين أي علامة وأمارة تدلهم على أنهم على الحق وأن ربهم صادق في وعده ونبيهم ﷺ صادق في إنبائه .

وقد اشتملت السورة على عدة من أنباء الغيب فيها هدى للمتقين كقوله : « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا » الخ ، وقوله : « سيقول المخلفون إذا انطلقتم » الخ ، وقوله : « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون » الخ ، وما في هذه الآيات من وعد الفتح والمغانم ، وقوله بعد : « وأخرى لم تقدروا عليها » الخ ، وقوله بعد : « لقد صدق الله ورسوله الرؤيا » الخ .

وقوله : « ويهديكم صراطاً مستقيماً » عطف على « تكون » أي وليهديكم صراطاً مستقيماً وهو الطريق الموصل الى إعلاء كلمة الحق وبسط الدين ، وقيل : هو الثقة بالله

والتوكل عليه في كل ما تأتون وتذرون ، وما ذكرناه أوفق للسياق .

قوله تعالى : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً » أي وغنائم أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها إحاطة قدرة وكان الله على كل شيء قديراً .

فقوله : « أخرى » مبتدأ و « لم تقدروا عليها » صفته وقوله : « قد أحاط الله بها » خبره الثاني وخبره الأول محذوف ، وتقدير الكلام : وثمّة غنائم اخرى قد أحاط الله بها .

وقيل: قوله:« اخرى » في موضع نصب بالعطف على قوله : « هذه » والتقدير: وعجّل لكم غنائم اخرى ، وقيل : في موضع نصب بفعل محذوف ، والتقدير : وقضى غنائم اخرى ،وقيل: في موضع جر بتقدير رب والتقدير: ورب غنائم اخرى، وهذه وجوه لا يخلو شيء منها من وهن .

والمراد بالاخرى في الآية ـ على ما قيل ـ غنائم هوازن ، وقيل : المراد غنائم فارس والروم ، وقيل : المراد فتح مكة والموصوف محذوف، والتقدير: وقرية اخرى لم تقدروا عليها أي على فتحها ، وأول الوجوه أقربها .

قوله تعالى : « ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً » خبر آخر ينبئهم الله سبحانه ضعف الكفار عن قتال المؤمنين بأنفسهم وأن ليس لهم ولي يتولى أمرهم ولا نصير ينصرهم ، ويتخلص في أنهم لا يقوون في أنفسهم على قتالكم ولا نصير لهم من الأعراب ينصرهم ، وهذا في نفسه بشرى للمؤمنين .

قوله تعالى : « سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » « سنة الله » مفعول مطلق لفعل مقدّر أي سن سنة الله أي هذه سنة قديمة له سبحانه أن يظهر أنبياءه والمؤمنين بهم إذا صدقوا في إيمانهم وأخلصوا نيّاتهم على أعدائهم من الذين كفروا ولن تجد لسنة الله تبديلا كما قال تعالى : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي » المجادلة : ٢١ . ولم يصب المسلمون في شيء من غزواتهم إلا بما خالفوا الله ورسوله بعض المخالفة .

قوله تعالى : « وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من

بعــــد أن أظفركم عليهم » الخ ، الظاهر أن المراد بكف أيدي كل من الطائفتين عن الاخرى ما وقع من الصلح بين الفئتين بالحديبية وهي بطن مكة لقربها منها واتصالها بها حتى قيل إن بعض أراضيها من الحرم وذلك أن كلا من الفئتين كانت أعدى عدو للاخرى وقد اهتمت قريش بجمع الجموع من أنفسهم ومن الأحابيش ، وبايع المؤمنون النبي ﷺ على أن يقاتلوا ، وعزم النبي ﷺ على أن يناجز القوم ، وقد أظفر الله النبي والذين آمنوا على الكفار حيث دخلوا أرضهم وركزوا أقدامهم في عقر دارهم فلم يكن ليتوهم بينهم إلا القتــال لكن الله سبحانه كفّ أيدي الكفار عن المؤمنين وأيدي المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم وكان الله بما يعملون بصيراً .

قوله تعالى : « هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محلّه » العكوف على أمر هو الإقــامة عليه ، والمعكوف – كما في المجمع – الممنوع من الذهاب إلى جهة بالإقامة في مكانه ، ومنه الاعتكاف وهو الإقــــامة في المسجد للعبادة .

والمعنى : المشركون مشركوا مكة هم الذين كفروا ومنعوكم عن المسجد الحرام ومنعوا الهدي – الذي سقتموه – حال كونه محبوساً من أن يبلغ محله أي الموضع الذي ينحر أو يذبح فيه وهو مكة التي ينحر أو يذبح فيهــا هدي العمرة كما أن هدي الحج ينحر أو يذبح في منى ، وقــد كان النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين محرمين للعمرة ساقوا هدياً لذلك .

قوله تعالى : « ولولا رجــال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير عــلم » الوطء الدوس ، والمعرّة المكروه ، وقوله : « أن تطؤهم » بدل اشتمال من مدخول لولا ، وجواب لولا محذوف ، والتقدير : ما كفّ أيديكم عنهم .

والمعنى : ولولا أن تدوسوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات بمكة وأنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم وإهلاكهم مكروه لما كفّ الله أيديكم عنهم .

وقوله : « ليدخل الله في رحمته من يشاء » اللام متعلق بمحذوف ، والتقدير : ولكن كفّ أيديكم عنهم ليدخل في رحمته اولئك المؤمنين والمؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل وإياكم بحفظكم من إصابة المعرّة .

وقيل : المعنى : ليدخل في رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح .

وقوله : « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » التزيل التفرق وضمير « تزيلوا » لجميع من تقدم ذكره من المؤمنين والكفار من أهل مكة أي لو تفرقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفار لعذبنا الذين كفروا من أهل مكة عذاباً أليماً لكن لم نعذبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين .

قوله تعالى : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » إلى آخر الآية قال الراغب : وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحميـة فيقال : حميت على فلان أي غضبت عليه قال تعالى : « حمية الجاهلية » وعن ذلك استعير قولهم : حميت المكان حمى انتهى .

والظرف في قوله : « إذ جعل » متعلق بقوله سابقاً: « وصدّوكم » وقيل: متعلق بقوله : « لعذبنـا » وقيل : « متعلق باذكر المقدر ، والجعل بمعنى الإلقاء و « الذين كفروا » فاعله والحمية مفعوله و «حمية الجاهلية» بيان للحمية والجاهلية وصف موضوع في موضع الموصوف والتقدير الملة الجاهلية .

ولو كان « جعل » بمعنى صيّر كان مفعوله الثاني مقدراً والتقدير إذ جعل الذين كفروا الحمية راسخة في قلوبهم ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله : « جعل الذين كفروا » للدلالة على سبب الحكم .

ومعنى الآية : هم الذين كفروا وصدّوكم إذ ألقوا في قلوبهم الحميـة حمية الملة الجاهلية .

وقوله : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » تفريع على قوله: «جعل الذين كفروا » ويفيد نوعاً من المقابلة كأنه قيل : جعلوا في قلوبهم الحمية فقابله الله سبحانه بإنزال السكينة على رسوله وعلى المؤمنين فاطمأنت قلوبهم ولم يستخفهم الطيش وأظهروا السكينة والوقار من غير أن يستفزهم الجهالة .

وقوله : « وألزمهم كلمة التقوى » أي جعلها معهم لا تنفكّ عنهم ، وهي على ما اختاره جمهور المفسرين كلمة التوحيد وقيل : المراد الثبات على العهد والوفاء به وقيل:

المراد بها السكينة وقيل : قولهم : بلى في عالم الذرّ ، وهو أسخف الأقوال .

ولا يبعد أن يراد بها روح الإيمان التي تأمر بالتقوى كما قال تعالى : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ ، وقد أطلق الله الكلمة على الروح في قوله : « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » النساء : ١٧١ .

وقوله : « وكانوا أحق بها وأهلها » أما كونهم أحق بها فلتمام استعدادهم لتلقّي هذه العطية الإلهية بما عملوا من الصالحات فهم أحق بها من غيرهم ، وأما كونهم أهلها فلأنهم مختصون بها لا توجد في غيرهم وأهل الشيء خاصته .

وقيل : المراد وكانوا أحق بالسكينة وأهلها ، وقيل : إن في الكلام تقديماً وتأخيراً والأصل وكانوا أهلها وأحق بها وهو كما ترى .

وقوله : « وكان الله بكل شيء عليماً » تذييل لقوله:« وكانوا أحق بها وأهلها» أو لجميع ما تقدم ، والمعنى على الوجهين ظاهر .

قوله تعالى : « لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون » الخ ، قيل : إن صدق وكذب مخففين يتعديان إلى مفعولين يقال : صدقت زيداً الحديث وكذبته الحديث ، وإلى المفعول الثاني بفي يقال: صدقته في الحديث وكذبته فيه ، ومثقلين يتعديان إلى مفعول واحد يقال : صدّقته في حديثه وكذّبته في حديثه .

واللام في « لقد صدق الله » للقسم ، وقوله : « لتدخلن المسجد الحرام » جواب القسم .

وقوله : « بالحق » حال من الرؤيا والباء فيه للملابسة ، والتعليق بالمشية في قوله: « إن شاء الله » لتعليم العباد والمعنى : أقسم لقد صدق الله رسوله في الرؤيا التي أراه لتدخلن أيها المؤمنون المسجد الحرام إن شاء الله حال كونكم آمنين من شر المشركين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون المشركين .

وقوله : « فعلم ما لم تعلموا وجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » « ذلك » إشارة إلى ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنين ، والمراد بقوله :«من دون ذلك » أقرب من ذلك والمعنى : فعلم تعالى من المصلحة في دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه ولم تعلموه ، ولذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحاً قريباً ليتيسّر لكم الدخول كذلك.

ومن هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب في هذه الآية فتح الحديبية فهو الذي سوّى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين ويسّر لهم ذلك ولولا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا بالقتال وسفك الدماء ولا عمرة مع ذلك لكن صلح الحديبية وما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل .

ومن هنا تعرف أن قول بعضهم : إن المراد بالفتح القريب في الآية فتح خيبر بعيد من السياق ، وأما القول بأنه فتح مكة فأبعد .

وسياق الآية يعطي أن المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبي ﷺ فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبي ﷺ من دخولهم المسجد آمنين محلّقين رؤسهم ومقصّرين ، أنهم سيدخلونه كذلك في عامهم ذلك فلما خرجوا قاصدين مكة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبية وصدّوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم في الرؤيا فأزال الله ريبهم بما في الآية .

ومحصله : أن الرؤيا حقة أراها الله نبيه ﷺ وقد صدق تعالى في ذلك ، وستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون ، لكنه تعالى أخّره وقدّم عليه هذا الفتح وهو صلح الحديبية ليتيسر لكم دخوله لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون إلا بهذا الطريق .

قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » الخ، تقدم تفسيره في سورة التوبة الآية ٣٣ ، وقوله: « وكفى بالله شهيداً » أي شاهداً على صدق نبوّته والوعد أن دينه سيظهر على الدين كله أو على أن رؤياه صادقة ، فالجملة تذييل ناظر إلى نفس الآية أو الآية السابقة .

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين » الآية ، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال : بينا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس ، فثرنا إلى رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه فذلك قول الله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » فبايع لعثمان إحدى يديه على الاخرى فقال الناس هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف .

وفيه أخرج عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه عن مغفل بن يسار قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه ونحن أربع عشرة مائة ولم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفرّ .

أقول : كون المؤمنين يومئذ أربع عشرة مائة مروي في روايات اخرى ، وفي بعض الروايات ألف وثلاثمائة وفي بعضها إلى ألف وثمان مائة ، وكذا كون البيعة على أن لا يفرّوا وفي بعضها على الموت .

وفيه أخرج أحمد عن جابر ومسلم عن أم بشر عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى :« فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء .

أقول : والرواية تخصص ما تقدم عليها ويدلّ عليه قوله تعالى فيما تقدم : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » فاشترط في الأجر – ويلازمه الاشتراط في الرضا – الوفاء وعدم النكث ، وقد أورد القمي هذا المعنى في تفسيره وكأنه رواية .

وفي الدر المنثور أيضاً في قوله تعالى : « إذ جعل الذين كفروا » الآية أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين : اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية نرجىء الصلح الذي كان بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين المشركين ولو نرى قتالاً لقاتلنا.

فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال : بلى. قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال : ففيم نعطي

الدنية في ديننا ؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً .

فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال: بلى قال : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً فنزلت سورة الفتح فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عمر فأقرأه إياها فقال: يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم .

وفي كمال الدين بإسناده عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » قال : لو أخرج الله ما في أصلاب المؤمنين من الكافرين ومـــا في أصلاب الكافرين من المؤمنين لعذبنا الذين كفروا .

أقول : وهذا المعنى مروي في روايات أُخر .

وبإسناده عن جميل قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى : « وألزمهم كلمة التقوى » قال : هو الإيمان .

وفي الدر المنثور أخرج الترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أُبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « وألزمهم كلمة التقوى » قال : لا إله إلا الله .

أقول : « وروى هذا المعنى أيضاً بطرق أُخرى عن علي وسلمة بن الأكوع وأبي هريرة ، وروي أيضاً من طرق الشيعة كما في العلل بإسناده عن الحسن بن عبد الله عن آبائه عن جده الحسن بن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث يفسر فيه « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » قال صلى الله عليه وآله وسلم :وقوله : لا إله إلا الله يعني وحدانيته لا يقبل الله الأعمال إلا بها ، وهي كلمة التقوى يثقل الله بها الموازين يوم القيامة .

وفي المجمع في قصة فتح خيبر قال:ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة من الحديبية مكث بها عشرين ليلة ثم خرج منها غادياً إلى خيبر .

ذكر ابن إسحاق بإسناده إلى أبي مروان الأسلمي عن أبيه عن جده قـــال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى خيبر حتى إذا كنا قريباً منها وأشرفنا عليها قال رسول

الله ﷺ: قفوا فوقف الناس فقال اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرّ هذه القرية وشر أهلها وشرّ ما فيها . أقدموا بسم الله .

وعن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتك وكان عامر رجلا شاعراً فجعل يقول :

لا هم لولا أنت ما حجينا ولا تصدّقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتنينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
وأنزلن سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عوّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر . قال : يرحمه الله . قال عمر وهو على جمل له وجيب[1]: يا رسول الله لولا أمتعتنا به، وذلك أن رسول الله ﷺ ما استغفر لرجل قط يخصه إلا استشهد .

قالوا : فلما جدّ الحرب وتصافّ القوم خرج يهودي وهو يقول :

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرّب
إذا الحروب أقبلت تلهّب

فبرز اليه عامر وهو يقول :

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف اليهودي في ترس عامر وكان سيف عامر فيه قصر فتناول به ساق اليهودي ليضربه فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه.

قال سلمة : فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : بطل عمل عامر قتل نفسه . قال : فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي فقلت : قالوا : إن عامراً بطل عمله ،

(١) وجب البعير أعيى ، ووجب برك وضرب بنفسه الأرض .

فقال : من قال ذلك ؟ قلت : نفر من أصحابك ، فقال : كذب اولئك بل أوتي من الأجر مرتين .

قال : فحاصرناهم حتى أصابنا مخمصة شديدة ثم إن الله فتحها علينا ، وذلك أن النبي ﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطاب ونهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر فانكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله يجبّنه أصحابه ويجبّنهم ، وكان رسول الله ﷺ أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فقال حين أفاق من وجعه : ما فعل الناس بخيبر ؟ فاخبر فقال : لاعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرّار غير فرّار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه .

وروى البخاري ومسلم عن قتيبة بن سعيد قال : حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن الإسكندراني عن أبي حازم قال : أخبرني سعد بن سهل أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لاعطينّ هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . قال : فبات الناس يدوكون بجملتهم أنهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها .

فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه . قال : فأرسلوا اليه فاتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه فبرء كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية ، فقال علي : يا رسول الله اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . قال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم .

قال سلمة : فبرز مرحب وهو يقول : قد علمت خيبر أني مرحب... الأبيات، فبرز له علي وهو يقول :

أنا الذي سمّتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله وكان الفتح على يده .

أورده مسلم في صحيحه .

وروى أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ ، فلما دنا من الحصن خرج اليه أهله فقاتلهم

فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده فتناول علي باب الحصن فتترّس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده ، فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه .

وبإسناده عن ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن علي قال : حدثني جابر بن عبد الله أن علياً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه فاقتحموها، وأنه حرّك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً .

قال : وروي من وجه آخر عن جابر : ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب .

وبإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كان علي يلبس في الحر والشتاء القباء المحشو الثخين وما يبالي الحر فأتاني أصحابي فقالوا : إنا رأينا من أمير المؤمنين شيئاً فهل رأيت ؟ فقلت: وما هو ؟ قالوا : رأيناه يخرج علينا في الحر الشديد في القباء المحشوّ الثخين وما يبالي الحر ، ويخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين وما يبالي البرد فهل سمعت في ذاك شيئاً ؟ فقلت : لا فقالوا : فسل لنا أباك عن ذلك فإنه يسمر معه فسألته فقال : ما سمعت في ذلك شيئاً .

فدخل على علي فسمر معه ثم سأله عن ذلك فقال : أوما شهدت خيبر ؟ قلت : بلى . قال : أفما رأيت رسول الله حين دعا أبا بكر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم ثم جاء بالناس وقد هزم ثم بعث إلى عمر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم فقاتلهم ثم رجع وقد هزم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لاعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه كرّاراً غير فرار فدعاني وأعطاني الراية ثم قال: اللهم اكفه الحر والبرد فما وجدت بعد ذلك حراً ولا برداً ، وهذا كله منقول من كتاب دلائل النبوة للامام أبي بكر البيهقي .

قال الطبرسي : ثم لم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله يفتح الحصون حصناً حصناً ويحوز الأموال حتى انتهوا إلى حصن الوطيح والسلالم وكان آخر حصون خيبر افتتح ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بضع عشرة ليلة .

قال ابن إسحاق : ولما افتتح القموص حصن أبي الحقيق أُتي رسول الله ﷺ بصفية بنت حيى بن أخطب وباخرى معها فمر بهما بلال – وهو الذي جاء بهما – على قتلى من قتلى يهود فلما رأتهم التي معها صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها فلما رآها رسول الله ﷺ قال : اعزبوا عني هـذه الشيطانة ، وأمر بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه ، وقال لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى : أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما ؟

وكانت صفية قد رأت في المنام –وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق– أن قمراً وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها فقال : ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمداً ولطم وجهها لطمة اخضرّت عينها منها فاتي بها رسول الله ﷺ وبها أثر منها فسألها رسول الله ﷺ ما هو ؟ فأخبرته .

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ أنزل فاكلمك ؟ قال : نعم . فنزل وصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذريّة لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض على الصفراء والبيضاء والكراع [1] والحلقة وعلى البز إلا ثوباً على ظهر إنسان ، وقال رسول الله ﷺ فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً فصالحوه على ذلك .

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم ويخلون بينه وبين الأموال ففعل وكان ممن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود أحد بني حارثة .

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ، وصالحه أهل فـدك على مثل ذلك فكانت

---

(١) الكراع : بضم الكاف مطلق الماشية والحلقة بالكسر فالسكون الاثاث والبز الثوب .

أموال خيبر فيئاً بين المسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب .

ولما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وهي ابنة أخي مرحب شاة مصلية ، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ فقيل لها : الذراع فأكثرت فيها السم وسمّت سائر الشاة ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فأخذها ولاك منها مضغة وانتهش منها ومعه بشر بن البراء بن معرور فتناول عظماً فانتهش منه فقال رسول الله ﷺ : ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرني أنها مسمومة ثم دعاها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك؟ فقالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت: إن كان نبياً فسيخبر وإن كان ملكاً استرحت منه فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل .

قال : ودخلت أم بشر بن البراء على رسول الله ﷺ يعوده في مرضه الذي توفي فيه فقال ﷺ : يا أم بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت بخيبر مع ابنك تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري ، وكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة .

* * *

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ــ ٢٩ .

(بيان)

الآية خاتمة السورة تصف النبي ﷺ وتصف الذين معه بما وصفهم به في التوراة والإنجيل وتعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وعداً جميلاً ، وللآية اتصال بما قبلها حيث أخبر فيه أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق .

قوله تعالى : « محمد رسول الله » إلى آخر الآية ، الظاهر أنه مبتدأ وخبر فهو كلام تام ، وقيل : « محمد » خبر مبتدأ محذوف وهو ضمير عائد إلى الرسول في الآية السابقة والتقدير : هو محمد ، « ورسول الله » عطف بيان أو صفة أو بدل ، وقيل : « محمد » مبتدأ و « رسول الله » عطف بيان أو صفة أو بدل و « الذين معه » معطوف على المبتدأ و « أشداء على الكفار » الخ ، خبر المبتدأ .

وقوله : « والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » مبتدأ وخبر ، فالكلام مسوق لتوصيف الذين معه والشدة والرحمة المذكورتان من نعوتهم .

وتعقيب قوله : « أشداء على الكفار » بقوله : « رحماء بينهم » لدفع ما يمكن أن يتوهم أن كونهم أشداء على الكفار يستوجب بعض الشدة فيما بينهم فدفع ذلك بقوله: « رحماء بينهم » وأفادت الجملتان أن سيرتهم مع الكفار الشدة ومع المؤمنين فيما بينهم الرحمة .

وقوله : « تراهم ركعاً سجداً » الركّع والسجّد جمعا راكع وساجد ، والمراد بكونهم ركعاً سجداً إقامتهم للصلاة ، و « تراهم » يفيد الاستمرار ، والمحصل : أنهم مستمرون على الصلاة ، والجملة خبر بعد خبر للذين معه .

وقوله: « يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » الابتغاء الطلب، والفضل العطية وهو الثواب ، والرضوان أبلغ من الرضا .

والجملة إن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الركوع والسجود كان الأنسب أن تكون حالاً من ضمير المفعول في « تراهم » وإن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الحياة مطلقاً كما هو الظاهر كانت خبراً بعد خبر للذين معه .

وقوله : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » السيما العلامة و « سيماهم في

وجوههم » مبتـدأ وخبر و « من أثر السجود » حال من الضمير المستكنّ في الخبر أو بيان للسيما أي إن سجودهم لله تذللاً وتخشعاً أثـّر في وجوههم أثراً وهو سيما الخشوع لله يعرفهم به من رآهم ، ويقرب من هـذا المعنى مـا عن الصادق عليه السلام أنه السهر في الصلاة (١) .

وقيل : المراد أثر التراب في جباههم لأنهم كانوا إنمـا يسجدون على التراب لا على الأثواب .

وقيل: المراد سيماهم يوم القيامة فيكون موضع سجودهم يومئذ مشرقاً مستنيراً.

وقوله : « ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل » المثل هو الصفة أي الذي وصفناهم به من أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم « الخ » ، وصفهم الذي وصفناهم به في الكتابين التوراة والإنجيل .

فقوله : « ومثلهم في الإنجيل » معطوف على قوله : « مثلهم في التوراة » وقيل: إن قوله : « ومثلهم في الإنجيل » الخ ، استئناف منقطع عمـا قبله ، وهو مبتدأ خبره قوله : « كزرع أخرج شطأه » الخ ، فيكون وصفهم في التوراة هو أنهم أشداء على الكفار – إلى قوله – : « من أثر السجود » ، ووصفهم في الإنجيـل هو أنهم كزرع أخرج شطأه « الخ » .

وقوله: « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع» شطؤ النبات أفراخه التي تتولد منه وتنبت حوله ، والإيزار الإعـانة ، والاستغلاظ الأخذ في الغلظة ، والسوق جمع ساق ، والزرّاع جمع زارع .

والمعنى: هم كزرع أخرج أفراخه فأعانها فقويت وغلظت وقام على سوقه يعجب الزارعين بجودة رشده .

وفيه إشارة إلى أخذ المؤمنين في الزيادة والعدّة والقوّة يوماً فيوماً ولذلك عقّبه بقوله : « ليغيظ بهم الكفار » .

---

(١) رواه الصدوق في الفقيه والمفيـد في روضة الواعظين مرسلاً عن عبد الله بن سنان عنه عليه السلام .

وقوله : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » ضمير « منهم » للذين معه ، و « من » للتبعيض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم ويفيد الكلام اشتراط المغفرة والأجر العظيم بالإيمان حدوثاً وبقاء وعمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلاً كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير اليه قوله تعالى : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » التوبة : ١٠١ ، أو آمن أولاً ثم أشرك وكفر كما في قوله : « إن الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى – إلى أن قال – ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم » سورة محمد : ٣٠ .

أو آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك [1] وآية التبيّن في نبأ الفاسق وأمثال ذلك لم يشمله وعد المغفرة والأجر العظيم .

ونظير هذا الاشتراط ما تقدم في قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » ، ويؤيده أيضاً ما فهمه ابن عباس من قوله تعالى : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » حيث فسره بقوله : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء ، وقد تقدمت الرواية .

ونظير الآية أيضاً في الاشتراط قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض – إلى أن قال – ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » النور : ٥٥ .

وقيل : إن « من » في الآية بيانية لا تبعيضية فتفيد شمول الوعد لجميع الذين معه .

وهو مدفوع – كما قيل – بأن « من » البيانية لا تدخل على الضمير مطلقاً في

---

(١) فمن أهل الإفك من هو صحابي بدري وقد قال تعالى : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » النور:٢٣ ، ومن نزل فيه : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » الحجرات : ٦ ، وهو الوليد بن عقبة صحابي وقد سماه الله فاسقاً وقد قال تعالى : « فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » التوبة : ٩٦ .

كلامهم ، والاستشهاد لذلك بقوله تعالى : « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم » مبني على إرجاع ضمير « تزيلوا » إلى المؤمنين وضمير « منهم » للذين كفروا ، وقد تقدم في تفسير الآيـة أن الضميرين جميعاً راجعان إلى مجموع المؤمنين والكافرين من أهل مكة فتكون « من » تبعيضية لا بيانية .

وبعد ذلك كله لو كانت العدة بالمغفرة أو نفس المغفرة شملتهم شمولاً مطلقاً من غير اشتراط بالإيمان والعمل الصالح وكانوا مغفورين – آمنوا أو أشركوا وأصلحوا أو فسقوا– لزمته لزوماً بيّناً لغوية جميع التكاليف الدينية في حقهم وارتفاعها عنهم وهذا مما يدفعه الكتاب والسنة فهذا الاشتراط ثابت في نفسه وإن لم يتعرض له في اللفظ ، وقد قال تعالى في أنبيائه : « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » الأنعام : ٨٨، فأثبته في أنبيائه وهم معصومون فكيف فيمن هو دونهم .

فان قيل : اشتراط الوعد بالمغفرة والأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح اشتراط عقلي كما ذكر ولا سبيل إلى إنكاره لكن سياق قوله : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم » يشهد باتصافهم بالإيمان وعمل الصالحات وأنهم واجدون للشرط .

وخاصة بالنظر إلى تأخير « منهم » عن قوله : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » حيث يدل على أن عمل الصالحات لا ينفك عنهم بخلاف قوله في آية النور : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم » النور : ٥٥ ، كما ذكره بعضهم ، ويؤيده أيضاً قوله في مدحهم « تراهم ركعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » حيث يدل على الاستمرار .

قلنا : أما تأخير « منهم » في الآية فليس للدلالة على كون العمل الصالح لا ينفك عنهم بل لأن موضوع الحكم هو مجموع « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ولا يترتب على مجرد الإيمان من دون العمل الصالح أثر المغفرة والأجر ثم قوله: «منهم » متعلق بمجموع الموضوع فمن حقه أن يذكر بعد تمام الموضوع وهو « الذين آمنوا وعملوا الصالحات» ، وأما تقدم الضمير في قوله: « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم» فلأنه مسوق سوق البشرى للمؤمنين والأنسب لها التسريع في خطاب من بشّر بهـا لينشط بذلك وينبسط لتلقي البشرى .

وأما دلالة قوله : « تراهم ركعاً سجّداً » الخ ، على الاستمرار فإنما يدل عليه في ما مضى إلى أن ينتهي إلى الحال ، وأمـــا في المستقبل فلا ومصب إشكال لغوية الأحكام إنما هو المستقبل دون الماضي إذ مغفرة الذنوب الماضية لا تزاحم تعلق التكليف بل تؤكده بخلاف تعلق المغفرة المطلقة بما سيأتي فإنه لا يجامع بقاء التكليف المولوي على اعتباره فيرتفع بذلك التكاليف وهو مقطوع البطلان . على أن ارتفاع التكاليف يستلزم ارتفاع المعصيـة ويرتفع بارتفاعهـا موضوع المغفرة فوجود المغفرة كذلك يستلزم عدمها .

(سورة الحجرات مدنية ، وهي ثمان عشرة آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بَيْنَ
يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَٱتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ — ١ . يٰا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاٰ تَجْهَرُوا لَهُ
بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ — ٢.
إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوٰاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولٰئِكَ الَّذِينَ ٱمْتَحَنَ اللهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوٰى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ — ٣ . إِنَّ الَّذِينَ يُنٰادُونَكَ
مِنْ وَرٰاءِ ٱلْحُجُرٰاتِ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ — ٤ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا
حَتّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ — ٥. يٰا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهٰالَةٍ
فَتُصْبِحُوا عَلىٰ مٰا فَعَلْتُمْ نٰادِمِينَ — ٦ . وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ
لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ
ٱلْإِيمٰانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيٰانَ
أُولٰئِكَ هُمُ الرّٰاشِدُونَ — ٧ . فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ — ٨ . وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ — ٩ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ — ١٠ .

(بيان)

تتضمن السورة مسائل من شرائع الدين بها تتم الحياة السعيدة للفرد ويستقرّ النظام الصالح الطيب في المجتمع منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله سبحانه ومع رسوله كما في الآيات الخمس في مفتتح السورة ، ومنها ما يتعلق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعهم في المجتمع الحيوي ، ومنها ما يتعلق بتفاضل الأفراد وهو من أهم ما ينتظم به الاجتماع المدني ويهدي الإنسان إلى الحياة السعيدة والعيش الطيب الهنيء ويتميز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعية القانونية وغيرها وتختتم السورة بالإشارة إلى حقيقة الإيمان والإسلام وامتنانه تعالى بما يفيضه من نور الإيمان .

والسورة مدنية بشهادة مضامين آياتها سوى ما قيل في قوله تعالى: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » الآية وسيجيء .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم » بين يدي الشيء أمامه وهو استعمال شائع مجازي أو استعاري وإضافته إلى الله ورسوله معاً لا إلى الرسول دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى وبين رسوله وهو مقام الحكم الذي يختص بالله سبحانه وبرسوله بإذنه كما قال تعالى : « إن

الحكم إلا لله » يوسف : ٤٠ ، وقال : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ .

ومن الشاهد على ذلك تصدير النهي بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » وتذييله بقوله : « واتقوا الله إن الله سميع عليم » الظاهر في أن المراد بما بين يدي الله ورسوله هو المقام الذي يربط المؤمنين المتقين بالله ورسوله وهو مقام الحكم الذي يأخذون منه أحكامهم الاعتقادية والعملية .

وبذلك يظهر أن المراد بقوله : « لا تقدموا » تقديم شيء ما من الحكم قبال حكم الله ورسوله إما بالإستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله ورسوله أو إلى فعل قبل أن يتلقوا الأمر به من الله ورسوله لكن تذييله تعالى النهي بقوله : « إن الله سميع عليم » يناسب تقديم القول دون تقديم الفعل ودون الأعم الشامل للقول والفعل وإلا لقيل : إن الله سميع بصير ليحاذي بالسميع القول وبالبصير الفعل كما يأتي تعالى في كثير من موارد الفعل بمثل قوله : « والله بما تعملون بصير » الحديد : ٤ ، فمحصّل المعنى : أن لا تحكموا فيما لله ولرسوله فيه حكم إلا بعد حكم الله ورسوله أي لا تحكموا إلا بحكم الله ورسوله ولتكن عليكم سمة الاتباع والاقتفاء .

لكن بالنظر إلى أن كل فعل وترك من الإنسان لا يخلو من حكم له فيه وكذلك العزم والإرادة إلى فعل أو ترك يدخل الأفعال والتروك وكذا إرادتها والعزم عليها في حكم الاتباع ، ويفيد النهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله النهي عن المبادرة والإقدام إلى قول لم يسمع من الله ورسوله ، وإلى فعل أو ترك أو عزم وإرادة بالنسبة إلى شيء منها قبل تلقي الحكم من الله ورسوله فتكون الآية قريبة المعنى من قوله تعالى في صفة الملائكة : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧.

وهذا الاتباع المندوب اليه بقوله : « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » هو الدخول في ولاية الله والوقوف في موقف العبودية والسير في مسيرها بجعل العبد مشيته تابعة لمشية الله في مرحلة التشريع كما أنها تابعة لها في مرحلة التكوين قال تعالى : « وما تشاؤن إلا أن يشاء الله » الإنسان : ٣٠ ، وقال : « والله ولي المؤمنين » آل عمران : ٦٨ ، وقال : « والله ولي المتقين » الجاثية : ١٩ .

وللقوم في قوله تعالى : « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » وجوه :

منهـــا : أن التقديم بمعنى التقدم فهو لازم ومعنى « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » لا تعجلوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ولا تقطعوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ، وربما قيل : إن التقديم في الآية بمعناه المعروف لكنه مستعمل بالإعراض عن متعلقاته كقوله : « يحيي ويميت » الحديد : ٢ ، فيؤول المعنى إلى مجرد كون شيء قدام شيء فيرجع إلى معنى التقدم .

واللفظ مطلق يشمل التقدم في قول أو فعل حتى التقدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المشية والجلسة ، والتقدم بالطاعات الموقتة قبل وقتها وغير ذلك .

ومنها : أن المراد النهي عن التكلم قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي إذا كنتم في مجلسه وسئل عن شيء فلا تسبقوه بالجواب حتى يجيب هو أولاً .

ومنها : أن المعنى : لا تسبقوه بقول أو فعل حتى يأمركم به .

ومنها : أن المعنى : لا تقدموا أقوالكم وأفعالكم على قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفعله ولا تمكنوا أحداً يمشي أمامه .

والظاهر أن تفسير « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » بالنهي عن التقديم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقط في هـذه الوجوه الثلاثة الأخيرة مبني على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله في الآية على نوع من التشريف كقوله : أعجبني زيد وكرمه فيكون ذكره تعالى للإشارة إلى أن السبقة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أي حال في معنى السبقة على الله سبحانه .

ولعل التأمل فيما قدمنـاه من الوجه يكفيك في المنع عن المصير إلى شيء من هذه الوجوه .

وقوله : « واتقوا الله إن الله سميع عليم » أمر بالتقوى في موقف الاتبـــاع والعبودية ولا ظرف للانسان إلا ظرف العبودية ولذلك أطلق التقوى .

وفي قوله : « إن الله سميع عليم » تعليل للنهي والتقوى فيه أي اتقوه بالانتهاء عن هذا النهي فلا تقدموا قولاً بلسانكم ولا في سركم لأن الله سميع يسمع أقوالكم عليم يعلم ظاهركم وباطنكم وعلانيتكم وسركم .

قوله تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » الخ ، وذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته وتكليمه صلى الله عليه وآله وسلم أرفع من صوته وأجهر لأن في

ذلك كما قيل أحد شيئين : إما نوع استخفاف به وهو الكفر ، وإما إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به .

وقوله : « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » فإن من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم فخطاب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامة الناس لا يخلو من إساءة الأدب والوقاحة .

وقوله : « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » أي لئلا تحبط أو كراهة أن تحبط أعمالكم ، وهو متعلق بالنهيين جميعاً أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض لئلا تبطل أعمالكم بذلك من حيث لا تشعرون فإن فيهما الحبط ، وقد تقدم القول في الحبط في الجزء الثاني من الكتاب .

وجوّز بعضهم كون « أن تحبط » الخ ، تعليلاً للمنهي عنه وهو الرفع والجهر ، والمعنى : فعلكم ذلك لأجل الحبوط منهي عنه ، والفرق بين تعليله للنهي وتعليله للمنهي عنه أن الفعل المنهي عنه معلّل على الأول والفعل المعلّل منهي عنه على الثاني ، وفيه تكلف ظاهر .

وظاهر الآية أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط فيكون من المعاصي غير الكفر ما يوجب الحبط .

وقد توجّه الآية بأن المراد بالحبط فقدان نفس العمل للثواب لا إبطال العمل ثواب سائر الأعمال كما في الكفر ، قال في مجمع البيان : وقال أصحابنا : إن المعنى في قوله : « أن تحبط أعمالكم » أنه ينحبط ثواب ذلك العمل لأنهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبي ﷺ وتوقيره لاستحقوا الثواب فلما أوقعوه على خلاف ذلك الوجه استحقوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب فانحبط عملهم فلا تعلّق لأهل الوعيد بهذه الآية .

ولأنه تعالى علّق الإحباط في هذه الآية بنفس العمل وهم يعلقونه بالمستحق على العمل وذلك خلاف الظاهر . انتهى .

وفيه أن الحبط المتعلق بالكفر الذي لا ريب في تعلقه بثواب الأعمال أيضاً متعلق في كلامه بنفس الأعمال كما في هذه الآية فلتحمل هذه على ما حملت عليه ذلك من غير فرق ، وكونه خلاف الظاهر ممنوع فإن بطلان العمل بطلان أثره المترتب عليه .

وقد توجّه الآية أيضاً بالبناء على اختصاص الحبط بالكفر بأن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول ليسـا بمحبطين من حيث أنفسهما بل من حيث إدّائهما أحياناً إلى إيذائه ﷺ وإيذاؤه كفر والكفر محبط للعمل .

قال بعضهم : المراد في الآية النهي عن رفع الصوت مطلقاً ومعـلوم أن ملاكه التحذر مما يتوقع فيه من إيذاء النبي ﷺ الذي هو كفر محبط للعمل بالاتفاق. فورد النهي عما هو مظنّة أذاه ـ سواء وجد هذا المعنى أو لا ـ حماية للحومة وحسماً للمادة.

ثم لما كان هـذا المنهي عنه منقسماً إلى ما يبلغ حد الكفر وهو المؤذى له عليه الصلاة والسلام وإلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ، ولا دليل يميز أحد القسمين من الآخر ولو فرض وجوده لم يلتفت اليه في كثير من الأحيان ، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً مخافة أن يقع فيما هو محبط للعمل وهو البالغ حد الأذى .

وإلى التباس أحد القسمين بالآخر الإشارة بقوله تعالى :« أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » وإلا فلو كان رفع الصوت والجهر بالقول منهياً عنهما مطلقاً سواء بلغا حد الأذى أو لم يبلغا لم يكن موقع لقوله تعالى :« وأنتم لا تشعرون » إذ الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت أو الجهر بالقول بالغاً حد الأذى فيكون كفراً محبطاً قطعاً أو غير بالغ فيكون أيضاً ذنباً محبطاً قطعاً فالإحباط محقق على أي تقدير فلا موقع لإدعام الكلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقاً للعلم به بعد النهي . انتهى ملخصاً .

وفيه أن ظهور قوله:«لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض» في النهي النفسي دون النهي المقدمي أخذاً بالاحتياط مما لا ريب فيه لكن كلاً من الفعلين مما يدرك كونه عملاً سيئاً عقـلا قبل ورود النهي الشرعي عنه كالافتراء والإفك ، وكان الذين يأتون بها المؤمنين كما صدر النهي بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » وهم وإن أمكن أن يسامحوا في بعض السيئات بحسبانه هيناً لكنهم لا يرضون ببطلان إيمانهم وأعمالهم الصالحة من أصله .

فنبّه سبحانه بقوله:«أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » على أنكم لا تشعرون بما لذلك من الأثر الهائل العظيم فإنما هو إحباط الأعمال فلا تقربوا شيئاً منها أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون .

فقوله : « وأنتم لا تشعرون » ناظر إلى حالهم قبل النهي حيث كانوا يشعرون بكون الفعل سيئة لكنهم ما كانوا يعلمون بعظمة مساءته لهذا الحد ، وأما بعد صدور البيان الإلهي فهم شاعرون بالإحباط .

فالآية من وجه نظيرة قوله تعالى في آيات الإفك : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » النور : ١٥ ، وقوله في آيات القيامة : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » الزمر : ٤٧ .

قوله تعالى : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أُولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » الخ ، غض الصوت خلاف رفعه ، ومعنى الامتحان الإبتلاء والاختبار وإنما يكون لتحصيل العلم بحال الشيء المجهول قبل ذلك ، وإذ يستحيل ذلك في حقه تعالى فالمراد به هنا التمرين والتعويد – كما قيل – أو حمل المحنة والمشقة على القلب ليعتاد بالتقوى .

والآية مسوقة للوعد الجميل على غض الصوت عند رسول الله ﷺ بعد توصيفهم بأن قلوبهم ممتحنة للتقوى والذي امتحنهم لذلك هو الله سبحانه ، وفيه تأكيد وتقوية لمضمون الآية السابقة وتشويق للانتهاء بما فيها من النهي .

وفي التعبير عنه ﷺ في هذه الآية برسول الله بعد التعبير عنه في الآية السابقة بالنبي إشارة إلى ملاك الحكم فإن الرسول بما هو رسول ليس له من الأمر شيء فما له فلمرسله ، وتعظيمه وتوقيره تعظيم لمرسله وتوقير له فغض الصوت عند رسول الله تعظيم وتكبير لله سبحانه ، والمداومة والاستمرار على ذلك – كما يستفاد من قوله : «يغضون» المفيد للاستمرار – كاشف عن تخلقهم بالتقوى وامتحانه تعالى قلوبهم للتقوى .

وقوله : « لهم مغفرة وأجر عظيم » وعد جميل لهم بإزاء ما في قلوبهم من تقوى الله ، والعاقبة للتقوى .

قوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » سياق الآية يؤدي أنه واقع وأنهم كانوا قوماً من الجفاة ينادونه ﷺ من وراء حجرات بيته من غير رعاية لمقتضى الأدب وواجب التعظيم والتوقير فذمهم الله سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان .

قوله تعالى : «ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم» أي ولو أنهم صبروا عن ندائك فلم ينادوك حتى تخرج اليهم لكان خيراً لما فيه من حسن الأدب ورعاية التعظيم والتوقير لمقام الرسالة ، وكان ذلك مقرباً لهم إلى مغفرة الله ورحمته لأنه غفور رحيم .

فقوله : « والله غفور رحيم » كالناظر إلى ما ذكر من الصبر ويمكن أن يكون ناظراً إلى كون أكثرهم لا يعقلون والمعنى : أن ما صدر عنهم من الجهالة وسوء الأدب معفو عنه لأنه لم يكن عن تعقل وفهم منهم بل عن قصور في ذلك والله غفور رحيم .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » الخ ، الفاسق – كما قيل – الخارج عن الطاعة إلى المعصية ، والنبأ الخبر العظيم الشأن ، والتبين والاستبانة والإبانة – على ما في الصحاح – بمعنى واحد وهي تتعدى ولا تتعدى فإذا تعدت كانت بمعنى الإيضاح والإظهار يقال: تبينت الأمر واستبنته وأبنته أي أوضحته وأظهرته ، وإذا لزمت كانت بمعنى الاتضاح والظهور يقال: أبان الأمر واستبان وتبين أي اتضح وظهر .

ومعنى الآية : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذي شأن فتبينوا خبره بالبحث والفحص للوقوف على حقيقته حذر أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيروا نادمين على ما فعلتم بهم .

وقـــد أمضى الله سبحانه في هذه الآية أصل العمل بالخبر وهو من الاصول العقلائية التي يبتني عليه أساس الحياة الاجتماعية الإنسانية ، وأمر بالتبين في خبر الفاسق وهو في معنى النهي عن العمل بخبره ، وحقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجيته وهذا أيضاً كالإمضاء لما بني عليه العقلاء من عدم حجية الخبر الذي لا يوثق بمن يخبر به وعدم ترتيب الأثر على خبره .

بيان ذلك : أن حياة الإنسان حياة علمية يبني فيها سلوكه طريق الحياة على ما يشاهده من الخير والشر والنافع والضارّ والرأي الذي يأخذ به فيه ، ولا يتيسر له ذلك إلا فيما هو بمرأى منه ومشهد ، وما غاب عنه مما تتعلق به حياته ومعاشه أكثر مـمـا يحضره وأكثر فاضطرّ إلى تتميم ما عنـده من العلم بما هو عند غيره من العلم الحاصل بالمشاهدة والنظر ، ولا طريق اليه إلا السمع وهو الخبر .

فالركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملاً ومعاملة مضمونه معـــاملة العلم الحاصل للانسان من طريق المشاهدة والنظر في الجملة ممـا يتوقف عليه حياة الإنسان الاجتماعية توقفاً ابتدائياً ، وعليه بناء العقلاء ومدار العمل .

فالخبر إن كان متواتراً أو محفوفاً بقرائن قطعية توجب قطعية مضمونه كان حجة معتبرة من غير توقف فيها فإن لم يكن متواتراً ولا محفوفاً بما يفيد قطعية مضمونه وهو المسمى بخبر الواحد اصطلاحاً كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه وإن لم يفده بحسب شخصه ، وكل ذلك لأنهم لا يعملون إلا بما يرونه علماً وهو العلم الحقيقي أو الوثوق والظن الاطمئناني المعدود علماً عادة .

إذا تمهد هذا فقوله تعالى في تعليل الأمر بالتبين في خبر الفاسق : « أن تصيبوا قوماً بجهالة » الخ ، يفيـــد أن المأمور به هو رفع الجهالة وحصول العلم بمضمون الخبر عندما يراد العمل به وترتيب الأثر عليه ففي الآية إثبات ما أثبته العقلاء ونفي ما نفوه في هذا الباب ، وهو إمضاء لا تأسيس .

قوله تعالى : « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » الخ ، العنت الإثم والهلاك ، والطوع والطاعة الانقياد لكن أكثر ما يقال الطاعة في الائتمار لما أمر والارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربما يعكس الأمر فيسمى جري المتبوع على ما يريده التابع ويهواه طاعة من المتبوع للتابع ومنه قوله تعالى في الآية : «لو يطيعكم» حيث سمى عمل الرسول على ما يراه ويهواه المؤمنون طاعة منه لهم .

والآية على ما يفيده السياق من تتمة الكلام في الآية السابقة تعمم ما فيها من الحكم وتؤكد ما فيها من التعليل فمضمون الآية السابقة الحكم بوجوب التبين في خبر الفاسق وتعليله بوجوب التحرز عن بناء العمل على الجهالة ، ومضمون هذه الآية تنبيه المؤمنين على أن الله سبحانه أوردهم شرع الرشد ولذلك حبّب اليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم وكرّه اليهم الكفر والفسوق والعصيـــان فعليهم أن لا يغفلوا عن أن فيهم رسول الله وهو مؤيد من عند الله وعلى بيّنة من ربه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغيّ فعليهم أن يطيعوا الرسول ﷺ فيما يأمرهم به ويريدوا ما أراده ويختاروا ما اختاره ، ولا يصرّوا على أن يطيعهم في آرائهم وأهوائهم فإنه لو يطيعهم في كثير من الأمر جهدوا وهلكوا .

فقوله : « واعلموا أن فيكم رسول الله » عطف على قوله في الآية السابقة : «فتبيّنوا» وتقديم الخبر للدلالة على الحصر ، والإشارة إلى ما هو لازمه فإن اختصاصهم بكون رسول الله ﷺ فيهم لازمه أن يتعلقوا بالرشد ويتجنبوا الغيّ ويرجعوا الامور اليه ويطيعوه ويتبعوا أثره ولا يتعلقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم .

فالمعنى : ولا تنسوا أن فيكم رسول الله ، وهو كناية عن أنه يجب عليهم أن يرجعوا الامور ويسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه ويأمر به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم .

وقوله : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم » أي جهدتم وهلكتم ، والجملة كالجواب لسؤال مقدّر كأن سائلاً يسأل فيقول : لماذا نرجع اليه ولا يرجع الينا ولا يوافقنا ؟ فاجيب بأنه « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم » .

وقوله : « ولكن الله حبّب اليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم » استدراك عما يدلّ عليه الجملة السابقة : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم » من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك والغيّ فاستدرك أن الله سبحانه أصلح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب الإيمان وتكريه الكفر والفسوق والعصيان .

والمراد بتحبيب الإيمان اليهم جعله محبوباً عندهم وبتزيينه في قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم إلى نفسه فيتعلقون به ويعرضون عما يلهيهم عنه .

وقوله :« وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان » عطف على «حبّب» وتكريه الكفر وما يتبعه اليهم جعلها مكروهة عندهم تتنفر عنها نفوسهم ، والفرق بين الفسوق والعصيان – على ما قيل – أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة إلى المعصية ، والعصيان نفس المعصية وإن شئت فقل : جميع المعاصي ، وقيل : المراد بالفسوق الكذب بقرينة الآية السابقة والعصيان سائر المعاصي .

وقوله : « أولئك هم الراشدون » بيان أن حب الإيمان والانجذاب اليه وكراهة الكفر والفسوق والعصيان هو سبب الرشد الذي يطلبه الإنسان بفطرته ويتنفر عن الغي الذي يقابله فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان ويتجنبوا الكفر والفسوق والعصيان حتى يرشدوا ويتبعوا الرسول ولا يتبعوا أهواءهم .

ولما كان حب الإيمان والإنجذاب اليه وكراهة الكفر ونحوه صفة بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرّح به الآية السابقة ، وقد وصف بذلك جماعتهم تحفظاً على وحدتهم وتشويقاً لمن لم يتصف بذلك منهم غير السياق والتفت عن خطابهم إلى خطاب النبي ﷺ فقال : « أولئك هم الراشدون » والإشارة إلى من اتّصف بحب الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان ، ليكون مدحاً المتصفين بذلك وتشويقاً لغيرهم .

واعلم أن في قوله : « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » إشعاراً بأن قوماً من المؤمنين كانوا مصرين على قبول نبإ الفاسق الذي تشير اليه الآية السابقة ، وهو الوليد بن عقبة أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء اليهم فلما رآهم هابهم ورجع إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ أنهم ارتدوا فعزم النبي ﷺ على قتالهم فنزلت الآية فانصرف وفي القوم بعض من يصرّ على أن يغزوهم . وسيجيء القصة في البحث الروائي التالي .

قوله تعالى : « فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم » تعليل لما تقدم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان وتزيينه وتكريه الكفر والفسوق والعصيان أي إن ذلك منه تعالى مجرد عطية ونعمة لا إلى بدل يصل اليه منهم لكن ليس فعلاً جزافياً فإنه تعالى عليهم بمورد عطيته ونعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافاً كما قال: « وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً » الفتح : ٢٦ .

قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى آخر الآية الاقتتال والتقاتل بمعنى واحد كالاستباق والتسابق ، ورجوع ضمير الجمع في « اقتتلوا » إلى الطائفتين باعتبار المعنى فإن كلاً من الطائفتين جماعة ومجموعها جماعة كما أن رجوع ضمير التثنية اليهما باعتبار المعنى .

ونقل عن بعضهم في وجه التفرقة بين الضميرين : أنهم أولاً في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثنى الضمير .

وقوله : « فإن بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » البغي الظلم والتعدي بغير حق ، والفيء الرجوع ، والمراد بأمر الله ما أمر به

الله ، والمعنى : فإن تعدت إحدى الطائفتين على الاخرى بغير حق فقاتلوا الطائفة المتعدية حتى ترجع إلى ما أمر به الله وتنقاد لحكمه .

وقوله : « فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل » أي فإن رجعت الطائفة المتعدية إلى أمر الله فأصلحوا بينهما لكن لا إصلاحاً بوضع السلاح وترك القتال فحسب بل إصلاحاً متلبساً بالعدل بإجراء أحكام الله فيما تعدت به المتعدية من دم أو عرض أو مال أو أي حق آخر ضيعته .

وقوله : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » الإقساط إعطاء كل ما يستحقه من القسط والسهم وهو العدل فعطف قوله : « وأقسطوا » على قوله : « أصلحوا بينهما بالعدل » من عطف المطلق على المقيّد للتأكيد ، وقوله : « إن الله يحب المقسطين » تعليل يفيد تأكيداً على تأكيد كأنه قيل : أصلحوا بينهما بالعدل واعدلوا دائماً وفي جميع الامور لأن الله يحب العادلين لعدالتهم .

قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » استئناف مؤكد لما تقدم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين ، وقصر النسبة بين المؤمنين في نسبة الاخوة مقدمة ممهدة لتعليل ما في قوله : « فأصلحوا بين أخويكم من حكم الصلح فيفيد أن الطائفتين المتقاتلتين لوجود الاخوة بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلح ، والمصلحون لكونهم إخوة للمتقاتلتين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما .

وقوله : « فأصلحوا بين أخويكم » ولم يقل : فأصلحوا بين الأخوين من أوجز الكلام وألطفه حيث يفيد أن المتقاتلتين بينهما اخوّة فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح وسائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا في الإصلاح بينهما .

وقوله : « واتقوا الله لعلكم ترحمون » موعظة للمتقاتلتين والمصلحين جميعاً .

(كلام في معنى الأُخوّة)

واعلم أن قوله: « إنما المؤمنون إخوة » جعل تشريعي لنسبة الاخوة بين المؤمنين لها آثار شرعية وحقوق مجعولة ، وقد تقدم في بعض المباحث المتقدمة أن من الابوّة والبنوّة والاخوّة وسائر أنواع القرابة ما هو اعتباري مجعول يعتبره الشرائع والقوانين

لترتيب آثار خاصة عليه كالوراثة والإنفاق وحرمة الازدواج وغير ذلك ، ومنها ما هو طبيعي بالانتهاء إلى صلب واحد أو رحم واحدة أو هما .

والاعتباري من القرابة غير الطبيعي منها فربما يجتمعان كالأخوين المتولدين بين الرجل والمرأة عن نكاح مشروع ، وربما يختلفان كالولد الطبيعي المتولد من زنا فإنه ليس ولداً في الإسلام ولا يلحق بمولده وإن كان ولداً طبيعياً ، وكالدعيّ الذي هو ولد في بعض القوانين وليس بولد طبيعي .

واعتبار المعنى الاعتباري وإن كان لغرض ترتيب آثار حقيقته عليه كما يؤخذ أحد القوم رأساً لهم ليكون نسبته اليهم نسبة الرأس إلى البدن فيدبر أمر المجتمع ويحكم بينهم وفيهم كما يحكم الرأس على البدن .

لكن لما كان الاعتبار لمصلحة مقتضية كان تابعاً للمصلحة فإن اقتضت ترتيب جميع آثار الحقيقة ترتبت عليه جميعاً وإن اقتضت بعضها كان المترتب على الموضوع الاعتباري ذلك البعض كما أن القراءة مثلاً جزء من الصلاة والجزء الحقيقي ينتفي بانتفائه الكل مطلقاً لكن القراءة لا ينتفي بانتفائها الصلاة إذا كان ذلك سهواً وإنما تبطل الصلاة إذا تركت عمداً .

ولذلك أيضاً ربما اختلفت آثار معنى اعتباري بحسب الموارد المختلفة كجزئية الركوع حيث تبطل الصلاة بزيادته ونقيصته عمداً وسهواً بخلاف جزئية القراءة كما تقدم فمن الجائز أن يختلف الآثار المترتبة على معنى اعتباري بحسب الموارد المختلفة لكن لا تترتب الآثار الاعتبارية إلا على موضوع اعتباري كالإنسان يتصرف في ماله لكن لا بما أنه إنسان بل بما أنه مالك والأخ يرث أخاه في الإسلام لا لأنه أخ طبيعي يشارك الميت في الوالد أو الوالدة أو فيهما — فولد الزنا كذلك ولا يرث أخاه الطبيعي — بل يرثه لأنه أخ في الشريعة الإسلامية .

والاخوّة من هذا القبيل فمنها اخوة طبيعية لا أثر لها في الشرائع والقوانين وهي اشتراك إنسانين في أب أو أم أو فيهما ، ومنها اخوة اعتبارية لها آثار اعتبارية وهي في الإسلام اخوة نسبية لها آثار في النكاح والإرث ، واخوة رضاعية لها آثار في النكاح دون الإرث ، واخوة دينية لها آثار اجتماعية ولا أثر لها في النكاح والإرث ،

وسيجيء قول الصادق عليه السلام : المؤمن أخو المؤمن، عينه ودليله، لا يخونه، ولا يظلمه ولا يغشه ، ولا يعده عدة فيخلفه .

وقد خفي هذا المعنى على بعض المفسرين فأخذ إطلاق الإخوة في كلامه تعالى على المؤمنين إطلاقاً مجازياً من باب الاستعارة بتشبيه الاشتراك في الإيمان بالمشاركة في أصل التوالد لأن كلاً منهما أصل للبقاء إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان ، وقيل : هو من باب التشبيه البليغ من حيث انتسابهم إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للبقاء الأبدي .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا » روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : ما سلت السيوف ، ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف ، ولا جهر بأذان ، ولا أنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا » حتى أسلم أبناء قبيلة الأوس والخزرج .

أقول : وعن ابن عباس أيضاً ما نزل يا أيها الذين آمنوا إلا بالمدينة ، ولا « يا أيها الناس » إلا بمكة الخبر . وتوقف بعضهم في عموم ذيله ، واعلم أن هناك روايات في الدر المنثور وتفسير القمي في سبب نزول قوله : « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » الآية لا تنطبق على الآية ذاك الانطباق تركناها من أراد الوقوف عليها فليراجعها .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو يعلى والبغوي في معجم الصحابة وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : لما نزلت « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي – إلى قوله – وأنتم لا تشعرون » وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حبط عملي أنا من أهل النار ، وجلس في بيته حزيناً .

ففقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانطلق بعض القوم اليه فقالوا له: فقدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأجهر له بالقول حبط عملي وأنا من أهل النار ، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبروه بذلك فقال : لا بل هو من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة قتل .

أقول: قوله: «فلما كان يوم اليمامة قتل» من كلام الراوي يريد أنه استشهد يوم اليمامة فكان ذلك تصديق قول النبي ﷺ، والرواية مروية بطرق مختلفة أُخرى باختلاف يسير.

وفيه أخرج البخاري في الأدب وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر وأظن عرض الباب من باب الحجرة الى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع وأحزر[1] البيت الداخل عشرة أذرع، وأظن سمكه بين الثمان والسبع.

أقول: وروى مثل صدره عن ابن سعد عن عطاء الخراساني قال: أدركت حجر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود. الحديث.

وفيه أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها. قلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي وترسل إليّ يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا لتأتيك ما جمعت من الزكاة.

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث اليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقّت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة الى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث.

فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث

---

(١) كذا في الأصل ولعله جمع خرير بالخاء المعجمة وهو المكان المطمئن.

فقالوا : هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : اليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث اليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله . قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتاني .

فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وآله قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال : لا والذي بعثك بالحق مـــا رأيته ولا رآني وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله فنزل « يا أيهـا الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا – إلى قوله – حكيم » .

أقول : نزول الآية في قصة الوليد بن عقبة مستفيض من طرق أهل السنة والشيعة وقال ابن عبد البر في الاستيعاب : ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز وجل : « إن جاءكم فاسق بنبأ » نزلت في الوليد بن عقبة .

وفي المحاسن بإسناده عن زياد الحذّاء عن أبي جعفر عليه السلام في حديث له قال : يا زياد ويحك وهل الدين إلا الحب؟ ألا ترى إلى قول الله: « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ؟ أولا ترون إلى قول الله لمحمد صلى الله عليه وآله : « حبّب اليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم » ؟ قال : « يحبون من هاجر اليهم » وقال : الحب هو الدين والدين هو الحب .

أقول : وروى في الكافي بإسناده عن فضيل بن يسار عن الصادق عليه السلام ما في معناه ولفظه: وهل الإيمان إلا الحب والبغض ؟ ثم تلا هذه الآية: « حبّب اليكم الإيمان» إلى آخر الآية .

وفي المجمع وقيل : الفسوق هو الكذب عن ابن عباس وابن زيد وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام .

أقول : وفي هذا المعنى بعض روايات أخر .

وفي الكافي بإسناده عن علي بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشّه ولا يعده عدة فيخلفه .

أقول : وفي معناه روايات أخر عنه عليه السلام وفي بعضها: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يغتابه .

وفي المحاسن بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق المؤمن من طينة جنان السماوات ، وأجرى فيهم من ريح روحه فلذلك هو أخوه لأبيه وأمه .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال : قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : لو أتيت عبد الله بن أُبيّ فانطلق وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة ، فلما انطلق اليهم قال: إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك .

فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فأنزل فيهم « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » .

أقول : وفي بعض الروايات كما في المجمع أن الذي قال ذلك لعبد الله بن أُبيّ بن سلول هو عبد الله بن رواحة وأن التضارب وقع بين رهطه من الأوس ورهط عبد الله ابن أُبيّ من الخزرج ، وفي انطباق الآية بموضوعها وحكمها على هذه الروايات خفاء .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ـ ١١ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ـ ١٢ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ – ١٣ . قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ – ١٤ . إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ – ١٥ . قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ – ١٦ . يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ – ١٧ . إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ – ١٨ .

(بيان)

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن » الخ، السخرية الاستهزاء وهو ذكر ما يستحقر ويستهان به الإنسان بقول أو إشارة أو فعل تقليداً بحيث يضحك منه بالطبع ، والقوم الجماعة وهو في الأصل الرجال دون النساء لقيامهم بالامور المهمة دونهن ، وهذا المعنى هو المراد بالقوم في الآية بما قوبل بالنساء .

وقوله : « عسى أن يكونوا خيراً منهم » و « عسى أن يكنّ خيراً منهن » حكمة النهي .

والمستفاد من السياق أن الملاك رجاء كون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر سواء كان الساخر رجلاً أو امرأة وكذا المسخور منه فتخصيص النهي في اللفظ بسخرية القوم من القوم وسخرية النساء من النساء لمكان الغلبة عادة .

وقوله: « ولا تلمزوا أنفسكم » اللمز – على ما قيل – التنبيه على المعايب، وتعليق اللمز بقوله: «أنفسكم » للاشارة إلى أنهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غيره في الحقيقة لمز نفسه فليجتنب من أن يلمز غيره كما يكره أن يلمزه غيره، ففي قوله: « أنفسكم » إشارة إلى حكمة النهي .

وقوله : « ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » النبز بالتحريك هو اللقب ، ويختص – على ما قيل – بما يدلّ على ذمّ فالتنابز بالألقاب ذكر بعضهم بعضاً بلقب السوء مما يكرهه كالفاسق والسفيه ونحو ذلك .

والمراد بالاسم في « بئس الاسم الفسوق » الذكر كما يقال: شاع اسم فلان بالسخاء والجود ، وعلى هذا فالمعنى : بئس الذكر ذكر الناس – بعد إيمانهم – بالفسوق فإن الحري بالمؤمن بما هو مؤمن أن يذكر بالخير ولا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يا من أبوه كان كذا ويا من أمه كانت كذا .

ويمكن أن يكون المراد بالاسم السمة والعلامة والمعنى : بئست السمة أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمة السوء كأن يقال لمن اقترف معصية ثم تاب: يا صاحب المعصية الفلانية ، أو المعنى : بئس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوؤهم من الألقاب ، وعلى أي معنى كان ففي الجملة إشارة إلى حكمة النهي .

وقوله : « ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون » أي ومن لم يتب عن هذه المعاصي التي يقترفها بعد ورود النهي فلم يندم عليها ولم يرجع إلى الله سبحانه بتركها فاولئك ظالمون حقاً فإنهم لا يرون بها بأساً وقد عدها الله معاصي ونهى عنها .

وفي الجملة أعني قوله : « ومن لم يتب » الخ ، إشعار بأن هناك من كان يقترف هذه المعاصي من المؤمنين .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » إلى آخر الآية المراد بالظن المأمور بالاجتناب عنه ظن السوء فإن ظن الخير مندوب اليه كما يستفاد من قوله تعالى : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً » النور : ١٢ .

والمراد بالاجتناب عن الظن الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظن بأخيه المؤمن سوء فيرميه به ويذكره لغيره ويرتب عليه سائر آثاره ، وأما نفس الظن بما هو نوع من الإدراك النفساني فهو أمر يفاجىء النفس لا عن اختيار فلا يتعلق به النهي اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختيارياً .

وعلى هذا فكون بعض الظن إثماً من حيث كون ما يترتب عليه من الأثر إثماً كإهانة المظنون به وقذفه وغير ذلك من الآثار السيئة المحرمة ، والمراد بكثير من الظن – وقد جيىء به نكرة ليدل على كثرته في نفسه لا بالقياس إلى سائر أفراد الظن – هو بعض الظن الذي هو إثم فهو كثير في نفسه وبعض من مطلق الظن ، ولو أريد بكثير من الظن أعم من ذلك كأن يراد ما يعلم أن فيه إثماً وما لا يعلم منه ذلك كان الأمر بالاجتناب عنه أمراً احتياطياً توقياً من الوقوع في الإثم .

وقوله : « ولا تجسسوا » التجسس بالجيم تتبع ما استتر من أمور الناس للاطلاع عليها ، ومثله التحسس بالحاء المهملة إلا أن التجسس بالجيم يستعمل في الشر والتحسس بالحاء يستعمل في الخير ، ولذا قيل : معنى الآية لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا الامور التي سترها أهلها .

وقوله : « ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » الغيبة على ما في مجمع البيان ذكر العيب بظهر الغيب على وجه يمنع الحكمة منه ، وقد فسرت بتفاسير مختلفة حسب الاختلاف في مصاديقها سعة وضيقاً في الفقه ، ويؤل الى أن يذكر من الإنسان في ظهر الغيب ما يسوؤه لو ذكر به ولذا لم يعدوا من الغيبة ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به .

والغيبة تفسد أجزاء المجتمع واحداً بعد واحد فتسقطها عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع وهو أن يخالط كل صاحبه ويمازجه في أمن وسلامة بأن

يعرفه إنساناً عدلاً سوياً يأنس به ولا يكرهه ولا يستقذره ، وأما إذا عرفه بما يكرهه ويعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك وضعفت رابطة الاجتماع فهي كالآكلة التي تأكل جثمان من ابتلي بها عضواً بعد عضو حتى تنتهي إلى بطلان الحياة .

والإنسان إنما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهوية اجتماعية أعني بمنزلة اجتماعية صالحة لأن يخالطه ويمازج فيفيد ويستفاد منه ، وغيبته بذكر عيبه لغيره تسقطه عن هذه المنزلة وتبطل منه هذه الهوية ، وفيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح ولا يزال ينتقص بشيوع الغيبة حتى يأتي على آخره فيتبدل الصلاح فساداً ويذهب الانس والأمن والاعتماد وينقلب الدواء داء .

فهي في الحقيقة إبطال هوية اجتماعية على حين غفلة من صاحبها ومن حيث لا يشعر به ، ولو علم بذلك على ما فيه من المخاطرة لتحرّز منه وتوقّى انهتاك ستره وهو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الإنسان ونواقصه ليتمّ به ما أراده من طريق الفطرة من تألّف أفراد الإنسان وتجمّعهم وتعاونهم وتعاضدهم ، وأين الإنسان والنزاهة من كل عيب .

وإلى هذه الحقيقة أشار تعالى فيما ذكره من التمثيل بقوله : « أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » وقد أتى بالاستفهام الإنكاري ونسب الحب المنفي إلى أحدهم ولم يقل : بعضكم ونحو ذلك ليكون النفي أوضح استيعاباً وشمولاً ولذا أكّده بقوله بعد : « فكرهتموه » فنسب الكراهة إلى الجميع ولم يقل : فكرهه .

وبالجملة محصّله أن اغتياب المؤمن بمنزلة أن يأكل الإنسان لحم أخيه حال كونه ميتاً ، وإنما كان لحم أخيه لأنه من أفراد المجتمع الإسلامي المؤلف من المؤمنين وإنما المؤمنون إخوة ، وإنما كان ميتاً لأنه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه .

وفي قوله : « فكرهتموه » ولم يقل : فتكرهونه إشعار بأن الكراهة أمر ثابت محقق منكم في أن تأكلوا إنساناً هو أخوكم وهو ميت فكما أن هذا مكروه لكم فليكن مكروهاً لكم اغتياب أخيكم المؤمن بظهر الغيب فإنه في معنى أكل أحدكم أخاه ميتاً .

واعلم أن ما في قوله : « أيحب أحدكم أن يأكل » الخ ، من التعليل جار في

التجسس أيضاً كالغيبة ، وإنما الفرق أن الغيبة هو إظهار عيب الغير للغير أو التوصّل إلى الظهور عليه من طريق نقل الغير ، والتجسس هو التوصل إلى العلم بعيب الغير من طريق تتبّع آثاره ولذلك لم يبعد أن يكون الجملة أعني قوله : « أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » الخ ، تعليلاً لكل من الجملتين أعني « ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً » .

واعلم أن في الكلام إشعاراً أو دلالة على اقتصار الحرمة في غيبة المسلمين ، ومن القرينة عليه قوله في التعليل : « لحم أخيه » فالاخوّة إنما هي بين المؤمنين .

وقوله: « واتقوا الله إن الله توّاب رحيم » ظاهره أنه عطف على قوله: « اجتنبوا كثيراً من الظنّ » إن كان المراد بالتقوى هو التجنب عن هذه الذنوب التي كانوا يقترفونها بالتوبة إلى الله سبحانه فالمراد بقوله: « إن الله توّاب رحيم » أن الله كثير القبول للتوبة رحيم بعباده التائبين اليه اللائذين به .

وإن كان هو التجنب عنها والتورّع فيها وإن لم يكونوا يقترفونها فالمراد بقوله: « إن الله توّاب رحيم » أن الله كثير الرجوع إلى عباده المتقين بالهداية والتوفيق والحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوة رحيم بهم .

وذلك أن التوبة من الله توبتان : توبة قبل توبة العبد بالرجوع اليه بالتوفيق للتوبة كما قال تعالى : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » التوبة : ١١٨ ، وتوبة بعد توبة العبد بالرجوع اليه بالمغفرة وقبول التوبة كما في قوله : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » المائدة : ٣٩ .

قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الخ ، الشعوب جمع شعب بالكسر فالسكون وهو على ما في المجمع الحيّ العظيم من الناس كربيعة ومضر ، والقبائل جمع قبيلة وهي دون الشعب كتميم من مضر .

وقيل: الشعوب دون القبائل وسمّيت بها لتشعّبها ، قال الراغب: الشعب القبيلة المنشعبة من حيّ واحد ، وجمعه شعوب ، قال تعالى : « شعوباً وقبائل » ، والشعب من الوادي ما اجتمع منه طرف وتفرّق طرف فإذا نظرت اليه من الجانب الذي تفرّق

أخذت في وهمك واحداً يتفرّق ، وإذا نظرت من جانب الاجتماع أخذت في وهمك اثنين اجتمعا فلذلك قيل : شعبت إذا جمعت ، وشعبت إذا فرقت . انتهى .

وقيل : الشعوب العجم والقبائل العرب ، والظاهر أن مآله إلى أحد القولين السابقين ، وسيجيء تمام الكلام فيه (١) .

ذكر المفسرون أن الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب ، وعليه فالمراد بقوله : « من ذكر وأنثى » آدم وحوّاء ، والمعنى: أنّا خلقناكم من أب وأمّ تشتركون جميعاً فيهما من غير فرق بين الأبيض والأسود والعربي والعجمي وجعلناكم شعوباً وقبائل مختلفة لا لكرامة لبعضكم على بعض بل لأن تتعارفوا فيعرف بعضكم بعضاً ويتم بذلك أمر اجتماعكم فيستقيم مواصلاتكم ومعاملاتكم فلو فرض ارتفاع المعرفة من بين أفراد المجتمع انفصم عقد الاجتماع وبادت الإنسانية فهذا هو الغرض من جعل الشعوب والقبائل لا أن تتفاخروا بالأنساب وتتباهوا بالآباء والامهات .

وقيل: المراد بالذكر والانثى مطلق الرجل والمرأة ، والآية مسوقة لإلغاء مطلق التفاضل بالطبقات كالأبيض والأسود والعرب والعجم والغني والفقير والمولى والعبد والرجل والمرأة ، والمعنى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من رجل وامرأة فكل واحد منكم إنسان مولود من إنسانين لا تفترقون من هذه الجهة ، والاختلاف الحاصل بالشعوب والقبائل – وهو اختلاف راجع الى الجعل الإلهي – ليس لكرامة وفضيلة وإنما هو لأن تتعارفوا فيتم بذلك اجتماعكم .

واعترض عليه بأنّ الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب وذمّه كما يدل عليه قوله : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » وترتب هذا الغرض على هذا الوجه غير ظاهر ،ويمكن أن يناقش فيه أن الاختلاف في الأنساب من مصاديق الاختلاف الطبقاتي وبناء هذا الوجه على كون الآية مسوقة لنفي مطلق الاختلاف الطبقاتي وكما يمكن نفي التفاخر بالأنساب وذمه استناداً إلى أن الأنساب تنتهي الى آدم وحواء والناس جميعاً مشتركون فيها ، كذلك يمكن نفيه وذمه استناداً الى أن كل إنسان مولود من إنسانين والناس جميعاً مشتركون في ذلك .

---

(١) في البحث الروائي الآتي .

والحق أن قوله : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » إن كان ظاهراً في ذم التفاخر بالأنساب فأول الوجهين أوجه ، وإلا فالثاني لكونه أعم وأشمل .

وقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » استئناف مبين لما فيه الكرامة عند الله سبحانه ، وذلك أنه نبههم في صدر الآية على أن الناس بما هم ناس يساوي بعضهم بعضاً لا اختلاف بينهم ولا فضل لأحدهم على غيره ، وأن الاختلاف المترائي في الخلقة من حيث الشعوب والقبائل إنما هو للتوصل به الى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتمّ ائتلاف ولا تعاون وتعاضد من غير تعرف فهذا هو غرض الخلقة من الاختلاف المجعول لا أن تتفاخروا بالأنساب وتتفاضلوا بأمثال البياض والسواد فيستعبد بذلك بعضهم بعضاً ويستخدم إنسان إنساناً ويستعلي قوم على قوم فينجرّ الى ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الحرث والنسل فينقلب الدواء داء .

ثم نبّه سبحانه في ذيل الآية بهذه الجملة أعني قوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » على ما فيه الكرامة عنده ، وهي حقيقة الكرامة .

وذلك أن الانسان مجبول على طلب ما يتميز به من غيره ويختص به من بين أقرانه من شرف وكرامة ، وعامة الناس لتعلقهم بالحياة الدنيا يرون الشرف والكرامة في مزايا الحياة المادية من مال وجمال ونسب وحسب وغير ذلك فيبذلون جلّ جهدهم في طلبها واقتنائها ليتفاخروا بها ويستعلوا على غيرهم .

وهذه مزايا وهمية لا تجلب لهم شيئاً من الشرف والكرامة دون أن توقعهم في مهابط الهلكة والشقوة ، والشرف الحقيقي هو الذي يؤدّي الإنسان الى سعادته الحقيقية وهو الحياة الطيبة الأبدية في جوار رب العزة وهذا الشرف والكرامة هو بتقوى الله سبحانه وهي الوسيلة الوحيدة الى سعادة الدار الآخرة ، وتتبعها سعادة الدنيا قال تعالى : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » الأنفال : ٦٧ ، وقال : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » البقرة : ١٩٧ ، وإذا كانت الكرامة بالتقوى فأكرم الناس عند الله أتقاهم كما قال تعالى .

وهذه البغية والغاية التي اختارها الله بعلمه غاية للناس لا تزاحم فيها ولا تدافع بين المتلبسين بها على خلاف الغايات والكرامات التي يتخذها الناس بحسب أوهامهم

غايات يتوجهون اليها ويتباهون بها كالغنى والرئاسة والجمال وانتشار الصيت وكذا الأنساب وغيرها .

وقوله : « إن الله عليم خبير » فيه تأكيد لمضمون الآية وتلويح إلى أن الذي اختاره الله كرامة للناس كرامة حقيقية اختارها الله بعلمه وخبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامة وشرفاً لأنفسهم فإنها وهمية باطلة فإنها جميعاً من زينة الحياة الدنيا قال تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » العنكبوت : ٦٤ .

وفي الآية دلالة على أن من الواجب على الناس أن يتّبعوا في غايات الحياة أمر ربهم ويختاروا ما يختاره ويهدي اليه وقد اختار لهم التقوى كما أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياة ما يختاره لهم من الدين .

قوله تعالى : «قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » الخ الآية وما يليها إلى آخر السورة متعرضة لحال الأعراب في دعواهم الإيمان ومنّهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإيمانهم ، وسياق نقل قولهم وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيبهم بقوله : « لم تؤمنوا » يدلّ على أن المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم ، ويؤيّده قوله: « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر» التوبة :٩٩.

وقوله: « قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا » أي قالوا لك آمنا وادّعوا الإيمان قل لم تؤمنوا وكذّبهم في دعواهم ، وقوله : « ولكن قولوا أسلمنا » استدراك مما يدلُّ عليه سابق الكلام ، والتقدير : فلا تقولوا آمنّا ولكن قولوا : أسلمنا .

وقوله : « ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » لنفي دخول الإيمان في قلوبهم مع انتظار دخوله، ولذلك لم يكن تكراراً لنفي الإيمان المدلول عليه بقوله: « لم تؤمنوا ».

وقد نفى في الآية الإيمان عنهم وأوضحه بأنه لم يدخل في قلوبهم بعد وأثبت لهم الإسلام ، ويظهر به الفرق بين الإيمان والإسلام بأن الإيمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد ، والإسلام أمر قائم باللسان والجوارح فإنه الاستسلام والخضوع لساناً بالشهادة على التوحيد والنبوّة وعملاً بالمتابعة العملية ظاهراً سواء قارن الاعتقاد بحقيّة

ما شهد عليه وعمل به أو لم يقـارن ، وبظاهر الشهادتين تحقن الدماء وعليه تجري المناكح والمواريث .

وقوله : « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً » الليت النقص يقال : لاته يليته ليتاً إذا نقصه ، والمراد بالإطاعة الإخلاص فيها بموافقة الباطن للظاهر من غير نفاق ، وطاعة الله استجابة ما دعا اليه من اعتقـاد وعمل ، وطاعة رسوله تصديقه واتباعه فيما يأمر به فيما له الولاية عليه من امور الامة ، والمراد بالأعمال جزاؤها المراد بنقص الأعمال نقص جزائها .

والمعنى : وإن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتّباع دينه اعتقـاداً ، وتطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا ينقص من اجور أعمالكم شيئاً ، وقوله: « إن الله غفور رحيم » تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه ورسوله .

قوله تعالى : « إنمـا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أُولئك هم الصادقون » تعريف تفصيلي للمؤمنين بعدما عرّفوا إجمالاً بأنهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم كما هو لازم قوله : « لم تؤمنوا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » .

فقوله : « إنمـا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله » فيه قصر المؤمنين في الذين آمنوا بالله ورسوله الخ ، فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفاً جامعاً مانعاً فمن اتّصف بها مؤمن حقاً كما أن من فقد شيئاً منها ليس بمؤمن حقاً .

والإيمان بالله ورسوله عقـد القلب على توحيده تعالى وحقّية ما أرسل به رسوله وعلى صحة الرسالة واتّباع الرسول فيما يأمر به .

وقوله : « ثم لم يرتابوا » أي لم يشكّوا في حقيـة ما آمنوا به وكان إيمانهم ثابتاً مستقراً لا يزلزله شك ، والتعبير بثمّ دون الواو ـ كما قيل ـ للدلالة على انتفاء عروض الريب حيناً بعد حين كأنه طريّ جديد دائماً فيفيد ثبوت الإيمان على استحكامه الأوّلي ولو قيل : ولم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمـان أولاً مقارناً لعدم الارتياب مع السكوت عما بعد .

وقوله: « وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » المجاهدة بذل الجهد والطاقة

وسبيل الله دينه ، والمراد بالمجاهدة بالأموال والأنفس العمل بما تسعه الاستطاعة وتبلغه الطاقة في التكاليف المالية كالزكاة وغير ذلك من الإنفاقات الواجبة ، والتكاليف البدنية كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك .

والمعنى : ويجدّون بإتيان التكاليف المالية والبدنية حال كونهم أو حال كون عملهم في دين الله وسبيله .

وقوله: «أولئك هم الصادقون» تصديق في إيمانهم إذا كانوا على الصفات المذكورة.

قوله تعالى : « قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم » توبيخ للأعراب حيث قالوا : آمنّا ولازمه دعوى الصدق في قولهم والإصرار على ذلك ، وقيل : لما نزلت الآية السابقة حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون في قولهم : آمنّا، فنزل : « قل أتعلمون الله بدينكم » الآية ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » أي يمنون عليك بأن أسلموا وقد أخطأوا في منهم هذا من وجهين أحدهما أن حقيقة النعمة التي فيها المن هو الإيمان الذي هو مفتاح سعادة الدنيا والآخرة دون الإسلام الذي له فوائد صورية من حقن الدماء وجواز المناكح والمواريث ، وثانيهما أن ليس للنبي ﷺ من أمر الدين إلا أنه رسول مأمور بالتبليغ فلا من عليه لأحد ممن أسلم .

فلو كان هناك منّ لكان لهم على الله سبحانه لأن الدين دينه لكن لا منّ لأحد على الله لأن المنتفع بالدين في الدنيا والآخرة هم المؤمنون دون الله الغني على الإطلاق فالمن لله عليهم أن هداهم له .

وقد بدّل ثانياً الإسلام من الإيمان للاشارة إلى أن المن إنما هو بالإيمان دون الإسلام الذي إنما ينفعهم في الظاهر فقط .

فقد تضمن قوله : « قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن » الخ ، الإشارة إلى خطاهم من الجهتين جميعاً :

إحداهما : خطأهم من جهة توجيه المن إلى النبي ﷺ وهو رسول ليس له من الأمر شيء ، واليه الإشارة بقوله : « لا تمنوا عليّ إسلامكم » .

وثانيهما : أن المن – لو كان هناك من – إنما هو بالإيمان دون الاسلام ، واليه الإشارة بتبديل الإسلام من الإيمان .

قوله تعالى : « إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون » ختم للسورة وتأكيد يعلل ويؤكد به جميع ما تقدم في السورة من النواهي والأوامر وما بين فيها من الحقائق وما أخبر فيها عن إيمان قوم وعدم إيمان آخرين فالآية تعلل بمضمونها جميع ذلك .

والمراد بغيب السماوات والأرض ما فيها من الغيب أو الأعم مما فيهما ومن الخارج منهما .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم » قال: نزلت في قوم من بني تميم استهزؤا من بلال وسلمان وعمار وخبّاب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة .

وفي المجمع : نزل قوله : « لا يسخر قوم من قوم » في ثابت بن قيس بن شماس وكان في أذنه وقر وكان إذا دخل المسجد تفسّحوا له حتى يقعد عند النبي ﷺ فيسمع ما يقول .

فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا تفسحوا حتى انتهى الى رجل فقال له : أصبت مجلساً فاجلس فجلس خلفه مغضباً فلما انجلت الظلمة قال : من هذا ؟ قال الرجل : أنا فلان فقال ثابت : ابن فلانة ذكر أماً له كان يعيّر بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية . عن ابن عباس .

وفيه : وقوله : « ولا نساء من نساء » نزل في نساء النبي ﷺ سخرن من أم سلمة . عن أنس . وذلك أنها ربطت حقويها بسبيبة وهي ثوب أبيض وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجره فقالت عائشة لحفصة : انظري ماذا تجر خلفها كأنه لسان كلب

فهذه كانت سخريتها ، وقيل : إنها عيّرتها بالقصر ، وأشارت بيدها أنها قصيرة . عن الحسن .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والبغوي في معجمه وابن حبان والشيرازي في الألقاب والطبراني وابن السني في عمل اليوم والليلة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سلمة « ولا تنابزوا بالألقاب» قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يكره هذا الاسم فأنزل الله « ولا تنابزوا بالألقاب » .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي أن سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما وأن سلمان نام نوماً فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء وقالا ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخباء مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً فانطلق فأتاه فقال : يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك . قال: ما يصنع أصحابك بالادم ؟ قد ائتدموا.

فرجع سلمان فخبّرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ﷺ فقالا : والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا . قال : إنكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما . فنزلت « أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » .

وفيه أخرج الضياء المقدسي عن أنس قال : كانت العرب يخدم بعضها بعضاً في الأسفار وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما فناما واستيقظا ولم يهيّىء لهما طعاماً فقالا : إن هذا لنؤوم فأيقظاه فقالا : ائت رسول الله ﷺ فقل له : إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام ويستأدمانك ، فقال : إنهما ائتدما ، فجاءاه فقالا يا رسول الله بأي شيء ائتدمنا ؟ قال : بلحم أخيكما ، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما ، فقالا : استغفر لنا يا رسول الله . قال : مراه فليستغفر لكما .

أقول : الظاهر أن القصة الموردة في الروايتين واحدة والرجلان المذكوران في الرواية الاولى أبو بكر وعمر والرجل المذكور في الثانية هو سلمان ، ويؤيد هذا ما عن

جوامع الجامع قال : وروي أن أبا بكر وعمر بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعام فبعثه إلى أسامة بن زيد وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله فقال : ما عندي شيء فعاد اليهما فقالا : بخل أسامة ولو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها .

ثم انطلقا إلى رسول الله ﷺ فقال لهما : ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما قالا : يا رسول الله ما تناولنا اليوم لحماً. قال: ظلتم تأكلون لحم سلمان وأسامة فنزلت.

وفي العيون بإسناده عن محمد بن يحيى بن أبي عباد عن عمه قال : سمعت الرضا عليه السلام يوماً ينشد وقليلاً ما كان ينشد شعراً :

كلّنا نأمل مدّاً في الأجل والمنايا هنّ آفات الأمل
لا يغرّنك أباطيل المنى والزم القصد ودع عنك العلل
إنما الدنيا كظلٍّ زائل حلّ فيه راكب ثم رحل

فقلت: لمن هذا أعزّ الله الأمير؟ فقال: لعراقي لكم قلت: أنشدنيه أبو العتاهية [1] لنفسه فقال : هات اسمه ودع هذا ، إن الله سبحانه يقول : « ولا تنابزوا بالألقاب » ولعل الرجل يكره هذا .

وفي الكافي بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلّبك منه ، ولا تظننّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً .

وفي نهج البلاغة وقال عليه السلام : إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ، ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلم ، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله ثم أحسن رجل الظن برجل فقد غُرر .

أقول : والروايتان غير متعارضتين فالثانية ناظرة إلى نفس الظن والاولى إلى ترتيب الأثر عليه عملاً .

وفي الخصال عن أسباط بن محمد بإسناده الى النبي ﷺ أنه قال : الغيبة أشد من الزنا ، فقيل : يا رسول الله ولِمَ ذلك ؟ قال : صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه وصاحب الغيبة يتوب فلا يتوب الله عليه حتى يكون صاحبه الذي يحله .

---

(١) العتاهية بمعنى نقصان العقل .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وجابر عنه صلى الله عليه وآله ، ولفظه قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الغيبة أشد من الزنا . قالوا : يا رسول الله وكيف الغيبة أشد من الزنا؟ قال: إن الرجل يزني فيتوب فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه .

وفي الكافي بإسناده الى السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه .

وفيه بإسناده عن حفص بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما كفارة الاغتياب قال : تستغفر الله لمن اغتبته كما ذكرته .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » قال : الشعوب العجم والقبائل العرب .

أقول : ونسبه في مجمع البيان الى الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، ألا إن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال فليبلغ الشاهد الغائب .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زوّج مقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب. إنما زوجه لتضع المناكح ، وليتأسّوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وليعلموا أن أكرمهم عند الله أتقاهم .

وفي روضة الكافي بإسناده عن جميل بن درّاج قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام: فما الكرم ؟ قال : التقوى .

وفي الكافي بإسناده عن يونس بن يعقوب عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: إن الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون وعليه يتناكحون والإيمان عليه يثابون .

وفي الخصال عن الأعمش عن جعفر بن محمد عليه السلام في حديث : والإسلام غير الإيمان ، وكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا » أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله : « قالت الأعراب آمنا » قال : نزلت في بني أسد .

أقول : وهو مروي أيضاً عن مجاهد وغيره .

وفيه أخرج ابن ماجه وابن مردويه والطبراني والبيهقي في شعب الايمان عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : الايمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان .

وفيه أخرج النسائي والبزاز وابن مردويه عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد الى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك فنزلت هذه الآية « يمنون عليك أن أسلموا » .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر .

(سورة قٓ مكية ، وهي خمس وأربعون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . قٓ وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ ـــ ١ . بَلْ
عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ ٱلْكافِرُونَ هٰذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ـــ ٢.
ءَإِذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ـــ ٣ . قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ
ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ ـــ ٤ . بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمّا
جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ـــ ٥ . أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْناها وَزَيَّنّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ ـــ ٦ . وَٱلْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا
فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ـــ ٧ . تَبْصِرَةً
وَذِكْرىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ـــ ٨ . وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا
بِهِ جَنّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ـــ ٩ . وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ ـــ ١٠ .
رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ـــ ١١ . كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ـــ ١٢ . وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ
وَإِخْوانُ لُوطٍ ـــ ١٣ . وَأَصْحابُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ
الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ـــ ١٤ .

(بيان)

السورة تذكر الدعوة وتشير إلى ما فيها من الإنذار بالمعاد وجحد المشركين به واستعجابهم ذلك بأن الموت يستعقب بطلان الشخصية الإنسانية بصيرورته تراباً لا يبقى معه أثر مما كان عليه فكيف يرجع ثانياً إلى ما كان عليه قبل الموت فتدفع ما أظهروه من الاستعجاب والاستبعاد بأن العلم الإلهي محيط بهم وعنده الكتاب الحفيظ الذي لا يعزب عنه شيء مما دق وجل من أحوال خلقه ثم توعدهم بإصابة مثل ما أصاب الامم الماضية الهالكة .

وتنبه ثانياً على علمه وقدرته تعالى بالإشارة إلى ما جرى من تدبيره تعالى في خلق السماوات وما زينها به من الكواكب والنجوم وغير ذلك ، وفي خلق الأرض من حيث مدّها وإلقاء الرواسي عليها وإنبات الأزواج النباتية فيها ثم بإنزال الماء وتهيئة أرزاق العباد وإحياء الأرض به .

ثم بيان حال الإنسان من أول ما خلق وأنه تحت المراقبة الشديدة الدقيقة حتى ما يلفظ به من لفظ وحتى ما يخطر بباله وتوسوس به نفسه ما دام حياً ثم إذا أدركه الموت ثم إذا بعث لفصل القضاء ثم إذا فرغ من حسابه فادخل النار إن كان من المكذبين أو الجنة المزيفة إن كان من المتقين .

وبالجملة مصب الكلام في السورة هو المعاد ، ومن غرر الآيات فيها قوله : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ، وقوله : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد »وقوله:«لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد».

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها إلا ما قيل في قوله :« ولقد خلقنا السماوات والأرض » الآية أو الآيتين ، ولا شاهد عليه من اللفظ .

وما أوردناه من الآيات فيه إجمال الإشارة الى المعاد واستبعادهم له ، وإجمال الجواب والتهديد أولاً ثم الاشارة الى تفصيل الجواب والتهديد ثانياً .

قوله تعالى : « قٓ والقرآن المجيد » ، قال في المجمع : المجد في كلامهم الشرف

الواسع يقال : مجَد الرجل ومجُد – بضم العين وفتحها – مجداً إذا عظم وكرم ، وأصله من قولهم : مجدت الأبل مُجوداً إذا عظمت بطونهـا من كثرة أكلها من كلاء الربيع . انتهى .

وقوله : « والقرآن المجيد »قسم وجوابه محذوف يدل عليه الجمل التالية والتقدير والقرآن المجيد إن البعث حق أو إنك لمن المنذرين أو الانذار حق ، وقيل : جواب القسم مذكور وهو قوله: « بل عجبوا » الخ ، وقيل : هو قوله : « قد علمنا ما تنقص» الخ ، وقيل : قوله : « ما يلفظ من قول » الخ ، وقيل: قوله : « إن في ذلك لذكرى» الخ ، وقيل : قوله « ما يبدل القول لدي » الخ ، وهذه أقوال سخيفة لا يصار اليها .

قوله تعالى : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هـــذا شيء عجيب » إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنه قيل : إنا أرسلناك نذيراً فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، أو قيل إن البعث الذي أنذرتهم به حق ولم يؤمنوا به بل عجبوا منه واستبعدوه .

وضمير « منهم » في قوله : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » راجع اليهم بما هم بشر أي من جنسهم وذلك أن الوثنيين ينكرون نبوة البشر كما تقدمت الاشارة اليه مراراً أو راجع اليهم بمـا هم عرب والمعنى : بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم وبلسانهم يبين لهم الحق أوفى بيان فيكون أبلغ في تقريعهم .

وقوله : « فقال الكافرون هذا شيء عجيب » وصفهم بالكفر ولم يقل : وقال المشركون ونحو ذلك للدلالة على سترهم للحق لما جاءهم ، والاشارة في قولهم : « هذا شيء عجيب » ، الى البعث والرجوع الى الله كما يفسره قوله بعد : « ءإذا متنا وكنا تراباً » الخ .

قوله تعالى : « ءإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » الرجع والرجوع بمعنى والمراد بالبعد البعد عن العقل .

وجواب إذا في قولهم: « ءإذا متنا وكنا تراباً » محذوف يدل عليه قولهم:«ذلك رجع بعيـد » ، والتقدير ءإذا متنا وكنا تراباً نبعث ونرجع ؟ والاستفهام للتعجيب ، وإنما حذف للاشارة الى أنه عجيب بحيث لا ينبغي أن يذكر ،إذ لا يقبله عقل ذي عقل

والآية في مساق قوله : « وقالوا ءإذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق جديد » الم السجدة : ١٠ .

والمعنى: إنهم يتعجبون ويقولون: ءإذا متنا وكنا تراباً – وبطلت ذواتنا بطلاناً لا أثر معه منها – نبعث ونرجع ؟ ثم كأن قائلاً يقول لهم : مم تتعجبون؟ فقالوا: ذلك رجع بعيد يستبعده العقل ولا يسلمه .

قوله تعالى : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » رد منه تعالى لاستبعادهم البعث والرجوع مستندين في ذلك إلى أنهم ستتلاشى أبدانهم بالموت فتصير تراباً متشابه الأجزاء لا تمايز لجزء منها من جزء والجواب أنّا نعلم بما تأكله الأرض من أبدانهم وتنقصه منها فلا يفوت علمنا جزء من أجزائهم حتى يتعسر علينا إرجاعه أو يتعذر بالجهل .

أو أنا نعلم من يموت منهم فيدفن في الأرض فتنقصه الأرض من جمعهم ، و« من » على أول الوجهين تبعيضية وعلى الثاني تبيينية .

وقوله : « وعندنا كتاب حفيظ » أي حافظ لكل شيء ولآثاره وأحواله ، أو كتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير والتحريف ، وهو اللوح المحفوظ الذي فيه كل ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة .

وقول بعضهم إن المراد به كتاب الأعمال غير سديد أولاً من جهة أن الله ذكره حفيظاً لما تنقص الأرض منهم وهو غير الأعمال التي يحفظه كتاب الأعمال .

وثانياً : أنه سبحانه إنما وصف في كلامه بالحفظ اللوح المحفوظ دون كتب الأعمال فحمل الكتاب الحفيظ على كتاب الأعمال من غير شاهد .

ومحصل جواب الآية أنهم زعموا أن موتهم وصيرورتهم تراباً متلاشي الذرّات غير متمايز الأجزاء يصيرهم مجهولي الأجزاء عندنا فيمتنع علينا جمعها وإرجاعها لكنه زعم باطل فإنا نعلم بمن مات منهم وما يتبدل إلى الأرض من أجزاء أبدانهم وكيف يتبدل وإلى أين يصير ؟ وعندنا كتاب حفيظ فيه كل شيء وهو اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : « بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج » المرج الاختلاط والالتباس ، وفي الآية إضراب عما تلوح اليه الآية السابقة فإن اللائح منها أنهم إنما

تعجبوا من أمر البعث والرجوع واستبعدوه لجهلهم بأن الله سبحانه عليم لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه وآثارهم وأن جميع ذلك مستطر في اللوح المحفوظ عند الله بحيث لا يشذّ عنه شاذ .

فاضرب في هذه الآية أن ذلك ليس من جهلهم وإن تجاهلوا بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فاستبان لهم أنه حق فهم جاحدون للحق معاندون له وليسوا بجاهلين به قاصرين عن إدراكه فهم في أمر مريج مختلط غير منتظم يدركون الحق ويكذبون به مع أن لازم العلم بشيء تصديقه والإيمان به .

وقيل : المراد بكونهم في أمر مريج أنهم متحيرون بعد إنكار الحق لا يدرون ما يقولون فتارة يقولون : افتراء على الله ، وتارة : سحر، وتارة : شعر، وتارة : كهانة وتارة : زجر .

ولذلك عقّب الكلام بذكر آيات علمه وقدرته توبيخاً لهم ثم بالإشارة إلى تكذيب الامم الماضية الهالكة الذي ساقهم إلى عذاب الاستئصال ، تهديداً لهم .

قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج » الفروج جمع فرجة : الشقوق والفتوق ، وتقييد السماء بكونها فوقهم للدلالة على أنها بمرأى منهم لا تغيب عن أنظارهم ، والمراد بتزيينها خلق النجوم اللامعة فيها بما لها من الجمال البديع، فبناء هذا الخلق البديع بما لها من الجمال الرائع من غير شقوق وفتوق أصدق شاهد على قدرته القاهرة وعلمه المحيط بما خلق .

قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » مد الأرض بسطها لتلائم عيشة الإنسان ، والرواسي جمع الراسية بمعنى الثابتة صفة محذوفة الموصوف وهو الجبال ، والمراد جعل الجبال الثابتة على ظهرها ، والبهيج من البهجة ، قال في المجمع : البهجة الحسن الذي له روعة عند الرؤية كالزهرة والأشجار النضرة والرياض الخضرة . انتهى. وقيل : المراد بالبهيج الذي من رآه بهج وسرّ به فهو بمعنى المبهوج به .

والمراد بإنبات كل زوج بهيج إنبات كل صنف حسن المنظر من النبات .

فخلق الأرض وما جرى فيها من التدبير الإلهي العجيب أحسن دليل يدلّ العقل على كمال القدرة والعلم .

قوله تعالى : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » مفعول له أي فعلنا ما فعلنا من بناء السماء ومد الأرض وعجائب التدبير التي أجريناها فيهما ليكون تبصرة يتبصّر بها وذكرى يتذكر بها كل عبد راجع إلى الله سبحانه .

قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » السماء جهة العلو والماء المبارك المطر ، وصف بالمباركة لكثرة خيراته العائدة إلى الأرض وأهلها ، وحب الحصيد المحصود من الحب وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : «والنخل باسقات لها طلع نضيد» الباسقات جمع باسقة وهي الطويلة العالية ، والطلع أول ما يطلع من ثمر النخيل ، والنضيد بمعنى المنضود بعضه على بعض ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » الرزق ما يمدّ به البقاء ، و « رزقاً للعباد » مفعول له أي أنبتنا هذه الجنات وحب الحصيد والنخل باسقات بما لها من الطلع النضيد ليكون رزقاً للعباد فمن خلق هذه النباتات ليرزق به العباد بما في ذلك من التدبير الوسيع الذي يدهش اللبّ ويحيّر العقل هو ذو علم لا يتناهى وقدرة لا تعيى لا يشق عليه إحياء الإنسان بعد موته وإن تلاشت ذرّات جسمه وضلّت في الأرض أجزاء بدنه .

وقوله : « وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » برهان آخر على البعث غير ما تقدم استنتج من طيّ الكلام فإن البيان السابق في رد استبعادهم للبعث مستندين إلى صيرورتهم تراباً غير متمايز الأجزاء كان برهاناً من مسلك إثبات علمه بكل شيء وقدرته على كل شيء وهذا البرهان الذي يتضمنه قوله: « وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » من مسلك إثبات إمكان الشيء بوقوع مثله فليس الخروج من القبور بالإحياء بعد الموت إلا مثل خروج النبات الميت من الأرض بعد موتها ووقوف قواه عن النماء والنشوء.

وقد قررنا هذا البرهان في ذيل الآيات المستدلة بإحياء الأرض بعد موتها على

البعث غير مرة فيما تقدم من أجزاء الكتاب .

قوله تعالى : « كذّبت قبلهم قوم نوح – إلى قوله – كل كذّب الرسل فحق وعيد » ، تهديد وإنذار لهم بما كذّبوا بالحق لما جاءهم وتبين لهم عناداً كما أشرنا اليه قبل .

وقد تقدم ذكر أصحاب الرس في تفسير سورة الفرقان، وذكر أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب في سور الحجر والشعراء وص ، وذكر قوم تبع في سورة الدخان .

وفي قوله : « كل كذب الرسل فحق وعيد » إشارة إلى أن هناك وعيداً بالهلاك ينجز عند تكذيب الرسل قال تعالى : « فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » النحل : ٣٦ .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له: ق السماء الدنيا مترفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له ق السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سماوات . قال : وذلك قوله : « والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر » .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو الشيخ والحاكم عن عبد الله بن بريدة في قوله تعالى : « ق » قال : جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال: خلق الله جبلاً يقال له ق محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرّك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية .

أقول : وروى القمي بإسناده عن يحيى بن ميسرة الخثعمي عن الباقر عليه السلام

مثل ما مر عن عبد الله بن بريدة ، وروى ما في معناه مرسلاً ومضمراً ولفظه : قال : جبل محيط بالدنيا وراء يأجوج ومأجوج .

وكيفما كان لا تعويل على هذه الروايات ، وبطلان ما فيها يكاد يلحق اليوم بالبديهيات أو هو منها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فقال الكافرون هذا شيء عجيب » قال : نزلت في أبي بن خلف قال لأبي جهل : تعال إلي أعجبك من محمد ثم أخذ عظماً ففته ثم قال : يا محمد تزعم أن هذا يُحيا ؟ فقال الله : بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج » .

* * *

أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ – ١٥ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ – ١٦ . إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ – ١٧ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ – ١٨ . وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ – ١٩ . وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ – ٢٠ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ – ٢١ . لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ – ٢٢ . وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ – ٢٣ . أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ – ٢٤ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ – ٢٥ . ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ

فِي ٱلْعَذَابِ الشَّدِيدِ ــ ٢٦ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ
كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ــ ٢٧ . قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُمْ بِٱلْوَعِيدِ ــ ٢٨ . مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ
لِلْعَبِيدِ ــ ٢٩ . يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ
مَزِيدٍ ــ ٣٠ . وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ــ ٣١ . هَٰذَا مَا
تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ــ ٣٢ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ
وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ــ ٣٣ . ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ــ ٣٤ .
لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ــ ٣٥ . وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ
قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي ٱلْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ــ ٣٦ .
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ
شَهِيدٌ ــ ٣٧ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ــ ٣٨ .

(بيان)

الآية الاولى متممة لما أورده في الآيات السابقة من الحجة على علمه وقدرته بما خلق السماء والأرض وما فيهما من خلق ودبّر ذلك أكمل التدبير وأتمّه وذلك كله هو الخلق الأول والنشأة الاولى . فتمّم ذلك بقوله : « أفعيينا بالخلق الأول » واستنتج منه أن القادر على الخلق الأول العالم به قادر على خلق جديد ونشأة ثانية وعالم به لأنهما مثلان إذا جاز له خلق أحدهما جاز خلق الآخر وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن .

ثم أضرب عنه أنهم في التباس من خلق جديد مع مماثلة الخلقين ثم أشار إلى نشأة الإنسان أول مرة وهو يعلم منه حتى خطرات قلبه وعليه رقباؤه يراقبونه أدق المراقبة ثم يجيئه سكرة الموت بالحق ثم البعث ثم دخول الجنة أو النار ثم أشار ثانياً إلى ما حلّ بالقرون الماضية المكذبة من السخط الإلهي وعذاب الاستئصال وهم أشد بطشاً من هؤلاء فمن جازاهم بالهلاك قادر على أن يجازي هؤلاء .

قوله تعالى : « أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » العيّ عجز يلحق من تولى الأمر والكلام كذا ، قال الراغب: يقال: أعياني كذا وعييت بكذا أي عجزت عنه والخلق الأول خلق هذه النشأة الطبيعية بنظامها الجاري ومنها الإنسان في حياته الدنيا فلا وجه لقصر الخلق الأول في خلق السماء والأرض فقط كما مال اليه الرازي في التفسير الكبير ولا لقصره في خلق الإنسان كما مال اليه بعضهم وذلك لأن الخلق الجديد يشمل السماء والأرض والإنسان جميعاً كما قال تعالى : « يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار » إبراهيم : ٤٨ . والخلق الجديد خلق النشأة الثانية وهي النشأة الآخرة ، والاستفهام للإنكار .

والمعنى : أعجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الجديد ؟ أي لم نعجز عن الخلق الأول وهو إبداؤه فلا نعجز عن الخلق الجديد وهو إعادته .

ولو أخذ العيّ بمعنى التعب كما مال اليه بعضهم كان المعنى : هل تعبنا بسبب الخلق الأول حتى يتعذر أو يتعسّر علينا الخلق الجديد ؟ وذلك كما أن الإنسان وسائر الحيوان إذا أتى بشيء من الفعل وأكثر منه انتهى به إلى التعب البدني فيكفّه ذلك عن الفعل بعد، فما لم يأت به من الفعل لكونه تعبان مثل ما أتى لكنه لا يؤتى به لأن الفاعل لا يستطيعه لتعبه وإن كان الفعل جائزاً متشابه الأمثال .

وهذا معنى لا بأس به لكن قيل : إن استعمال العيّ بمعنى العجز أفصح .

على أن سوق الحجة من طريق العجز يفيد استحالة الإتيان ونفيها هو المطلوب بخلاف سوقها من طريق التعب فإنه يفيد تعسّره دون استحالة الإتيان ومراد النافين للمعاد استحالته دون تعسره هذا .

وقوله : « بل هم في لبس من خلق جديد » اللبس هو الالتباس ، والمراد بالخلق

الجديد تبديل نشأتهم الدنيـــا من نشأة اخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعي الحاكم في الدنيا فإن في النشأة الاخرى وهي الخلق الجديد بقاء من غير فناء وحياة من غير موت ثم إن كان الإنسان من أهل السعادة فله نعمة من غير نقمة وإن كان من أهل الشقاء ففي نقمة لا نعمــة معها ، والنشأة الاولى وهي الخلق الأول والنظام الحاكم فيها على خلاف ذلك .

والمعنى : إذا كنا خلقنا العـالم بسمائه وأرضه وما فيها ودبّرناه أحسن تدبير لأول مرة بقدرتنا وعلمنا ولم نعجز عن ذلك علماً وقدرة فنحن غير عاجزين عن تجديد خلقه وهو تبديله خلقاً جديداً فلا ريب في قدرتنا ولا التباس بل هم في التباس لا سبيل لهم مع ذلك إلى الإيمان بخلق جديد .

قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » قال الراغب : الوسوسة الخطرة الرديئـة وأصله من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفي . انتهى .

والمراد بخلق الإنسان وجوده المندرج المتحول خلقاً بعـد خلق لا أول تكوينه إنساناً وإن عبّر عنه بالماضي إذ قال : « ولقد خلقنا الإنسان » إذ الإنسان – وكذا كل مخلوق له حظ من البقاء – كما يحتاج إلى عطية ربه في أول وجوده كذلك يحتاج اليه في بقائه .

ولما ذكر من النكتة عطف قوله: «ونعلم ما توسوس به نفسه » وهو فعل مضارع مسوق للدلالة على الاستمرار على قوله : « ولقد خلقنا الإنسان » وهو فعل ماض لكنه مستمر المعنى، وكذا قوله: « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » مفيد للثبوت والدوام والاستمرار باستمرار وجود الإنسان .

وللآية اتصال بما تقدم من الاحتجاج على علمه وقدرته تعالى في الخلق الأول بقوله: « أفلم ينظروا إلى السماء » واتصال أيضاً بقوله تعالى في الآية السابقة : « بل هم في لبس من خلق جديد » فهي في سياق يذكر قدرته على الإنسان بخلقه ، وعلمه به بلا واسطة وبواسطة الملائكة الحفظة الكتبة .

فقوله : « ولقـــد خلقنا الإنسان » – واللام للقسم – دالّ على القدرة عليه بإثبات الخلق .

وقوله : « ونعلم ما توسوس به نفسه » في ذكر أخفى أصناف العلم وهو العلم بالخطور النفساني الخفي إشارة إلى استيعاب العلم له كأنه قيل : ونعلم ظاهره وباطنه حتى ما توسوس به نفسه ومما توسوس به الشبهة في أمر المعاد : كيف يُبعث الإنسان وقد صار بعد الموت تراباً متلاشي الأجزاء غير متميز بعضها من بعض .

وقد بان أن «ما» في « ما توسوس به » موصولة وضمير « به » عائد اليه والباء للآلة أو للسببية ، ونسب الوسوسة إلى النفس دون الشيطان وإن كانت منسوبة اليه أيضاً لأن الكلام في إحاطة العلم بالإنسان حتى بما في زوايا نفسه من هاجس ووسوسة .

وقوله : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » الوريد عرق متفرق في البدن فيه مجاري الدم ، وقيل : هو العرق الذي في الحلق ، وكيف كان فتسميته حبلاً لتشبيهه به ، وإضافة حبل الوريد بيانية .

والمعنى : نحن أقرب الى الإنسان من حبل وريده المخالط لأعضائه المستقر في داخل بدنه فكيف لا نعلم به وبما في نفسه ؟.

وهذا تقريب للمقصود بجملة ساذجة يسهل تلقيها لعامة الأفهام وإلا فأمر قربه تعالى اليه أعظم من ذلك وأعظم فهو سبحانه الذي جعلها نفساً ورتب عليها آثارها فهو الواسطة بينها وبين نفسها وبينها وبين آثارها وأفعالها فهو أقرب الى الإنسان من كل أمر مفروض حتى في نفسه ، ولكون هذا المعنى دقيقاً يشق تصوره على أكثر الأفهام عدل سبحانه الى بيانه بنحو قوله : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » وقريب منه بوجه قوله : « إن الله يحول بين المرء وقلبه » .

ولهم في معنى الآية وجوه كثيرة أخر لا جدوى في نقلها والبحث عنها من أرادها فليراجع كتبهم .

قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » التلقي الأخذ والتلقن ، والمراد بالمتلقيان على ما يفيده السياق الملكان الموكلان على الإنسان اللذان يتلقيان عمله فيحفظانه بالكتابة .

وقوله : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، والمراد باليمين والشمال يمين الإنسان وشماله ، والقعيد القاعد .

والظرف في قوله : « إذ يتلقى المتلقيان » الظاهر أنه متعلق بمحذوف والتقدير اذكر إذ يتلقى المتلقيان ، والمراد به الإشارة إلى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق كتاب الأعمال من الملائكة وراء علمه تعالى بذاته من غير توسط الوسائط .

وقيل : الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة : « أقرب » والمعنى : نحن أقرب اليه من حبل الوريد في حين يتلقى الملكان الموكلان عليه أعماله ليكتباها .

ولعل الوجه السابق أوفق للسياق فإن بناء هذا الوجه على كون العمدة في الغرض بيان أقربيته تعالى اليه وعلمه به والباقي مقصود لأجله ، وظاهر السياق وخاصة بالنظر الى الآية التالية كون كل من العلم من طريق القرب ومن طريق تلقي الملكين مقصوداً بالاستقلال .

وقيل : « إذ » تعليلية تعلل علمه تعالى المدلول عليه بقوله : « ونحن أقرب اليه » الخ ، بمفاد مدخولها .

وفيه أن من البعيد من مذاق القرآن أن يستدل على علمه تعالى بعلم الملائكة أو بحفظهم وكتابتهم .

وقوله : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » تمثيل لموقعهما من الإنسان ، واليمين والشمال جانبا الخير والشر ينتسب اليهما الحسنة والسيئة .

قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » اللفظ الرمي سمي به التكلم بنوع من التشبيه ، والرقيب الحافظ ، والعتيد المعد المهيا للزوم الأمر .

والآية تذكر مراقبة الكتبة للإنسان فيما يتكلم به من كلام ، وهي بعد قوله : « إذ يتلقى المتلقيان » الخ ، من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية به .

قوله تعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » الحيد العدول والميل على سبيل الهرب ، والمراد بسكرة الموت ما يعرض الإنسان حال النزع إذ يشتغل بنفسه وينقطع عن الناس كالسكران الذي لا يدري ما يقول ولا ما يقال له .

وفي تقييد مجيء سكرة الموت بالحق إشارة الى أن الموت داخل في القضاء الإلهي مراد في نفسه في نظام الكون كما يستفاد من قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » الأنبياء : ٣٥ ، وقد مر تفسيره فالموت – وهو

الانتقال من هذه الدار الى دار بعدها – حق كما أن البعث حق والجنة حق والنار حق، وفي معنى كون الموت بالحق أقوال أخر لا جدوى في نقلها والتعرض لها .

وفي قوله : « ذلك ما كنت منه تحيد » إشارة الى أن الإنسان يكره الموت بالطبع وذلك أن الله سبحانه زيّن الحياة الدنيا والتعلق بزخارفها للانسان ابتلاء وامتحاناً ، قال تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوكم أيكم أحسن عملا وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً » الكهف : ٨ .

قوله تعالى : « ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد » هذه نقلة ثانية إلى عالم الخلود بنفخ الصور بعد النقلة الاولى ، والمراد بنفخ الصور النفخة الثانية المقيمة للساعة أو مجموع النفختين بإرادة مطلق النفخ .

والمراد بيوم الوعيد يوم القيامة الذي ينجز الله تعالى فيه وعيده على المجرمين من عباده .

قوله تعالى : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » السياقة حث الماشية على المسير من خلفها بعكس القيادة فهي جلبها من أمامها .

فقوله : « وجاءت كل نفس » أي جاءت إلى الله وحضرت عنده لفصل القضاء، والدليل عليه قوله تعالى : « إلى ربك يومئذ المساق » القيامة : ٣٠ .

والمعنى: وحضرت عنده تعالى كل نفس معها سائق يسوقها وشاهد يشهد بأعمالها ولم يصرّح تعالى بكونهما من الملائكة أو بكونهما هما الكاتبين أو من غير الملائكة ، غير أن السابق إلى الذهن من سياق الآيات أنهما من الملائكة ، وسيجيء الروايات في ذلك .

وكذا لا تصريح بكون الشهادة منحصرة في هذا الشاهد المذكور في الآية بل الآيات الواردة في شهداء يوم القيامة تقضي بعدم الانحصار، وكذا الآيات التالية الذاكرة لاختصام الإنسان وقرينه دالة على أن مع الإنسان يومئذ غير السائق والشهيد .

قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » وقوع الآية في سياق آيات القيامة واحتفافها بها يقضي بكونها من خطابات يوم القيامة ، والمخاطب بها هو الله سبحانه ، والذي خوطب بها هو الإنسان المذكور

في قوله : « وجاءت كل نفس » ، وعليه فالخطاب عـام متوجه إلى كل إنسان إلا أن التوبيخ والتقريع اللائح من سياق الآية ربما استدعى اختصاص الخطاب بمنكري المعاد ، أضف إلى ذلك ، كون الآيات مسوقة لرد منكري المعـاد في قولهم : « ءإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » .

والإشارة بقوله : « هـذا » إلى ما يشاهده يومئذ ويعاينه من تقطع الأسباب وبوار الأشياء ورجوع الكل إلى الله الواحد القهار ، وقد كان تعلق الإنسان في الدنيا بالأسباب الظاهرية وركونه اليها أغفله عن ذلك حتى إذا كشف الله عنه حجاب الغفلة فبدت له حقيقة الأمر فشاهد ذلك مشاهدة عيان لا علماً فكرياً .

ولذا خوطب بقوله : « لقـد كنت » في الدنيا « في غفلة » أحاطت بك « من هذا » الذي تشاهده وتعاينه وإن كان في الدنيـا نصب عينيك لا يغيب لكن تعلقك بذيل الأسباب أذهلك وأغفلك عنه « فكشفنا عنك غطاءك » اليوم « فبصرك » وهو البصيرة وعين القلب « اليوم » وهو يوم القيامة « حديد » أي نافذ يبصر ما لم يكن يبصره في الدنيا .

ويتبين بالآية أولاً : أن معرّف يوم القيامة أنه يوم ينكشف فيه غطاء الغفلة عن الإنسان فيشاهد حقيقة الأمر ، وفي هذا المعنى وما يقرب منه آيات كثيرة كقوله تعالى : « والأمر يومئـــذٍ لله » الانفطار : ١٩ ، وقوله : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » المؤمن : ١٦ ، إلى غير ذلك من الآيات .

وثانياً : أن ما يشاهده الإنسان يوم القيامة موجود مهيأً له وهو في الدنيا غير أنه في غفلة منه ، وخاصة يوم القيامة أنه يوم انكشاف الغطاء ومعاينة ما وراءه ، وذلك لان الغفلة إنما يتصور فيما يكون هناك أمر موجود مغفول عنه ، والغطاء يستلزم أمراً وراءه وهو يغطيه ويستره ، وعدم حدّة البصر إنما ينفع فيما إذا كان هناك مبصر دقيق لا ينفذ فيه البصر .

ومن أسخف القول ما قيل : إن الآية خطاب منه تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : لقد كنت قبل الرسالة في غفلة من هذا الذي نوحي اليك فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد يدرك الوحي أو يبصر ملك الوحي فيتلقى الوحي ، وذلك لأن السياق لا يساعده ولا لفظ الآية ينطبق عليه .

قوله تعالى : « وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد » لا يخلو السياق من ظهور في أن المراد بهذا القرين الملك الموكل به فإن كان هو السائق كان معنى قوله : « هـذا ما لدي عتيد » هذا الانسان الذي هو عندى حاضر ، وان كان هو الشهيد كان المعنى هذا – وهو يشير الى أعماله التي حمل الشهادة عليها – ما عندي من أعماله حاضر مهيأ .

وقيل : المراد بالقرين الشيطان الذي يصاحبه ويغويه ، ومعنى كلامه على هذا هذا الإنسان هو الذي توليت أمره وملكته حاضر مهيأ لدخول جهنم .

قوله تعالى : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب » الكفار اسم مبالغة من الكفر ، والعنيد المعاند للحق المستمر على عناده ، والمعتدي المتجاوز عن الحد المتخطىء للحق ، والمريب الشاك أو المشكك في أمر البعث .

وبين هذه الصفات المعدودة شبه الاستلزام فإن كثرة الكفر برد الإنسان كل حق يواجهه تنتج العناد مع الحق والإصرار عليه ، والإصرار على العناد يوجب المنع عن أكثر الخيرات إذ لا خير إلا في الحق ومن ناحيته ، وهو يستلزم الخروج عن حد الحق إلى الباطل وتجاوز الإنسان عن حد العبودية إلى الاستكبار والطغيان ويستلزم تشكيك الناس في ما يرومونه من دين الحق .

والخطاب في الآية منه تعالى ، وظاهر سياق الآيات أن المخاطب به هما الملكان الموكلان السائق والشهيد ، واحتمل بعضهم أن يكون الخطاب إلى ملكين من ملائكة النار وخزنتها .

قوله تعالى : « الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد » العدول في ذكر صفة الشرك عن الإيجاز إلى الإطناب حيث لم يقل : مشرك وقال : « الذي جعل » الخ ، للاشارة إلى أن هـذه الصفة أعظم المعاصي وأم الجرائم التي أتى بها والصفات الرذيلة التي عدت له من الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء والإرابة .

وقوله : « فألقياه في العذاب الشديد » تأكيد لما تقدم من الأمر بقوله : «ألقيا» الخ ، ويلوح إلى تشديد الأمر من جهة الشرك ، ولذا عقبه بقوله : «في العذاب الشديد» .

قوله تعالى : « قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد » المراد بهذا القرين قرينه من الشياطين بلا شك ، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر القرين من الشيطان

وهو الذي يلازم الإنسان ويوحي اليه ما يوحي من الغواية والضلال، قال تعالى: « ومن يعشُ عن ذكر الرحمان نقيّض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين » الزخرف : ٣٨ .

فقوله: « قال قرينه » أي شيطانه الذي يصاحبه ويغويه « ربنا » أضاف الرب إلى نفسه والإنسان الذي هو قرينه لأنهما في مقام الاختصام «ما أطغيته» أي ما أجبرته على الطغيان « ولكن كان في ضلال بعيد » أي متهيئاً مستعداً لقبول ما ألقيته اليه تلقّاه باختياره فما أنا بمسؤل عن ذنبه في طغيانه .

وقد تقدم في سورة الصافات تفصيل اختصام الظالمين وأزواجهم في قوله : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » الصافات : ٢٢ ، إلى آخر الآيات .

قوله تعالى : « قال لا تختصموا لديّ وقد قدّمت اليكم بالوعيد » القائل هو الله سبحانه يخاطبهم وكأنه خطاب واحد لعامة المشركين الطاغين وقرنائهم ينحلّ إلى خطابات جزئية لكل إنسان وقرينه بمثل قولنا : لا تختصما لديّ ، الخ .

وقوله: « وقد قدّمت اليكم بالوعيد » حال من فاعل «لا تختصموا» و «بالوعيد» مفعول « قدّمت » والباء للوصلة .

والمعنى : لا تختصموا لديّ فلا نفع لكم فيه بعد ما أبلغتكم وعيدي لمن أشرك وظلم ، والوعيد الذي قدّمه اليهم مثل قوله تعالى لإبليس : « إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً » أسرى:٦٣ ، وقوله : « فالحق والحق أقول لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » ص : ٨٥ . أو قوله : « لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين » السجدة : ١٣ .

قوله تعالى : « ما يبدّل القول لديّ وما أنا بظلاّم للعبيد » الذي يعطيه السياق أن تكون الآية استئنافاً بمنزلة الجواب عن سؤال مقدر كأن قائلاً يقول : هب إنك قد قدّمت فهلاّ غيّرته وعفوت ؟ فاجيب بقوله: « ما يبدّل القول لديّ » والمراد بالقول مطلق القضاء المحتوم الذي قضى به الله ، وقد قضى لمن مات على الكفر بدخول جهنم وينطبق بحسب المورد على الوعيد الذي أوعده الله لإبليس ومن تبعه .

فقد بان أن الجملة مستأنفة ، والمراد بتبديل القول تغيير القضاء المحتوم، و«لدي» متعلق بالتبديل ، هذا مـا يعطيه السياق ، وقد ذكر بعضهم في هذه الجملة وإعراب مفرداتها ومعنى تبديل القول وجوهاً واحتمالات كثيرة بعيدة عن الفهم لا تزيد في الكلام إلا تعقيداً فأغمضنا عن إيرادها .

وقوله :« وما أنا بظلام للعبيد » متمم لمعنى الجملة السابقة أي لا يبدل قولي فأنتم معذبون لا محالة ولست أظلم عبيدي في عذابهم على طبق ما قدمت اليهم بالوعيد لأنهم مستحقون لذلك بعد إتمام الحجة .

ومن وجه آخر: لا ظلم في مجازاتهم بالعذاب فإنهم إنما يجزون بأعمالهم التي قدموها في أعمالهم ردت اليهم كما هو ظاهر قوله تعالى : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » التحريم : ٧ .

وما في قوله : « وما أنا بظلام » من نفي الظلم الكثير لا يستوجب جواز الظلم اليسير فإنه تعالى لو ظلم في شيء من الجزاء كان ظلماً كثيراً لكثرة أمثاله فإن الخطاب لكل إنسان مشرك ظالم مع قرينه ، وهم كثيرون فهو سبحانه لو ظلم في شيء من الجزاء لكان ظلاماً .

قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » خطاب منه تعالى لجهنم وجواب منها ، وقد اختلف في حقيقة هذا التكليم والتكلم فقيل : الخطاب والجواب بلسان الحال ويرده أنه لو كان بلسان الحال لم يختص به تعالى بل كان لكل من يشاهدها على تلك الحال أن يسألها عن امتلائها فتجيبه بقولها: هل من مزيد ؟ فليس لتخصيص الخطاب به تعالى نكتة ظاهرة .

وقيل : حقيقة الخطاب لخزنة جهنم والجواب منهم وإن كانا نسبا إلى جهنم وفيه أنه خلاف الظاهر لا يصار اليه إلا بدليل .

وقيل : الخطاب والجواب على ظاهره ، ولا دليل يدل على عدم الجواز ، وقـد أخبر الله سبحانه عن تكليم الأيدي والأرجل والجلود وغيرها ، وهو الوجه وقد تقدم في تفسير سورة فصلت أن العلم والشعور سار في جميع الموجودات .

وقوله : « هل امتلأت » استفهام تقريري ، وكذا قوله حكاية عنها : « هل من مزيد » ولعل إيراد هذا السؤال والجواب للإشارة إلى أن قهره وعذابه لا يقصر عن الإحاطة بالمجرمين وإيفاء مـــا يستحقونه من الجزاء قال تعالى : « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » التوبة : ٤٩ .

واستشكل بأنه مناف لصريح قوله تعالى : « لأملأن جهنم » الآية وأجيب بأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو شيء من طبقاتها من السكنة كما يقال : البلد ممتلىء بأهله. على أنه يمكن أن يكون هذا القول منها قبل دخول جميع أهل النار فيها .

وقيل : الاستفهام في قوله : « هل من مزيد » للإنكار والمعنى : لا مزيد أي لا مكان فيّ يزيد على من ألقى في من المجرمين فقد امتلأت فيكون إشارة إلى ما قضى به في قوله : « لأملأن جهنم من الجنـــة والناس أجمعين » السجدة : ١٣ ، وقوله : « هل امتلأت » في معنى أن يقال : « هل حق القول مني لأملأن جهنم » ، وقوله : « هل من مزيد » تقرير وتصديق له .

وربما أيد هذا الوجه قوله تعالى قبل : « ما يبدل القول لدي » على تقدير أن يراد بالقول قوله تعالى : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

قوله تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد » شروع في وصف حال المتقين يوم القيامة ، والإزلاف التقريب ، و « غير بعيـــد » على ما قيل صفة لظرف محذوف والتقدير في مكان غير بعيد .

والمعنى : وقربت الجنة يومئذ للمتقين حال كونها في مكان غير بعيد أي هي بين أيديهم لا تكلف لهم في دخولها .

قوله تعالى : « هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ » الإشارة إلى ما تقدم من الثواب الموعود ، والأواب من الأوب بمعنى الرجوع ، والمراد كثرة الرجوع إلى الله بالتوبة والطاعة ، والحفيظ هو الذي يدوم على حفظ ما عهد الله إليه من أن يترك فيضيع ، وقوله : « لكل أوّاب حفيظ » خبر بعد خبر لهذا أو حال .

قوله تعالى : « من خشي الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب » بيان لكل أوّاب والخشية بالغيب الخوف من عـــذاب الله حال كونه غائباً غير مرئي له ، والإنابة هو

الرجوع ، والمجيء إلى ربه بقلب منيب أن يتم عمره بالإنابة فيأتي ربه بقلب متلبس بالإنابة .

قوله تعالى : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » خطاب للمتقين أي يقال لهم : ادخلوا بسلام أي بسلامة وأمن من كل مكروه وسوء ، أو بسلام من الله وملائكته عليكم ، وقوله : « ذلك يوم الخلود » بشرى يبشرون بها .

قوله تعالى : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » يمكن أن يكون «فيها» متعلقاً بيشاؤن أو بمحذوف هو حال من الموصول ، والتقدير : حال كون ما يشاؤن فيها أو من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول ، والتقدير : ما يشاؤنه حال كونه فيها ، والأول أوفق لسعة كرامتهم عند الله سبحانه .

والمحصل : أن أهل الجنة وهم في الجنة يملكون كل ما تعلقت به مشيّتهم وإرادتهم كائناً ما كان من غير تقييد واستثناء فلهم كل ما أمكن أن يتعلق به الإرادة والمشيّة لو تعلقت .

وقوله : « ولدينا مزيد » أي ولهم عندنا ما يزيد على ذلك – على ما يفيده السياق – وإذ كان لهم كل ما أمكن أن تتعلق به مشيتهم مما يتعلق به علمهم من المطالب والمقاصد فالمزيد على ذلك أمر أعظم مما تتعلق به مشيتهم لكونه فوق ما يتعلق به علمهم من الكمال .

وقيل : المراد بالمزيد الزيادة على ما يشاؤن من جنس ما يشتهون فاذا شاؤا رزقاً أعطوا منه أكثر مما شاؤا وأفضل وأعجب كما ورد عن بعضهم أنه تمرّ بهم السحابة فتقول : ماذا تريدون فامطره عليكم فلا يريدون شيئاً إلا أمطرته عليهم .

وفيه أنه تقييد لإطلاق الكلام من غير مقيد فإن ظاهر قوله : « لهم ما يشاؤن فيها » أنهم يملكون كل ما يمكنهم أن يشاؤا لا تملكهم ما شاؤه بالفعل فالمزيد وراء ما يمكن أن تتعلق به مشيتهم .

وقيل : المراد أنه يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها وفيه ما في سابقه .

قوله تعالى : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقّبوا في البلاد هل من محيص » التنقيب السير ، المحيص المحيد والمنجا .

وفي الآية تذييل الاحتجاج بخلق الإنسان والعلم به وبيان سيره إلى الله بالتخويف والإنذار نظير ما جرى عليه الكلام في صدر السورة من الاحتجاج على المعاد وتذييله بالتخويف والإنذار في قوله : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود » الخ .

والمعنى: وكثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قرن هم أي أهل ذلك القرن أشد بطشاً منهم أي من هؤلاء المشركين فساروا ببطشهم في البلاد ففتحوها وتحكّموا عليها هل من محيد ومنجا من إهلاك الله وعذابه ؟

قوله تعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » القلب ما يعقل به الإنسان فيميز الحق من الباطل والخير من الشر والنافع من الضار ، فإذا لم يعقل ولم يميز فوجوده بمنزلة عدمه إذ ما لا أثر له فوجوده وعدمه سواء ، وإلقاء السمع هو الاستماع كأن السمع شيء يلقى إلى المسموع فيناله ويدركه والشهيد الحاضر المشاهد .

والمعنى : إن فيما أخبرنا به من الحقائق وأشرنا اليه من قصص الامم الهالكة لذكرى يتذكر بها من كان يتعقل فيدرك الحق ويختار ما فيه خيره ونفعه أو استمع إلى حق القول ولم يشتغل عنه بغيره والحال أنه شاهد حاضر يعي ما يسمعه .

والترديد بين من كان له قلب ومن استمع شهيداً لمكان أن المؤمن بالحق أحد رجلين إما رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحق فيتفكر فيه ويرى ما هو الحق فيذعن به ، وإما رجل لا يقوى على التفكر حتى يميز الحق والخير والنافع فعليه أن يستمع القول فيتبعه ، وأما من لا قلب له يعقل به ولا يسمع شهيداً على ما يقال له ويلقى اليه من الرسالة والإنذار فجاهل متعنت لا قلب له ولا سمع ، قال تعالى: «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » الملك : ١٠ .

قوله تعالى : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » اللغوب التعب والنصب ، والمعنى ظاهر .

(بحث روائي)

في التوحيد بإسناده إلى عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد قال : سألت أبا جعفر

عليه السلام عن قول الله عز وجل: «أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد» قال: يا جابر تأويل ذلك أن الله عز وجل إذا أفنى هـذا الخلق وهذا العالم وسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جدد الله عالماً غير هذا العالم وجدد خلقاً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحدونه وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماء غير هذه السماء تظلهم.

لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد أو ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم بلى والله لقد خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميّين.

أقول: وروي في الخصال الشطر الأول من الحديث بإسناده عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام، ولعل المراد بكون ما ذكر تأويل الآية أنه مما ينطبق عليه.

وعن جوامع الجامع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على شماله، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال: فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر.

أقول: وفي معناها روايات أُخرى، وروي ست ساعات بدل سبع ساعات.

وفي نهج البلاغة «وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد» سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها.

وفي المجمع وروى أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن الأعمش قال: حدّثنـا أبو المتوكل التاجر عن أبي السعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا كان يوم القيامة يقول الله لي ولعلي: ألقيا في النار من أبغضكما، وأدخلا في الجنة من أحبكما وذلك قوله: «ألقيا في جهنم كل كفار عنيد».

أقول: ورواه شيخ الطائفة في أماليه بإسناده عن أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن ابن آدم لفي غفلة عما خلق له إن الله إذا أراد خلقه قال للملك: اكتب رزقه. اكتب أثره. اكتب

أجله شقياً أم سعيداً ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكاً فيحفظه حتى يدرك ثم يرتفع ذلك الملك .

ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا حضره الموت ارتفع ذلك الملكان وجاء ملك الموت ليقبض روحه فإذا أُدخل قبره رد الروح في جسده وجاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان .

فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فبسطا كتاباً معقوداً في عنقه ثم حضرا معه وأحد سائق وآخر شهيد . ثم قال رسول الله ﷺ : إن قدامكم لأمراً عظيماً لا تقدرونه فاستعينوا بالله العظيم .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » قال : هو استفهام لأن الله وعد النار أن يملأها فتمتلىء النار ثم يقول لها : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ على حد الاستفهام أي ليس فيّ مزيد .

أقول : بناؤه على كون الاستفهام إنكارياً .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى تضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط وعزّتك وكرمك .

ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في قصور الجنة .

أقول : وضع القدم على النار وقولها : قط قط مروي في روايات كثيرة من طرق أهل السنة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » قال : النظر إلى رحمة الله .

وفي الدر المنثور أخرج البزاز وابن المنذر وابن أبي‌حاتم وابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي في البعث والنشور عن أنس في قوله تعالى : « ولدينا مزيد » قال : يتجلى لهم الرب عز وجل .

وفي الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال : قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام إن الله يقول في كتابه : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » يعني عقل .

وفي الدر المنثور أخرج الخطيب في تاريخه عن العوام بن حوشب قال : سألت أبا مجلز عن الرجل يجلس فيضع إحدى رجليه على الاخرى فقال : لا بأس به إنما كره ذلك اليهود زعموا أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السبت فجلس تلك الجلسة فأنزل الله « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لغوب » .

أقول : وروي هذا المعنى عن الضحاك وقتادة ، وروى هذا المعنى المفيد في روضة الواعظين في رواية ضعيفة ، وأصل تقسيم خلق الأشياء إلى ستة من أيام الاسبوع واقع في التوراة ، والقرآن وإن كرر ذكر خلق الأشياء في ستة أيام لكنه لم يذكر كون هذه الأيام هي أيام الاسبوع ولا لوّح اليه .

وعلى هذه الروايات اعتمد من قال : إن الآية مدنية ، ولا دلالة في ردّها قول اليهود أن تكون نازلة بالمدينة ، وفي الآيات المكية ما تعرّض سبحانه فيه لشأن اليهود كما في سورة الأعراف وغيرها .

* * *

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ـــ ٣٩ . وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ ـــ ٤٠ . وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ـــ ٤١ . يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ـــ ٤٢ . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ـــ ٤٣ . يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَٰلِكَ حَشْرٌ

عَلَيْنَا يَسِيرٌ ــ ٤٤ . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ــ ٤٥ .

(بيان)

خاتمة السورة يأمر النبي ﷺ فيها أن يصبر على ما يقولون مما يرمونه بنحو السحر والجنون والشعر، وما يتعنّتون به باستهزاء المعاد والرجوع إلى الله تعالى فيأمره ﷺ بالصبر وأن يعبد ربه بتسبيحه وأن يتوقع البعث بانتظار الصيحة، وأن يذكّر بالقرآن من يخاف الله بالغيب .

قوله تعالى : « فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » تفريع على جميع ما تقدم من إنكار المشركين للبعث ، ومن تفصيل القول في البعث والحجة عليه ، ومن وعيد المنكرين له المكذبين للنبي ﷺ وتهديدهم بمثل ما جرى على المكذبين من الامم الماضية .

وقوله: « وسبّح بحمد ربك » الخ ، أمر بتنزيهه تعالى عما يقولون مصاحباً للحمد ومحصله إثبات جميل الفعل له ونفي كل نقص وشين عنه تعالى ، والتسبيح قبل طلوع الشمس يقبل الانطباق على صلاة الصبح ، والتسبيح قبل الغروب يقبل الانطباق على صلاة العصر أو عليها وعلى صلاة الظهر .

قوله تعالى : « ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » أي ومن الليل فسبحه فيه، ويقبل الانطباق على صلاتي المغرب والعشاء .

وقوله : « وأدبار السجود » الأدبار جمع دبر وهو ما ينتهي اليه الشيء وبعده، وكأن المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإن السجود آخر الركعة من الصلاة فينطبق على التعقيب بعد الصلوات ، وقيل : المراد به النوافل بعد الفرائض ، وقيل : المراد به الركعتان أو الركعات بعد المغرب وقيل : ركعة الوتر في آخر الليل .

قوله تعالى : « واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب » فسّروا الاستماع بمعان مختلفة والأقرب أن يكون مضمناً معنى الانتظار و « يوم يناد المناد » مفعوله والمعنى:

وانتظر يوماً ينادي فيه المنادي ملقياً سمعك لاستماع ندائه ، والمراد بنداء المنادي نفخ صاحب الصور في الصور على ما تفيده الآية التالية .

وكون النداء من مكان قريب لإحاطته بهم فيقع في سمعهم على نسبة سواء لا تختلف بالقرب والبعد فإنما هو نداء البعث وكلمة الحياة .

قوله تعالى : « يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج » بيان ليوم ينادي المنادي ، وكون الصيحة بالحق لأنها مقضية قضاء محتوماً كما مر في قوله : « وجاءت سكرة الموت بالحق » الآية .

وقوله : « ذلك يوم الخروج » أي يوم الخروج من القبور كما قال تعالى : « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً » المعارج : ٤٣ .

قوله تعالى : « إنا نحن نحيي ونميت والينا المصير » المراد بالإحياء إفاضة الحياة على الأجساد الميتة في الدنيا ، وبالإماتة الإماتة في الدنيا وهي النقل إلى عالم القبر ، وبقوله : « والينا المصير » الإحياء بالبعث في الآخرة على ما يفيده السياق .

قوله تعالى : « يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير » أصل « تشقق » تتشقق أي تتصدع عنهم فيخرجون منها مسارعين إلى الداعي .

وقوله: « ذلك حشر علينا يسير » أي ما ذكرنا من خروجهم من القبور المنشقة عنهم سراعاً جمع لهم علينا يسير .

قوله تعالى : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد » في مقام التعليل لقوله : « فاصبر على ما يقولون » الآية ، والجبار المتسلط الذي يجبر الناس على ما يريد .

والمعنى : فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك وانتظر البعث فنحن أعلم بما يقولون سنجزيهم بما عملوا ولست أنت بمتسلط جبار عليهم حتى تجبرهم على ما تدعوهم اليه من الإيمان بالله واليوم الآخر وإذا كانت حالهم هذه الحال فذكّر بالقرآن من يخاف وعيدي .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط وابن عساكر عن جرير بن عبدالله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل الغروب صلاة العصر .

وفي المجمع روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه سئل عن قوله : « وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » فقال : تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرات : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

أقول : هو مأخوذ من إطلاق التسبيح في الآية وإن كان خصوص مورده صلاتي الصبح والعصر فلا منافاة .

وفي الكافي بإسناده عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت : « وأدبار السجود » قال : ركعات بعد المغرب .

أقول : ورواه القمي في تفسيره بإسناده عن ابن أبي نصر عن الرضا عليه السلام ولفظه قال : أربع ركعات بعد المغرب .

وفي الدر المنثور أخرج مسدّد في مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن علي بن أبي‌طالب قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أدبار النجوم والسجود فقال:أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الغداة .

أقول : وروى مثله عن ابن عباس وعمر عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأسنده في مجمع البيان إلى الحسن بن علي عليه السلام أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد » قال : ذكّر يا محمد ما وعدناه من العذاب .

(سورة الذاريات مكية ، وهي ستون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ــ ١ . فَالْحَامِلاتِ
وِقْراً ــ ٢ . فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً ــ ٣ . فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ــ ٤ . إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ــ ٥ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ــ ٦ . وَالسَّمَاءِ ذَاتِ
الْحُبُكِ ــ ٧ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ــ ٨ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ ــ ٩ . قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ــ ١٠ . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ــ ١١ .
يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ــ ١٢ . يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ــ ١٣ .
ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ــ ١٤ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ــ ١٥ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ
ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ ــ ١٦ . كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ــ ١٧ .
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ــ ١٨ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ
وَالْمَحْرُومِ ــ ١٩ .

(بيان)

كانت الدعوة النبوية تدعو الوثنية إلى توحيد الربوبية وأن الله تعالى هو ربهم ورب كل شيء ، وكانت الدعوة من طريق الإنذار والتبشير وخاصة بالإنذار وكان

الإنذار بعذاب الله في الدنيا للمكذبين عذاب الاستئصال ، وفي الآخرة بالعذاب الخالد يوم القيامة وهو العمدة في نجاح الدعوة إذ لولا الحساب والجزاء يوم القيامة كان الإيمان بالوحدانية والنبوّة لغىً لا أثر له .

والمشركون باتخاذهم آلهة دون الله سبحانه شديدوا الإنكار لاصول التوحيد والنبوة والمعاد ، وكانوا يتعنتون بإنكار المعاد والإصرار على نفيه والاستهزاء به من أي طريق ممكن لما يرون أن في بطلانه بطلان الأصلين الآخرين .

والسورة تذكر المعاد وإنكارهم له فتبدء به وتختم عليه لكن لا من حيث نفسه كما جرى عليه الكلام في مواضع من كلامه بل من حيث إنه يوم الجزاء وأن الله الذي وعدهم به هو ربهم وهو الذي وعدهم به ووعده صدق لا ريب فيه .

ولذلك لما انساق الكلام الى الاحتجاج عليه احتجت بأدلة التوحيد من آيات الأرض والسماء والأنفس وما عاقب الله به الامم الماضين إثر دعوتهم إلى التوحيد وتكذيبهم لرسله ، وليس إلا ليثبت بها التوحيد فيثبت به يوم الجزاء الذي وعده الله والله لا يخلف الميعاد وأخبرت به الدعوة النبوية فيندفع بذلك إنكارهم للجزاء وقد توسلوا بذلك الى إبطال دين التوحيد ورسالة الرسول لصيرورة الايمان به لغواً لا أثر له كما تقدمت الإشارة إليه .

والسورة مكية لشهادة سياق آياتها عليه ولم يختلف في ذلك أحد ، ومن غرر آياتها قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

والفصل الذي أوردناه من الآيات مفتتح الكلام يذكر فيه أن الجزاء الذي وعدوه صدق وإنكارهم له وتعنتهم بذلك تخرص ثم يصف يوم الجزاء وحال المتقين والمنكرين فيه .

قوله تعالى : « والذاريات ذرواً فالحاملات وقراً فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً » الذاريات جمع الذارية من قولهم : ذرت الريح التراب تذروه ذرواً إذا أطارته والوقر بالكسر فالسكون ثقل الحمل في الظهر أو في البطن .

وفي الآيات إقسام بعد إقسام يفيد التأكيد بعد التأكيد للمقسم عليه وهو الجزاء على الأعمال فقوله : « والذاريات ذرواً » إقسام بالرياح المثيرة للتراب ، وقوله :

« فالحاملات وقراً » بالفـــاء المفيدة للتأخير والترتيب معطوف على الذاريات وإقسام بالسحب الحاملة لثقل الماء ، وقوله : « فالجاريات يسراً » عطف عليه وإقسام بالسفن الجارية في البحار بيسر وسهولة .

وقوله : « فالمقسمات أمراً » عطف على ما سبقه وإقسام بالملائكة الذين يعملون بأمره فيقسمونه باختلاف مقاماتهم فـــإن أمر ذي العرش بالخلق والتدبير واحد فإذا حمله طائفة من الملائكة على اختلاف أعمالهم انشعب الأمر وتقسم بتقسمهم ثم إذا حمله طائفة هي دون الطائفة الاولى تقسم ثانياً بتقسمهم وهكذا حتى ينتهي إلى الملائكة المباشرين للحوادث الكونية الجزئية فينقسم بانقسامها ويتكثر بتكثرها .

والآيات الأربع – كما ترى – تشير إلى عامة التدبير حيث ذكرت انموذجاً ممـا يدبر به الأمر في البر وهو الذاريات ذرواً ، وانموذجاً مما يدبر به الأمر في البحر وهو الجاريات يسراً وانموذجاً مما يدبر بـه الأمر في الجو وهو الحاملات وقراً ، وتمم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير وهم المقسمات أمراً .

فالآيات في معنى أن يقال : أقسم بعامة الأسباب التي يتمم بها أمر التدبير في العالم إن كذا كذا ، وقد ورد من طرق الخاصة والعامة عن علي عليه أفضل السلام تفسير الآيات الأربع بما تقدم .

وعن الفخر الرازي في التفسير الكبير أن الأقرب حمل الآيات الأربع جميعاً على الرياح فإنها كما تذرو التراب ذرواً تحمل السحب الثقال وتجري في الجو بيسر وتقسم السحب على الأقطار من الأرض .

والحق أن ما استقر به بعيد ، وما تقدم من المعنى أبلغ مما ذكره .

قوله تعالى : « إن ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع » « ما » موصولة ، والضمير العائد إليها محذوف أي الذين توعدونه ، أو مصدرية ، و « توعدون » من الوعد كما يؤيده قوله : « وإن الدين لواقع » الشامل لمطلق الجزاء ، وقيل : من الايعاد كما يؤيده قوله : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ق : ٤٥ .

وعد الوعد صادقاً من المجاز في النسبة كما في قوله : « في عيشة راضية » الحاقة : ٢١ أو الصادق بمعنى ذو صدق كما قيل بمثله في قوله : « في عيشة راضية » والدين الجزاء .

وكيف كان فقوله : « إن ما توعدون لصادق » جواب القسم ، وقوله : « وإن الدين لواقع » معطوف عليه بمنزلة التفسير ، والمعنى أقسم بكذا وكذا أن الذي توعدونه – وهو الذي يعدهم القرآن أو النبي ﷺ بما أنزل إليه – من يوم البعث وأن الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً لصادق ، وإن الجزاء لواقع .

قوله تعالى : « والسماء ذات الحبك » الحبك بمعنى الحسن والزينة ، وبمعنى الخلق المستوي ، ويأتي جمعاً لحبيكة أو حباك بمعنى الطريقة كالطرائق التي تظهر على الماء إذا تثنى وتكسر من مرور الرياح عليه .

والمعنى على الأول : أقسم بالسماء ذات الحسن والزينة نظير قوله تعالى: « إنا زينّا السماء الدنيا بزينة الكواكب » الصافات : ٦ ، وعلى الثاني : اقسم بالسماء ذات الخلق المستوي نظير قوله : « والسماء بنيناها بأيد » الآية ٤٧ من السورة وعلى الثالث اقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » المؤمنون : ١٧ .

ولعل المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الذي هو اختلاف الناس وتشتت طرائقهم كما أن الاقسام السابقة : « والذاريات ذرواً » الخ كانت مشتركة في معنى الجري والسير مناسبة لجوابها : « إنما توعدون » الخ المتضمن لمعنى الرجوع إلى الله والسير اليه .

قوله تعالى : « إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك » القول المختلف ما يتناقض ويدفع بعضه بعضاً وحيث إن الكلام في إثبات صدق القرآن أو الدعوة أو النبي ﷺ فيما وعدهم من أمر البعث والجزاء فالمراد بالقول المختلف – على الأقرب – قولهم المختلف في أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبته فتارة يقولون : إنه سحر والجائي به ساحر ، وتارة يقولون : زجر والجائي بـه مجنون ، وتارة يقولون : إلقاء شياطين الجن والجائي به كاهن ، وتارة يقولون : شعر والجائي به شاعر ، وتارة إنه افتراء ، وتارة يقولون إنما يعلمه بشر ، وتارة يقولون : أساطير الأولين اكتتبها .

وقوله : « يؤفك عنه من أفك » الإفك الصرف ، وضمير « عنه » إلى الكتاب

من حيث اشتماله على وعد البعث والجزاء ، والمعنى : يصرف عن القرآن من صرف ، وقيل : الضمير للنبي ﷺ والمعنى : يصرف عن الإيمان به من صرف ، وقد عرفت أن المعنى السابق أوفق للسياق وإن كان مآل المعنيين واحداً .

وحكي عن بعضهم أن ضمير « عنه » لما توعدون أو للدين أقسم تعالى أولاً بالذاريات وغيرها على أن البعث والجزاء حق ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه فمنهم شاكّ ومنهم جاحد ثم قال تعالى: يؤفك عن الإقرار بأمر البعث والجزاء من هو مأفوك . وهذا الوجه قريب من الوجه السابق .

وعن بعضهم: أن الضمير لقول مختلف و « عن » للتعليل كما في قوله تعالى : «وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك » هود : ٥٣ ، فيكون الجملة صفة لقول والمعنى : إنكم لفي قول مختلف يؤفك بسببه من أفك ، وهو وجه حسن .

وقيل : الضمير في « إنكم » للمسلم والكافر جميعاً فيكون المراد بالقول المختلف قول المسلمين بوقوع البعث والجزاء وقول الكفار بعدم الوقوع . ولعل السياق لا يلائمه وقيل : بعض وجوه أخر رديئة لا جدوى في التعرض له .

قوله تعالى : « قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون يسألون أيان يوم الدين» أصل الخرص القول بالظن والتخمين من غير علم ، ولكون القول بغير علم في خطر من الكذب يسمى الكذاب خرّاصاً ، والأشبه أن يكون المراد بالخراصين في الآية القوالين من غير علم ودليل وهم الخائضون في أمر البعث والجزاء المنكرون له بغير علم .

وفي قوله : « قتل الخراصون » دعاء عليهم بالقتل وهو كناية عن نوع من الطرد والحرمان من الفلاح واليه يؤل قول من فسره باللعن .

وقوله : « الذين هم في غمرة ساهون » الغمرة – كما ذكر الراغب – معظم الماء الساتر لمقرها ، وجعل مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها ، والمراد بالسهو – كما قيل – مطلق الغفلة .

ومعنى الآية وهي تصف الخراصين : الذين هم في جهالة أحاطت بهم غافلون عن حقيقة ما أخبروا به .

وقوله : « يسألون أيّان يوم الدين » ضمير الجمع للخراصين قول قالوه على طريق الاستعجال استهزاء كقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » يس : ٤٨ .

والسؤال بأيان – الموضوعة للسؤال عن زمان مدخولها – عن يوم الدين وهو ظاهر في الزمان إنما هو بعناية أن يوم الدين لكونه موعوداً ملحق بالزمانيات فيسأل عنه كما يسأل عن الزمانيات بأيان ومتى كما يقال : متى يوم العيد لكونه ذا شأن ملحقاً لذلك بالزمانيات كذا قيل .

ويمكن أن يكون من التوسع في معنى الظرفية بأن يعدّ أوصاف الظرف الخاصة به ظرفاً توسعاً فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالاً عن أنه بعد أي زمان أو قبل أي زمان ؟ كما يقال : متى يوم العيد ؟ فيجاب بأنه بعد عشرة أيام مثلاً أو قبل يوم كذا ، وهو توسع جـار في العرف غير مختصّ بكلام العرب ، وفي القرآن منه شيء كثير .

قوله تعالى : « يوم هم على النار يفتنون » ضمير الجمع للخراصين ، والفتن في الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل في مطلق الإحراق والتعذيب ، والظرف متعلق بفعل محذوف أو مبتدأ ، والآية جواب عن سؤالهم عدل فيه عن بيان وقت يوم الدين إلى بيان صفته والإشارة إلى حالهم فيه لما أن وقته من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله قال تعالى : « لا يجليها لوقتها إلا هو » .

وتقدير الآية ومعناها : يقع يوم الدين أو هو واقع يوم هم أي الخراصون في النار يعذبون أو يحرقون .

قوله تعالى : « ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون » حكاية خطاب منه تعالى أو من الملائكة بأمره للخراصين وهم يفتنون على النار يومئذ .

والمعنى : يقال لهم ذوقوا العذاب الذي يخصكم . هذا العذاب هو الذي كنتم تستعجلون به إذ تقولون استعجالاً واستهزاء : أيان يوم الدين .

قوله تعالى : « إن المتقين في جنات وعيون » بيان لحال المتقين يوم الدين بعد وصف حال أُولئك الخراصين .

وتنكير جنات وعيون للإشارة إلى عظم قدرها كأنها بحيث لا يقدر الواصفون على وصفها ، وقد أُلحقت العيون بالجنات في ظرفيتها توسعاً .

قوله تعالى : « آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » أي قابلين ما

أعطاهم ربهم الرؤف بهم راضين عنه وبما أعطاهم كما يفيده خصوص التعبير بالأخذ والإيتاء ونسبة الإيتاء إلى ربهم .

وقوله: « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » تعليل لما تقدمه أي إن حالهم تلك الحال لأنهم كانوا قبل ذلك أي في الدنيا ذوي إحسان في أعمالهم أي ذوي أعمال حسنة .

قوله تعالى : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » الآيات تفسير لإحسانهم ، والهجوع النوم في الليل وقيل : النوم القليل .

ويمكن أن تكون : ما زائدة و « يهجعون » خبر كانوا ، و « قليلاً » ظرفاً متعلقاً به أي في زمان قليل أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي هجوعاً قليلاً « ومن الليل » متعلقاً بقليلاً والمعنى : كانوا ينامون في زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نوماً قليلاً .

وأن تكون موصولة والضمير العائد اليها محذوفاً و « قليلاً » خبر كانوا والموصول فاعله والمعنى : كانوا قليلاً من الليل الذي يهجعون فيه .

وأن تكون مصدرية والمصدر المسبوك منها ومن مدخولها فاعلا لقوله : « قليلاً » وهو خبر « كانوا » .

وعلى أي حال فالقليل من الليل إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع زمان كل ليلة فيفيد أنهم يهجعون كل ليلة زماناً قليلاً منها ويصلون أكثرها ، وإما مأخوذ بالقياس إلى مجموع الليالي فيفيد أنهم يهجعون في قليل من الليالي ويقومون للصلاة في أكثرها أي لا يفوتهم صلاة الليل إلا في قليل من الليالي .

قوله تعالى : « وبالأسحار هم يستغفرون » أي يسألون الله المغفرة لذنوبهم ، وقيل : المراد بالاستغفار الصلاة وهو كما ترى .

قوله تعالى : « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » الآيتان السابقتان تبينان خاصة سيرتهم في جنب الله سبحانه وهي قيام الليل والاستغفار بالأسحار وهذه الآية تبين خاصة سيرتهم في جنب الناس وهي إيتاء السائل والمحروم .

وتخصيص حق السائل والمحروم بأنه في أموالهم ــ مع أنه لو ثبت فإنما يثبت في كل مال ــ دليل على أن المراد أنهم يرون بصفاء فطرتهم أن في أموالهم حقاً لهما فيعملون بما يعملون نشراً للرحمة وإيثاراً للحسنة .

والسائل هو الذي يسأل العطية بإظهار الفاقة والمحروم هو الذي حرم الرزق فلم ينجح سعيه في طلبه ولا يسأل تعففاً .

(بحث روائي)

في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : « والذاريات ذرواً » فقال : إن ابن الكوّا سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن « الذاريات ذرواً » قال : الريح ، وعن « فالحاملات وقراً » فقال : هي السحاب ، وعن « فالجاريات يسراً » فقال : هي السفن، وعن « فالمقسمات أمراً » فقال: الملائكة.

أقول : والحديث مروي من طرق أهل السنة أيضاً كما في روح المعاني .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق والفاريابي وسعيد بن منصور والحارث بن أبي أسامه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله: «والذاريات ذرواً » قال : الرياح « فالحاملات وقراً » قال : السحاب « فالجاريات يسراً » قال : السفن « فالمقسمات أمراً » قال : الملائكة .

وفي المجمع قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام : لا يجوز لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى ، والله يقسم بما شاء من خلقه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن منيع عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن قوله : « والسماء ذات الحبك » قال : ذات الخلق الحسن .

أقول : وروى مثله في المجمع ولفظه: وقيل : ذات الحسن والزينة عن علي عليه السلام وفي جوامع الجامع ولفظه : وعن علي عليه السلام حسنها وزينتها .

وفي بعض الأخبار في قوله تعالى : « إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك » تطبيقه على الولاية .

وفي المجمع في قوله تعالى : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » وقيل معناه : كانوا أقل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفيه في قوله تعالى : « وفي الأسحار هم يستغفرون » وقال أبو عبد الله عليه السلام: كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرة في السحر .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن آخر الليل في التهجد أحب إليّ من أوله لأن الله يقول : « وبالأسحار هم يستغفرون ».

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « وبالأسحار هم يستغفرون » قال : يصلون .

أقول : لعل تفسير الاستغفار بالصلاة من جهة اشتمال الوتر عليه كإرادة الصلاة من القرآن في قوله : « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » أسرى : ٧٨ .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » قال: السائل الذي يسأل ، والمحروم الذي قد منع كده .

وفي التهذيب بإسناده عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال : المحروم المحارف الذي قد حرم كد يده في الشراء والبيع .

قال : وفي رواية أخرى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال : المحروم الرجل ليس بعقله بأس ولا يبسط له في الرزق وهو محارف .

* * *

وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ــ ٢٠. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ــ ٢١. وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ــ ٢٢ . فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ــ ٢٣ . هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ــ ٢٤ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ــ ٢٥ . فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ــ ٢٦. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ــ ٢٧ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ

وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ــ ٢٨ . فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ــ ٢٩ . قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ
هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ــ ٣٠. قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ــ ٣١ .
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ــ ٣٢ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً
مِّنْ طِينٍ ــ ٣٣ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ــ ٣٤ . فَأَخْرَجْنَا
مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ــ ٣٥ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ــ ٣٦ . وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ــ ٣٧.
وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ــ ٣٨ . فَتَوَلَّىٰ
بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ــ ٣٩ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ
فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ــ ٤٠ . وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ
ٱلْعَقِيمَ ــ ٤١ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ــ ٤٢ .
وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ــ ٤٣ . فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ــ ٤٤ . فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مِنْ
قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ــ ٤٥. وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْماً فَاسِقِينَ ــ ٤٦ . وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ــ ٤٧ .
وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ ٱلْمَاهِدُونَ ــ ٤٨ . وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا
زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ــ ٤٩ . فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ

مُبِينٌ – ٥٠ . وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
مُبِينٌ – ٥١ .

(بيان)

تشير الآيات إلى عدة من آيات الله الدالّة على وحدانيته في الربوبية ورجوع أمر التدبير في الأرض والسماء والناس وأرزاقهم اليه ، ولازمه إمكان نزول الدين الإلهي من طريق الرسالة بل وجوبه ، ولازمه صدق الدعوة النبوية فيما تضمّنته من وعد البعث والجزاء وأن ما يوعدون لصادق وأن الدين لواقع ، وقد مرّت إشارة إلى خصوصية سلوك السورة في احتجاجها في البيان السابق .

قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » الاستنتاج الآتي في آخر هذه الآيات في قوله : « ففرّوا إلى الله – إلى أن قال – ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر » الآية، يشهد على أن سوق هذه الآيات والدلائل لإثبات وحدانيته تعالى في الربوبية لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق اليه ونحو ذلك .

وفي الآية إشارة إلى ما تتضمنه الأرض من عجائب الآيات الدالة على وحدة التدبير القائمة بوحدانية مدبره من بر وبحر وجبال وتلال وعيون وأنهار ومعادن ومنافعها المتصلة بعضها ببعض الملائمة بعضها لبعض ينتفع بها ما عليها من النبات والحيوان في نظام واحد مستمر من غير اتفاق وصدفة ، لائح عليها آثار القدرة والعلم والحكمة دالّ على أن خلقها وتدبير أمرها ينتهي إلى خالق مدبر قادر عليم حكيم .

فأي جانب قصد من جوانبها وأية وجهة وليت من جهات التدبير العام الجاري فيها كانت آية بيّنة وبرهاناً ساطعاً على وحدانية ربها لا شريك له ينجلي فيه الحق لأهل اليقين ففيها آيات للموقنين .

قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » معطوف على قوله : « في الأرض » أي وفي أنفسكم آيات ظاهرة لمن أبصر اليها وركز النظر فيها أفلا تبصرون .

والآيات التي في النفوس منها مـــا هي في تركّب الأبدان من أعضائها وأعضاء أعضائها حتى ينتهي إلى البسائط وما لها من عجائب الأفعــال والآثار المتحدة في عين تكثرها المدبرة جميعاً لمدبر واحد، وما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنينية والطفولية والرهاق والشباب والشيب .

ومنها ما هي من حيث تعلق النفوس أعني الأرواح بها كالحواس من البصر والسمع والذوق والشمّ واللمس التي هي الطرق الأولية لاطّلاع النفوس على الخارج لتميز بذلك الخير من الشر والنافع من الضار لتسعى إلى ما فيه كمالها وتهرب مما لا يلائمها ، وفي كل منها نظام وسيع جار فيه منفصل بذاته عن غيره كالبصر لا خبر عنده مما يعمله السمع بنظامه الجاري فيه وهكذا ، والجميع مع هــذا الانفصال والتقطع مؤتلفة تعمل تحت تدبير مدبر واحد هو النفس المدبرة والله من ورائهم محيط .

ومن هـــذا القبيل سائر القوى المنبعثة عن النفوس في الأبدان كالقوة الغضبية والقوة الشهوية وما لها من اللواحق والفروع فإنها على ما للواحد منها بالنسبة إلى غيره من البينونة وانفصال النظام الجاري فيه عن غيره واقعة تحت تدبير مدبر واحد تتعاضد جميع شعبها وتأتلف لخدمته .

ونظام التدبير الذي لكل من هذه المدبرات إنما وجد له حينما وجد وأول مــا ظهر من غير فصل فليس ممــا عملت فيه خيرته وأوجده هو لنفسه عن فكر وروية أو بغيره فنظام تدبيره كنفسه من صانع صنعه وألزمه نظامه بتدبيره .

ومنها الآيات الروحانية الواقعــة في عالم النفوس الظاهرة لمن رجع اليها وراقب الله سبحانه فيها من آيات الله التي لا يسعها وصف الواصفين وينفتح بها باب اليقين وتدرج المتطلع عليها في زمرة الموقنين فيرى ملكوت السماوات والأرض كما قال تعـــالى : «وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين» الأنعام: ٧٥.

قوله تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » قيل : المراد بالسماء جهة العلو فإن كل ما علاك وأظلّك فهو سماء لغة ، والمراد بالرزق المطر الذي ينزله الله على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه ويلبسونه وينتفعون به وقد قال تعــالى : « وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها» الجاثية: ٥ ، فسمّى المطر رزقاً فالمراد بالرزق سببه أو بتقدير مضاف أي سبب رزقكم .

وقيل : المراد أسباب الرزق السماوية من الشمس والقمر والكواكب واختلاف المطالع والمغارب الراسمة للفصول الأربعة وتوالي الليل والنهار وهي جميعاً أسباب الرزق فالكلام على تقدير مضاف أي أسباب رزقكم أو فيه تجوّز بدعوى أن وجود الأسباب فيها وجود ذوات الأسباب .

وقيل : المراد بكون الرزق فيها كون تقديره فيها ، أو أن الأرزاق مكتوبة في اللوح المحفوظ فيها .

ويمكن أن يكون المراد به عالم الغيب فإن الأشياء ومنها الأرزاق تنزل من عند الله سبحانه وقد صرّح بذلك في أشياء كقوله تعالى : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، وقوله: « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » الحديد : ٢٥ ، وقوله على نحو العموم : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر: ٢١ ، والمراد بالرزق كل ما ينتفع به الإنسان في بقائه من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح وولد وعلم وقوة وغير ذلك .

وقوله : « وما توعدون » عطف على « رزقكم » الظاهر أن المراد به الجنة لقوله تعالى : « عندها جنة المأوى » النجم : ١٥ ، وقول بعضهم : إن المراد به الجنة والنار أو الثواب والعقاب لا يلائمه قوله تعالى : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط » الأعراف : ٤٠ .

نعم تكرر في القرآن نسبة نزول العذاب الدنيوي إلى السماء كقوله : « فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء » البقرة : ٥٩ ، وغير ذلك .

وعن بعضهم أن قوله : « وما توعدون » مبتدأ خبره قوله : « فورب السماء والأرض إنه لحق » والواو للاستئناف وهو معنى بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : « فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون النطق التكلم وضمير « إنه » راجع الى ما ذكر من كون الرزق وما توعدون في السماء والحق هو الثابت المحتوم في القضاء الإلهي دون أن يكون أمراً تبعياً أو اتفاقياً .

والمعنى : أقسم برب السماء والأرض إن ما ذكرناه من كون رزقكم وما توعدونه من الجنة – وهو أيضاً من الرزق فقد تكرر في القرآن تسمية الجنة رزقاً كقوله : « لهم

مغفرة ورزق كريم » الأنفال: ٧٤ ، وغير ذلك – في السماء لثابت مقضي مثل نطقكم وتكلمكم الذي هو حق لا ترتابون فيه .

وجوز بعضهم أن يكون ضمير « إنه » راجعاً إلى « ما توعدون » فقط أو إلى الرزق فقط أو الى الله أو الى النبي ﷺ أو إلى القرآن أو إلى الدين في قوله : « وإن الدين لواقع » أو إلى اليوم في قوله : « أيان يوم الدين » أو الى جميع ما تقدم من أول السورة الى ههنا ، ولعل الأوجه رجوعه إلى ما ذكر في قوله : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » كما قدمنا .

(كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق)

الرزق بمعنى ما يرتزق به هو ما يمد شيئاً آخر في بقائه بانضمامه اليه أو لحوقه به بأي معنى كان كالغذاء الذي يمد الإنسان في حياته وبقائه بصيرورته جزء من بدنه وكالزوج يمدّ زوجه في إرضاء غريزته وبقاء نسله وعلى هذا القياس .

ومن البين : أن الأشياء المادية يرتزق بعضها ببعض كالإنسان بالحيوان والنبات مثلاً فما يلحق المرزوق في بقائه من أطوار الكينونة ومختلف الأحوال كما أنها أطوار من الكون لاحقة به منسوبة اليه كذلك هي بعينها أطوار من الكون لاحقة بالرزق منسوبة اليه وإن كان ربما تغيرت الأسماء فكما أن الإنسان يصير بالتغذي ذا أجزاء جديدة في بدنه كذلك الغذاء يصير جزء جديد من بدنه اسمه كذا .

ومن البين أيضاً : أن القضاء محيط بالكون مستوعب للأشياء يتعين به ما يجري على كل شيء في نفسه وأطوار وجوده ، وبعبارة أُخرى سلسلة الحوادث بما لها من النظام الجاري مؤلفة من علل تامة ومعلولات ضرورية .

ومن هنا يظهر أن الرزق والمرزوق متلازمان لا يتفارقان فلا معنى لموجود يطرء عليه طور جديد في وجوده بانضمام شيء أو لحوقه إلا مع وجود الشيء المنضم أو اللاحق المشترك معه في طوره ذلك فلا معنى لمرزوق مستمد في بقائه ولا رزق له ، ولا معنى لرزق متحقق ولا مرزوق له كما لا معنى لزيادة الرزق على ما يحتاج اليه المرزوق ، وكذا

لبقاء مرزوق من غير رزق فالرزق داخل في القضاء الإلهي دخولاً أولياً لا بالعرض ولا بالتبع وهو المعني بكون الرزق حقاً .

* * *

قوله تعالى : «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين» إشارة إلى قصة دخول الملائكة المكرمين على إبراهيم عليه السلام وتبشيرهم له ولزوجه ثم إهلاكهم قوم لوط ، وفيها آية على وحدانية الربوبية كما تقدمت الإشارة اليه .

وفي قوله : « هل أتاك حديث » تفخيم لأمر القصة و « المكرمين » – وهم الملائكة الداخلون على إبراهيم – صفة « ضيف » وإفراده لكونه في الأصل مصدراً لا يثنى ولا يجمع .

قوله تعالى : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون » الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة : « حديث » و « سلاماً » مقول القول والعامل فيه محذوف أي قالوا : نسلّم عليك سلاماً .

وقوله : « قال سلام » قول ومقول و « سلام » مبتدأ محذوف الخبر والتقدير سلام عليكم ، وفي إتيانه بالجواب جملة اسمية دالة على الثبوت تحية منه عليه السلام بما هو أحسن من تحيتهم بقولهم : سلاماً فإنه جملة فعلية دالة على الحدوث .

وقوله : « قوم منكرون » الظاهر أنه حكاية قول إبراهيم في نفسه ، ومعناه أنه لما رآهم استنكرهم وحدّث نفسه أن هؤلاء قوم منكرون ، ولا ينافي ذلك ما وقع في قوله تعالى : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم » هود : ٧٠ حيث ذكر نكره بعد تقريب العجل الحنيذ إليهم فإن ما في هذه السورة حديث نفسه به وما في سورة هود ظهوره في وجهه بحيث يشاهد منه ذلك .

وهذا المعنى أوجه من قول جمع من المفسرين: إنه حكاية قوله عليه السلام لهم والتقدير أنتم قوم منكرون .

قوله تعالى : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » الروغ الذهاب على سبيل

الاحتيال على مـا قاله الراغب وقال غيره : هو الذهاب إلى الشيء في خفية ، والمعنى الأول يرجع الى الثاني .

والمراد بالعجل السمين المشوي منه بدليل قوله : « ففرّ بـه اليهم » أو الفاء فصيحة والتقدير فجاء بعجل سمين فذبحه وشوّاه وقرّبه إليهم .

قوله تعالى : « فقرّبه إليهم فقال ألا تأكلون » عرض الأكل على الملائكة وهو يحسبهم بشراً .

قوله تعالى : « فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف الخ » الفـاء فصيحة والتقدير فـلم يمدوا إليه أيديهم فلما رأى ذلك نكرهم وأوجس منهم خيفة ، والايجاس الإحساس في الضمير والخيفة بناء نوع من الخوف أي أضمر منهم في نفسه نوعـاً من الخوف .

وقوله : « قالوا لا تخف » جيء بالفصل لا بالعطف لأنه في معنى جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا كان بعد ايجاس الخيفة فقيل : قالوا : لا تخف وبشّروه بغلام عليم فبدلوا خوفه أمنة وسروراً والمراد بغلام عليم إسماعيل أو إسحاق وقـد تقدم الخلاف فيه .

قوله تعالى : « فأقبلت إمرأته في صرّة فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم » في المجمع الصرّة شدّة الصياح وهو من صرير الباب ويقال للجماعة صرّة أيضاً . قال : والصك الضرب باعتماد شديد انتهى .

والمعنى فأقبلت إمرأة إبراهيم عليه السلام – لمـا سمعت البشارة – في ضجة وصياح فلطمت وجهها وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ أو المعنى هل عجوز عقيم تلد غلاماً؟

وقيل : المراد بالصرّة الجماعة وأنهـا جاءت إليهم في جماعة فصكّت وجهها وقالت ما قالت ، والمعنى الأول أوفق للسياق .

قوله تعالى : « قالوا كذلك قال ربك إنـه هو الحكيم العليم » الإشارة بكذلك إلى ما بشّروها به بما لها ولزوجها من حاضر الوضع هي عجوز عقيم وبعلها شيخ مسه الكبر فربها حكيم لا يريد ما يريد إلا بحكمة ، عليم لا يخفى عليه وجه الأمر .

قوله تعالى : « قال فما خطبكم أيها المرسلون – إلى قوله – للمسرفين » الخطب

الأمر الخطير الهام ، والحجارة من الطين الطين المتحجر ، والتسويم تعليم الشيء بمعنى جعله ذا علامة من السومة بمعنى العلامة .

والمعنى: « قال » إبراهيم عليه السلام « فما خطبكم » والشأن الخطير الذي لكم « أيها المرسلون » من الملائكة « قالوا » أي الملائكة لإبراهيم « إنّا أرسلنا الى قوم مجرمين » وهم قوم لوط «لنرسل عليهم حجارة من طين» طيناً متحجراً سماه الله سجيلاً «مسومة» معلمة «عند ربك للمسرفين» تختص بهم لإهلاكهم ، والظاهر أن اللام في المسرفين للعهد.

قوله تعالى : «فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين – إلى قوله – العذاب الأليم» الفاء فصيحة وقد أوجز بحذف ما في القصة من ذهاب الملائكة إلى لوط وورودهم عليه وهمّ القوم بهم حتى إذا أخرجوا آل لوط من القرية ، وقد فصلت القصة في غير موضع من كلامه تعالى .

فقوله : « فأخرجنا » الخ بيان إهلاكهم بمقدمته ، وضمير «فيها» للقرية المفهومة من السياق ، و « بيت من المسلمين » بيت لوط ، وقوله : « وتركنا فيها آية » إشارة إلى إهلاكهم وجعل أرضهم عاليها سافلها ، والمراد بالترك الإبقاء كناية وقد بيّنت هذه الخصوصيات في سائر كلامه تعالى .

والمعنى : فلما ذهبوا إلى لوط وكان من أمرهم ما كان « أخرجنا من كان فيها » في القرية « من المؤمنين فما وجدنا غير بيت » واحد « من المسلمين » وهم آل لوط « وتركنا فيها » في أرضهم بقلبها وإهلاكهم « آية » دالة على ربوبيتنا وبطلان الشركاء « للذين يخافون العذاب الأليم » من الناس .

قوله تعالى : « وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين » عطف على قوله : « وتركنا فيها آية » والتقدير وفي موسى آية ، والمراد بسلطان مبين الحجج الباهرة التي كانت معه من الآيات المعجزة .

قوله تعالى : « فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون » التولي الإعراض والباء في قوله : « بركنه » للمصاحبة ، والمراد بركنه جنوده كما يؤيده الآية التالية ، والمعنى: أعرض مع جنوده ، وقيل : الباء للتعدية ، والمعنى : جعل ركنه متولين معرضين .

وقوله: « وقال ساحر أو مجنون » أي قال تارة هو مجنون كقوله : « إن رسولكم

الذي أرسل اليكم لمجنون » الشعراء : ٢٧ ، وقال اخرى : هو ساحر كقوله: « إن هذا لساحر عليم » الشعراء : ٣٤ .

قوله تعالى : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ وهو مليم » النبذ طرح الشيء من غير أن يعتدّ به ، واليمّ البحر ، والمليم الآتي بما يلام عليه من ألامَ بمعنى أتى بما يلام عليه كأغرب إذا أتى بأمر غريب .

والمعنى : فأخذناه وجنوده وهم ركنه وطرحناهم في البحر والحال أنه أتى من الكفر والجحود والطغيان بما يلام عليه ، وإنما خصّ فرعون بالملامة مع أن الجميع يشاركونه فيها لأنه إمامهم الذي قادهم إلى الهلاك، قال تعالى:« يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » هود : ٩٨ .

وفي الكلام من الإيماء إلى عظمة القدرة وهول الأخذ وهوان أمر فرعون وجنوده ما لا يخفى .

قوله تعالى « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » عطف على ما تقدمه أي وفي عاد أيضاً آية إذ أرسلنا عليهم أي أطلقنا عليهم الريح العقيم .

والريح العقيم هي الريح التي عقمت وامتنعت من أن يأتي بفائدة مطلوبة من فوائد الرياح كتنشئة سحاب أو تلقيح شجر أو تذرية طعام أو نفع حيوان أو تصفية هواء كما قيل وإنما أثرها الإهلاك كما تشير اليه الآية التالية .

قوله تعالى : « ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » « ما تذر » أي ما تترك » ، والرميم الشيء الهالك البالي كالعظم البالي السحيق ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين – إلى قوله – منتصرين » عطف على ما تقدمه أي وفي ثمود أيضاً آية إذ قيل لهم : تمتعوا حتى حين ، والقائل نبيهم صالح عليه‌السلام إذ قال لهم: « تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » هود : ٦٥ قال لهم ذلك لما عقروا الناقة فأمهلهم ثلاثة أيام ليرجعوا فيها عن كفرهم وعتوّهم لكن لم ينفعهم ذلك وحقّ عليهم كلمة العذاب .

وقوله: « فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » العتوّ – على ما ذكره الراغب – النبوّ عن الطاعة فينطبق على التمرد ، والمراد بهذا العتوّ العتوّ عن

الأمر والرجوع إلى الله أيام المهلة فلا يستشكل بأن عتوّهم عن أمر الله كان مقدماً على تمتعهم – كما يظهر من تفصيل القصة – والآية تدل على العكس .

وقوله : « فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » هذا لا ينافي ما في موضع آخر من ذكر الصيحة بدل الصاعقة كقوله: « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » هود : ٦٧ لجواز تحققهما معاً في عذابهم .

وقوله : « فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » لا يبعد أن يكون «استطاعوا» مضمناً معنى تمكنوا»و«من قيام»مفعوله أي ما تمكنوا من قيام من مجلسهم ليفروا من عذاب الله وهو كناية عن أنهم لم يمهلوا حتى بمقدار أن يقوموا من مجلسهم.

وقوله: «وما كانوا منتصرين» عطف على «ما استطاعوا» أي ما كانوا منتصرين بنصرة غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم ، ومحصل الجملتين أنهم لم يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم .

قوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين » عطف على القصص السابقة ، و « قوم نوح » منصوب بفعل محذوف والتقدير وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود إنهم كانوا فاسقين عن أمر الله .

فهناك أمر ونهي كلف الناس بهما من قبل الله سبحانه وهو ربهم ورب كل شيء دعاهم الى الدين الحق بلسان رسله فما جاء به الأنبياء عليهم السلام حق من عند الله ومما جاؤا به الوعد بالبعث والجزاء .

قوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » رجوع الى السياق السابق في قوله : « وفي الأرض آيات للموقنين » الخ ، والأيد القدرة والنعمة ، وعلى كل من المعنيين يتعين لقوله : « وإنا لموسعون » ما يناسبه من المعنى .

فالمعنى على الأول : والسماء بنيناها بقدرة لا يوصف قدرها وإنا لذو واسعة في القدرة لا يعجزها شيء ، وعلى الثاني: والسماء بنيناها مقارناً بناؤها لنعمة لا تقدّر بقدر وإنا لذو واسعة وغنى لا تنفد خزائننا بالإعطاء والرزق نرزق من السماء من نشاء فنوسع الرزق كيف نشاء .

ومن المحتمل أن يكون « موسعون» من أوسع في النفقة أي كثرها فيكون المراد توسعة خلق السماء كما تميل اليه الأبحاث الرياضية اليوم .

قوله تعالى : «والأرض فرشناها فنعم الماهدون » الفرش البسط وكذا المهد أي والأرض بسطناها وسطحناها لتستقروا عليها وتسكنوها فنعم الباسطون نحن ، وهذا الفرش والبسط لا ينافي كروية الأرض .

قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » الزوجان المتقابلان يتم أحدهما بالآخر : فاعل ومنفعل كالذكر والانثى ، وقيل : المراد مطلق المتقابلات كالذكر والانثى والسماء والأرض والليل والنهار والبر والبحر والإنس والجن وقيل : الذكر والانثى .

وقوله : « لعلكم تذكرون » أي تتذكرون أن خالقها منزه عن الزوج والشريك واحد موحّد .

قوله تعالى : « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين » في الآيتين تفريع على ما تقدم من الحجج على وحدانيته في الربوبية والالوهية ، وفيها قصص عدة من الامم الماضين كفروا بالله ورسله فانتهى بهم ذلك إلى عذاب الاستئصال .

فالمراد بالفرار إلى الله الانقطاع اليه من الكفر والعقاب الذي يستتبعه ، بالإيمان به تعالى وحده واتخاذه إلهاً معبوداً لا شريك له .

وقوله : « ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر » كالتفسير لقوله : « ففروا إلى الله » أي المراد بالإيمان به الإيمان به وحده لا شريك له في الالوهية والمعبودية .

وقد كرر قوله :« إني لكم منه نذير مبين » لتأكيد الإنذار ، والآيتان محكيتان عن لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعـالى :« وفي أنفسكم أفلا تبصرون » قال : خلقك

سميعاً بصيراً ، تغضب مرة وترضى مرة ، وتجوع مرة وتشبع مرة ، وذلك كله من آيات الله .

أقول : ونسبه في المجمع إلى الصادق عليه السلام .

وفي التوحيد بإسناده إلى هشام بن سالم قال : سئل أبو عبد الله عليه السلام فقيل له : بما عرفت ربك ؟ قال : بفسخ العزم ونقض الهمّ ، عزمت ففسخ عزمي ، وهممت فنقض همّي .

أقول : ورواه في الخصال عنه عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليهم السلام .

وفي الدر المنثور أخرج الخرائطي في مساوي الأخلاق عن علي بن أبي طالب « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » قال : سبيل الغائط والبول .

أقول : الرواية كالروايتين السابقتين مسوقة لبيان بعض المصاديق من طرق المعرفة .

وفيه أخرج ابن النقور والديلمي عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » قال : المطر .

أقول : وروى نحواً منه القمي في تفسيره مرسلاً ومضمراً .

وفي إرشاد المفيد عن علي عليه السلام في حديث : اطلبوا الرزق فإنه مضمون لطالبه .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي البختري قال : حدثني جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : يا علي : إن اليقين أن لا ترضى أحداً على سخط الله ، ولا تحمدنّ أحداً على ما آتاك الله ، ولا تذمّنّ أحداً على ما لم يؤتك الله فإن الرزق لا يجرّه حرص حريص ، ولا يصرفه كره كاره . الحديث ...

وفي المجمع « فأقبلت امرأته في صرّه » وقيل : في جماعة . عن الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال : الريح العقيم النكباء .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن مسلم قال : سألت أبا جعفر عليه السلام فقلت : قول الله عز وجل « يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ » ؟ فقال : اليد في كلام العرب القوة والنعمة ، قال الله : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد » ، وقال : « والسماء

بنيناها بأيدٍ » أي بقوة ، وقال : « وأيّدهم بروح منه » أي بقوة ، ويقال : لفلان عندي يد بيضاء أي نعمة .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام خطبة طويلة وفيها : بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له ، وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له ، وبمضادّته بين الأشياء عرف أن لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضادّ النور بالظلمة ، واليبس بالبلل ، والخشن باللين ، والصرد بالحرور ، مؤلفاً بين متعادياتها ، مفرقاً بين متدانياتها ، دالة بتفريقها على مفرّقها ، وبتأليفها على مؤلفها وذلك قوله : « من كل شيء جعلنا زوجين لعلكم تذكرون » .

ففرّق بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد له ، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرزها ، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها ، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » وقيل : معناه حجّوا . عن الصادق عليه السلام .

أقول: ورواه في الكافي وفي المعاني بالإسناد عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ولعله من التطبيق .

* * *

كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ــ ٥٢ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ــ ٥٣ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ــ ٥٤ . وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ــ ٥٥ . وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ــ ٥٦ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ــ ٥٧ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

ٱلْمَتِينُ ــ ٥٨ . فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْــلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونَ ــ ٥٩ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ــ ٦٠.

(بيان)

مختتم السورة وفيه إرجاع الكلام إلى ما في مفتتحها من إنكارهم للبعث الموعود ومقابلتهم الرسالة بقول مختلف ثم إيعادهم باليوم الموعود .

قوله تعالى : « كذلك مـــا أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » أي الأمر كذلك، فقوله: « كذلك » كالتلخيص لما تقدم من إنكارهم واختلافهم في القول .

وقوله : « ما أتى الذين من قبلهم » الخ ، بيان للمشبّه .

قوله تعالى : « أتواصوا به بل هم قوم طاغون » التواصي إيصاء القوم بعضهم بعضاً بأمر ، وضمير « به » للقول ، والاستفهام للتعجيب ، والمعنى : هل وصّى بعض هذه الامم بعضاً – هل السابق وصّى اللاحق ؟ – على هذا القول ؟ لا بل هم قوم طاغون يدعوهم إلى هذا القول طغيانهم .

قوله تعالى : « فتولّ عنهم فمــا أنت بملوم » تفريع على طغيانهم واستكبارهم وإصرارهم على العناد واللجاج ، فالمعنى : فإذا كان كذلك ولم يجيبوك إلا بمثل قولهم ساحر أو مجنون ولم يزدهم دعوتك إلا عنـاداً فأعرض عنهم ولا تجادلهم على الحق فما أنت بملوم فقد أريت المحجة وأتممت الحجة .

قوله تعالى : « وذكّـر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» تفريع على الأمر بالتولي عنهم فهو أمر بالتذكير بعد النهي عن الجدال معهم ، والمعنى : واستمرّ على التذكير والعظة فذكّـر كما كنت تذكّـر فإن الذكرى تنفع المؤمنين بخلاف الاحتجاج والجدال مع اولئك الطاغين فإنه لا ينفعهم شيئاً ولا يزيدهم إلا طغياناً وكفراً .

قوله تعالى : « وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون » فيه التفات من سياق التكلم بالغير إلى التكلم وحده لأن الأفعال المذكورة سابقاً المنسوبة اليه تعالى كالخلق وإرسال الرسل وإنزال العذاب كل ذلك مما يقبل توسيط الوسائط كالملائكة وسائر الأسباب بخلاف الغرض من الخلق والإيجاد فإنه أمر يختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه أحد .

وقوله: « إلا ليعبدون» استثناء من النفي لا ريب في ظهوره في أن للخلقة غرضاً وأن الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبوداً فقد قال: ليعبدون ولم يقل: لاعبَد أو لأكون معبوداً لهم .

على أن الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض ويرتفع به حاجته والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتى يستكمل به ويرتفع به حاجته ، ومن جهة اخرى الفعل الذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغو سفهي ويستنتج منه أن له سبحانه في فعله غرضاً هو ذاته لا غرض خارج منه ، وأن لفعله غرضاً يعود إلى نفس الفعل (١) وهو كمال للفعل لا لفاعله ، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد اليه هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك ، ولو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضاً متوسطاً .

فان قلت : ما ذكرته من حمل اللام في « ليعبدون » على الغرض يعارضه قوله تعالى : « لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » هود : ١١٩ ، وقوله : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس » الأعراف : ١٧٩ ، فإن ظاهر الآية الاولى كون الغرض من الخلقة الاختلاف ، وظاهر الثانية كون الغرض من خلق كثير من الجن والإنس دخول جهنم فلا محيص عن رفع اليد من حمل اللام على الغرض وحملها على الغاية .

قلت : أما الآية الاولى فالإشارة فيها إلى الرحمة دون الاختلاف ، وأما الآية

---

(١) فالله تعالى خلق الانسان ليثيبه والثواب عائد الى الانسان وهو المنتفع به والله غني عنه، وأما غرضه تعالى فهو ذاته المتعالية وإنما خلقه لأنه الله عز اسمه . منه .

الثانية فاللام فيها للغرض لكنه غرض تبعي وبالقصد الثاني لا غرض أصلي وبالقصد الأول وقد تقدم إشباع الكلام في تفسير الآيتين .

فان قلت : لو كان اللام في « ليعبدون » للغرض كانت العبادة غرضه تعالى المراد من الخلقة ، ومن المحال أن يتخلف مراده تعالى عن إرادته لكن من المعلوم المشاهد عياناً أن كثيراً منهم لا يعبدونه تعالى وهذا نعم الدليل على أن اللام في الآية ليست للغرض أو أنها للغرض لكن المراد بالعبادة العبادة التكوينية كما في قوله : « وإن من شيء إلا يسبّح بحمده » أسرى : ٤٤ .

أو أن المراد بخلقهم للعبادة خلقهم على وجه صالح لأن يعبدوا الله بجعلهم ذوي اختيار وعقل واستطاعة ، وتنزيل الصلاحية والاستعداد منزلة الفعلية مجاز شائع كما يقال : خُلق البقر للحرث ، والدار للسكنى .

قلت : الإشكال مبني على كون اللام في الجن والإنس للاستغراق فيكون تخلف الغرض في بعض الأفراد منافياً له وتخلفاً من الغرض ، والظاهر أن اللام فيهما للجنس دون الاستغراق فوجود العبادة في النوع في الجملة تحقق للغرض لا يضره تخلفه في بعض الأفراد نعم لو ارتفعت العبادة عن جميع الأفراد كان ذلك بطلاناً للغرض، ولله سبحانه في النوع غرض كما أن له في الفرد غرضاً .

وأمـا حمل العبادة على العبادة التكوينية فيضعفه أنها شأن عامة المخلوقات لا موجب لتخصيصه بالجن والإنس مضافاً إلى أن السياق سياق توبيخ الكفار على ترك عبادة الله التشريعية وتهديدهم على إنكار البعث والحساب والجزاء وذلك متعلق بالعبادة التشريعية دون التكوينية .

وأما حمل العبادة على الصلوح والاستعداد بأن يكون الغرض من خلق الجن والإنس كونهما بحيث يصلحان للعبادة ويستعدان لها أو لتعلق الأمر والنهي العباديين فيضعفه أن من البين أن الصلوح والاستعداد إنما يتعلق به الطلب لأجل الفعلية التي يتعلق به الصلوح والاستعداد فلو كان الغرض المطلوب من خلقهما كونهما بحيث يصلحان للعبادةأو لتعلق الأمر والنهي العباديين فقد تعلق الغرض أولاً بفعلية عبادتهما ثم بالصلوح والاستعداد لمكان المقدمية .

ففي حمل العبادة على الصلوح والاستعداد اعتراف بكون الغرض من الخلق أولاً وبالذات نفس العبادة ثم الصلوح والاستعداد فيعود الإشكال لو كان هناك إشكال .

فالحق أن اللام في « الجن والإنس » للجنس دون الاستغراق ، والمراد بالعبادة نفسها دون الصلوح والاستعداد ، ولو كان المراد هو الصلوح والاستعداد للعبادة لكان ذلك غرضاً أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هو العبادة كما أن نفس العبادة بمعنى ما يأتي به العبد من الأعمال بالجوارح من قيام وركوع وسجود ونحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثول بين يدي رب العالمين بذلة العبودية وفقر المملوكية المحضة قبال العزة المطلقة والغنى المحض كما ربما استفيد من قوله تعالى : « قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم » الفرقان : ٧٧ ، حيث بدل العبادة دعاء .

فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلة والعبودية وتوجيه وجهه إلى مقام ربه ، وهذا هو مراد من فسّر العبادة بالمعرفة يعني المعرفة الحاصلة بالعبادة .

فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعن كل شيء ويذكر ربه .

هذا ما يعطيه التدبر في قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ولعل تقديم الجن على الإنس لسبق خلقهم على خلق الإنس قال تعالى : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » الحجر : ٢٧ ، والعبادة هي غرض الفعل أي كمال عائد اليه لا إلى الفاعل على ما تقدم .

ويظهر من القصر في الآية بالنفي والاستثناء أن لا عناية لله بمن لا يعبده كما يفيده أيضاً قوله : « قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم » .

قوله تعالى : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » الإطعام إعطاء الطعام ليطعم ويؤكل قال تعالى : « والذي هو يطعمني ويسقين » الشعراء : ٧٩ ، وقال : « الذي أطعمهم من جوع » الإيلاف : ٤ ، فيكون ذكر الإطعام بعد الرزق من قبيل ذكر الخاص بعد العام لتعلق عناية خاصة به وهي أن التغذي أوسع حوائج الإنسان وغيره وأخسها لكونه مسبوقاً بالجوع وملحوقاً بالدفع .

وقيل : المراد بالرزق رزق العباد والمعنى : مـا أريد منهم أن يرزقوا عبادي الذين أرزقهم وما أريد أن يطعموني نفسي .

وقيل : المراد بالإطعام تقديم الطعام اليه كما يقدم العبد الطعام إلى سيده والخادم إلى مخدومه فيكون المراد بالرزق تحصيل أصل الرزق وبالإطعام تقديم ما حصلوه والمعنى : ما أريد منهم رزقاً يحصلونه لي فأرتزق به وما أريد منهم أن يقدموا إليّ ما أرتزق به وأطعمه .

قوله تعالى : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » تعليل لقوله : « ما أريد منهم من رزق » الخ ، والالتفات في الآية من التكلم وحده إلى الغيبة لإنهاء التعليل إلى اسم الجلالة الذي منه يبتدىء كل شيء واليه يرجع كأنه قال : ما أريد منهم رزقاً لأني أنا الرزاق لأني أنا الله تبارك اسمه .

والتعبير بالرزاق - اسم مبالغة - وكان الظاهر أن يقال : إن الله هو الرزاق للاشارة إلى أنه تعالى إذا كان رازقاً وحده كان رزاقاً لكثرة من يرزقه فالآية نظير قوله : « وما أنا بظلام للعبيد » .

وذو القوة من أسمائه تعالى بمعنى القوي لكنه أبلغ من القوي ، والمتين أيضاً من أسمائه تعالى بمعنى القوي .

والتعبير بالأسماء الثلاثة للدلالة على انحصار الرزق فيه تعالى وأنه لا يأخذه ضعف في إيصال الرزق إلى المرتزقين على كثرتهم .

قوله تعالى : « فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون » الذنوب النصيب ، والاستعجال طلب العجلة والحث عليها ، والآية متفرعة على قوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » بلازم معناه .

والمعنى : فإذا كان هؤلاء الظالمون لا يعبدون الله ولا عناية له بهم ولا سعادة من قبله تشملهم فإن لهم نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم من الامم الماضية الهالكة فلا يطلبوا مني أن أعجل لهم العذاب ولا يقولوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وأيّان يوم الدين .

وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم وحده وهو في الحقيقة رجوع من سياق الغيبة الذي في قوله : « إن الله هو الرزاق » الخ ، إلى التكلم وحده الذي في قوله : « وما خلقت » الخ ، لتفرع الكلام عليه .

قوله تعالى : « فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون » تفريع على قوله : « فإن للذين ظلموا ذنوباً » الخ ، وتنبيه على أن هذا الذنوب محقق لهم يوم القيامة وإن أمكن أن يجعل لهم بعضه ،وهو يوم ليس لهم فيه إلا الويل والهلاك وهو يومهم الموعود.

وفي تبديل قوله في الآية السابقة للذين ظلموا من قولـه في هذه الآية : « للذين كفروا » تنبيه على أن المراد بالظلم ظلم الكفر .

(بحث روائي)

في المجمع وروي بالإسناد عن مجاهد قال: خرج علي بن أبي طالب معتماً مشتملاً في قميصة فقـــال : لما نزلت « فتولّ عنهم فما أنت بملوم » لم يبق أحد منا إلا أيقن بالهلكة حين قيل للنبي : « فتولّ عنهم » فلمـــا نزل « وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » طابت نفوسنا ، ومعنـــاه : عِظْ بالقرآن مَن آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم . عن الكلبي .

أقول : ورواه في الدر المنثور وروى أيضاً ما في معنـــاه عن ابن راهويه وابن مردويه عنه عليه السلام .

وفي التوحيد بإسناده عن ابن أبي عمير قـــال : قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اعملوا فكلٌ ميسّر لما خلق له ؟ فقـــال : إن الله عز وجل خلق الجن والإنس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه وذلك قوله عز وجل: « وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون » فيسّر كلاً لما خلق له فويل لمن استحبّ العمى على الهدى .

وفي العلل بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال : خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه فقال : إن الله عز وجل ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه .

وفيه بإسناده إلى أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل: « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » قال : خلقهم ليأمرهم بالعبادة .

أقول : وروى القمي في تفسيره مثله مرسلاً ومضمراً ، وقد مرّ في تفسير الآية ما يتضح به معنى هذه الروايات ، وأن هناك أغراضاً مترتبة : التكليف والعبادة والمعرفة .

وفي تفسير العياشي عن يعقوب بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن قول الله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » قال : خلقهم للعبادة . قال : قلت : قوله : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » فقال : نزلت هذه بعد ذلك .

أقول : أي نزلت « ولا يزالون » الخ ، بعد « وما خلقت » الخ ، يريد النسخ ، وفي تفسير القمي : وفي حديث آخر هي منسوخة بقوله : « ولا يزالون مختلفين » والمراد بالنسخ البيان ورفع الإبهام دون النسخ المصطلح ، وكثيراً ما ورد بهذا المعنى في كلامهم عليهم السلام كما أشرنا اليه في تفسير قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » الآية البقرة : ١٠٦ .

والمراد أن الغرض الأعلى هو الرحمة الخاصة المترتبة على العبادة وهي السعادة الخاصة بالمعرفة .

وفي التهذيب بإسناده إلى سدير قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أي شيء على الرجل في طلب الرزق ؟ فقال : إذا فتحت بابك وبسطت بساطك فقد قضيت ما عليك .

– تمّ والحمد لله –

بعض المواضيع المبحوث عنها في الكتاب

السورة	الموضوع	نوع البحث	الصحيفة
الاحقاف ١ ـ ٣	بحث فلسفي ودفع شبهة	فلسفي	١٩٢
الفتح ١ ـ ٧	كلام في الايمان وازدياده	قرآني وغيره	٢٥٩
الحجرات ١ ـ ١٠	كلام في معنى الاخوة	قرآني واجتماعي	٣١٥
الذاريات ٢٠ ـ ٥١	كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق	عقلي	٣٧٦